Mngool.com

التاريخ العربي

مجلة علمية محكمة
تعنى بالتاريخ العربي والفكر الإسلامي
تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة

بمساهمة كريمة
من صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الشقيقة

العدد السادس عشر خريف: 1421هـ-2000م



الطبعة الأولى : رجب 1417 – نونبر 1996

طبع : مطبعة النجاح الجديدة – الدارالبيضاء

رقم الإيداع القانوني : 1996/172
الرقم الدولي الموحد : 1113-8467

الحمد لله وحده



والصلاة والسلام على مولانا
رسول الله وآله وصحبه

صاحب الجلالة الملك سيدي محمد بن الحسن

إلى

السيد عبد الكريم كريم

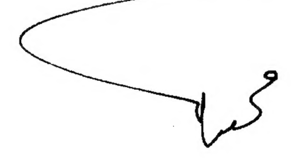
رئيس جمعية المؤرخين المغاربة ومدير مجلة التاريخ العربي

قصبة الاوداية - الرباط

تلقيت بمزيد من البهجة والحبور رسالتكم المرفوقة بالنسخة الأولى للعدد الخامس عشر لمجلة التاريخ العربي.

وإنني إذ أتوجه لكم بجزيل تشكراتي وعميق امتناني على هذه الالتفاتة الكريمة وما ورد في رسالتكم من مشاعر صادقة وعواطف نبيلة مفعمة بصادق ولائكم وإخلاصكم، لأبتهل إلى المولى تبارك وتعالى أن يمدكم بحفظه ورعايته، ويديم عليكم نعمة الصحة والسعادة والهناء والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



محمد السادس
ملك المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه محمد الكريم

من جميل الصدف أن يوافق صدور العدد السادس عشر من مجلة التاريخ العربي احتفالات الشعبين الشقيقين؛ في كل من المملكة المغربية إحياءً لذكرى ثامن عشر نونبر، ودولة الإمارات العربية المتحدة الشقيقة تخليداً لثاني دجنبر.

وبهاتين المناسبتين السعيدتين تتقدم اللجنة التنفيذية لجمعية المؤرخين المغاربة واللجنة العلمية لمجلة التاريخ العربي إلى صاحب الجلالة الملك محمد السادس وإلى أخيه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بأبرك التهاني وأجل الأماني، داعين السميع العليم أن ينعم على القائدين الكريمين بموفور الصحة والعافية، وأن يلهمهما صواب الرأي في كل خطوة يخطوانها من أجل إسعاد شعبيهما، وإحياء أمجاد الأمة، وتحرير القدس الشريف عاصمة دولة فلسطين من الصهاينة الغاشمين، إنه إذا يشاء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الدكتور عبد الكريم كريم
رئيس جمعية المؤرخين المغاربة
مدير مجلة التاريخ العربي



المحتويات

ـ ندوة العدد

ـ ديوان المجلة:

دور الرحالة الأوربيين في رسم خريطة الجزيرة العربية في ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين*

الدكتور خالد بن محمد العنقري
(وزير التعليم العالي ـ المملكة العربية السعودية)
الرياض

لقد استهواني موضوع البحث والكتابة حول الرحلات والخرائط القديمة عن الجزيرة العربية منذ أعوام عديدة. وقد ساند هذه الرغبة وأغراني على ذلك عديد من الأمور الإيجابية يأتي في مقدمتها حبي لجزيرة العرب. فأنا ابن من أبنائها، وهي مهد عقيدتي، ووطني الغالي يمتد على معظم أرضها. وثاني هذه الإيجابيات التي ألحّت علي للبحث في هذا الموضوع تخصصي في علم الجغرافيا الذي يرتبط بمثل هذه البحوث ويُثريها. وقد دعَّم هذه الرغبة كذلك هوايتي لجمع الخرائط القديمة، وشغفي بالاطلاع على الرحلات الأوروبية إلى الجزيرة العربية، وما كُتب عن خرائطها القديمة. هذه الأمور وغيرها أوجدت لديَّ الرغبة في الإسهام في ما تسعى دارة الملك عبد العزيز لتحقيقه من توفير معلومات تُفيد الباحثين والدارسين لتاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها، وتُضيف إلى رصيد المعلومات عن تاريخ هذه المنطقة ما نقص أو ندر عن بعض مراحله.

وفي ضوء ما ذكرت أتيت اليوم لأخوض هذا الميدان الذي يكتنفه الكثير من الغموض والعقبات والشراسة بصورة لا تقل عن شراسة وغموض صحاري وجبال الجزيرة العربية عندما حاول الرواد الأوائل اقتحامها أو الكتابة عنها.

---

* هذه محاضرة للدكتور خالد بن محمد العنقري وزير التعليم العالي في المملكة العربية السعودية كان قد افتتح بها ندوة **الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية** التي نظمتها دارة الملك عبد العزيز في مدينة الرياض في الفترة من 24 إلى 27 رجب 1421 هـ الموافق 21 إلى 24 أكتوبر 2000 م.

ومع ذلك كله، فإنني أقول لمن تكرم بالحضور هذه الليلة، واضعاً ثقته في شخصي الضعيف الذي مُنح شرف تقديم الورقة الأولى في هذا اللقاء: ترفق في طموحك وحكمك، فقد آثر هذا العاشق للجزيرة العربية وتاريخها وجغرافيتها أن يخوض هذا اللقاء بالرغم مما تكتنفه من صعاب يدركها جيداً المتخصصون في تاريخ الجزيرة العربية، وما أمتعه من لقاء بكل ما فيه من صعاب وتقصير إذا كانت النية صادقة والجهد سخياً والهدف نبيلاً.

* * *

إن موضوع هذا البحث يتعلق بالخريطة وعلاقتها بالرحلة الأوروبية. لذلك فربما يكون من المستحسن أولاً تحديد مفهوم كل منهما قبل التفصيل عن تلك العلاقة. فمفهوم «الرحلة» اختلف من وقت لآخر بحسب الظروف السائدة وطبيعة الأهداف التي كانت تسعى لتحقيقها. وإذا كان استخدام لفظ «الرحلة» اليوم مرتبطاً بشكل كبير بالترفيه والتسلية، فإنها لم تكن كذلك في أي من الرحلات التي أسهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في دعم جهود الكشف الجغرافي للجزيرة العربية ورسم خرائطها. ويكفي أن نشير هنا إلى شاهد أو مثال واحد على ذلك، إنها الرحلة المشهورة باسم «رحلة نيبور»، التي قادها العالم الدنمركي «كارستن نيبور» وضمت خمسة علماء، لم يعد منهم حياً سوى «نيبور» وحده، بينما هُلكت البقيةبسبب الأمراض التي أصابتهم. ومن الظريف، إن صح هذا الوصف، أن نذكر هنا أن كثيراً من المعلومات التي وصلت أوربا عن الجزيرة العربية منذ بدء الاهتمام الأوروبي بها في عصر القوة البرتغالية في القرن الخامس عشر الميلادي وحتى القرن الثامن عشر الميلادي، كانت تأتي عن طريق أسرى قضوا سنوات طويلة، حسب إفاداتهم، في السجون ومعاناة الرق إلى أن أتيحت لهم العودة إلى بلادهم ليكتبوا عن مشاهداتهم خلال فترة وجودهم في الجزيرة العربية، ويُسهموا بالتالي في رسم خريطتها الجغرافية وتحديثها. وهؤلاء يُعدون من الرحالة، وإن كانت الظروف التي وجدوا أنفسهم فيها هي التي أجبرتهم على تلك المهمة. وتنظر هذه الورقة إلى تعريف «الرحلة» بمفهومها الواسع باختلاف أهدافها وتنوع الطرق التي تمت بها.

أما «الخريطة» أو «الخارطة»، فهي كلمة ذات أصل لاتيني جاءت من الكلمة اللاتينية Carta (e) أو Charta (e) ، بمعنى لوحة من الورق أو المعدن الرقيق عليها مادة مكتوبة أو مرسومة[1]. وتهتم هذه الورقة بالخرائط التي ظهرت منذ نشرت الطبعة الأولى من خريطة بطليميوس عن الجزيرة العربية عام 1477 م وحتى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، باختلاف موضوعاتها، وتنوع طباعتها، وتعدد أشكالها.

ويمكن القول بأن دور «الرحلة» الأوروبية وعلاقتها برسم خريطة الجزيرة العربية جاء بصورتين أساسيتين:

أولاً: الرحلات التي دونت مشاهداتها كتابة أو شفاهة دون أي رُسوم، واستخدم الخرائطيون في أوروبا هذه المعلومات الوصفية فيما بعد لتحديد المواقع ومسمياتها، ورسم الظاهرات الطبيعية المختلفة.

ثانياً: الرحلات التي تضمنت خرائط للجزيرة العربية بعض أجزائها أو مدنها، إضافة إلى المعلومات الوصفية المكتوبة. ويأتي معظم هذه الرحلات في فترة لاحقة بدأت بشكل أساسي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي حتى مطلع القرن العشرين.

كذلك يمكن تصنيف الكتابات التي جاءت عن طريق الأوروبيين حول الجزيرة العربية وأثرت في رسم خريطتها في أربعة أنواع أساسية:

1. أعمال الرحالة الذين خططوا لزيارة الجزيرة العربية والكتابة عنها قبل التوجه إليها، فزاروها وأقاموا فيها وتجولوا في بعض مناطقها، وكتبوا عن الأماكن التي سمحت لهم الظروف التي أحاطت بهم بزيارتها. وغالباً ما احتوت كتابات هؤلاء الرحالة على معلومات جيدة ودقيقة إلى حد كبير عن الظاهرات الطبيعة والبشرية المختلفة، وإن كانت تميل إلى الوصف العام، وليس إلى الدراسة العلمية.

---

(1) Glare (ed), P. G. W. (1996), *Oxford Latin Dictionary*, Oxford, Clarendon Press, p. 309.

2. أعمال الرحالة الذين وجدوا أنفسهم يتجولون في بعض مناطقها، أو كما يُطلق عليهم «رحالة المصادفة»، وهم في الغالب أشخاص يقعون في الأسر، أو بحارة السفن الذين توقفوا في أحد موانئ الجزيرة العربية وتطلب الأمر ذهابهم إلى مقر الحاكم البعيد عن الميناء من أجل بحث أمر معين أو تصفية مشكلة ما. وهؤلاء في غالب الأمر لم يكونوا متخصصين، أو ربما ليس لديهم الصفات الشخصية التي يجب أن تتوافر في الرحالة المتخصص، مثل دقة الملاحظة، ومعرفة تاريخ المنطقة التي يزورها وعادات أهلها، وفهم الأحداث التي تجري فيها. فجاءت كتاباتهم عامة أو سطحية، وفي كثير من الأحيان غير دقيقة؛ إلا أنها لم تخل من بعض المعلومات التي استفاد منها صُناع الخرائط في أوروبا.
3. أعمال الباحثين الذين كتبوا عن الجزيرة العربية بناء على معلومات حصلوا عليها من تقارير رحالة سابقين زاروا المنطقة ولم يكتبوا مذكراتهم وإنما تحدثوا عنها، أو من البحارة والمبعوثين الذين قدموا إليها في مهام معينة. كما تشمل هذه المعلومات أيضاً الروايات التي ينقلها الحجاج أو أهالي المناطق الداخلية عند وجودهم في الموانئ أو نقاط الاتصال.
4. أعمال المستكشفين، وهم الرواد الذين استخدموا الأسلوب العلمي في التخطيط لرحلاتهم وتنفيذها ونشر نتائجها. وغالباً ما احتوت كتبهم على معلومات تفصيلية ودقيقة، وخرائط متنوعة، تُعبر عنها بشكل أمثل أولى تلك الرحلات الاستكشافية العلمية وهي «رحلة نيبور».

وسوف تُذكر بعض الأمثلة عن كل نوع من تلك الأعمال مواضع مختلفة من هذه الورقة.

دوافع الرحلة إلى جزيرة العرب وعلاقتها برسم خريطتها

لقد تعددت دوافع «الرحلة» التي أثرت في رسم خريطة جزيرة العرب وتطويرها، واختلفت تلك الدوافع من فترة إلى أخرى بحسب الظروف السياسية

والتجارية والعلمية السائدة، كما أنها تداخلت مع بعضها بشكل يصعب معه في كثير من الأحيان تخصيص دافع واحد فقط لأي رحلة من الرحلات.

فنجد أن الحملات العسكرية تحتوي ضمناً على أهداف علمية جغرافية أسهمت في تطوير المعرفة الجغرافية عن جزيرة العرب، حيث كان يشترك فيها جغرافيون وعلماء من تخصصات مختلفة قاموا بجمع المعلومات الجغرافية المتنوعة عن الأرض والسكان ونشرها في كتب وخرائط ورسوم بعد انتهاء تلك الحملات. ومن الأمثلة على ذلك الدورُ الذي قام به الجغرافي الروماني المشهور سترابو (Strabo) الذي رافق الحملة العسكرية الرومانية إلى الجزيرة العربية عام 25 قبل الميلاد، وكذلك ما قام به بعض العلماء والمهتمون بمثل هذه المعلومات الذين رافقوا حملتي إبراهيم باشا وأحمد باشا إلى نجد وعسير، على التوالي، من تدوين كثير من المعلومات الجغرافية عن المناطق التي وصلوا إليها. بالإضافة إلى ذلك، كان التخطيط العسكري يتطلب جمع المعلومات الجغرافية بشكل مكثف قبل الحملات وأثناءها، ثم يتم انتشارها وتداولها بعد انتهاء المهمة الأساسية.

ويدخل ضمن هذه الرحلات أيضاً تلك المهمات التي قام بها مبعوثون أو دبلوماسيون وضعتهم وظائفهم في ظروف جعلتهم يكتبون عن المناطق التي زاروها للقيام بمهمتهم الرسمية. فهذا هو سادلير الذي أوفدته حكومة الهند البريطانية عام 1819 م لتهنئة إبراهيم باشا على نتائج حملته إلى نجد، وتقديم عرض حكومته للتعاون معه من أجل القضاء على نفوذ الدولة السعودية المتبقي في الخليج العربي، وكان يتوقع اللقاء بالقائد المصري على ساحل الخليج العربي؛ إلا أنه اضطر إلى أن يذهب إليه ويلتقيه في ينبع، وبذلك سجل التاريخ اسمه رغماً عنه ليكون أول أوروبي يعبر وسط الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب. ورسم سادلير خريطة تُبين المناطق التي سار فيها، كما كتب عن القرى والمدن والأماكن التي مر بها؛ إلا أن معظم الأسماء التي ذكرها لم تكن واضحة أو مفهومة لجهله

السابق بالمنطقة وسكانها وباديتها[2]. وهذا يُبين طبيعة المعلومات التي يمكن أن يقدمها غير المتخصص الذي تضعه الظروف في وضع مثل ما حدث في رحلة سادلير، وإن كانت هذه ليست قاعدة دائماً.

وأسهمت التجارة بأعظم الأثر في تشجيع الرحلات الأوروبية للجزيرة العربية، إما للرغبة في الوصول إليها أو من أجل السيطرة عليها. وتأتي الأهمية التجارية للجزيرة العربية من عاملين رئيسين: الأول، أن الجزيرة العربية كانت مركزاً لإنتاج بعض السلع التي كانت أوروبا تستهلكها بكثرة، مثل العُطور والطيب، ثم أضيفت إليها القهوة في القرن الثامن عشر الميلادي. أما العامل التجاري الثاني، الذي ربما كان أكثر أهمية من سابقه في ظهور اهتمام القوى الأوروبية بالجزيرة العربية وإسهامهم في تطوير خريطتها، فهو موقعها من الطرق التجارية البحرية التي تصل أوروبا والبحر المتوسط بالهند وشرق آسيا، إما عبر البحر الأحمر أو باستخدام الخليج العربي. لذلك كان لابد من معرفة تلك المياه وأعماقها والطرق الملاحيةوالعوائق التي تعترض أو تُهدد الملاحة فيها والمضايق التي تقع في طريقها، وكذلك مواقع الجزر والشعاب المرجانية وحركة الرياح والتيارات المائية، وتحديد مواقع الموانئ التي تتوقف فيها السفن للطوارئ أو للتجارة أو للتزود بالمؤن، ومعرفة مداخلها وخصائص مياهها، وغير ذلك من المعلومات. وكانت الخرائط البحرية التي عُرفت باسم «خرائط البورتولان» تؤدي هذه الأغراض، وهي خرائط مخطوطة تُرسم على جلود الحيوانات وتُستخدم فيها عدة ألوان. وبالرغم من أن تلك الخرائط ارتبطت بالملاحة في البحر المتوسط بشكل أساسي، فإنه تظهر على بعضها أجزاء من المناطق الساحلية للجزيرة العربية. وبعد معرفة الطباعة، أصبحت الخرائط الملاحية تُطبع على الورق، وإن ظلَّ هذان النمطان يُستخدمان معاً حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

---

(2) حمد الجاسر، **رحالة غربيون في بلادنا**، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1417 هـ، ص ص. 30 - 31.

وكانت المنافسة التجارية بين مختلف الدول الأوروبية منذ القرن الخامس عشر الميلادي سبباً أساسياً في تمويل الكثير من الرحلات إلى الجزيرة العربية، واستخدمت معلوماتها في تطوير خريطتها. ولم تخل الكثير من تلك الرحلات من استخدام القوة العسكرية لفرض الهيمنة التجارية.

وقامت الدوافع الدينية بدور كبير في «الرحلة» التي أسهمت في تطوير خريطة الجزيرة العربية، ويمكن تتبع تأثيرها في أربعة أشكال:

أولاً: رحلة الحج السنوية التي جذبت كثيراً من المؤرخين والجغرافيين المسلمين، إضافة إلى عدد من الأوربيين الذين أسلموا أو ادعوا اعتناق الإسلام من أجل دخول المناطق المقدسة الإسلامية في الجزيرة العربية. ولاشك في أن رحلة الحج والتجمعات المرتبطة به في المدن الرئيسة مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة التي يجتمع فيها الحجاج القادمون من كافة أنحاء الجزيرة العربية وخارجها، تتيح ظروفاً مهمة لجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية عن الأجزاء الداخلية من الجزيرة العربية، مع ما لهذا الأسلوب من مخاطر وسلبيات في نقل معلومات خاطئة.

ثانياً: لم يخل كثير من الرحلات الأوروبية من روح التنصير، أو بعبارة أدق استكشاف فرص التنصير الممكنة في مناطق مجهولة للغرب، ومتاخمة للمناطق الدينية المسيحية، وتُعد في الوقت نفسه قلب الإسلام الذي وقفت منه أوروبا موقفاً عدائياً، خصوصاً بعد المواجهات العسكرية المباشرة، في الأندلس أثناء ما يُطلق عليها «حروب الاسترداد» في القرن الخامس عشر الميلادي وقبلها ، وفي فلسطين خلال الحروب الصليبية. وقد كان البرتغاليون يرون أن محاربة الإسلام واجبٌ مقدَّسٌ؛ وكان الفاتيكان يعمل على تنمية هذا الموقف العدواني. فنجد أن البابا نيكولاس (1447 – 1455 م) يقول صراحة: «إنه من واجب البرتغاليين أن يقضوا على الطاعون أينما وجدوه»، وكان يقصد بالطاعون الإسلام والمسلمين[3]. وقد زاد من ذلك الشعور

---

(3) محمد حسن العيدروس، **دراسات في الخليج العربي**، الكويت، دار الكتاب الحديث، 1999، ج 2، ص. 44.

العدائي فتحُ القسطنطينية، العاصمة الثانية عند النصارى ومركز الكنيسة الأرثوذكسية، عام 1453 م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح، وتغيير اسمها إلى إسلامبول، أو دار الإسلام. وبذلك أصبحت طرق التجارة البرية والبحرية بين أوروبا وجنوب آسيا وشرقها في أيدي المسلمين. ولم يُخفِ أبرز رواد هذه الرحلات، وهو القائد البرتغالي «البوكيرك»، الذي قاد الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي والبحار العربية بين عامي 1503 م و1551 م، هذه الروح العدائية تجاه الإسلام، وإعلانه عن أمنيته بتدمير مكة وقبر الرسول في المدينة والقضاء على الإسلام[4]. كما أنه تلقى تعليمات بهذا الخصوص من الملك البرتغالي «دوم مانويل» في فبراير عام 1513 م تُعلمه بالتوجه إلى عدن ومنها إلى البحر الأحمر لتدمير مكة. إلا أنه فشل في تنفيذ هدفه بعد هبوب عواصف عند مدخل البحر الأحمر أعاقته عن المضي في مهمته، وعاد إلى مركزه في جوا بالهند[5].

ثالثاً: وردت أسماء مواقع في الجزيرة العربية في الكتب الدينية النصرانية، فكانت هناك رغبة من بعض المختصين للوصول إلى تلك المواقع وتوثيقها والكتابة عنها والبحث في آثارها بما يمكن أن يُساعد في الكشف عن غموض بعض المواقع والأحداث التي ورد ذكرها في التراث الديني النصراني.

رابعاً: إن الدعوة الإصلاحية التي ظهرت في الجزيرة العربية في نجد، تلك الأرض المجهولة لأوروبا مقارنة بالمناطق الساحلية، وهي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي حققت نجاحاً مذهلاً لطبيعتها الإصلاحية من جهة، والدعم السياسي والعسكري الذي لقيته من الإمام محمد بن سعود وأبنائه من بعده من جهة أخرى- لاشك أن هذه الدعوة أثارت انتباه أوروبا وانزعاجها. فقد كانت أوروبا ترى أن نجاح تلك الدعوة واتساع نطاق تأثيرها سوف يعملان على إعادة توحيد المسلمين الذين كانت تفرقهم الاختلافات المذهبية والعقدية والفكرية في ذلك

---

(4) جلال يحيى، **التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر**، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، د. ت.، ج 1، ص. 436.

(5) محمد حسن العيدروس، **مرجع سابق**، ج 2، ص. 61 - 62.

الوقت، وأوروبا النصرانية لا تريد أن تعيش رغب استعادة المسلمين لقوتهم، ومن ثم عودة الإسلام إلى أراضيها.

أما الرحلة العلمية المنظمة، فتعود إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، حيث كانت المراكز العلمية في أوروبا تتلقى تباعاً نتائج الكشوف الجغرافية في آسيا وإفريقيا والعالم الجديد. وكانت مراكز إنتاج الخرائط تتلقى تلك المعلومات أيضاً. فأخذت الفراغات والمعلومات غير الدقيقة على خريطة العالم تتقلص بشكل كبير، باستثناء قسم كبير من الجزيرة العربية بقي خالياً من المعلومات أو وُضعت عليه معلومات خاطئة. وقد أثار ذلك انتباه بعض العلماء والمهتمين بشؤون الجزيرة العربية في تلك المراكز والجامعات الأوروبية، فبدأت مرحلة الرحلة العلمية المنظمة إليها، والتي يُعد «كارستن نيبور» ورفاقه، مرة أخرى، رواداً لها.

وكما سنرى من العرض الآتي أن البحث في تأثير الرحلة الأوروبية على رسم خريطة الجزيرة العربية يعتمد على كتابات وردت في ثلاثة مجالات أو تخصصات هي: علم التاريخ، وعلم الجغرافيا، وعلم الخرائط (أو الكارتوجرافيا). وقد اجتهدت قدر الإمكان في الربط بين المعلومات والأحداث ذات العلاقة بموضوع هذه الورقة في تلك العلوم.

الرومان يضعون المسودة الأولى لخريطة الجزيرة العربية

إن بداية رسم خريطة الجزيرة العربية على أسس علمية وبشكل يشبه إلى حد ما الشكل الحقيقي لها كان في القرن الثاني الميلادي، وبالتحديد خريطة الجغرافي الإسكندري المشهور «كلاوديوس بطليميوس». لذلك ستكون البداية بتلك الخريطة، التي ذكرنا أنها طُبعت لأول مرة عام 1477 م.

إن الرغبة في السيطرة السياسية والعسكرية كانت في يوم من الأيام هدفاً سعت إلى تحقيقه الدولة الرومانية، التي كانت قد تمكنت من إيجاد فروع لها حول الجزيرة العربية، ولكنها اكتفت في البداية بالوصول إلى بعض موانئ الجزيرة نفسها

فقط، كما تُشير إلى ذلك بعض المصادر. وسبق أن أشرنا إلى الحملة الرومانية المشهورة التي دخلت الجزيرة العربية براً من شمال الحجاز، وبحراً عبر البحر الأحمر، وتوغلت جنوباً حتى نجران وبعض أجزاء اليمن، كانت بقيادة «أوليوس جالوس» في عام 25 ق. م.، وذلك بهدف السيطرة على تجارة القوافل، ومراكز التجارة في جنوبي الجزيرة العربية الواقعة على الطرق البحرية التي كانت تربط أوروبا بالهند، مصدر الكثير من المنتجات التي كانت تستوردها أسواق أوروبا وأديرتها. وقد رافق تلك الحملة الجغرافي الروماني المعروف «سترابو» (Strabo). وهو يُعد، مع «بطليميوس»، الذي جاء بعده بأقل من قرنين، أبرز الجغرافيين الذين ظهروا في العصر الروماني. وقد دون «سترابو» تلك الحملة في القسم الخاص بإفريقيا، وهو الجزء السابع عشر من كتابه الجغرافي المعروف. وبالرغم من فشل الهدف العسكري من تلك الحملة، فإن الفائدة العلمية منها كانت كبيرة نسبياً. فقد عرف الأوروبيون في ذلك الوقت أن الجزيرة العربية تتكون من قسم غني ومزدهر أطلقوا عليه اسم بلاد العرب السعيدة، والقسم الثاني جاف وقاحل وفقير أطلقوا عليه اسم بلاد العرب الصحراوية[6].

وعلى الرغم من أن جغرافية «سترابو» احتوت على خريطة العالم المعروف آنذاك وظهرت عليها الجزيرة العربية، فإن أساس أول خريطة مطبوعة عن الجزيرة العربية، والتي طُبعت في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، وما تلاها من خرائط خلال ثلاثة عُقود، يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، أي إلى كتاب "**الجغرافيا**" للعالم الجغرافي كلاوديوس بطليميوس. فهذا الكتاب احتوى ـ حسبما يؤكد الباحثون ـ على نص مكتوب وملحق به 27 خريطة. إلا أن خرائط بطليميوس الأصلية فُقدت، ولم يُعثر على أي منها حتى

---

(6) قسم الرومان الجزيرة العربية، بما فيها بادية الشام وجنوب فلسطين وسيناء، إلى **بلاد العرب الصخرية** وتشمل منطقة شبه جزيرة سيناء، و**بلاد العرب الصحراوية** وتشمل بادية الشام، و**بلاد العرب السعيدة** وتشمل أراضي شبه الجزيرة العربية. وقد ظهر هذا التقسيم في خرائط بطليموس واستمر استخدامه في خرائط عصر النهضة حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وإن كانت حدود هذه المناطق التي عُرفت بالتقسيمات الكلاسيّة، اختلفت بين المدارس الخرائطية المختلفة.

الوقت الحاضر[7]. أما النص المكتوب، فقد فقدته أوروبا لعدة قرون، ثم عُرف مرة أخرى عن طريق المسلمين، الذين يعود إليهم فضل ترجمته في البداية في عهد الخليفة العباسي المأمون في القرن الثاني الهجري. وهناك ترجمتان باللغة العربية لكتاب "**الجغرافيا**" تُرجمتا في عهد المأمون بعنوان "**جغرافيا في المعمور وصفة الأرض**"، إحداهما للكندي وهي ترجمة لم تكن جيدة، والأخرى لثابت بن قرة وهي ترجمة جيدة أفضل منها[8]. ولا يُعرف وجود أي منهما في الوقت الحاضر، وإنما ترجع أقدم نسخة معروفة من كتاب "**الجغرافيا**" باللغة العربية إلى القرن الثاني عشر الميلادي. وكما هو الحال في كثير من الأعمال العلمية الأخرى من العصور الإغريقية والرومانية، لم يكن كتاب "**الجغرافيا**" معروفاً للأوروبيين حتى نهاية العصور الوسطى. ولكن تم حفظه ودراسته بواسطة العلماء المسلمين، الذين قدموه إلى أوروبا فيما بعد. وقد تُرجم كتاب "**الجغرافيا**" من اللغة العربية إلى اللغة اليونانية في القرن الثالث عشر الميلادي، وإلى اللغة اللاتينية في القرن الخامس عشر الميلادي (عام 1409 م)، قبل أن تعرفه أوروبا بلغته الأصلية. واعتماداً على المعلومات، وإحداثيات الطول والعرض لأكثر من 8000 موقع احتواها كتاب "**الجغرافيا**"، تمت إعادة رسم الخرائط، التي يُعتقد أنها لا تختلف كثيراً عن خرائط بطليميوس الأصلية.

باختصار، فإن خريطة الجزيرة العربية التي أعدها «بطليميوس» تُعد الأساس الذي تطورت منه خرائط الجزيرة العربية فيما بعد اعتماداً على تزايد المعلومات التي كانت ترد من خلال «الرحلة» إلى الجزيرة العربية. وقد اعتمد بطليميوس على معلومات متراكمة جُمعت من مشاهدات البحارة الذين كانوا يسلكون البحر الأحمر في طريقهم من الهند وإليها، ويتوقفون في موانئ جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي، إضافة إلى المعلومات التي جاءت بواسطة التجار السبئيين الذين كانوا واسطة نقل السلع القادمة من الهند براً عبر الجزيرة العربية بين

(7) رنيه كلوزييه، **تطور الفكر الجغرافي**، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دمشق، دار الفكر، 1985، ص. 37.
(8) أحمد سوسة، **الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية**، 1974، ص. 118.

موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر. فبحلول القرن الثاني الميلادي، كان التجار الرومان يقومون برحلات بحرية عبر البحر الأحمر إلى الهند وماليزيا والصين. ولاشك في أن تلك الرحلات استدعت التوقف في موانئ الجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر والخليج العربي، وكذلك في الموانئ الواقعة على طول سواحل جنوبي الجزيرة العربية. يُضاف إلى ذلك المعلومات التي سُجلت أثناء الحملة المهمة التي قادها أوليوس جالوس وسبقت الإشارة إليها، وشارك فيها الجغرافيا المعروف سترابو.

لقد وضع بطليميوس الهيكل العام لخريطة الجزيرة العربية اعتماداً على حسابات رياضية، وإن كانت تحتوي على أخطاء تركزت حول استخدام بطليميوس محيط الأرض الصحيح، ولكن دون حساب وجود الأمريكتين اللتين لم تكونا معروفتين، مما أدى إلى اتساع قارة آسيا في المحور الشرقي ـ الغربي، فظهرت خريطة الجزيرة العربية أعرض مما هي عليه في الواقع. هذا العرض يظهر في القسم الجنوبي منها. أما القسم الشمالي الذي كان معروفاً بشكل أكبر، فقد أخذه بطليميوس بعين الاعتبار؛ إلا أنه أضاف المساحة الزائدة إلى الخليج العربي الذي ظهر بشكل مستطيل محوره الأطول يمتد من الشرق إلى الغرب.

واستمرت إعادة طباعة خرائط بطليميوس وتداولها حتى عام 1730 م، مع إجراء تعديلات وإضافات مستمرة نُشرت في معظم المدن الرئيسة في أوروبا، وبأحجام مختلفة، مع استمرار تعديلها والإضافة إليها بحسب تطور المعرفة الجغرافية، وبقاء الشكل العام للخريطة دونما تعديل رئيس. وربما تكون الطبعة التي نشرها جيرارد ميركيتور عام 1578 م هي آخر الطبعات التي استخدمت ألواحاً نحاسية جديدة، ثم تمت إعادة طباعتها خلال فترة القرن والنصف التالية باستخدام الألواح النحاسية نفسها في طبعات مختلفة في عدة مدن من هولندا وبلجيكا[9].

---

(9) Jonathan Potter, *Collecting Antique Maps: An Introduction t o the History of Cartography,* Dubazi, 1999, p. 34.

القرنان الخامس عشر والسادس عشر: دور البرتغاليين في تطوير خريطة الجزيرة العربية

لقد كانت الاستكشافات الجغرافية البرتغالية خارج أوروبا مدفوعة بروح التجارة، لذلك حرص البرتغاليون على تأمين سلامة طرق الملاحة التي أنشأوها، ومن أهمها الطريق الذي يمر عبر مصر والبحر الأحمر إلى الهند وشرق آسيا، ثم الطريق الذي يدور حول رأس الرجاء الصالح، بعد اكتشافه بواسطة فاسكو دي جاما، ووصوله إلى سواحل جنوب الجزيرة العربية عام 1498 م. ومن أجل ذلك قام البرتغاليون بعمليات استكشاف واسعة لسواحل الجزيرة العربية على البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي، وتمكن البرتغاليون من السيطرة على عدد من الجزر الاستراتيجية والأراضي الساحلية، وأسسوا مراكز عسكرية فيها خصوصاً في هرمز وعُمان وحضرموت، وأصبح أحد ألقاب ملك البرتغال هو «سيد الفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس».

ويمكن القول بأن التطوير الحقيقي لخريطة الجزيرة العربية بدأ مع الرحلات البرتغالية ذات الطابع العسكري، وإن كان يصعب فصلها عن الأهداف التجارية. فعن طريقها لم يتم جمع كثير من المعلومات عن سواحلها ومناطقها الساحلية فقط، بل كانت هناك مراكز في البرتغال نفسها تابعت تلك المعلومات واهتمت بها، وحافظت عليها لتحقيق الأهداف التجارية والعسكرية التي كانت البرتغال تعمل من أجلها. فكان مكتب دار الهند الحكومي (Casa da India) هو الذي ينظم البعثات الاستكشافية البرتغالية البحرية، ويتحكم بالتجارة مع الهند والمناطق الأخرى في آسيا. وخلال العصور الذهبية للحملات البحرية البرتغالية الاستكشافية والاستعمارية في القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر الميلاديين، استخدم «دار الهند» قواته لحماية طرق التجارة، والخرائط الملاحية، وأي معلومات أخرى قد تكون مفيدة تجارياً. وكان على قادة السفن والملاحين تسليم خرائطهم وسجلاتهم للدار، التي تحفظها في مكان مغلق، مع أن

الاستكشافات الحديثة أصبحت معروفة من خلال الحديث الشفهي أو التسـريب. واحتوى أرشيف «دار الهند» على خرائـط وتقـارير وسـجلات أخـرى كثيرة لا تقدر بثمن للعلماء الحاليين، ولكن ـ ويا للأسف! ـ فقـد الكثـير مـن هـذه الوثـائق عندما أصاب زلـزال قـوي مدينـة لشبونة، عاصمـة البرتغـال، عـام 1755 م ودمـر أرشيف المستعمرات.

لقد اعتمد البرتغاليون في جمع المعلومـات الجغرافيـة عـن سـواحل الجزيـرة العربية على عدد من المصـادر المختلفـة، أهمهـا الاتصـال المباشـر بواسـطة السـفن البرتغالية التي كانت تجوب البحار المحيطـة بـالجزيرة العربيـة للتجـارة أو للأغـراض العسكرية، والتي كانت تتوقف في موانئ الجزيرة العربية لما تمليه ضرورات الملاحـة البحرية أو التجارة. وساعد الصراع البرتغالي ـ العثماني علـى التعريـف بعـدد مـن المدن والمناطق الواقعة على الخليج العربي ورد اسمهـا علـى الخرائـط الأوروبيـة في القرن السادس عشر الميلادي، مثـل القطيـف الـتي خضعـت للاحتـلال البرتغـالي، وبنوا فيها قلعة ذكر «نيبور» في القرن الثامن عشر الميلادي أنـه شـاهد آثـاراً لهـا. وكـانت القطيـف مركـزاً برتغاليـاً مهمـاً في شمـال الخليـج العربـي اسـتخدموه في السيطرة على سواحله. لذلك نجد أن اسم القطيف يرد في معظم الخرائط المبكـرة، حيث كـان الخليـج العربـي يُسـمى «بحـر القطيـف» لفـترة طويلـة؛ كمـا كـانت الأراضي الواقعة على طول الخليج العربي الشمالي تُسمى «منطقة القطيف». ومن المواقع الأخرى التي عرفها البرتغـاليون الأحسـاء الـتي كـانت تابعـة لنفـوذ الدولـة العثمانية، والبحرين التي احتلها البرتغاليون أيضاً، والقرنة (الكويت) التي خضعـت للبرتغاليين. وذكر «نيبور» وجـود آثـار قلعـة برتغاليـة فيهـا أيضـاً، ومسـقط الـتي كـانت تُعد القـاعدة الثانيـة للبرتغـاليين في الخليـج العربـي بعـد جزيـرة هرمـز، وخورفكان في إمارة رأس الخيمة الحالية التي كانت تُسمى «جلفار»، كما وصـل البرتغاليون إلى جدة وعـدن والشـحر وغيرهـا. وتظهـر هـذه الأسمـاء علـى معظـم خرائط الجزيرة العربية المطبوعة في أوروبا منذ وقت مبكر.

وأرسل البرتغاليون كذلك رحلات فردية إلى الجزيرة العربية حظيت باهتمام من قمة القيادة في لشبونة، وكان ملوك البرتغال يُنعمون على الرحالة بعد عودتهم بنجاح بمكافأة كبيرة. ومن الرحلات الفردية التي تذكرها أدبيات هذا الموضوع رحلة «بدرو دي كوفيلها» عام 1487 - 1488 م الذي كان أول برتغالي يصل إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر، وربما يكون أيضاً أول أوروبي يدخل مكة المكرمة والمدينة المنورة، إذا صح ادعاؤه. وهي رحلة وجه بها الملك حنا الثاني (Jean II) من أجل متابعة المهمة التي كان قد بدأها «بارثولوميو دياز» (Parthelomy Diaz) بهدف البحث عن طريق بحري إلى الهند يدور حول القارة الأفريقية. وقد جاءت أخبار رحلته عن طريق طرف ثان هو ممثل البرتغال في الحبشة التي مات بها «كوفيلها»[10].

ومن المحتمل أن يكون هناك رحالة برتغاليون آخرون وصلوا إلى الجزيرة العربية، ولكنهم لم ينشروا أو يُعلنوا عن رحلاتهم ومشاهداتهم للسرية الشديدة التي أحاط بها ملوك البرتغال هذه المعلومات، وحرصهم على عدم حصول القوى الأوروبية المنافسة لهم عليها، لدرجة أن أحد ملوكهم فرض عقوبة الإعدام على من يقوم بتسريبها خارج البرتغال. لذلك نلاحظ أن المعلومات التي جمعها البرتغاليون لم تظهر على خرائط تلك الفترة التي صدرت في إيطاليا، رائدة صناعة الخرائط في ذلك الوقت. وربما يُساعد الرجوع إلى أرشيف المكتبات الوطنية في البرتغال وإسبانيا على الكشف عن كتابات وخرائط مخطوطة أو مطبوعة تتعلق بتلك الرحلات الفردية، أو تلك التي جاءت من حملاتهم الاستكشافية والعسكرية الكبيرة، خصوصاً وأن وجود مركز برتغالي في إثيوبيا في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي جعلهم قريبين من سواحل الجزيرة العربية.

أما أول رحلة فردية مطبوعة خلال الكشوف البرتغالية، فقد قام بها رحالة إيطالي هو «لودفيكو (لويس) دي فارثيما»، الذي زار مكة المكرمة والمدينة المنورة، ووصل إلى اليمن عن طريق البحر الأحمر عام 1503 م، وهي الفترة نفسها

---

(10) عبد العزيز سالم، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ص ص. 107 - 108.

التي تمت فيها رحلة «فاسكو دي جاما». ونشر «دي فارثيما» رحلته في إيطاليا عام 1510 م، ونالت شهرة واسعة لثلاثة أسباب رئيسة هي كالتالي:

1. إنها أول رحلة تصف مشاهدات شخصية لمنطقة اتصفت بالغموض وانتشار الأساطير حولها، فقام كاتبها بتصحيح الكثير من المعلومات الخاطئة عنها والتي كانت منتشرة في أوروبا.
2. تُعد هذه الرحلة من الرحلات العلمية المبكرة التي حاول صاحبها قدر الإمكان أن يكون صادقاً ودقيقاً في وصفه لمشاهداته وكتابته عن الأحداث التي واجهته، مما شجع على الاعتماد عليها مصدراً من مصادر المعلومات عن الجزيرة العربية في وقت كانت الكتابات الأوروبية عن تلك المنطقة نادرة.
3. احتواء كتاب «دي فارثيما»، بالرغم من صغر حجمه، على معلومات كثيرة عن المدن والجبال والصحاري والسواحل. ولاشك في أن تلك المعلومات أسهمت في تطوير خريطة الجزيرة العربية. وقد احتوى الكتاب على خريطة للجزيرة العربية وفقاً للنمط البطليموسي.

ومن الرحالة البرتغاليين الآخرين الذين وصلوا إلى الجزيرة العربية «جريجوريو دا كودرا» (Gregorio Da Qudra) الذي كان قبطاناً لإحدى السفن البرتغالية، جنحت سفينته إلى شواطئ مقديشو ثم سُلم إلى حاكم عدن، وبقي سجيناً فيها حتى عام 1516 م، فأشهر إسلامه بعد إطلاق سراحه، ورافق حاكم عدن لأداء فريضة الحج فزار مكة المكرمة والمدينة المنورة. ومن هذه الأخيرة أراد التوجه إلى دمشق، إلا أن الأمر انتهى به في البصرة. فيكون «دا كودرا» بذلك أول أوروبي يقطع شمالي الجزيرة العربية من غربها إلى شرقها. وعاد بعد ذلك إلى البرتغال التي وصلها عام 1520 م، وكتب قصته التي احتوت على معلومات دقيقة وبعيدة إلى حد كبير عن المبالغة والخيال[11].

---

(11) بيتر برنت، **بلاد العرب القاصية: رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب**، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، بيروت، دار قتيبة، 1990، ص ص. 68 - 69.

ولم تنقطع الرحلات التي تُنسب للبرتغاليين إلى الجزيرة العربية في القرن السابع عشر الميلادي. ومن تلك الرحلات رحلة المطران «ماثيو دي كاسترو»، وهو من أصل هندي ترك جوا وذهب إلى مصر عبر جنوبي الجزيرة العربية براً في طريقه إلى إيطاليا. ويبدو أن الهدف الأساسي من رحلة «دي كاسترو» لم يكن استكشاف الجزيرة العربية، وإنما أراد تجنب الطريق البحري خوفاً من السفن البرتغالية. وقد زار المدينة المنورة عام 1643 م، وهو بذلك يكون أول راهب يدخل المدن المقدسة الإسلامية. ولكنه لم يكتب عن تلك الزيارة.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها البرتغاليون في الرحلات التجارية والعسكرية والتنصيرية والفردية، فإن لشبونة أو أيّاً من مدن البرتغال الأخرى لم تعرف إنتاج الخرائط، إنما كان رسم وطباعة الخرائط في أوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وحتى النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي متركزاً في إيطاليا التي كانت تسيطر على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط عبر القوى البحرية الإيطالية في جنوا وفلورنسا والبندقية، وبدأ إحياء نظرة بطليميوس للعالم فيها. وظهرت الطبعات الأولى من بطليميوس "**الجغرافيا**" في إيطاليا بين 1477 و1490 م. فأول طبعة كانت في بولونيا عام 1477 م، ثم طبعت في فلورنسا عام 1480 م، وفي روما ظهرت في طبعتين: الأولى عام 1487 م والثانية عام 1490 م. إلا أن هذا الدور الإيطالي المبكر في صناعة الخرائط لم يستمر لانتقال خطوط الملاحة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي.

إن الكم الكبير من المعلومات والذي كان يحصل عليه صانعو الخرائط الأوروبيون في القرن السادس عشر الميلادي عن الجزيرة العربية جمع بين الصحيح منها، المبني على المشاهدة، وربما القياس أحياناً، وبين المعلومات الخاطئة. فنلاحظ أن المعلومات على هذه الخرائط كثيرة للغاية مقارنة بخرائط أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، إلا أنها تحتوي على أخطاء كثيرة في تفاصيل السواحل والظاهرات التضاريسية وأسماء المراكز العمرانية.

ويمكن تصنيف خرائط الجزيرة العربية التي طُبعت في هذه المرحلة في نمطين مختلفين:

النمط الأول: النموذج البطليميوسي. وقد ساد هذا النمط من الخرائط منذ طباعة أول خريطة للجزيرة العربية عام 1477 م حتى قبيل حلول منتصف القرن السادس عشر الميلادي بعامين، وهو الأساس الذي تطورت منه الخريطة اعتماداً على المعلومات التي كانت توفرها «الرحلة» الأوروبية إلى سواحل الجزيرة العربية، والتي كانت تقوم بها في أعمال الاستكشاف والاحتلال البرتغال في منطقة المحيط الهندي. وتتصف خريطة الجزيرة العربية التي طبعت خلال هذه الفترة وفقاً للنمط البطليميوسي بتميز شكلها العام وثباته دون تعديل فيما عدا بعض التفاصيل الثانوية.

النمط الثاني: نموذج خريطة جاستالدي، الذي يُنسب إلى الخرائطي الإيطالي «جياكومو جاستالدي» (عاش ما بين 1500 و1565 م تقريباً). وهو يُعد أحد الأسماء المهمة التي يجب أن تُذكر عند الحديث عن خريطة الجزيرة العربية، وذلك لكونه صاحب أول منعطف في تاريخ رسم خريطتها، فأخرجها من إطار النمط البطليميوسي الذي ساد لأكثر من نصف قرن منذ بداية طباعة الخرائط، وإن كانت مصادر «جاستالدي» بشكل عام ضعيفة كما يظهر من المعلومات والتفاصيل التي احتوتها خريطته. وقد وضح تأثير خريطة «جاستالدي» سريعاً خلال الفترة الممتدة من تاريخ نشر خريطته عام 1548 م حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي، والتي شهدت ظهور أعمال مميزة لخرائطيين مرموقين أمثال «أورتيليوس» و«ميركيتور» وغيرهما من واضعي أساس العصر الذهبي للخرائط الهولندية. ويُمكن تلخيص الخصائص العامة لخريطة «جاستالدي» الحديثة بما يأتي:

1) تغير الشكل التقليدي المميز للبحر الأحمر والخليج العربي حسب النموذج البطليموسي، فأخذ البحر الأحمر يتخذ شكله الحقيقي، فقل عرضه نسبياً خصوصاً كلما اتجهنا شمالاً، وظهرت الجزر فيه أقرب إلى الواقع، ووُضعت عليها مسميات معاصرة، مثل جزيرة كمران المواجهة لليمن، وجزيرة «الفاس» وهي «فرسان» المواجهة لميناء جيزان، الذي يُذكر لأول مرة، ثم يختفي هذا الاسم من

الخرائط لفترة طويلة قبل أن يعود مرة أخرى في القرن الثامن عشر الميلادي. وأطلق على البحر الأحمر هذا الاسم لأول مرة في هذه الخريطة إلى جانب الاسم التقليدي «الخليج العربي».

وحدث تغيير جذري في شكل الخليج العربي. فبعد أن كان مستطيلاً يمتد محوره الأطول من الشرق إلى الغرب، أصبح يأخذ شكله المألوف مع اتجاه شمالي - جنوبي. وتظهر جزيرة البحرين باسمها الحالي، كما تظهر شبه جزيرة قطر إلى الجنوب منها. ووُضعت جزيرة هرمز في المضيق الذي يحمل الاسم نفسه ، مع وجود بحر ضيق نسبياً يقع بين مضيق هرمز وبحر الهند يُطابق ما يُعرف حالياً باسم بحر عُمان. أما المياه المواجهة للساحل الجنوبي للجزيرة العربية والتي تُعرف في الوقت الحاضر باسم بحر العرب، فكانت تُعد جزءاً من بحر الهند (المحيط الهندي) و لم تُعط اسماً خاصاً.

2) استخدم «جاستالدي» الأسماء المعاصرة لكثير من المدن الرئيسة مثل مكة المكرمة (Lamech) وجدة (Alzidem) وجيزان (Gezen) وزبيد (Zibit) وظفار (Diufar) وعدن (Adem) وكلبا (Calba). كما شملت الخريطة عدداً آخر من المدن استُخدمت في تعريفها الأسماء القديمة.

واستمر تطوير خريطة «جاستالدي» في إيطاليا، ويُمثل ذلك التطوير الخريطة التي أصدرها «جاستالدي» أيضاً في البندقية عام 1561 م، وهي خريطة مكبرة لخريطته السابقة، وذات شكل أفضل ولكن بتفاصيل أقل. إلا أن النصف الثاني من القرن السادس عشر شهد بداية العصر الذهبي لإنتاج الخرائط في هولندا، وبالتأكيد شمل ذلك خريطة الجزيرة العربية، وكان ذلك بقيادة «أبراهام أورتيليوس» و«جيرارد ميركيتور» وابنه الذي حمل الاسم نفسه أيضاً.

ويرجع إلى أورتيليوس، أحد أبرز أقطاب المدارس الخرائطية الهولندية، الفضل في ترسيخ التحول الذي شهده رسم خريطة الجزيرة العربية والذي كان قد بدأه «جاستالدي»، حيث استخدم المعلومات الحديثة التي كانت ترد إلى مراكز إنتاج الخرائط في أنتويرب ثم في أمستردام، واستفاد من التطور الذي

شهدته صناعة الخرائط في أوروبا، إن لم يكن قـد شـارك في ذلـك التطويـر. وقـد ظهر ذلك على خرائطه التي أصدرها خـلال النصـف الثـاني مـن القـرن السـادس عشر الميلادي حيث يظهر عليها كثير مـن المعلومـات والأسمـاء المهمـة لأول مـرة على خريطة الجزيرة العربية. ومن الملاحظ أنه لم تصدر بعد خريطة «جاستالدي» خرائـط خاصـة بـالجزيرة وحدهـا، سـواء في خرائـط «أورتيليـوس» أو غـيره مـن خرائطيي أوروبا من أمثـال «مـيركيتور» أو «هونديـاس» حتـى حـوالي منتصـف القرن السابع عشر الميلادي. إذ كانت الجزيرة العربية تظهر بأكملها على الخرائـط القارية، قارة آسيا، أو خرائـط الإمبراطوريـة العثمانيـة. وفي هـذه الأخـيرة كـانت تظهر الجزيرة العربية بحجم لا بأس به.

ومن أعلام الخرائطيين في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي الخرائطي الهولندي «جيرارد ميركيتور» الـذي يُنسـب إليـه تأسـيس أول مدرسـة خرائطية علمية نتج عنها مجموعة خرائط ذات مسـتوى عـال، سـواء مـن الناحيـة العلمية أو من الناحية الفنية، بما في ذلك تحديث خريطة الجزيرة العربية.

وفي أواخر القرن السادس عشـر الميـلادي ظهـرت خريطـة «هوبـن فـان لينشوتين» (Hubben Van Linschoten) التي تُمثل مدرسة خرائطية أخـرى اسـتفادت من معلومات «الرحلة» على اختلاف أهدافها. ويبرز ذلك من خلال التعديـلات التي ظهرت على تلك الخريطة في شـكل الجزيـرة العربيـة وبعـض المعلومـات الـتي ظهرت عليها لأول مرة. إذ إنـه في عـام 1596 م نشـر «لينشـوتين» كتابـاً بعنـوان *Itinirario* ("**دليل الرحالة**")، وكان مليئاً بالمعلومات عن التجارة والرحلة في آسيا. وتضمـن الكتـاب عـدداً كبـيراً مـن الخرائـط حفرهـا «بيـتر بلانسـيوس» (Peter Plancieus) وغيره. هذه الخرائط التي اعتمدت على أبحـاث «لينشـوتين» الخرائطيـة في الهند وغيرها كـانت مفيـدة للغايـة للملاحـين، لأنهـا احتـوت علـى ثـروة مـن البيانات نقلت عن الخرائط الملاحية البرتغالية التي لم يسبق نشرها. وبصورة عامـة، يمكن أن نلخص دور «لينشوتين» في تطوير رسم خريطة الجزيرة العربية بالآتي:

1. تعد خريطة «لانجرين» (Langren) المنشورة عام 1596 م والتي تشرح رحلات «لينشوتين» مثالاً لخريطة اعتمدت على خريطة «جاستالدي» فيما يتعلق بالمناطق الداخلية، واستُخدمت خرائط البورتولانو للتفاصيل الساحلية.
2. اعتمد «لينشوتين» في إعداد خريطته بشكل كبير على خبرته الطويلة التي اكتسبها خلال الثلاث عشرة سنة التي قضاها في الهند وحصوله على معلومات مباشرة عن المنطقة، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك سابقاً. وقد ظهر ذلك بشكل جلي على خريطته في شكل الجزيرة العربية وبعض المعلومات التي ظهرت عليها لأول مرة.
3. يبدو الشكل العام للجزيرة العربية أفضل مما هو عليه في خرائط «أورتيليوس» و«ميركيتور». ولا تزال المناطق الداخلية، خصوصاً في الوسط، خالية من المعلومات أو تحتوي على معلومات قليلة أو خاطئة.
4. اعتنى «لينشوتين» بذكر الموانئ على السواحل العربية، فنلاحظ أنه يذكر ثلاثة أنماط لكتابة اسم مدينة جده: Gidda، Ziden، Juda. كما تُذكر لأول مرة «جلفار» (رأس الخيمة حالياً). أما ينبع، فقد كُتبت Oybo، ولكنه وضع موقع المدينة المنورة في مكان خاطئ يقترب كثيراً من البحر، وإلى الشمال من موقعها الحقيقي. وبصورة عامة، استخدم «لينشوتين» الأسماء القديمة لكثير من المدن.

ومن بين الأسماء التي برزت أيضاً في نهاية هذه الفترة وجمعت ما بين العمل في الملاحة وإنتاج الخرائط يظهر اسم «بيتر بلانسيوس» الذي بدأ حياته قسيساً في كنيسة الإصلاح الهولندية. ولكن اهتماماته في الجغرافيا والاستكشاف جعلته يصبح خبيراً في الملاحة الهولندية، فترك العمل الديني وأصبح خرائطياً لشركة الهند الشرقية الهولندية، وهي الشركة التي رعت الاستكشافات والتجارة الهولندية في إفريقيا وآسيا. وساعده موقعه هناك على الوصول إلى مصادر للمعرفة الجغرافية، وأن يُسهم في رسم خريطة الجزيرة العربية؛ وسبقت الإشارة إلى أن «لينشوتين» استعان به في رسم خرائط كتابه.

الرحلة الأوروبية والخرائط في القرن السابع عشر

عندما حل القرن السابع عشر الميلادي كانت صناعة الخرائط قد حققت تطوراً كبيراً في عدة جوانب. أولاً، من الناحية الفنية انتهى عهد النحت على القوالب الخشبية (woodcut) وحل مكانه الحفر على الألواح النحاسية (Copper engraving)، فسهَّل ذلك على صانعي الخرائط إنتاج خرائط دقيقة وبكميات أكبر، وتزيينها بألوان ورسوم وأشكال جذابة جعلتها أكثر توزيعاً وانتشاراً. ثانياً، ظهور مراكز متخصصة وكبيرة لصناعة الخرائط على أسس علمية، وإنشاء مدارس خرائطية ارتبطت بأسر معينة توارثت السيطرة على صناعة الخرائط لأجيال عديدة، مثل أسرتي «ميركيتور» و«هونديِاس» في هولندا، وأسرة «سانسون» في فرنسا، وأسرة «سبيد» في إنجلترا، وغيرهم من الأسر الخرائطية التي تركت بصمات قوية في تاريخ الخرائط.

من ناحية أخرى، تميز القرن السابع عشر الميلادي بظهور خمس قوى سعت إلى السيطرة على الملاحة في البحار المحيطة بالجزيرة العربية، وعلى الموانئ الرئيسة المطلة عليها. هذه القوى هي البرتغال، التي أخذ نفوذها يضعُف خلال القرن السابع عشر بعد سيطرته المطلقة على الملاحة في المنطقة خلال القرن السادس عشر، ثم خرجت من المنافسة نهائياً في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي. أما القوة الثانية، فهي هولندا التي استطاعت أن تفرض نفوذها على الخليج العربي والمحيط الهندي خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي. وبالرغم من وجود النشاط الإنجليزي والفرنسي، فإنه كان في أغلب الأحيان في ظل هيمنة الأساطيل التجارية والحربية الهولندية على تلك المياه، حيث كانت هولندا تتدخل دائماً بأساليب مختلفة لمنع تنفيذ الاتفاقات التي تبرمها أنجلترا عبر شركتها للهند الشرقية لإقامة مراكز تجارية، مثلما حدث مع صحار (عام 1645م)، ومسقط (عام 1658م). ولم يمنع التنافس بين هذه القوى الأوروبية الثلاث من تحالفها على القوة البحرية الخامسة في هذا القرن، وهي في هذه المرة قوة عربية

من المنطقة نفسها. فقد وصلت القوة البحرية العمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي إلى درجة جعلت شركة الهند الشرقية الإنجليزية تتراجع عن مواجهتها[12]. لذلك قامت القوى الأوروبية الثلاث: هولندا وإنجلترا وفرنسا عام 1700 م بالاتفاق على توزيع حماية الملاحة في البحار المحيطة بالجزيرة العربية والواقعة على طريق الملاحة الذي يربط أوروبا بالهند عبر رأس الرجاء الصالح فيما بينها. وطبقاً لذلك الاتفاق، تولى الهولنديون مهمة سلامة الملاحة في سواحل جنوبي البحر الأحمر، وتولى الفرنسيون مسؤولية حماية سواحل الخليج العربي، بينما تولى الإنجليز مسؤولية حماية بحار الهند الجنوبية[13]. إن تعدد القوى البحرية التي اهتمت بفرض نفوذها أو إيجاد موطئ قدم لها في البحار المحاذية للجزيرة العربية، أثّر إيجابياً في رسم خريطتها التي أخذت تتغير سريعاً خلال القرن السابع عشر الميلادي اعتماداً على تزايد المعلومات الواردة من رحلات سفن تلك الدول.

الدور الهولندي

ولم يكن الدور الهولندي مقتصراً على طباعة الخرائط فقط، بل امتدّ إلى جمع المعلومات من مصادرها وتزويد مراكز إنتاج الخرائط بها، على العكس من الموقف المتحفظ الذي اتخذه البرتغاليون. وهذا الدور الثاني يستحق وقفة وتعليقاً.

لقد تمكن الهولنديون في البداية من اختراق السرية التي فرضها البرتغاليون على معلوماتهم الجغرافية والتجارية عن الهند والسواحل العربية. حدث ذلك عن طريق زرع عميل لهم استطاع الالتحاق بأسقفية مدينة جوا بالهند، مركز البرتغاليين في الشرق، وذلك عام 1583 م، وأمضى ثلاث عشرة سنة حتى وصل إلى رتبة أمين سر كبير الأساقفة. إنه الهولندي «هوبن فان لينشوتن»، الذي سبق الحديث عنه، حيث استطاع أن يضع يده على معلومات قيمة عن التجارة وطرقها في المحيط الهندي وخرائط الطرق إلى الهند، ونشر كتابه الذي أشرنا إليه

(12) جمال زكريا قاسم، **الخليج العربي: دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول**، القاهرة، دار الفكر العربي، 1985، ص. 113.

(13) **المصدر نفسه**، ص. 115.

سابقاً، والذي احتوى على مشاهداته هناك، والمعلومات الجغرافية والاقتصادية التي حصل عليها، إضافة إلى خريطة ملاحية مهمة ونادرة عن جنوب آسيا والمحيط الهندي تظهر عليها الجزيرة العربية، وصدر الكتاب وخرائطه في هولندا عام 1592 م. وقد ساعدت دراسات «لينشوتن» على تفادي صعوبات كثيرة كان يمكن أن تواجه الهولنديين في رحلاتهم التالية للهند والمحيط الهندي، بما في ذلك الجزيرة العربية.

أما الجزيرة العربية، فقد وصلها الهولنديون من بوابة التجارة والرحلات التجارية. ومن الرحالة الأوائل في القرن السادس عشر الميلادي الذين كان لهم دور في توجيه اهتمام الهولنديين إلى منطقة الخليج العربي هو «جان هوتين» .J Hotein)، حيث قدم تقريراً عن رحلاته إلى الشرق أبرز فيها أهمية الخليج العربي في التجارة مع الهند. فسعت هولندا في وقت مبكر، عام 1595 م، إلى الحصول على مراكز فيها[14]. ومثلما كان الحال في زمن السيطرة البرتغالية، بقي البحر الأحمر بحيرة إسلامية خارج تأثيرهم، مقارنة بنفوذهم السياسي ونشاطهم التجاري في الخليج العربي والساحل الجنوبي للجزيرة العربية.

وكان اعتماد التجارة الهولندية في المنطقة على نشاط الشركة الهولندية للهند الشرقية التي تأسست عام 1602 م، وجمعت بين الاحتكار التجاري والدعم الحكومي ومهمة الدفاع العسكري عن سلامة السفن وحركة التجارة. فقد تمكن الهولنديون، عبر شركة الهند الشرقية الهولندية، من تحقيق تفوق واضح في المياه العربية والفارسية على الرغم من وجود شركتين أخريين للهدف نفسه تتبعان إنجلترا وفرنسا. ويرجع السبب الأساسي في ذلك إلى الدعم المالي الضخم الذي وفرته الحكومة الهولندية للشركة في مواجهة أعمال الشركتين المنافستين، مما جعل الشركة الهولندية تحصل على امتيازات كبيرة لم يتمكن منافسوها من تحقيقها لعدم حصولهم على الدعم المالي المشابه. وكانت الشركة الإنجليزية تعتمد على الأرباح التجارية التي تحققها في دعم أعمالها والوصول إلى أهدافها، لذلك نجد أن

---

(14) **المصدر نفسه**، ص. 162.

محاولات الإنجليز المستمرة لتوطيد مركزهم في عُمان أو بندر عباس كانت تُمنى دائماً بالفشل.

وقد استدعى هذا التفوّق الهولندي تأسيس محطات بحرية ومخازن للتموين وقواعد عسكرية. ومن هذه المهام جاء الدور الأكبر للرحلة الهولندية في تطوير رسم خريطة الجزيرة العربية. فوصل الهولنديون إلى جنوب الجزيرة العربية عام 1614 م، ودرسوا الأحوال الاقتصادية بها وجمعوا المعلومات عن مدنها الساحلية مثل عدن وشحر ومنحا وقشن. ففي ذلك العام (1614 م) وصل القبطان الهولندي بيتر فان دي بروكه (Peter Van De Broecke) إلى عدن قادماً من الهند بناء على توجيه من الحاكم العام الهولندي فيها. ثم عاد إلى الجزيرة العربية مرة ثانية عام 1616 م حيث زار المخا وأنشأ فيها مركزاً هولندياً؛ كما زار تعز وإب وذمار وصنعاء ثم عاد إلى المخا. وقام دي بروكه برحلة ثالثة حوالي عام 1618 م زار فيها عدن وسقطرى. وفي هذه الرحلة جاء معه هولندي آخر هو «فان جيل» الذي ذهب من عدن إلى صنعاء والمخا. وتوصل الهولنديون إلى تفاهم مع حكام حضرموت واليمن على التعاون التجاري واستخدام موانئهم في التجارة الهولندية، ولكن هذا الاتفاق فشل في الاستمرار بعد فترة قصيرة. فوجه الهولنديون أنظارهم نحو الخليج العربي، وبالذات تجاه الجانب الفارسي منه.

وأنشأ الهولنديون أول مركز لهم في جزيرة هرمز العربية عام 1622 م بعد خروج البرتغاليين منها. ثم نتيجة للتسهيلات الكبيرة التي عرضها الفرس على الهولنديين لنقل نشاطهم إلى مدينة بندر عباس الواقعة على الجانب الفارسي من الخليج، استجاب الهولنديون للعرض المغري، فانحسر النشاط التجاري في هرمز، وهجرها سكانها إلى بندر عباس. ووضع الهولنديون لهم أيضاً قاعدة أصغر في جزيرة خرج «الفارسية» بالقرب من رأس الخليج العربي. ثم أخذت المعلومات عن جغرافية الجزيرة العربية تصل إلى مراكز إعداد الخرائط في أمستردام بشكل منتظم.

ويُلاحظ أن المعلومات الدقيقة في الخرائط الهولندية في القرن السابع عشر تركزت على المناطق الساحلية، وبالذات على الجزر والموانئ الرئيسة والمدن القريبة منها، بينما لم تظهر الدقة في المعلومات عن التفاصيل الساحلية الأخرى والظاهرات التضاريسية التي تتطلب رحلات ميدانية وقياسات دقيقة. كما أن المناطق الداخلية من الجزيرة العربية بقيت خالية أو شبه خالية من المعلومات، بل إنه حتى تلك المعلومات القليلة التي توضع أحياناً في الخرائط لا تخلو من الأخطاء الفادحة. ونجد أن أكثر المعلومات تفصيلاً كانت عن اليمن، حيث تمكنت الشركة الهولندية للهند الشرقية من الحصول على «فرمان» تركي عام 1618 م يقضي بالسماح لها بالتجارة السلمية في موانئ اليمن، مع التحذير من ذهاب رجالها إلى ميناءي ينبع وجدة لكونهما ميناءي مكة المكرمة. فقام الهولنديون برحلات إلى موانئ اليمن المطلة على البحر الأحمر وبحر العرب، وكذلك إلى موانئ هرمز أو عمان. وفي مناسبات كثيرة توغلوا في بلاد اليمن، ووصلت معلومات من بحارة هولنديين عن كثير من المدن، ووصف مفصل عن خصائص اليمن الطبيعية.

وإذا كانت التفاصيل عن الموانئ والمياه على طول السواحل اليمنية الغربية والجنوبية جاءت من ربابنة السفن وبحارتها أثناء زياراتهم وتعاملهم العادي، فإن تفاصيل المناطق الداخلية جاءت من هؤلاء الذين وقعوا في الأسر أو احتجزوا لمقابلة الباشا التركي في صنعاء. ويمكن ملاحظة تأثير هذه المعلومات في الخرائط الهولندية في القرن السابع عشر الميلادي مقارنة بخرائط «أورتوليوس» وغيره من الخرائطيين الهولنديين المعروفين في القرن السادس عشر الميلادي. وتُلخص جاكلين بيرين هذا الوضع فتقول: «صفوة القول، لقد توافرت لدى الغربيين في نهاية القرن السابع عشر معلومات أساسية في جميع الأبواب عن: العربية السعيدة، والمدن المقدسة، وعالم البادية. ولكن باستثناء «دي فارثيما» الذي كان وحده رائداً مطلعاً، نزيهاً، كان الآخرون رواد مصادفة»[15].

---

(15) جاكلين بيرين، **اكتشاف جزيرة العرب**، ترجمة قدري قلعجي، بيروت، دار الكاتب العربي، د. ت.، ص. 129.

وبينما كانت السفن الهولندية وبحارتها يجوبون البحار المحيطة بالجزيرة العربية ويرسلون التقارير والمعلومات إلى أمستردام، كان الخرائطيون الهولنديون مشغولين بتضمين خرائطهم أحدث الاكتشافات الجديدة. وكان لتدفق المعلومات التي قد يتعارض بعضها مع البعض الآخر على مراكز صناعة الخرائط في أوروبا من مصادر مختلفة أن وُضع الخرائطيون في موقف لا يُحسدون عليه من ناحية اختيار المعلومة الصحيحة وتحديد موقعها الدقيق. ولكن بسبب عوامل الوقت وبُعد المسافة وصُعوبة الحصول على المراجع، التي ربما لم تكن موجودة أصلاً، كل ذلك أدى إلى اختيار أسلوب يلائم تلك الظروف ويتمثل في وَضْع أكثر من معلومة عن الموقع الواحد. وعلى سبيل المثال، بينما كان البحر الأحمر يُسمى الخليج العربي في خرائط «بطليميوس»، وأصبح يُطلق عليه في الخرائط بحر مكة أو الخليج العربي أو البحر الأحمر أو بحر القلزم أو جمع بعض تلك الأسماء في خريطة واحدة في خرائط «أورتيليوس»، نجد أن «هونديناس» يستخدم الأسماء الأربعة في خريطة واحدة. ويُلاحظ الشيء نفسه في الخليج العربي الذي كان يُسمى «الخليج الفارسي» في جميع خرائط «بطليميوس»، ثم أضيف إليه اسم «بحر القطيف» في خرائط «أورتيليوس»، ثم حل اسم «الخليج العربي» مكان «الخليج الفارسي» في معظم خرائط «هونديناس». ومن المحتمل أن يكون هذا هو أول ظهور لهذا الاسم في خريطة أوروبية مطبوعة.

كذلك لم يكن الخرائطيون ثابتين دائماً في المعلومات التي يضعونها على خرائطهم، فنراهم تارة يستخدمون اسماً ما لمدينة أو منطقة أو مسطح مائي في إحدى خرائطه، ثم يستخدمون اسماً مغايراً في خريطة ثانية، ويعودون مرة أخرى للاسم القديم في خريطة ثالثة. وعلى سبيل المثال، كان يُطلق على المضيق الذي يربط الخليج العربي بخليج عُمان اسم مضيق البصرة، ثم سُمي مضيق هرمز في خريطة أخرى بعدها، وبعد ذلك أطلق عليه اسم مضيق البصرة في خريطة لاحقة. كما أنه أطلق على الصحراء التي تُسمى في الوقت الحاضر بصحراء الدهناء اسمين آخرين في خرائط مختلفة للخرائطي نفسه، وهما صحراء الأحساء وصحراء القطيف.

وبانتقال صناعة الخرائط في القرن الثامن عشر الميلادي إلى فرنسا وإنجلترا، وسيطرتهما على الملاحة في البحار المحيطة بالجزيرة العربية، بدأت مرحلة جديدة في رسم خريطة الجزيرة العربية.

الدور الإنجليزي

لقد وصل الإنجليز إلى الخليج العربي قبل الهولنديين وبالتحديد منذ القرن السادس عشر الميلادي، أي منذ فترة السيطرة البرتغالية. وكانت سفنهم تزور الخليج باستمرار، فعرفوا المنطقة وأهميتها الاستراتيجية وفائدتها التجارية. فتم تأسيس شركة الهند الشرقية عام 1600 م للتجارة بين بريطانيا وبقية أوروبا من جهة، والهند وجنوب شرق آسيا من جهة أخرى. وأصبح ميناء بندر عباس هو المقر الرئيس للشركة.

وسبق أن رأينا أن الهولنديين لم يكونوا وحدهم في المنطقة، بل شاركهم فيها الإنجليز الذين كانوا منافساً دائماً لهم، غير أن الهولنديين تمكنوا من ترجيح الكفة لصالحهم في وقت مبكر من القرن السابع عشر الميلادي حتى نهاية وجودهم في البحار العربية عام 1765 م على يد الفرنسيين. وعلى الرغم من الوضع السيء الذي وصلت إليه الأوضاع في شركة الهند الشرقية الإنجليزية نتيجة لتلك المنافسة، فإن الإنجليز أبقوا على وكالاتهم في الخليج العربي للحفاظ على موطئ قدم لهم في المنطقة حتى وإن كانت وكالات الشركة في حالة إفلاس. وقد أثمرت تلك السياسة فيما بعد عندما وصلت القوة الإنجليزية إلى ذروتها في نهاية القرن السابع عشر الميلادي، وخروج هولندا من المنافسة، فأصبحت شركة الهند الشرقية الإنجليزية صاحبة الهيمنة في المنطقة.

وتأثرت السواحل اليمنية والعمانية بنشاط هذه الشركة ورحلات سفنها التي كانت تجوب شواطئ شمال المحيط الهندي والخليج العربي وتتوقف في موانئهما للتجارة وغيرها. وكما حدث مع الهولنديين، أدى ذلك إلى اتصال مباشر مع أراضي الجزيرة العربية وسكانها، وجمع الكثير من المعلومات عن خصائصها

الطبيعية والعمرانية والبشرية، وبالتالي إلى تطوير رسم خريطتها وتحديثه. ومن الرحلات الإنجليزية المعروفة في بدايات ذلك القرن رحلة «جون جورديان»، الذي كان وكيلاً تجارياً وصل إلى عدن عام 1609 م ثم توجه إلى صنعاء من أجل إقناع الباشا التركي بتخفيض الرسوم الجمركية، ومر أيضاً على إب، وذمار، وتعز، والمخا، وكتب وصفاً لملاحظاته ومشاهداته عن خصائص المنطقة الطبيعية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية. وفي العام التالي لرحلة «جورديان»، أي في عام 1610 م، أرسلت شركة الهند الإنجليزية الشرقية «هنري ميديلتن» إلى عدن، وذهب منها إلى صنعاء ثم عاد إلى المخا عن طريق ذمار وتعز. وقد كتب «ميديلتن» مذكراته عن رحلته معتمداً على ذاكرته.

واستمرت الرحلات الإنجليزية خلال القرن السابع عشر الميلادي إلى المنطقة. ومن تلك الرحلات التي تمت في العقد الأخير منه رحلة «جوزيف بيتس داكستر» الذي زار مكة المكرمة والمدينة المنورة وأدى مناسك الحج. ولم تُعرف تفاصيل رحلته إلا في عام 1704 م في إنجلترا.

كان «جون سبيد» أبرز الأسماء في صناعة الخرائط الإنجليزية في القرن السابع عشر الميلادي؛ إلا أنه اعتمد في إعداد خرائطه بصفة عامة على أعمال الخرائطيين الهولنديين، بما في ذلك رسم خريطة الجزيرة العربية. فنجده على سبيل المثال يعتمد على خريطة «بلاو» في معلومات خريطة آسيا، وعلى خريطة «هوندياس» في معلومات خريطة الإمبراطورية التركية، وهما خريطتان صدرتا لأول مرة عام 1626 م، وسبق أن أشرنا إليهما.

ومن خرائطيِّي المدرسة الإنجليزية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي «ريتشارد بلوم» الذي تظهر الجزيرة العربية على خرائطه بشكل يختلف بعض الاختلاف عن الخرائط السابقة، مع بعض الإضافات الجديدة، مثل إطلاق اسم اليمامة على وسط الجزيرة العربية، ربما لأول مرة، وكذلك استخدام اسم عُمان بدلاً من هرمز لمنطقة عُمان الحالية. ويُعد «جون سيللر» أحد الجغرافيين والخرائطيين الإنجليز الذين اشتُهروا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي؛ إلا أن

خرائطه اعتمدت على أعمال الهولندي «دو ويت» من حيث الشكل العام للجزيرة العربية، وأعمال الإنجليزيين «جون سبيد» و«ريتشارد بلوم» وغيرهما. ومما تميزت به خرائط «سيللر» وجود تقسيم واضح ومحدد للأقاليم الفرعية لشبه الجزيرة العربية وهي: الحجاز، وتهامة، وحضرموت، والشحر، وعُمان، والبحرين، واليمامة، إضافة إلى الأقسام الكلاسيَّة. ويُمكن القول بشكل عام إن المعلومات عن الجزيرة العربية في الخرائط الإنجليزية اعتمدت على الخرائط الهولندية أكثر من اعتمادها على الرحلات الإنجليزية إلى المنطقة على الرغم من الحضور الإنجليزي في منطقة المحيط الهندي والخليج العربي.

الدور الفرنسي

من المعروف أن الوجود الفرنسي في البحار العربية جاء متأخراً نسبياً مقارنة بالقوى الأوروبية الأخرى. وقد بدأ الحضور الفرنسي رسمياً عام 1664 م بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الفرنسية. ومع ذلك، لم يكن لفرنسا نفوذ تجاري يُذكر في المنطقة خلال القرن السابع عشر الميلادي باستثناء بعض الاتصال التجاري المحدود مع بلاد فارس، كما صاحب ذلك أيضاً ندرة الرحلات الفردية الفرنسية. ونرى أن هذا الوضع انعكس على التأثير المحدود للرحلة الفرنسية في رسم خريطة الجزيرة العربية. وكما هو حال الخرائط الإنجليزية، سيكون للرحلة الفرنسية دور أكبر في صناعة الخرائط بصورة عامة، وفي رسم خريطة الجزيرة العربية بصفة خاصة، خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

ومع ذلك، ربما تكون خريطة «سانسون» التي نشرها عام 1654 م بعنوان «خريطة بلاد العرب الثلاث» هي أول خريطة كبيرة مخصصة للجزيرة العربية وحدها، وفيها الكثير من المعلومات الحديثة التي تعكس التطور في المعرفة عن الجزيرة العربية. ويُلاحظ أن أكثر المعلومات تغيراً عن الخرائط السابقة كان في تحديد مواقع المراكز العمرانية وأسمائها، حيث تظهر كثير من المدن في كافة أنحاء مناطق الجزيرة العربية، بما في ذلك المناطق الوسطى، وانتشر استخدام الأسماء

المعاصرة. فنجد ذكراً مفصلاً للأماكن الواقعة على طرق الحج مثل: مدينة النبي، وبدر حنين، والجار، والجحفة، وقديد، وعسفان، وخيبر، ودومة الجندل، وغيرها. أما أهم الإضافات التي جاءت في الخريطة، فكانت في ذكر عدد من المدن في وسط الجزيرة العربية، مثل: حجر، وخضرمة، واليمامة، والسلمية.

واستمر تأثير خريطة «سانسون» في خرائط الجزيرة العربية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي. فإضافة إلى إعادة نشر خريطة عام 1654 م من قبل أبنائه الذين خلفوه في إنتاج الخرائط، أعاد بعض الخرائطيين الفرنسيين مثل «أليكسس هيوبرت جيلوت» (Alixis Hubert Jailot) (1632 ـ 1712 م) طباعة بعض خرائطه مع تعديلات طفيفة. قام أيضاً بالحصول على الألواح النحاسية الخاصة بعائلة «سانسون». وبتجميع الخرائط من هذه المصادر وغيرها، بدأ إنتاج أطالس في عام 1681 م. وكانت خرائطه مزينة بصور مرسومة باليد؛ واستخدم الرسم بالذهب للزبائن المرموقين. واستمرت أسرة «جيلوت» في نشر الخرائط حتى عام 1780 م.

إلا أنه مع نهاية هذا القرن ظهر نمط جديد في رسم خريطة الجزيرة العربية بدأته المدرسة الخرائطية الفرنسية، وارتبط بها طوال القرن التالي الذي كان لفرنسا خلاله الدور الأكبر في تطوير رسم خريطتها، وأقصد بذلك إنتاج خرائط كبيرة وتفصيلية عن أجزاء من الجزيرة العربية. وربما تكون خريطة «روبرت مورتيير» لعام 1700 م بعنوان «خريطة خاصة بالبحر الأحمر»، من أوائل هذا النوع من الخرائط. وهي خريطة تعتمد على أعمال الخرائطي الفرنسي «هيربرت جيلوت»، الذي اعتمد بدوره كثيراً على خرائط «سانسون».

الرحلة الأوروبية والخرائط في القرن الثامن عشر

حدث خلال القرن الثامن عشر الميلادي تطور كبير في رسم خريطة الجزيرة العربية اعتماداً على المعلومات الغزيرة التي كانت ترد إلى مراكز صناعة الخرائط في أوروبا، وبالذات في فرنسا. ويُمكن تلخيص أهم خصائص الرحلة الأوروبية إلى الجزيرة العربية بما يأتي:

1 ـ استمرار الرحلات التجارية الأوروبية إلى المنطقة، مع استمرار التنافس بين القوى التجارية والعسكرية الأوروبية الثلاث: إنجلترا وفرنسا وهولندا. وقد أدى ذلك إلى التنافس فيما بينها من أجل إيجاد قواعد عسكرية، أو وكالات تجارية في مختلف الموانئ العربية والفارسية على البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي، من أهمها: المخا وعدن ومسقط وبندر عباس والبصرة وبوشهر وجزيرة خرج.

وبالرغم من أن هولندا كانت موجودة في الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر الميلادي، فإنه كان وجوداً محدوداً مقارنة بما كان لهم من قوة وسيطرة خلال القرن السابع عشر الميلادي. ولكن الذي يهمنا هو أن سفنهم استمرت في الوصول إلى موانئ الجزيرة العربية، وبالتالي كانت وسيلة من وسائل نقل المعلومات الجغرافية عن سواحلها إلى صُناع الخرائط في هولندا، وربما إلى غيرها من مراكز صناعة الخرائط في أوروبا. وكان الوجود الهولندي قائماً في بوشهر وبندر عباس والبصرة حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، ثم اضطروا إلى تركها بسبب تزايد المنافسة مع فرنسا وإنجلترا، والخلاف مع العثمانيين والفرس، وانتقلوا إلى آخر معقل لهم وهو جزيرة خرج التي أرادوا تحويلها إلى أرض هولندية، فنقلوا إليها بعض الزنوج للعمل في ظروفها الطبيعية القاسية، كما نقلوا إليها بعض الأسر الهولندية لاستيطانها. إلا أن ذلك المشروع لقي مقاومة كبيرة من سكان الجزيرة العرب، وخرج الهولنديون من الجزيرة والخليج العربي بأسره عام 1765 م. وكانت السفن الهولندية تصل أيضاً إلى سواحل الجزيرة العربية في القسم الجنوبي من البحر الأحمر، خصوصاً إلى ميناء المخا الذي اشتهر بتجارة البن.

أما أنجلترا، فقد ورثت النفوذ الهولندي في الخليج العربي في القرن الثامن عشر الميلادي. فسيطر البريطانيون عليه وأقاموا مراكز رئيسة وثانوية لهم في بندر عباس وشيراز والبصرة وبوشهر ومسقط وغيرها، وتناوبوا السيطرة على هذه المناطق مع الفرنسيين أو اشتركوا معهم في بعض الفترات في بسط النفوذ التجاري

والسياسي فيها؛ كما عقدوا الاتفاقات مع حكام فارس والساحل العربي حصلوا بموجبها على كثير من الامتيازات التي ساعدتهم في ترسيخ وجودهم في المنطقة. وقد كان ذلك الوجود يتخذ في البداية الطابع التجاري، ثم يتحول إلى طابع سياسي، وأخيراً إلى سلطة سياسية، تمكنت في نهاية القرن من السيطرة على قسط كبير من الخليج العربي، وأجزاء من سواحل جنوبي الجزيرة العربية. وأدى ذلك كله إلى انتظام رحلات السفن الإنجليزية إلى موانئ الجزيرة العربية، وزيادة الاهتمام بجمع المعلومات الجغرافية التفصيلية عن أراضيها وسواحلها وجزرها. وكانت التقارير الرسمية أو تلك التي يكتبها البحارة تصل إلى مراكز صناعة الخرائط في لندن، التي كانت تأتي في المرتبة الثانية بعد باريس في إنتاج الخرائط والأطالس خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

وكانت فرنسا هي القوة الأوروبية المنافسة للإنجليز طوال هذا القرن. ومع ذلك كان دورها في البحار العربية ضئيلاً نسبياً، وإن كانت لها محاولات عديدة لإيجاد نفوذ دائم لها في مسقط والموانئ الفارسية والمخا. وبالرغم من فشل فرنسا في إنشاء قواعد بحرية لها في مسقط وغيرها من الموانئ العربية والفارسية، فإنها استطاعت استخدام قاعدتها القوية في جزيرة فرنسا (التي تُسمى أيضاً جزيرة موريس) في المحيط الهندي لتكون مركزاً لشركة الهند الشرقية الفرنسية. وأصبحت تلك الجزيرة نقطة انطلاق للسفن الفرنسية باتجاه موانئ الجزيرة العربية. وكان حجم رحلات تلك السفن يختلف بزيادة أو نقص النفوذ الفرنسي على الإمارات الساحلية العربية والبلاط الفارسي، الذي اتخذ شكل تحالفات أو اتفاقات، كان الإنجليز يعملون دائماً على إفشالها أو إضعافها حفاظاً على مصالحهم التجارية والسياسية في المنطقة. وعلى أي حال، سنجد أن هذا الوضع أدى إلى إسهام كبير للبحرية الفرنسية في رسم خرائط تفصيلية لسواحل الجزيرة العربية وبحارها، خصوصاً في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي.

2 - لم تتوقف الرحلات الفردية خلال هذا القرن. ففي سنواته الأولى، وبالتحديد في ما بين عامي 1708 م و1713 م، قام بحارة مرسيليا برحلات إلى اليمن

من أجل تجارة البن، وكانت تلك الرحلات تضم أيضاً أفراداً من غير البحارة، كالأطبّاء وغيرهم أمثال «لاجرولوديير» و«باربيه». وقد كتب هؤلاء تقارير عديدة عن المناطق التي زاروها ومشاهداتهم فيها، جمعها ونشرها الفرنسي دو لاروك في كتابه المشهور: "**رحلة إلى بلاد العرب السعيدة**"، والذي نشره في أمستردام عام 1716 م واحتوى على خريطة لجنوب الجزيرة العربية رسمها الخرائطي الفرنسي المعروف «دو ليل»، كانت مليئة بالأخطاء الجغرافية.

إلا أن أهم تطور في الرحلات إلى الجزيرة العربية تمَّ خلال بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، وأقصد بذلك ظهور الرحلات العلمية المنظمة والتي كان رائدها الجغرافي الألماني المولد «كارستن نيبور». وتُعد هذه الرحلة من حيث الإعداد لها، وتنوع اختصاصات المشاركين فيها وجنسياتهم ، والنتائج التي تمخضت عنها، بلا ريب، نقطة تحول رئيسة في أسلوب دراسة الجزيرة العربية ورسم خريطتها. فقد أدركت المراكز العلمية الأوروبية في منتصف القرن أن أراضي الجزيرة العربية فيما يلي السواحل إما أنها مجهولة للأوروبيين أو أنها تحتوي على معلومات غير صحيحة، الأمر الذي أوحى بفكرة إرسال بعثة استكشافية علمية للجزيرة العربية لتصحيح هذه الأوضاع تقدم بها «جون ميخائيليس» لملك الدانمارك آنذاك «فريدريك الخامس» الذي أعجب بالفكرة وقام بتشكيل فريق من خمسة علماء في تخصصات مختلفة أحدهم «نيبور» الذي رأس الفريق، وكان هو الناجي الوحيد من بينهم، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. وإضافة إلى المعلومات الغزيرة والمتنوعة التي جاءت بها تلك الرحلة، فقد احتوت على خرائط تفصيلية لأجزاء من الأراضي في جنوب غرب الجزيرة العربية، وخرائط دقيقة لكثير من مدنها والمناطق المحيطة بها، إضافة إلى خرائط بحرية لأجزاء واسعة من البحر الأحمر والخليج العربي. وبالرغم من أن «نيبور» اعتمد على خريطة «دانفيل»، فإنه صحح كثيراً من الأخطاء التي وردت فيها؛ كما أضاف إليها الكثير من المعلومات الحديثة.

إن أهم نتائج الرحلة التي عُرفت فيما بعد باسم «رحلة نيبور» كانت في وضع الأسس العلمية للرحلات الفردية المنظمة التي جاءت إلى الجزيرة العربية خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، ومن أهمها رحلة الإسبانيّ الذي اتخذ اسم «علي بك العباسي» عام 1807 م، والسويسري «بوركهارت» عام 1814 م، وما تلاهما من رحلات حتى نهاية القرن.

لقد أثرت تلك الرحلات على اختلاف أهدافها وأشكالها في رسم خريطة الجزيرة العربية وتطويرها، ولكن يمكن القول على الرغم من ذلك إنه إذا كان القرن السابع عشر الميلادي مرحلة تكوين خريطة الجزيرة العربية، فإن النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي كان اجتراراً لتلك الخرائط من قبل خرائطيين مختلفين في هولندا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا، بينما شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي تطوراً جذرياً في رسم خريطة الجزيرة العربية وكثرة المعلومات فيها ودقتها. ويمكن تتبع ذلك على النحو التالي:

- استمرار إعادة نشر خرائط القرن السابع عشر الميلادي بما احتوته من أخطاء جغرافية. وخير مثال على ذلك خرائط الهولندي «فان در آ» الذي ظهرت خرائطه عن الجزيرة العربية مرسومة بشكل سيء، فاهتم كثيراً بالتزيين الذي كان سمة مصاحبة للمدارس الخرائطية الهولندية في القرنين السابقين. لذلك يمكن وصف خرائطه بأنها ضعيفة من حيث الدقة الجغرافية، سواء في الرسم أو في المعلومة.
- شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهور خرائط دقيقة نسبياً اتصفت بالمعرفة شبه الكاملة بالشكل العام للجزيرة العربية والبحار المحيطة بها، والظاهرات الساحلية الرئيسة، والجزر المجاورة لها. ويمثل ذلك خير تمثيل خرائط «دانفيل» و«نيبور» وغيرهما. وكان التغير في البداية في الشكل العام للجزيرة العربية وتفاصيل سواحلها، ثم حدث تغير في طبيعة المعلومات ودقتها، خصوصاً في المناطق الداخلية التي كانت بعيدة عن اهتمام الرحلات السابقة التي اتصفت بطبيعتها التجارية وتعاملها مع المناطق الساحلية أو القريبة منها. وأسهمت الرحلات العلمية المنظمة بشكل كبير في دعم ذلك التغير

النوعي الذي نراه، على سبيل المثال، في التخلص من التأثير الكلاسيّ في تقسيم الجزيرة العربية إلى أقاليم فرعية، فلم نعد نرى أسماء مثل بلاد العرب السعيدة أو بلاد العرب الصحراوية إلا فيما ندر، بينما ظهرت تقسيمات اعتمدت على مسميات معاصرة مثل تقسيم الجزيرة العربية إلى: نجد واليمامة في الوسط، الأول في الشمال والثاني إلى الجنوب منه، والحجاز على طول الساحل الغربي، وحضرموت والشحر والمهرة وعُمان والبحرين على طول السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية.

- يُلاحظ تناقص المعلومات والمسميات في كثير من الخرائط التي ظهرت في منتصف القرن، وذلك في وسط الجزيرة العربية وفي المنطقة التي يغطيها الربع الخالي أو غيره من الصحاري الكبيرة، والتي كانت مليئة بالظاهرات التضاريسية والمائية والمواقع العمرانية منذ ظهور الخرائط البطليموسية إلى أوائل القرن الثامن عشر الميلادي. هذا الاتجاه ربما يرجع إلى الدقة التي كان يسعى إليها الخرائطيون في خرائطهم.
- من أهم ما تميّزت به العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي هو ظهور خرائط بحرية تفصيلية دقيقة وبمقاييس رسم كبيرة للبحار المحيطة بالجزيرة العربية، وبالأخص البحر الأحمر ومداخله وجزره وموانئه، وكذلك بحر العرب المتصل به. وقد اشتهر الخرائطيون الفرنسيون بإنتاج سلسلة كبيرة من تلك الخرائط، خصوصاً في العقدين الأخيرين من القرن، اللذين شهدا نشاطاً بحرياً فرنسياً كبيراً في شمال المحيط الهندي والبحار العربية.
- لم تتغير المعلومات التضاريسية والمائية الخاطئة أو المحدودة في خرائط الجزيرة العربية إلا بعد الرحلات العلمية المنظمة، ولكن هذا التغيير لم يتضح بشكل كامل إلا في خرائط القرن التاسع عشر.

هذا ملخص عام للمراحل التي مر بها رسم خريطة الجزيرة العربية من خلال تأثير الرحلة الأوروبية إلى المنطقة. ومما سبق أود التركيز في ختام حديثي على نقطتين رئيستين:

أولاً: قد يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: ما القيمة العلمية لهذه الوثائق التاريخية التي تعاون في إعدادها وإخراجها مجموعة من الأفراد والشركات التجارية والمؤسسات العسكرية التي تنتمي لعدد من الدول الأوروبية المختلفة؟

لاشك في أن الخرائط القديمة تُعد وثائق علمية مهمة، حيث تحتوي على معلومات غزيرة عن الجزيرة العربية، بعضها صحيح، وإن اختلف عن المألوف أو المتداول في الوقت الحاضر؛ كما أن بعض تلك المعلومات تعرض للتصحيف أو التعديل أو الاجتهاد خلال نقل المعلومة من مصادرها الأولى حتى وصلت إلى مراكز صنع الخرائط في أوروبا. فالباحث الذي يُقارن أي مجموعة من الخرائط صدرت في فترة زمنية واحدة يقع في حيرة من أمره بسبب التباين الكبير في المعلومات عن الظاهرة الواحدة بين تلك الخرائط. لذلك، فإن الأمر يتطلب الحذر الشديد عند استخدام تلك المعلومات، خصوصاً حول المناطق التي كانت قريبة من آذان الرحلة وبعيدة عن أعينهم.

ثانياً: تتعلق النقطة الأخرى بالتقارير والرسائل والخطابات التي اعتُمد عليها عند إعداد الكثير من الخرائط الأوروبية القديمة. فلا شك في أن أرشيفات كثير من المكتبات الوطنية ومراكز الوثائق في بعض الدول مثل البرتغال وإسبانيا وهولندا وإيطاليا مليئة بالوثائق التاريخية عن الجزيرة العربية، ولاشك في أن مسح تلك المراكز والبحث فيها عن هذه الوثائق وترجمتها، سوف يسهم بإضافات مهمة عن تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها تُغطي فترة زمنية طويلة.

العامية والفصحى في القاهرة والرباط

الأستاذ عبد العزيز بنعبد ا لله
عضو أكاديمية المملكة المغربية ـ الرباط

نحيي ـ بكل اعتزاز وإكبار ـــ مجمعنا الموقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة بصفته مجمعاً رائداً أخذ على نفسه منذ اللحظة الأولى إمداد العروبة بالرصيد الأصيل للغة الضاد لغة العلم والحضارة والتكنولوجية. وقد وفّى في شمولية نادرة وعمق وبعد كبيرين بهذا الوعد الخطير، مما جعل منه المنتدى العروبي الوالد الذي برهن بمنجزاته الرائعة على أن لغة القرآن كانت ولا تزال منبع الكلمة الرصينة الجزلة الطيعة ذات المحتوى العلمي والحضاري الدقيق.

وقد كان لإبداعات مجمعنا الذي يضم في رحابه العامرة أقطاب الفكر وجهابذة العلم من أبناء الوطن العربي القول الفصل في سيولة الكلمة وشيوعها. فهنيئاً لمجمعنا وهنيئاً للعروبة بهذا الكيان الذي تنضوي تحت رايته معتزة فخوراً.

* * *

العامية هي ما يسميه الجاحظ بلغة المولدين والبلديين (**البيان والتبيين**، ج 1، ص. 111). وقد لاحظ أن في كل مدينة ألسنة ذلقة، غير أن اللحن كان فاشياً في العوام (ص. 111).

وقد تحدث أحمد أمين عن العامية في القرن الرابع فقال: «إن اللغة العامية أصبح معترفاً بها يبحث في ألفاظها وأساليبها، وينتقي منها خيرها إلا بعض علماء كأبي العلاء المعرOي» (**ظهر الإسلام**، ج 2، ص. 100).

وأغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين الفصحى والعامية حتى ما يتصل بالقلب والإبدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك. وتمتاز العامية بمظاهر بسيطة تجعلها في بعض الأحيان أكثر إيغالاً في القلب والتسهيل.

ولهذه الوحدة الأصيلة أمثلة لا تنفرد بها العامية في قطر عربي دون آخر، بل تمس اللهجات الدارجة في معظم أجزاء العالم العربي. فمن مجالي التخفيف في اللسان الفصيح والتي أثرت في ألسنة العامة وجود مترادفات يختلف بعضها عن بعض بإضافة حرف واحد. وقد اختار الدهماء لتخاطبهم اليومي أخفها نطقاً وإن كان أكثرها أحرفاً، مما يؤكد أن عقلية العامة لا تنحرف عادة عن الأصيل إلا إذا لم تجد في صيغه ما يتفق وطبيعتها الميالة إلى التسهيل.

وتوجد في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة للهجات من أهدافها استقراء الألفاظ والتراكيب الجارية على ألسنة أهل الأقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا في معاجم وأطالس لغوية. وقد اتخذت اللجنة لهجة القاهرة مقياساً. وترتكز اللجنة في هذا البحث على تنقل القبائل، لما له من أثر كبير في لهجات الأقاليم وتطورها واختلافها (**مجلة المجمع**، ج 7).

وهناك مترادفات يختلف ترتيب حروفها مثل جبذ وجذب (جبذ) وخربش وخرشب العمل، أي لم يتقنه.

أما النحت، فأمثلته كثيرة: ويلمه وهي منحوتة من أصلها (ويل لامه).

صبحه، أي: قال له صباح الخير.

مساه: قال له مساء الخير.

تويل: قال يا ويلي.

فسقه: قال له يا فاسق.

ما شا الله - (ما شاء الله) - ما طيبو (ما أطيبه) - محلاه (ما أحلاه)، إلخ.

ومن أمثلة الإتباع أو الإبدال بالمعنى نفسه: العجر والبجر - حيص بيص - هين لين (سهل) - هش بش (مسرور) - الكوع والبوع (كعو وبعو) - الجوع والنوع - شيطان ليطان - حسن بسن، إلخ.

وهناك مئات الكلمات تحكي الأصول أو الحركات وتتحد فيها اللهجات.

أما الصيغ، فكثيراً ما تتخذ الوزن نفسه في العامية والفصحى للتدليل على المدركات نفسها، كالمبالغة والتفضيل والبقية والسقاطة والتظاهر والتشبيه أو التشبه والوصف مثل كنز (مكنوز) وعلاج (دواء) ووقف (موقوف) وغصب (مغصوب). وتفاقر (أظهر الفقر)، وتباكى وتجاهل وتماوت وتناعس وتشيطن وتفحل وتفرعن وتفرنج وتمدن وتوحش وبخل وجهل وسفه وضعف وفسق وغلط وكفر وأحمق (أي موصوف بالحمق) وأبله وأعمى.

ويجمع المذكر في اللسانين بإضافة تاء مربوطة إلى المفرد مثل: حمَّارة (أصحاب الحمير) وخيالة ورحالة وعسالة (أصحاب العسل). وتشترك الفصحى والعامية في الاشتقاق المنطقي من ألفاظ ذات معنى حسي مجرد كالحمام من حم الماء، أي سخنه ومخدة من الخد والسماء من سما، أي ارتفع.

وقد تعددت اللهجات في الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى وخفت أوجه الاختلاف بما استوثق إذ ذاك من صلات في الأسواق الإقليمية والمبادلات التجارية والمصاهرات. وقد أدت قريش دوراً هامّاً في انتقاء أجود اللغات، فنسقت واجتبت أفضل لغات العرب حتى صارت لغتها أفضل لغاتهم (لسان العرب) فنزل القرآن بها وازدادت مظاهر الوحدة تحت راية الإسلام بالرغم عن الفوارق القبلية البسيطة التي ساندتها أحرف القرآن السبعة. وقد احتفظت ألسنة جهوية بميزات خاصة «من حيث التصريف والهيئة والإبدال وأوجه الإعراب والبناء» (**متن اللغة**، ج 1، ص. 47). فقريش مثلاً تفتح نون المضارعة وأسد تكسرها والحجازيون يثبتون ما النافية وتميم تهملها. أما الاختلاف في الأسماء، فلا يكاد يظهر إلا في حمير التي ظلت محتفظة بكثير من مفرداتها (المدية الحميرية بدل السكين).

ويتجلى الاختلاف بين لهجات العرب في مظاهر مختلفة كالإظهار والإدغام والإشمام والتفخيم والترقيق والمد والقصر والإمالة والفتح والتسهيل والإبدال وهو اختلاف في الصور الظاهرة لمخارج الحروف مع وحدة اللفظ. وقد عرف العرب منها قديماً العنعنة عند تميم وقيس (إبدال الهمزة عيناً) والكسكسة

عند ربيعة (إبدال كاف الخطاب شيناً) والغمغمة عند قضاعة (وهي إخفاء بعض الحروف) والفخفخة عند هذيل (إبدال الحاء عيناً مثل حتى وعتى) واللخلخانية في عمان واليمن (وهي حذف همزة ما شاء الله مشا الله) والتلتلة في بهراء وهي كسر تاء المضارعة (تِلعب) والوتم عند أهل اليمن (قلب السين المتطرفة تاء كالنات في الناس).

وقد لاحظ الأستاذ فريد أبو حديد (مجلة **مجمع اللغة العربية**، ج 7، ص. 205) أن حركة الكسر تكاد تكون شائعة في كثير من الدول العربية. مثال ذلك كسر آخر الاسم المضاف إلى ضمير المؤنثة المخاطبة فيقولون في الشرق أنت مالك (يقول المغاربة «مالك» بفتح اللام) هي لهجة لخم التي تكسر ما قبل كاف المخاطبة.

والوكم والوهم عند ربيعة وكلب (كسر كاف الخطاب وهاء الضمير): عليكم، عنهم) والاستنطاء (في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار) هي قلب العين الساكنة قبل الطاء نوناً (أنطى - أعطى) وما زالت مظاهر ذلك إلى الآن عند الأعراب.

والمشترك نفسه يرجع لتعدد الألفاظ للمدلول الواحد بين القبائل كما أن في اللغة الموحدة نفسها اختلافاً في الأبنية من لغتين إلى ثلاث عشرة لغة (عباءة — عباية، إلخ).

وقد أرجعت أصول الكلمات الواردة في القرآن إلى خمسين لهجة من لهجات القبائل، علاوة على وجود كلمات معربة.

وظهر الانحراف في الحركات الإعرابية منذ صدر الإسلام، فسار العوام في منهجهم المنحرف واستفحل هذا الزيغ اللغوي باختلاط العرب بالأعاجم بعد الفتوح. فهب علماء اللغة لتقويم العامية وإرجاعها إلى أصالتها الفصحى، وتجلى هذا المجهود في "**أدب الكاتب**" لابن قتيبة و"**درة الغواص**" للحريري، فخف البون بين الفصحى والعامية، إذ روعيت شساعته في اللغات الراقية اليوم وبقيت العامية في جميع مظاهرها لغة عربية محرفة الشكل غير مضبوطة القواعد.

وتجلى هذا الانحراف كما سنرى في عامية الشمالين الشرقي والغربي للقارة الإفريقية، أي مصر والمغرب.

وقد أشار الثعالبي في "**فقه اللغة**" (طبعة 1978 - 1959، القاهرة، ص. 450) إلى أسماء فارسيتها منسية وعربيتها محكية أوصلها إلى واحد وأربعين ومئة، منها البياع والدلال والبقال والجمال والطراز والخياط والند والبخور والغالية والحناء والمضربة والقمري والربعة والخرج والدواة والمرفع والفتيلة والمجمرة والمزارق والطبل والشكال والقلية والهريسة والعصيدة. وقد دخلت كلها في عامية البلدين.

ثم ذكر (ص. 453) أسماء تفردت بها الفرس، فعربها العرب أو تركوها منها: الإبريق والكوز والطبق والقصعة والسندس والياقوت والبلور والسميذ والكعك والسكنجبين والجلنجبين والفلفل والكروياء والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور والقرنفل.

وقد تأثرت العامية المغربية بالفارسية عن طريق الدخيل في المعجم العربي لا بكيفية مباشرة كما هو الحال في مصر، لأن المغرب ظل في منحى عن التأثيرات الفارسية.

ويختلف هذا التأثير في الأقطار الأخرى. ولعل الدخيل من الفارسية في لغة العراقيين يوازي الدخيل فيها من التركية، خلافاً لما عليه الحال في مصر؛ فإن معظم الدخيل فيها في لغتها الشائعة من التركية، ثم من اللغات الإفرنجية (محمد رضى الشبيبيّ، مجلة **مجمع فؤاد الأول للغة العربية**، ج 8، ص. 131).

وديوان العراق لم ينقل من الفارسية إلى العربية إلا في عهد الحجاج الذي أمر بذلك كاتبه صالحاً بن عبد الرحمن الذي كان يتقن اللغتين (**تاريخ ابن خلدون**، المجلد الأول، القسم الثاني، ص. 437).

وكذلك شأن اللغة التركية مثل باشا وبكرج (إناء معدني) وخازوق وتخوزق (التخوزيق) وسنجق وطابور وطز (للاستهزاء والاستياء) وطوبجي (مدفعي) وصابونجي وجبدولي (صدرية) وجامكية (مرتب عسكري في عبد الموحدين) وخواجي (تاجر) وبابوشة (بابوج) وبازار وباشادور وبرنامج، إلخ.

ومـن الكلمـات العربيـة المقتبسـة مـن اليونانيـة علـى مـا يقـال: يـاقوت، وملوخية، ومصطكى، ولوبياء، ولجنة، وكروياء، وكرنب، وكافور، وقيطون، وقيراط، وقيثارة، وقنطرة، وقنب، وقمقم، وقلم، وقصدير، وقرنفل، وقرميد، وقانون، وقالب، وقارب، وقادوس، وفندق، وفنار، وفلس، وفص، وفخ، وطاجن، ورطل، ودلفين، ودرهم، وتؤلول، وبلغم، وبجماط، وبطاقة، وبارود، وأوقية، وإقليم، والألماس، والرز.

أما اللاتينية، فقد استمدت منها اللهجتان الفصحى والعاميـة ألفاظاً يقـال إن منها إسطبل، وبوق، ودينار، وسجل، وصراط، وصاقور، وطرطور، وقرصان، وفرن، وقفة، وقلنسوة، وقميص، وقنديل، وقنطار، وكوفية، ومد (مكيـال) ومنديل، وميل، إلخ.

وبينما كان التأثير الإسباني في اللهجة المصرية منعدماً، إذا هو يتخذ طابعاً عميقاً في العامية المغربيـة، نظراً للتبـادل الموصـول بين الأندلس والمغرب خلال الحكم الإسلامي، أي طوال ثمانية قرون. وبعد ذلك بثلاثمئة عام، احتل البرتغاليون والإسبان في غضونها مراكز هامة في شواطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطيقي من المغرب.

وقد ذكر برونو Brunot (**"هسبريس"**، 1949 ـ العددان الثالث والرابع) أن اللغة الرومانية اللاتينية أمدت العامية عن طريق الفصحى بألفاظ مثل مد وقصر أو مباشرة بكلمات مثل الطابية وكرزية وكركور، وذكر أن لفظ قنديل (Candi) مقتبس من اللفظ العربي quindid وأن الكفة مأخوذة من التركية.

ولاحظ في مقدمة مذكراته حول المفردات البحرية بالرباط وسلا أن وفرة الألفاظ الإسبانية الدخيلة في هذه المفردات تدعو إلى نسبة بعض الكلمات إلى أصل يوناني لاتيني. وهذا الغلط هو الذي وقع فيه سيموني (Simonet) في **"معجمـ"**ـه (Glosario) حيث ذكر مثلاً أن الشابل (alose) مستمد من اللفظ اللاتيني sapidus. وقد أعطى برونو صورة عن مروح التأثيرات الأجنبية في العامية البحرية بالرباط وسلا، فذكر أنه بالإضافة إلى 455 لفظ عربي يوجد 217 كلمة

إسبانية و30 لاتينية يونانية و6 فرنسية وإيطالية و6 إنجليزية وكلمة واحدة برتغالية وعشر كلمات بربرية وعشر تركية وإحدى عشرة كلمة مشكوك في مصدرها، وذلك من مجموع يبلغ 753 لفظة. ويلاحظ هنا قوة تأثير العربية الفصحى في موانئ أخرى في المغرب مثل مستنغانم بالجزائر. ففي الرباط مثلاً تسمى chaloupe بالعشارية، وفي مستغانم ببوطة من bota الإسبانية.

على أن البرتغالية قد تأثرت باللهجة المغربية حيث كان البرتغاليون يراسلون بالعجمية التي كانت عبارة عن برتغالية مملوءة بالألفاظ المغربية وكانوا يكتبونها بالحروف العربية (كواساك (Coissac de Chavrebière)، **تاريخ المغرب**، ص. 273).

ولعل أول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الإسلامي قد جاءته عن طريق القيروان التي بدأت تنصهر فيها الحضارة الأموية بعد مرور ثلاثة أرباع قرن على الهجرة، فأقيمت المساجد والدواوين والمصالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته مصر والشام.

فأول مسجد على النسق المعماري الإسلامي في المغرب هو ذلك الذي بناه سعيد بن صالح الحميري في نكور في نهاية القرن الأول استمد في تصميمه من جامع الإسكندرية التي ظلت مهبط الرواد المغاربة وعلى رأسهم الصوفي أحمد البدوي دفين طنطا. وكانت البساطة آنذاك هي طابع الفن المعماري الذي لم يعرف بعد المقرنصات ولا التعاريج العربية.

والواقع أن انعدام الاقتباس من الطبيعة والإمعان في دراسة الرياضيات ونزعة الإبداع حدت مسلمي الأندلس والقيروان ومصر ثم المغرب إلى التسطيرات الهندسية الساذجة. ومما يبرز تأثير الأندلس إحداث الموالي الصقالبة لقرية تحمل اسمهم فوق مدينة نكور (البكري، **المسالك والممالك**، مطبعة الجزائر، 1911، ص. 97) أو منح اسم القاهرة تيمناً وإجلالاً لمركز في قلب الأطلس بقبيلة بني دويران.

ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الأندلسي والفنين المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء. وبذلك تعززت الوصلة بين

جناحي العروبة، واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصارة الاحتكاك الموصول.

وقد كان للأندلس أثر على بعض مظاهر الحضارة المصرية، نظراً لهجرة طائفة من الغرناطيين إلى بلاد الكنانة[1]. ففي عام 1019 هـ هاجرت ألوف الأندلسيين إلى فاس وألوف إلى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الأعراب ونهبوا أموالهم في تلمسان وفاس وسلم أكثرهم في تونس وتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل جماعة إلى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (**نشر المثاني** عن **نفح الطيب**، ص. 101).

ففي الحقل العمراني يلاحظ أن «قصر البديع» الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين السنة (986 هـ ـ 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته. فقد ظهرت معه فنون طريفة ومصطلحات فريدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية كتبت في أبهائها الأشعار بمرمر أسود في أبيض تذكرنا بروائع الأندلس. فمن شعر أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف فن هذه الروائع:

فإنها والتبر سال خلالها ... وشي وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة ... قد زان حسن طرازها تشجير
وكأن موج البركتين أمامه ... حركات سحب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثيل فضة ... ملك النفوس بحسنها تصوير

وقد كتب بجدران المصرية المطلقة على الرياض:

باكر لدي من السرور كؤوسا ... وارض النديم أهلة وشموسا

---

(1) وكذلك الأندلسيون الربطيون الذين ثاروا على الأمير الأموي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ووصل بعضهم على رأس المئتي هجرية إلى الإسكندرية. وكان فيهم علماء (**نفح الطيب**، ج 1، ص. 318).
تاريخ ابن خلدون، ج 4، ص. 1/275؛ مجلة **السيراء**، ج 1، ص. 44، ط. 1963.

(المصرية، أي الغرفة الواقعة في طبقة عليا (العلية بالفصحى). ولعل لوجود طبقات في الأبنية منذ القديم بمصر أثراً في هذه التسمية).

ولا يخفى ما لتوازي الأصلين القبطي والبربري من أثر في تكييف كثير من أوجه الشبه بين العاميتين، بالإضافة إلى تأثير مظاهر الأصالة العربية في فصحى المغرب وعاميتها عن طريق القوافل التجارية ومراكب الحجيج ورسل الفكر من كبار الرحالين منذ القرن الهجري الثاني لعظيم ما اكتسبوه على طول منازلهم بأرض الكنانة.

لقد كان لكثير من القبائل العربية التي دخلت المغرب لهجات محرفة عن لهجة قريش التي نزل بها القرآن؛ ولكن تطورها اللغوي لم يخرج عن النطاق العادي في تبادل التأثير بين الفصيح والعامي، لأن المغرب ظل بعيداً عن التأثيرات الفارسية والرومية والتركية، وعاش في إطار مقفل طوال قرون تمكن خلالها من الحفاظ على كثير من معطياته اللغوية. فكان الخلاف أقل بين الفصيح والعامي. ويتجلى ذلك في المصطلحات المستعملة في كثير من مرافق الحياة. ولعل أبرز مظهر لعراقة المحتد العربي في قبيلة أو إقليم يتجلى في صفاء لسانها. وقد ارتكز ابن خلدون لتحقيق الأرومة على عنصرين هما: الموطن والعجمة (**التاريخ**، ج 6، ص. 96)، وإن كان الموقع الجغرافي لا يمثل في نظرنا عاملاً جوهرياً لإمكانية الهجرة في فترات سالفة.

ومن الصعب أن نميز بعد التفاعل اللغوي الناتج عن ارتباط الأقاليم بين ما جد وما تلد في هذه اللهجة. غير أننا إذا قارنا بين المصطلحات المستعملة في هذه القبيلة والتي تتبع المستعرب الفرنسي لوبينياك عام 1916 الكثير منها في كتابه "**نصوص عربية في زعير**" (طبعة باريس، 1952)، لمسنا مدى الصفاء الملحوظ في الكثير من الكلمات التي درجت على ألسنة العامة من أهل زعير مما لا نجد له مثيلاً إلا عند القبائل التي لا يتطرق الشك إلى عروبتها كالشاوية. وقد أشار كثير ممن درس أنساب الفصائل السلالية المغربية إلى أن القبائل الرحالة في سهول المغرب الغربية وأقاليم عبدة ودكالة والشاوية وشرقاً بالحدود الجزائرية ما زالت

تحتفظ بعروبتها الأصيلة التي طبعتها منذ الفتوح الأولى. وقد أثـر ذلـك في العنصـر البربري حيث لوحظ أن عامية القبائلية بـالجزائر تشـتمل علـى نحـو ثلـث الألفـاظ العربية (كوستاف لوبون، **حضارة العرب**، الطبعة الفرنسية، ص. 250). ولا يخفى ما تتسم به لهجات الأندلس وإفريقيا الشمالية من صفاء، بالرغم من عـدم تقيدهـا بالهندام الشكلي للفـظ، وبـالرغم مـن الألفـاظ البربريـة الـتي تسـربت إلى الأقـاليم العربية نفسها. على أن الكثير مـن الكلمـات الـتي يزعـم بعـض اللغويين رطانتهـا يتضح أصلها العربي بعد التحليل. فقد نشرت مثلاً مجلة "**مجمع اللغة العربيـة**" (ج 8، ص. 326، عام 1955) بحثاً للأستاذ شارل كونتز خبير لجنة اللهجات حـول أثـر اللغة العربية في عربية المغرب أورد فيه نماذج من الصيـغ والكلمـات الدخيلـة الـتي ترجع إلى أصل بربري. وقد وفق الأستاذ في طائفة من الكلمات، ولكنـه لم يتحـر في مقارنة الأصل العربي المحتمل لطائفة أخرى مثل:

1 - أملوس (الوحل) الذي يمكـن مقارنتـه بـاللفظ العربـي (الملـس)، وخاصـة الملص، بمعنى الزلق؛ إذ أعظم خاصية في الوحل أنه مدعاة للزلق.

2 - داليس (الخيزران) bambou تقارن بالدلس، وهو نبت يورق آخر الصيف، ومعروف أن الخيزران لا يترعرع إلا في الحرارة وفيه عشرات الأنواع.

3 - المازوزي (الأخير من النتاج). ويظهر أنه مشـتق مـن «مـزز» الفصحـى، حيث يقال: «فعلته على مزز»، أي على مهل. فالمـازوزي يـأتي متـأخراً كأنه يتمهل في انبثاقه.

4 - قطوس (قط): من مميزات العامية سواء في المغرب أو بعض الأقطار العربيـة كسوريا ولبنان نقل بعض الصيغ من فعل أو فعلل أو أفضل إلى فعلول مثل أحق وحمقوق أو حموق وبط (كالبطة في السـمن) وبطبـوط وخنفـر أو مخنفـر وخنفور. فيمكن القول إذن بأن «قط» العربية أعطت «قطوس» العامية.

5 - أقراب، وهو الخرج أو الجراب مـن القـراب (لأن أداة التعريـف بالبربريـة هي الهمزة للمذكر والتاء المتصدرة، أي في أول الكلمـة؛ والمتكسّعة، أي في آخرها).

6 - ساط، بمعنى نفخ. ولعلها من ساط الفحم، أي خط بعضه ببعض ليتقد كله إذا كانت النار لم تمس سوى جانب دون آخر. والبادية تستعمل الكثير من ذلك، كالمسوط للتحريك والنفخ. وقد ورد في "**المعجم الوسيط**" أن المسجر هو الخشبة التي تسوط بها الوقود في التنور.

7 - كفس، بمعنى لطخ بسواد أو فضح أصلها كفس، أي أعوج، والتكفاس بالعامية الاعوجاج، إلخ.

وقد تحدث كرد علي عن «عجائب اللهجات» (مجلة **مجمع اللغة العربية**، ج 7، ص. 128، سنة 1953) فقال: «لعل الدخيل كان نادراً في أرض الأندلس، لأن الأمويين توخوا الوحدة في كل شيء»، إلى أن قال:

> وكانت اللهجة الأندلسية من أجمل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء إلى البلاد التي نزلوها: مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام، ولعلها كانت لقربها من الفصحى أشبه بلهجات اليمن والحجاز، والأندلس استعملت ألفاظاً فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام.

ولاحظ فليش (Fleisch) في "**المدخل لدراسة اللغات السامية**" (ص. 101) أن لهجة المثقفين العامية تقتبس من الفصحى اللغوية بكيفية خاصة. ويعني بذلك أنها لا تتقيد كثيراً بالأوزان والصيغ.

وإذا أردنا أن نبلور مدى تأثير لهجة مصر في المغرب، وجب أن ننظر بين عاميتي القاهرة والرباط. إذ التوافق ملحوظ في اللهجة العامية بين القاهرة والرباط عدا خلاف بسيط في الشكل مثل بات وباح يبات ويبوح بكسر فاء المضارع في القاهرة وبتسكينه في الرباط. وقد نشرت "**مجلة مجمع اللغة العربية**" (ج 7، ص. 319) تسعاً وخمسين كلمة بصدد دراستها للهجة القاهرية، ولاحظنا من بينها خمساً وثلاثين لفظة مشتركة في المادة عدا الخلاف الشكلي المذكور. ومن بين أمثلة ذلك: بخس يبخس بكسر الخاء في القاهرة وفتحها بالرباط، وبدا يبدي (ق) ويبدأ (ر) وبدر يبدر وبرق يبرق وبرم يبرم وبشر يبشر بضم عين الكلمة (ق) بدل فتحها (ر) وبطأ يبطئ بكسر الطاء (ق) وفتحها (ر) وبل (ق) عوض بلل (ر).

يضاف إلى ذلك تباين خفيف في النطق (ترقيقاً وتفخيماً وإمالة، إلخ) مع المؤثرات اللغوية الخاصة كالتركية على نسق التأثير السرياني والنبطي في الشام. وهنا نورد مفردات تفاعلت خلال التاريخ في نطاق مؤثرات موحدة أو مختلفة:

- ء -

أبو جعران: كنية الجعل بوجعران.

أبو علي: الرجل اللطيف الكريم (مصر)؛ وأبا علال: في المغرب كناية عن الفقر المدقع.

أتسرق، أي أنسل خلسة من انسرق (المغرب)؛ ويقال: انسرأ في (مصر).

اعشاري، أي عشري نسبة إلى عشرة (مصر والمغرب).

امتا، أي متى (ويقال أيضاً يمتى في المغرب وميته بالإمالة في الصعيد المصري).

انفضح، بمعنى افتضح في مصر؛ ويحتفظ المغرب باللفظ الفصيح وهو افتضح، لأن المغرب لا يستعمل صيغة انفعل إلا لمعنى المطاوعة.

أور عينيه (مصر)، قلعهما أو عورهما؛ ويقال خور عينه بالمغرب. ولعل الكلمتين من قار يقور قوراً، بمعنى العور.

ايس لغة في يئس، وهي مستعملة في البلدين.

ايش، بمعنى أي شيء. خفف منه. نص عليه ابن السيد في "**شرح أدب الكاتب**" وصرحوا بأنه سمع من العرب (**شفاء الغليل**، «ايش»، ص. 15).

- ب -

باب الفتوح: إحدى أبواب القاهرة وفاس.

بابوج: بابوش (كلمة فارسية): حذاء.

باس: قبل، والبوس التقبيل (يقال بأنه فارسي معرب) (**شفاء الغليل**).

باسل: فلان باسل أو كلامه باسل، أي ثقيل لا معنى له.

الباع: مقياس يمتد من طرف أصابع اليد إلى طرف أصابع الأخرى. وتقول العامة في مصر والمغرب: «فلان باعه طويل»، أي له قدرة ونفوذ.

بتاع: هذا الشيء بتاع فلان، أي متاعه أو في ملكه (متاع في المغرب).

بحلق بعينيه: أي حدق النظر وحملق.

برا: أي في الخارج، ومنه براني، أي غريب وأجنبي.

البربر: لفظ يطلقه المصريون على سكان النوبة لـبربرتهم، أي كـثرة كلامهـم وجلبة لسانهم ويطلقه العرب في المغرب على سكانه الأصليين للسبب نفسه.

برطم: تكلم بكلام غير مفهوم (بركَم في المغرب).

برمكي: معناه في مصر فاقد الغيرة، ذو أعمال جنسية شائنة. أما في المغرب، فمعناه الكريم نظراً لكون البرامكة كانوا في عهد الرشيد موصوفين بذلك.

بريمة: مثقب (لعلها مشتقة من الإيطالية Barrena).

البزبوز: القصبة أو القضيب المجوف، ويطلقه المغاربة على أنبوب الصنوبر.

بسبس: دعوة الهر إلى الطعام، يقال له بس بس بس (بفتح الباء في المغرب وكسرها بمصر).

البشماط: المرادف العربي للبشماط هو الكبنة، أي الخبز اليابس (**المخصص**)، (البقسماط في مصر).

بشويش (بفتح الباء في المغرب): أي بتؤدة وهدوء. يقال: «تكلم بشويش».

البصارة: تصنع من الفول المطبوخ بماء وتوابل وبصل وسمن.

بصبص الكلب بذنبه، حركه.

بطال: عاطل من العمل، تعطل الأجير فهو بطال.

بطنطة: ضريبة التجارة.

البعبع: ما يخوف به الصبيان (بعو بالمغرب).

البعصوص: أي العظم الصغير الذي بين إليتي الإنسان. ويستعمل عامة المغرب الكلمة الفصحى.

بعيد: يقال: «هو البعيد»، أي الأجنبي.

بغل: «فلان بغل»، أي غبي. ومن العادات المشتركة بين مصر والمغرب أن البلغة إذا حملت وولدت، فهذا دليل على انتهاء عمر الدنيا.

البقال: حسب "**القاموس**" ــ بمعنى «بياع الأطعمة» عامية، والصحيح «البدال». وقد ورد في "**فقه اللغة**" أن البقال بمعنى بائع البقول معربة عن الفارسية (المغرب ومصر).

بكرج: وعاء القهوة، ويسمى في المغرب بقرج ومقرج، وهي كلمة تركية معناها: غلاية.

البلغة: حذاء من جلد أصفر «ويظهر أن أصله من فاس في المغرب، لأنهم ينادون علهيا البلغة الفاسية» (أحمد أمين، **قاموس العادات**، إلخ، ص. 95).

بندير: آلة للطرب كالدف ولعل أصلها إسباني (bondera).

بنديره: العلم، وهي إيطالية (bandiera).

بهدله: أي احتقره واستخف به (الشعراني، **لطائف المنن**، ج 1، ص. 175).

البوري: سمك ينسب إلى قرية بساحل مصر قرب دمياط، وذلك حسب ياقوت (**شفاء الغليل**، ص. 46).

بوغاز: أي مضيق. كلمة تركية عربيها الزقاق كغراب، وهو مجاز البحر مثل ما بين طنجة والجزيرة الخضراء (المغرب ومصر).

بونية: عربيها جمع الكف (**القاموس**)، وهي فرنسية الأصل (المغرب ومصر).

بياع: أي بائع مثل بياع الرؤوس (عربيها الرءاس) وبياع الزجاج (عربيها الزجاجي) (مصر والمغرب).

تأفف: أي قلق وغضب، فكأنه يقول لمن يخاطبه: «**أف بك!**».

ـ ت ـ

تبهر: أي عجب من أبهر، أي جاء بالعجب. وأصل انبهر تأثر بأشعة الشمس ووهجها. وقد اقتبس العامة في مصر المعنى نفسه من كلمة عربية أخرى هي وهر، فيقولون: انوهر، أي انبهر وعجب. إذ الوهر توهج الشمس، ويستعمل المغاربة أيضاً تفهر بالفاء.

التربيعة: مكان بالقاهرة تباع في البضاعات المغربية من بلغ وبطاطين (أحمد أمين، **قاموس العادات**، ص. 96)، وكذلك العنبر المحلول وعطر الورد والزهر (ص. 115). والتريبعة ـ بالتصغير بتقديم الياء ـ تفيد في المغرب المعنى نفسه.

ترزي: الخياط، وهو من الدرز، أي الثوب بالفارسية وبنو درز: الخياطون، ويقال الدراز بالمغرب، وهي من الطّرّاز، أي صاحب الطراز.

تعبان: أي متعب. و لم يعرف عند العرب على ما يظهر (مصر والمغرب)، عدا ألفاظ قلائل مثل غضبان.

تعنطز فلان: تكبر وتجنب الناس، ويسمي المغاربة العبيد وأولاد الإماء العناطيز، لأنهم يعيشون عادة معزولين عن الناس.

تفرج على لعبة: تفكه بالنظر إليها.

تفرشح: جلس وفرج ما بين رجليه. ويقال في المغرب: تفرشخ (بالخاء بدل الحاء المهملة) بمعنى جلس ماداً رجليه (ولها في المغرب معنى آخر يقال تفرشخ البطيخ بمعنى تكسر).

وتستعمل لفظتا فسخ وقشح في مصر بهذا المعنى.

تفنطز: كلمة يونانية معناها تريض (phantasia). وتوجد في العامية المغربية، ولعلها اقتبست من الكلمة الفرنسية fantasia لألعاب الفروسية التي كانت تسمى قبل بالتبوريدة (أي اللعب بالبارود).

تكابوا على الشيء: بمعنى ازدحموا عليه واشتهرت في مصر خاصة اتكببوا (بكسر الباء الأولى وتشديدها).

تكَرع: تجشأ، ويقال تبعج في الشام. ولعلها من تجرع الماء إذا بلعه. فالجشاء من لوازم تجرع الماء.

تمسخر ومسخرة: فلان يتمسخر بك (بيتمسخر في مصر، أي يهزأ بك).

تندة: مقتبسة من tente الفرنسية بمعنى ظلة أو خباء، وعربيها الزفن، وهو حسب "**القاموس**" ظلة تتخذ فوق السطوح تقي من حر البحر ونداه.

تنهد: أي تنفس الصعداء، وعربيها تنفس وزفر.

- ج -

جَابْ الشيء: جاء به.

جاحم: أي دفع نفسه وسط آخرين. وقد لاحظ الدكتور أحمد عيسى في "**محكمـ**"ـه أنها من الجحيم. ويظهر أنها من زاحم مزاحمة، بمعنى مدافعة الناس.

جرجر: أي جر وجذب. ويقال إنها سريانية الأصل. وقد اقتسبها المغاربة من العربية الفصحى لا من السريانية التي لم تؤثر في العامية المغربية، نظراً لانعدام كل صلة بين المغاربة والسريانيين تاريخيا.

الجعيدي: الجعد من الرجال المجتمع المتداخل المدمج. ويطلق في مصر على من قل ذوقه وكياسته، وفي المغرب على الضعيف البنية كأن أجزاء جسمه تندمج في بعضها.

جلبية: جلباب أو قميص (جلابية بالمغرب).

جليطة: بتسكين اللام في مصر وتشديدها في المغرب، معناها الخلط وعدم الإتقان. تقول: «فلان جليط عمله»، إذا لم يتقنه (جلط في المغرب ومنها الإتباع المغربي: خلط جلط).

جواني: براني.

الجوخ: نوع من النسيج. والجوخة كلمة فارسية معناها: الكساء من الصوف.

الجوق: فرقة تقوم بعمل واحد كالجوق الموسيقي ويقال بأنها تركية الأصل.

- ح -

حاف: خبز حاف، أي من غير إدام.

حب الرشاد: عربيها الحرف ("**المخصص**")، ويستعمل عامة المغرب الكلمتين وخاصة «الحرف».

الحجاب: الحرز اشتهر باستعماله المصريون، ويعمله المغاربة للتحصن، ويطلق عليه في كل من المغرب ومصر لفظ «الحرز».

الحرقة: ما يجده الإنسان عندما يطعم شيئاً محرقاً، أي حاراً أو دسماً يثير نوعاً من التخمة في معدته.

الحريرة: دقيق يطبخ بلبن أو دسم ("**القاموس**") (مصر والمغرب).

الحريف: الزبون، وحريفك: معاملك في حرفتك. والزبون مولد (**القاموس**)، ويستعمل عامة مصر لفظة «زبون» المولدة وعامة المغرب كلمة «حريف».

الحشيش: الكيف القديم. ولعل منه اسم الحشاشين، أي القرامطة شرابي الحشيش.

حط: بمعنى وضع. اشتهرت في عامية مصر والمغرب، وتستعمل في الفصحَى في مثل العبارة التالية: حط ا لله عنه الوزر، أي وضعه عنه.

الحفا: عدم لبس شيء في الرجل.

حمص القهوة: قلاها على النار، وهي عربية حسب الأزهري (حب محمص أي مقلو).

حوائج: ما يلزم الإنسان من ملابس وغيرها.

- خ -

الخازوق: الخشبة كانت تستعمل قديماً لإعدام المجرمين، وهي من الخزق، أي الطعن بالرمح. وقد دخلت إلى مصر عن طريق التركية ولا ندري كيف تسربت إلى المغرب. فهل تم ذلك في عهد السعديين بسبب تسرب العناصر التركية إلى المغرب أو عن طريق التجار المغاربة الذين استقر منهم عدة آلاف .بمصر، ولا سيما في عهد العلويين؟

خربشة: خدشة وخمشة.

خربق عمله: أفسده (تستبدل العامة في مصر بالقاف الألف فتقول: خربأ).

خرخش: أي صوت، وتستعمل بالمغرب لصوت الآلة، وفي مصر لأزيز الصدر.

خردة: قطع الحديد المستعمل، وهي كلمة فارسية مقتبسة من الخرثى الفصحى على ما يظهر.

الخس: بقل عريض الورق يؤكل نيئاً (مصر والمغرب).

خلاه: خلاه في المحل، أي تركه. يقال: «خله في المحل، أي اتركه حتى تعود إليه».

خمسة وخميسة: عبارة عن كف فيها خمسة أصابع يزعمون أنها تدفع العين (أحمد أمين، **قاموس**، ص. 195). وقد عرفت في إفريقيا الشمالية منذ عهد القرطاجنيين، وتوجد صوره لها في متحف باردو بتونس؛ ويقال في المغرب: «خمسة الخمامس» بدل «خمسة وخميسة» في مصر ويسميها الفرنسيون «يد فاطمة».

الخنفسة: أي غير الجميلة. وفي المثل المصري: «الخنفسة عند أمها عروسة» ويقابله المثل المغربي: «كل خنفوس عند مو غزال»، أي كل خنفسة لدى أمها غزالة.

الخوا: بكسر الخاء (وتسكينها بالمغرب)، أي الفراغ. يقال: «شربت على الخوا»، أي على الريق، والخواء فراغ المعدة من الطعام.

خواجه: كانت تطلق في الأصل على الأعيان والتجار، ثم أطلقت على الأجنبي بمصر، ولكن المغرب احتفظ بمعناها الأصيل، وهي لفظة فارسية معناها سيد (مصر والمغرب والشام).

خوخ الفاكهة: فهي مخوخة، أي فارغة القلب لا لب فيها.

الخوخة: تطلق غالباً على الباب الصغير في قلب الباب الكبير، وعربيها حسب "**القاموس**" هو «الخادعة». وقد ورد: «سدوا كل خوخة إلا خوخة أبي بكر».

- د -

الدادة: المربية، ودادا كلمة فارسية معناها خادم ومربية.

دحدح فلان: مشى على مهل أو تقارب خطوه مع سرعة، والدحداح في المغرب: القصير، وتلك هي صفة سير كل من قصر جسمه.

درابزين: الحاجز الحامي في السطح أو الدرج (دربوز بالمغرب).

دربكة: الطبل الصغير، وهي فارسية. عربيها «الكوبة» التي أشار إليها صاحب "**القاموس**".

الدرفة: درفة الباب، أي مصراعها. وهو من الدفة، بمعنى الجنب. ويستعمل العامة في المغرب لفظة «دفة» بدل «درفة» في مصر.

درويش: فقير. كلمة فارسية ("**البرهان الجامع**") (مصر والمغرب).

الدشيش: دشيش الفول طحينه، وهي من جش الحب إذا دقه. ويقال «الدشيشة» في المغرب (الطحين المدقوق).

دغري: مشى الرجل دغري، أي قدماً لا يلوي على شيء. ويقال بأنها من «طغرو» الفارسية بمعنى مستقيم أو «طوغري» التركية.

الدمغة: الطابع والتنبر. ويقال أيضاً «التمغة» بالمغرب، وهي فارسية (من التمغ أو الطمخ).

دندن: غنى بصوت أو آلة موسيقية.

دهست السيارة الرجل: أي داسته ودعسته. وتستعمل العامة بالمغرب «معس» بهذا المعنى مستبدلة الدال ميماً.

الدوار: معروف في ريف مصر، بمعنى مكان يضم عناصر اجتماعية كالأمير والمدير والمعلم وغيرهم. فهي نواة حضرية، وأصلها فارسي (دوارا) وهي بمعنى «القرية» بالمغرب.

- ر -

رأس مشعنن: أي منتفش الشعر، أشعث.

الرزمة من الثياب: ما شد في ثوب واحد.

رغرغت عينه بالدمع: أي اغرورقت (غرغرت بالمغرب).

الرقاق: الخبز الرقيق واحدتها رقاقة (رقاقة بالمغرب).

الرقعة: عربية معناها البطاقة استعيرت لرقعة الشطرنج، وهي دخيلة حسب "**شفاء الغليل**". ومن أدواتها المعروفة كذلك في عامية مصر والمغرب: البيدق والرخ والفرز والفرس والشاه.

- ز -

الزريبة: المكان الذي تنام به البهائم، وهي فصحى.

زعأ: صاح من الزعق. (زعق بالمغرب).

زعلوك: أي صعلوك. وقد ورد «زعلوك» - بضم الزاي - بمعنى القصير المجتمع العضل. ويطلق بالمغرب خاصة على شديد المراس وصعب الطبع (مصر والمغرب).

زغرتت النساء في الأفراح: من الزغردة، وهي هدير الفحل يخرج من حلقه، فاستعير منه صوت النساء يتردد بين ألسنتهن وأصابعهن.

زفر: ريحه زفرة، أي منتنة، وهي رائحة بعض الأطعمة كاللحم والجبن وهو من الذفر، أي شدة رائحة الطيب أو النتن.

زلأ: أي زلق (زلق بالمغرب).

الزلط: يقول المصريون: «فلان رأسه زلط فيه». في الجزائر: «فلان زلط من فار الجامع»، وهو المدلول المغربي للزلط بمعنى الفقر.

الزمت: شدة الحر ووقوف الريح، وهي من زمته إذا خنقه.

زنبيل: وعاء من خوص. هو المعنى العربي الأصيل، ويطلق في المغرب خاصة على وعاء من نحاس.

الزواق: النقش بالألوان، وهو من الزاووق، أي الزئبق. ويسمى الزئبق بالمغرب: الزواق.

- س -

السبوع: اليوم السابع من ولادة الطفل والسبوع لغة في الأسبوع.

السبيل: صهريج يخزن فيه الماء لشرب الناس في قارعة الطريق. ولعله من السبل بحركتين، أي المطر الهاطل والسبيل، أي الطريق.

ستف: رتب، وهي من صفه أو صفصفه فاصطف وهو مصطف (مستف).

سطل: بمعنى بقرج، ولكن له عروة خاصة، وهو ستل بالفارسية (situla) باللاتينية.

السقاء والسقا: موزع الماء على البيوت (مصر)، وهو المسمى «القراب» بالمغرب لحمله القربة على ظهره، و«القربة» هي السقاء (بكسر السين).

سك الباب: سدها. ويقال في المغرب أيضاً: «سكرها»، وهي سريانية. وفي مصر: «سنكر» بزيادة النون.

السميد: لون من ألوان الدقيق، وهو معرب عن الفارسية ("**فقه اللغة**") واستعمله الحريري في "**مقامات**"ـه. ويقال السميد بالمغرب، والسميط بمصر.

السوة (بكسر السين في مصر وفتحها في المغرب): أسفل البطن، وهي من السوأة بمعنى الفرج، ولكنها أطلقت خاصة على الدبر.

سيأ الأرض: غسلها (سيق بالمغرب)، وهي من «صيأ رأسه» إذا غسله فلم ينقه ("**متن اللغة**").

السيفون: مجرى خاص للماء أصله siphon (مصر والمغرب).

- ش -

شاف: أي تطاول ونظر.

شألب: أي سقلب، بمعنى صرع؛ وأصلها قلب، وهي شائعة أيضاً في الشام (شقلب بالمغرب).

الشايط: الطعام الذي يحترق على النار، فيسوء طعمه وتفسد رائحته فيرمى. والشايط في المغرب هو كل ما يرمى.

الشربات: الماء يذاب فيه السكر مع ماء الورد للمناسبات المفرحة.

الشربة: الحساء الذي يقدم قبل الطعام. ومقابلها التركي «جوربا».

شرشر الماء: أي خرّ، بمعنى اشتدَّ سيله.

شرمط: مزق (اشرمط في مصر). وذكر الدكتور أحمد عيسى في "**المحكم في أصول الكلمات العامية**" أنه من اثرنمط السقاء إذا انفتح والاثرنماط اطمحرار السقاء إذا راتب ورغا. ففي ذلك معنى التمزق. «ويظهر لي أن أصل شرمط شرم فهو أشرم إذا انشق وتنزق وتشرم، أي تمزق. وأصل تشرمط تشرمت (تاء التأنيث)، وقد تكون من الشرط بمعنى الشق فتكون الميم زائدة».

شقافة: أي شظية الخزف، والشقف الخزف المكسر (شقفة بتسكين القاف في المغرب).

الشكال: أي رباط العقال للفرس، ولعلها فارسية دخيلة في الفصحى.

شكم الدابة: شد فمها بالشكيمة.

الشنطة: الوعاء من الجلد تحفظ فيه الملابس (ويطلق في المغرب على الحقيبة) وأصلها تركي على ما يظهر (جنته).

شوشة: شعر قمة الرأس، ومعناها بالسريانية كبة القطن. وتطلق في المغرب على أزرار الحرير السوداء المتدلية من الطربوش.

شوية: أعطني شوية، أي شيئاً يسيراً.

الشياط: رائحة الاحتراق.

الشيت: نوع من القماش (أصلها هندي).

الشين: علامة النفي في اللهجتين مثلاً: «فلان ما جاش»، أي لم يات (أصلها «لم يأت شيء»).

وما كلتش: أي لم آكل شيئاً و«أخذتش حاجة؟»، أي هل أخذت شيئاً؟ (وأضيفت «حاجة» لزيادة البيان).

- ص -

صرصع: صاح بصوت عال، وهي من «صرصر». وتستبدل العين حاء بالمغرب فيقال: صرصح.

صنارة: حديدة الصيد.

صنايعي: نسبة إلى الجمع وهو صنائع (على خلاف القاعدة الغالبة) وجمعه «صنايعية» بمصر والمغرب.

صينية: طبق يجهز فيه الطعام ويطلق في المغرب على طبق من نحاس تصف فيه كؤوس الشراب، وهو منسوب منذ العهد الجاهلي إلى الصين التي يستورد منها.

- ط -

طابور: صف العساكر (التابور تركية).

طاجن: وعاء للطبخ (كلمة يونانية).

الطار: محرف على «إطار» الأعجمية وعربته الدف وقد دخل في عامية مصر والمغرب وغيرهما (ويقول عامة المغرب «طر»).

طاقة: كوة.

طاقية: ما يلبس على الرأس، ولعلها مشتقة من تقية، أي وقاية الرأس من الحر والقر.

طبطب على الولد: ربته.

طربوش: قبعة تركية («سربوش» بمعنى غطاء الرأس كلمة فارسية)، أشار إليها ابن دحية في تفسير حديث «يلبسون الشعر»، أي السرابيش.

طز: كلمة يقولها الإنسان إذا شاهد شيئاً رديئاً أو قبيحاً، فتكون بمعنى السخرية («دز»، بالفارسية و«طاز» بالتركية وقد عربت).

الطقس: حال الجو من حر أو برد.

طنجرة: وعاء للقلي أو الطبخ (تنجرة أو طنجرة تركيتان)، والطنجير بالمغرب معناه الطنجرة الكبرى.

- ع -

عافر الرجل: بذل جهده ليقوم بعمل (تعافر بالمغرب).

عبد اللاوي: نسبة إلى عبد الله، ومنه البطيخ العبدلاوي.

عربية أو عربة: عاميتان مرادفهما «عجلة»، وأطلق على مركب في عجل تجره الخيل، و«العربية» هي الشائعة عند عامة مصر والمغرب.

عرقان: فصيحة بمعنى «عرق» (**"المصباح"**). يقال: «عرقان» في مصر والمغرب.

العرقسوس: عِرق نباتي حلو يمتص.

عيان: مريض. ومدلوله الأصيل في الفصحى من الإعياء في الأمر والشيء لا في المرض (**القاموس**) (مصر والمغرب).

عيط: نادى، والعيطة في المغرب نوع من السماع يضرب فيه على الدفوف.

العينة: النموذج من السلع (العينة بتسكين الياء في المغرب).

- غ -

غامق: لون أسود غامض، أي شديد السواد؛ ومقابله «فاتح» إذا خف لونه.

غرقان في الدين: أي فيه بحيث لا يستطيع أداءه.

الغريبة: نوع من الكعك يصنع من دقيق وسمن وسكر ويكثر فيه السمن (أحمد أمين، ص. 299).

- ف -

فتافيت: ما تبقى من قطع الخبز على المائدة، من فته إذا دقه («فتايت» بالمغرب).

الفدان: وحدة المقاييس المصرية أو الممرات وهو لفظ نبطي ("**شفاء الغليل**")، ويطلق الفدان بالمغرب على الحقل الزراعي.

الفرت (بكسر الفاء): الكرش، وأصله الفرت (وهو بفتح الفاء في المغرب).

فرتك: قطع ومزق مثل الذر.

فرجية: ما يلبسه العلماء فوق ملابسهم. ويقال إن أصلها يوناني وإن الأتراك اقتبسوها، وتطلق في المغرب على لباس يجعل فوق الثياب للرجال والنساء وهو منفرج من الأمام. لذلك لا يبعد أن يكون أصلها عربياً.

فرحان: فرح ("**القاموس**"). يقال «فرحان» بمصر والمغرب.

فرم: أي قطع وكسر، وهي سريانية الأصل على ما يقال. ولعلها دخلت إلى المغرب عن طريق الفصحى، نظراً لانعدام التأثيرات السريانية في اللهجة المغربية، وهي تطلق في المغرب على الكسر الجزئي كفرم الأسنان أو الكأس.

فش: أي فتح. ويقال في المغرب: «فش الوطب»، أي أفرغه من الهواء. وفي المثل: «فشه فش الوطب»، أي أزال نفخته وكبرياءه.

الفشار: الكذاب المغالي في كلامه.

فقس الطائر البيضة: فضخها.

الفقي (بالهمزة وكسر الفاء): الفقيه.

الفلقة: الآلة تمسك بها الأقدام في الكتّاب لضرب الصبيان. ويقال بأنها يونانية، واقتبس منها الفرنسيون palanque.

فلوكة: سفينة صغيرة، وهي من الفلك، أي المركب.

فلصو: أي زيف وزائف. «درهم فلصو»، أي زائف. وأصلها إسباني (falso) أو إنجليزي (false) (مصر وشمال المغرب). ويمكن مقارنتها بكلمة «فلس وإفلاس» العربية.

فميلية: أسرة. وعاميتها «عائلة» بمصر والمغرب، وهي من اللفظ الفرنسي famille.

الفنطزية: نوع من اللعب بالبارود على صهوة الخيل. وهي يونانية أخذ منها الغربيون fantazia.

- ق -

قارب: سفينة صغيرة، وهي يونانية - على ما قيل - عربت.

القراع: مرض جلد الرأس، وأصله القرع بحركتين، أي بثر يخرج بالرأس (القرعة بتسكين الراء في المغرب).

قرنص من البرد: تقبض، ويقال في المغرب: «حنية مقرنصة أو مقربصة» (بالباء)، أي متقبضة النقش والترقيم (stalactie).

القرينة: الجنية تكون من الشخص.

القصرية: الوعاء يتبول فيه. وأصلها من اللاتينية gastrum. ومعناها إناء مجوف، وتطلق في المغرب على وعاء مجوف لعجن الخبز.

قطع اللبن أو لبن قاطع: بمعنى حامض (و«انقطع الحليب» في المغرب أو «تقطع»)، أي لم يصلح لأن يغلى أو يروب نظراً لعدم طراوته، ولعلها من قطع الخمرة بالماء: مزجها) **(متن اللغة)**.

القفطان: من الملابس الخاصة بالرجال في مصر ويلبسها حتى النساء بالمغرب، وأصلها «قفتان» التركية المقتبسة هي أيضاً من «خفتان» الفارسية.

قفقف من البرد: ارتعش، وهي فصيحة. تستعمل في مصر والمغرب.

قلع ملابسه: أي خلعها وهي بحركتين في مصر؛ إلا أنها مشددة اللام بالمغرب، حيث تستعمل بمعنى الانتزاع كقلع الأسنان أو تقليع الحجارة من الأرض. وهو معنى فصيح.

القهاوي: المقاهي.

قورمة: مأخوذة من« قارومة» التركية، وهي لحم يطبخ بالبصل (المغرب ومصر).

ـ ك ـ

كاكي: تقول: «كاكت الدجاجة»، أي صوتت عند البيض. وأصلها «قاقت». وتستعمل العامة بالمغرب هذا اللفظ فتقول: «الدجاجة تقاقي».

كاني ماني: يقال بأنها تركية. ومعناها «كيت وكيت»، بمعنى الإكثار من الكلام عن طريق التلميح والكناية. ويقول العامة في المغرب: «كيني ميني».

وأكد الدكتور أحمد أمين أنهما كلمتان قبطيتان. فـ«كاني» معناها السمن، والثانية العسل. وهي في الأصل خلط السمن بالعسل، ثم استعمل في خلط صحيح الكلام بفاسده، ثم في الكلام غير المفهوم (**قاموس العادات**، إلخ. ص. 333).

كاوح أو أوح: في مصر من كافح، أي قاتل وناضل. وتستعمل في المغرب «المكابرة»، وتروج عند عامة المغرب كلمة «كافح» الفصحى في المعنى نفسه.

الكباب: قطع صغيرة من اللحم تشوى في السفافيد، ويظن أنه فارسي عربه المولدون (**شفاء الغليل**، ص. 174).

كح: سعل (كحكح بالمغرب، وهي ترديد للمحاكاة أو على نسق جرجر بدل جر).

كرنفال: مسخرة. أصلها فرنسي Carnaval (مصر والمغرب).

الكسكس: طعام معروف بالمغرب خاصة ـ يكس، أي يدق ـ من القمح. فهو مكسوس ومكسكس، ويسمى الكسكس بالمغرب.

كش كش (بكسر الكاف): زجر الكلب ونحوه. وهو في المغرب بضم الكاف.

الكفتة (بضم الكاف في مصر وفتحها بالمغرب): اللحم المهرم، أي المقطع قطعاً صغاراً (ويقال في عامية مصر والشام «المقروم»). ويقال بأن اللفظ فارسي دخل إلى التركية، ومنها إلى بعض العاميات العربية كالمصرية والمغربية.

كفى القدر: أي قلبها («كفحها» بالمغرب).

الكمنجة: بمعنى الرباب. معرب حسب "**شفاء الغليل**".

الكوارع: الكراع مستدق الساق عند البقر والغنم وجمعه أكراع وأكارع، وتجمعه العامة بمصر والمغرب على كوارع.

كورجة: باع كورجة، أي بلا وزن ولا عد. وهي تركية معناها العمى. ووجه الشبه ظاهر بين هذه الآفة والبيع الأعمى بلا تبصر.

الكيب: في مصر هو الحصير من ألياف البردي، وهي من اللفظة التركية كيب. ومعناها غطاء. وتستعملها العامة في المغرب (الباء والميم) بمعنى غطاء من خشب يجعل فوق الدكاكين على نسق الإفريز. والاستعمال المغربي أقرب إلى الأصل التركي.

الكوشة: موقد الحمام. وعربيها «الأتون». وتستعمل الكوشة عند عامة مصر والمغرب خاصة لأتون الآجر، وهو بيت يطبخ فيه الآجر.

كومبانية: شركة (compagnie) (مصر والمغرب).

الكيف: بعض أنواع التبغ (يقال له في مصر «حسن كيف»).

- ل -

لبارح ـ البارحة: أي الليلة الماضية، ويقال في مصر «امبارح» باستبدال «أم» من «أل» على لغة حمير لقوله عليه السلام: «ليس من امبر امصيام في امسفر».

اللبخة: دواء كالمرهم يوضع حاراً أو بارداً فوق العضو الألم (اللبخة).

الألثغ: من في لسانه عسر في نطق بعض الحروف كإبدال الراء غيناً بوجه خاص (وهو كثير بفاس)، وتقول العامة بمصر «الدغ» بإبدال الثاء دالاً.

لهط الرجل في الأكل: أي ازدرد اللقم الكبرى دون مضغ. وتستعمل في المغرب خاصة للتعبير عن إظهار التلهف في الطعام. ولفظة «لهف» جارية أيضاً بهذا المعنى في البلدين.

ليلة الحنة: هي التي تسبق عادة الزواج وللحمام والحناء فيها أهمية، وليلة الدخلة الزفاف والبناء.

- م -

مبلم (بكسر الميم في مصر وبتسكينها في المغرب)، أي ساكت لا ينبس ببنت شفة.

المتختخ: أي المسترخي من كثرة الماء (بكسر الميم في مصر وبتسكينها في المغرب)،

المترد: وعاء اللبن والثريد، وأصله المثرد.

أمخروع: ضعيف لا يقدر على العمل.

مخطوف: لون مخطوف، أي أصفر.

مخوخ: فارغ اللب.

مدغس: عين مدغسة، أي ضعيفة البصر. يستعمل عامة المغرب خاصة «مدعمس» بالعين المهملة.

مزنجر: أي يعلوه الصدأ أو الزنجار.

مسوكر: جواب مسوجر أو مسوكر، أي مؤمن عليه أو مضمون (assicurare).

المضربة: النجاد المخيطة بالقطن ("**المصباح**") (ويقال: «مضربية» في مصر).

المعجون: خليط لتخدير الأعصاب.

الملابطة: المصارعة («الملاكطة» بالمغرب).

«ملط» في مصر و«أملط» في المغرب: أي أملط لا شعر على جسده.

الميت: يتقارب المثلان المصري والمغربي: «الضرب في الميت حرام» (مصر)؛ «البكاء على الميت خسارة» (المغرب).

الميضة: المرحاض.

- ن -

نخشوش (بالنون في مصر) وتخشوش (بالتاء في المغرب): إذا دخل الماء في خيشومه، فأثار قلقه واضطرابه.

نش الذباب: أي طرده.

نغز: أي حرض. و«نغزه بإبرة»، أي وخزه. وفي الفصحى: «نخس».

نقر («نكَر» في المغرب) بالكاف المفخم، أي أكثر من الكلام المؤلف. «نكَر عليه»، أي لمزه بالكلام المؤلم.

ننه: تغنى للطفل لإغرائه بالنوم. ويسمى غناء الأطفال بالتركية: «نيني». والمهد بالفارسية «نانون».

نونو: الطفل الحديث الولادة (مصر). وهو من الكلمة الفارسية «نو». ويقال في المغرب: «نينو»، لكل جديد في لغة الأطفال.

نينة: معناها أم جدة. وأصلها «ننة» الفارسية. وقد اقتبسها الأتراك ثم العرب. ويستعمل عامة المغرب «نانة» (التي ترخم «نه»). وكثيراً ما يصف المغاربة الجدة بـ: حنينة، فيقولون: «جدتي الحنينة». ولا يبعد أن تكون «نينة» مرخمة عنها بحذف الحرف الأول على غير قياس تسهيلاً.

- هـ -

هبهب الكلب: نبح.

هجالة: عزب ويقال عزباء (الأزهري). وتستعمل في الغرب خاصة بمعنى الأرملة.

هطل فلان (بتشديد الطاء في مصر وتخفيفها في المغرب): استرخى.

الهمج: الطبقات الوضيعة من الناس. وأصله البعوض في العربية، ثم أطلق على كل رذيل من القوم.

هيه: زجراً للطفل إذا استعملت ياؤها ممدودة، هاه: هي كلمة وعيد حتى للكبار بمعنى حذار حذار!

- و -

الوحش (بفتح الواو في المغرب وكسرها في مصر): أي الرذيل من الناس.

ورديان: أي الحارس. أصلها بالإيطالية gardiano، أو الفرنسية gardien، أو الإنجليزية warden. وقد اشتق منها المصريون والمغاربة «الوردية». واستعمل عامة المغرب كلمة «وردن» للتدليل على عمل حراس الجمارك.

- ي -

يوغورت: اللبن الرائب في التركية. وقد دخلت إلى المغرب أخيراً عن طريق الكلمة الفرنسية yagourt.

تلك نماذج تبرز مدى تفاعل اللهجة الدارجة في مصر والمغرب.

القدس عربية منذ خمسة آلاف عام
في ضوء النصوص الكتابية والاكتشافات الأثرية

الدكتور شوقي شعث
دبي - الإمارات العربية المتحدة

مقدمة

القدس مدينة مقدسة عند أصحاب الديانات الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية. وهي بهذا تنفرد وتتميز عن غيرها من المدن المقدسة في العالم. هذه القدسية كانت وما زالت سبباً في الصراع بين أصحاب الديانات التوحيدية. وعليه لا توجد مدينة في الدنيا لقيت اهتماماً كمدينة القدس؛ إذ حظيت بدراسات وأبحاث متنوعة بلغت حداً لا يمكن تصوره في آلاف الكتب والدراسات والخرائط. قامت القدس في البدء على الطرف الجنوبي الشرقي من جبل موريا، ويبدو أن سكانها الأوائل اختاروا هذا الموقع، لكونه موقعاً محصناً من ثلاث جهات ولكونه يضم عدداً من عيون المياه، وهو شرط حيوي لقيام أي مستوطنة بشرية[1].

حملت **القدس** عبر تطورها التاريخي، وصولاً إلى عصرنا الحاضر، عدة أسماء منها: **أورشليم** (وتعني مدينة السلام)، **ويبوس** نسبة إلى سكانها اليبوسيين الأوائل، **والمدينة**، **وإيليا كابيتولينا**، **وإيليا**، **وبيت المقدس**، **والقدس الشريف**، **ودار السلام**، **والقدس**[2]. ففي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ورد اسمها في نصوص "**اللعنات**

---

(1) القدس، المؤتمر الثالث لبلاد الشام (فلسطين)، ص. 225، 1983؛ **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الأول، مادة ((القدس))، ص. 508 ب.

(2) شوقي شعث، **القدس الشريف**، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط، 1983، ص. 15.

المصرية" (Execration Text)[3] باسم روشاليموم (Rushalimum)[4] وورد اسمها في مراسلات تل العمارنة، التي عثر عليها في مصر إبان التنقيبات الأثرية، والتي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد باسم: أورشاليم (Urusalim)[5]. ونجدها في كتابات الملك الآشوري سنحاريب في القرن السابع قبل الميلاد ترد باسم أورشاليمو (Ursalimmu). وتأخذ في كتابات المؤرخين العرب المتأخرين عدة أسماء منها: يروسالم يروشالايم، ويبوس، وصهيون موريا، وإيليا، وبيت المقدس، والقدس، والقدس الشريف، والبلاط وغيرها.

أسس العموريون (أول القادمين من العرب القدماء إلى بلاد الشام) [6] واليبوسيُّون الذين هم فرع من العموريين ـ الكنعانيين، وسادت ثقافتهم وديانتهم ولغتهم وأشكال حياتهم. وحينذاك لم يكن للإسرائيليين وجود إلا في الروايات التوراتية التي تتحدث في وقت متأخر، في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، عن تاريخ القدس حيث تزعم أن داوود الملك أخذ المدينة عنوة من اليبوسيين؛ والثابت أن المدينة استعصت على المهاجمين و لم يتمكنوا إلا من أخذ الحصن الذي كان يعرف بحصن صهيون فقط[7]، وظلت المدينة بسكانها ومؤسساتها يبوسية، و لم يصلنا أي علم بهجرهم المدنية؛ إلا أن الزمن ساعد على فقد المدينة تحصيناتها وربما وقع سلم بين الطرفين، وتدعي روايات التوراة أن المدينة أصبحت يهودية وعاصمة لمملكة يهوذا؛ إلا أن ذلك إن وقع، لم يدم أكثر من سبعين عاماً فقط.

---

(3) وهي نصوص مصرية قديمة حيث كان ملوكهم يكتبون أسماء المدن أو الحكام التابعين أو المعادين لهم على تماثيل أو أوان، معتقدين أنهم إذا حطموا هذه التماثيل أو الأواني، حاق الشرّ بالأشخاص أو الأشياء التي كتبت أسماؤهم عليها. فقد عثر عليها عام 1925 بمصر.

(4) شوقي شعث، **المصدر السابق**، ص. 15.

(5) **المصدر نفسه**، ص. 17؛ إسحاق الحسيني، ص. 43؛ الأب مرمرجي، **بلدانية فلسطين** (1948)؛ مادة «بيت القدس»، **الموسوعة الفلسطينية**، قسم 1، ص. 510 ب و ص. 1511.

(6) حول أصول العموريين ومواطنهم، انظر كتاب ألفرد هاليدار الذي عربه الدكتور شوقي شعث ونشرته دار الأبجدية بدمشق، 1993.

(7) كامل العسلي (محرر)، **القدس في التاريخ**، ص. 19.

النصوص الكتابية والروايات التاريخية

أمدتنا التنقيبات الأثرية بنص أثري ورد فيه ذكر لبعض أسماء حكام مدينة القدس الأوائل، وهو من نصوص اللغات المصرية من بداية الألف الثاني قبل الميلاد، حيث ورد فيه اسمان لأميرين هما: **ياقر عمو وساز عنو**، وقام عالم الآثار واللغات القديمة الأستاذ أولبرايت بتحقيق هوية الاسمين فقال إنهما اسمان عموريان[8]. ويعتبر ذلك متوافقاً مع الأحداث التاريخية التي كانت سائدة؛ فقد كان سكان سوريا فلسطين في تلك الفترة من العموريين (العرب القدماء)، أي من سكان الجزيرة العربية القدماء. لقد بقي اسم العموريين متداولاً فترة طويلة من الزمن، وكانت اللغة السائدة آنذاك هي اللغة العمورية (الكنعانية). ويقول فيليب حتي حول الموضوع: «ما أن حل الألف الثاني قبل الميلاد حتى غدت سوريا الطبيعية عمورية بلغتها وسكانها وممالكها» [9].

وهناك اسم «**ملكي صادق**» الذي تربطه الروايات التاريخية بالقدس وإبراهيم، ويعني هذا أن «ملكي صادق» كان يعاصر إبراهيم، وهو دون شك اسم عموري[10]. واسم «**عبدي حيبا**» ملك القدس في فترة العمارنة (نصوص تل العمارنة) الذي كان ظاهرياً مخلصاً لفرعون مصرٍ ورجلاً له في القدس. وهذا ما جعله ينجح في قتاله مع جيرانه في الجنوب اعتماداً على الدعم المصري له، هذه النجاحات جعلت عبدي حيبا في واجهة الأحداث. فنجد[11]«**سوار داتا**» من كيلتي (حربة كيلا في جنوب القدس)، يكتب إلى فرعون مصر شاكياً «لابايا من شكيم»: «استولى على المدن. لقد مات الآن لابايا، ولكن هناك عبدي حيبا آخر وهو يأخذ مدننا» [12]. وفي "**الكتاب المقدس**" ورد اسمان لملكين هما «أدوني بازق»، ويعني سيدي هو بازق؛ و«أدوني صادق»، ويعني سيدي هو صادق.

---

(8) **المصدر نفسه**، ص. 29.

(9) فيليب حتي، **تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان**، ج 1، مؤسسة فرانكلين، بيروت.

(10) كامل العسلي، **المصدر السابق**، ص. 29.

(11) **المصدر نفسه**، ص. 29.

(12) **المصدر نفسه**. حيبا هو اسم لرب حوري، وهذا يدل على التأثير الحوري في المنطقة.

وهما ولاشك اسمان عموريان. وعليه، فإن الشعوب التي سكنت القدس في بداية عهدها كانت من العموريين[13]. ونحن نعرف أن العموريين ظهروا على مسرح الأحداث التاريخية في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد في سوريا وبلاد ما بين النهرين، خاصة في نصوص سلالة أور الثالثة. وقد أطلق عليهم السومريون اسم «مارتو»؛ أما الأكاديون، فقد أطلقوا عليهم «عمورو»، وتعني بلاد الغرب أو الغربيون[14].

وتتحدث عالمة الآثار الإنجليزية السيدة كينيون أن شعباً جاء إلى فلسطين ابتداء من عام 2300 ق م هو العموريون، وكان شعباً بدوياً سرعان ما دخل المدن واستوطن فيها[15] تبعه شعب آخر من الأرومة نفسها هو الشعب الكنعاني نحو عام 1900 ق م وساعد على إنعاش وتطوير الحياة في المدن الفلسطينية وتحدث باللغة العمورية ـ الكنعانية. بعد ذلك بزمن طويل، أي في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، جاءت أقوام بدوية عرفت بالعبرانيين توطنت على هامش المدن الفلسطينية وفي الريف وعاشت عمّالاً في تلك المدن، ولم تكن لديهم صناعة أو حضارة فاستعاروا عناصر الحضارة من سكان المدن الفلسطينية، أي من العموريين والكنعانيين. ومع الزمن ومن خلال التسلل الطويل، توصلوا إلى إقامة تنظيم شبه عشائري تحكمه التقاليد ببعض مناطق فلسطين، لم يستمر ذلك طويلاً وتلاشى واندثر ثم جاء الفرس والهلينسيون (الاسكندر والسلوقيون) والرومان ثم البيزنطيون، وأخيراً العرب المسلمون.

التنقيبات الأثرية بمدينة القدس[16]

في نهاية القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين الميلادي، حاول الصهاينة أو مؤيدوهم القيام ببعض أعمال كانت تهدف إلى تدمير الهوية التاريخية العربية

---

(13) **المصدر نفسه**، ص. 30.

(14) **المصدر نفسه**؛ هاليدار، **العموريون**، ص. 3.

(15) **المصدر نفسه**.

(16) للاطلاع على ما نشر حول التنقيبات الأثرية بالقدس، انظر ما نشر في كتاب الأمريكية E.K. Vogel المعنون *Bibliography of Holyland Sites*، خاصة الصفحات ما بين 44 و49، 1974.

للمدينة وحتى لفلسطين كلها، وكانت تلك الأعمال واضحة في أعمال التنقيب الأثري في القدس.

بدأت الاستكشافات والتقيبات الأثرية في فلسطين في وقت مبكر، وتركزت بشكل خاص في مدينة القدس من أجل تعرّف تاريخها وآثارها. فأول تنقيبات أثرية قامت فيها كانت بين أعوام 1865 و1887 برعاية صندوق الاستكشاف البريطاني بإدارة وارين (Warren)[17]، ذلك الصندوق الذي كان قد تأسس لتوه عام 1865 م. لقد تمكن وارين عن طريق الأنفاق والقنوات أن يتعرف أسوار مدينة القدس القديمة، على حد قوله. استأنفت جمعية «صندوق الاستكشافات»، الذي ورد ذكره آنفاً، أعمال التنقيب الأثري في الفترة الواقعة بين 1894 و1897 بإدارة بلس (F. S. Blis) وديكي (A. C. Dickie). وقد حاولا في تنقيباتهما تتبع الأسوار الجنوبية القديمة[18].

وفي عامي 1909 و1911، قامت بعثة بريطانية بإدارة السيد ماكر (Marker). ومع أن الأهداف التي وضعتها البعثة كانت أهدافاً استعراضية أكثر منها علمية، فإنها تمكنت من تتبع الأنفاق والقنوات والفتحات في وادي قدرون المتصلة بنبع جيحون. وقد قام السيد ل. هـ. فانسان (L. H. Vincent) بنشر نتائج تلك البعثة. وبمعونة البارون إدموند روتشيلد اليهودي، قام السيد ر. فايل (R. Weill) بإجراء تنقيبات أثرية واسعة في الطرف الجنوبي من الهضبة. كما جرت تنقيبات أخرى في الفترة ما بين 1923 و1925 برعاية صندوق الاستكشافات أيضاً وبإدارة السيدين ر. أ. س. مكاليستر (R.A.S. Macalister) ودونكان (J. C. Duncan) ، ثم بإدارة السيد كروفوت (J. W. Crowfoot) في الفترة ما بين 1927 و1929.

---

(17) نشر وارين نتائج أعماله البحثية التي بدأت في شباط 1867 واستمرت حتى عام 1880 في كتاب بعنوان *Recovery of Jerusalem*، ثم نشر كتاباً آخر بعنوان *Underground Jerusalem*، ولكن أهم كتاب نشر حول أعمال وارين كان الكتاب الذي نشر عام 1884 من قبل صندوق الاستكشاف بعنوان *Memoirs of the Survey of Western Palestine*.

(18) هناك بحث جيد حول صندوق الاستكشاف البريطاني ونشاطه بفلسطين قدمته الدكتورة خيرية قاسمية إلى **المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام** الذي عقد في رحاب الجامعة الأردنية ونشر بالمجلد الثاني "**جغرافية فلسطين وحضارتها**" من أعمال المؤتمر المذكور من ص. 393 إلى ص. 447.

لقد نقب مكاليستر وزميله في قمة تلة الهضبة واكتشف أجزاء من دفاعات قوية في الطرف الشرقي كما قام كروفوت بالتنقيب في منطقة في السفح الغربي من الهضبة نفسها واكتشفت بوابة متصلة بدفاعات قوية[19]. إلى جانب تلك التنقيبات، كانت تنقيبات السيد جونز (C.N. Johns) في قلعة القدس بإشراف دائرة الآثار الفلسطينية في الفترة ما بين 1935 و1940.

وفي الفترة ما بين 1961 و1967 جرت تنقيبات أثرية بإدارة بعثة أثرية مشتركة مؤلفة من المدرسة البريطانية للآثار بالقدس وصندوق الاستكشافات البريطانية والأكاديمية البريطانية والمدرسة التوراتية الدومينكانية ومتحف أونتاريو الملكي الكندي بإدارة عالمة الآثار الإنجليزية كاثلين كينيون، كانت تلك التنقيبات الأثرية بالمدينة القديمة بالقرب من باب دمشق ومن السور الثالث (؟) وعلى جبل صهيون. وخلالها جرى فحص نتائج التنقيبات السابقة عن طريق تطبيق طرق ومناهج حديثة في التنقيب الأثري[20]. وفي هذه التنقيبات وغير بعيد عن موقف التنقيبات التي كان قد أجراها كروفوت (Crowfoot) عثرت كاثلين كينيون في عام 1963 على بيوت بيزنطية بنيت في المقالع الرومانية وخزانات المياه التي لها أدراج، وكانت تلك البيوت كبيرة ومبنية بشكل جيد[21]. هذا، وقد كان السيد ديمتري برامكة ـ عالم الآثار الفلسطيني ـ قد عثر على كنيسة صغيرة مرصوفة الأرضية بالفسيفساء في التنقيبات الأثرية التي أجراها عام 1937 باسم دائرة الآثار الفلسطينية بالقرب من السور الثالث. وقد بلغت أطوال هذه الكنيسة 1,6 × 3,5 م، وقد اعتبر المنقب الكنيسة تعود إلى العهد البيزنطي في القرن الخامس الميلادي[22]. كما أجرى جونز عام 1937 باسم دائرة الآثار الفلسطينية أيضاً عدة تنقيبات في عدة مواضع تعود إلى فترة سيطرة الإفرنج على القدس العربية منها تنقيبات في إحدى

---

(19) انظر نتائج تلك التنقيبات في كتاب *Excavation of Jerusalem (1894-1897)*.

(20) Yadin Y. (ed.) *Encyclopedia of Excavations in the Holyland*, Vol. II, Oxford, pp. 591- 593

(21) Kathleen Kenyon, *Digging up Jerusalem*, 1967.

(22) *Encyclopedia of Excavation*, Oxford.

الكنائس بوادي قدرون وفي القلعة العربية التي أصبحت مقراً لحاكم القدس الإفرنجي. ومن الأماكن الأخرى التي تم تعرُّفها وتعود إلى الفترة نفسها كنيسة القديس أنسطاس وكنيسة صغيرة بجانب كنيسة القديس اسطفان(23). وفي عامي 1956 و1962، قام الآباء البيض بالتنقيب الأثري في الأرض التي يملكونها بالحي الإسلامي بالمدينة القديمة بالقرب من كنيسة القديسة أنا (Anna) وعثروا على بعض اللقى التي تعود إلى العهد البيزنطي أيضاً(24). هذا، إلى جانب الكثير من التنقيبات الأثرية التي قامت بها المؤسسات الدولية.

التنقيبات الأثرية الإسرائيلية بالقدس

بعد العدوان الإسرائيلي على القدس واغتصابها عام 1967، قامت السلطات الأثرية الإسرائيلية بإجراء تنقيبات أثرية في عام 1968 عند الجدار الجنوبي من المسجد الأقصى، مخالفة بذلك المواثيق والأعراف الدولية التي تنص على الامتناع عن قيام أيّ تنقيبات أثرية في المناطق المحتلة عسكرياً؛ كما قامت بعد ذلك بتوسيع تنقيباتها الأثرية لتشمل الجانب الغربي من السور بالقرب من القوس المعروف بقوس روبنسون. وقد تبين، نتيجة التنقيبات في الموسم الأول على طول الجدار الجنوبي، أنها آثار عربية إسلامية باكرة (من الأمويين حتى السلاجقة)، وقبله كان العصر البيزنطي، وقبله العصر الروماني. وعلى الرغم من أن المنقبين الإسرائيليين كانوا يحلمون بالعثور على آثار يهودية، فإن المكتشفات خيبت آمالهم؛ وكان أهمها المنشآت المعمارية الإسلامية الأموية في الزاوية الجنوبية الغربية من الحرم الشريف. فقد عثر هناك على ثلاثة أبنية ربما كانت قصوراً، لأنها تشبه القصور الأموية التي تنتشر في سوريا وفلسطين والأردن، وهي ذات أبراج مستديرة توضع في الزوايا. لقد تبين أن هذه القصور أعيد استخدامها مرة أخرى بعد ترميمها وتأهيلها للاستخدام الجديد للسكن بعد إعادة توضيبها في القرن

---

(23) *Ibid.*, p. 619.

(24) *Ibid.*, p. 626.

التاسع، أي في العصر العباسي؛ إلا أنها تخربت في القرن الحادي عشر وأخذ الناس يستعملون حجارتها في بناء مساكنهم[25].

وفي الفترة ما بين 1975 و1978 قامت السلطات الإسرائيلية بإجراء تنقيبات أثرية بالقلعة على طول السور الغربي، اكتشفت فيها قناة صرف على بعد 16 متراً من السور، وتبين أنها تنحدر نحو الغرب من نقطة تحت السور وقد بنيت جوانبها بالحجارة الغشيمة وغطيت برقائق حجرية ويبلغ طول القسم المكتشف من هذه القناة حوالي خمسة عشر متراً. وفي عام 1982 اكتشفت قسم جديد من تلك القناة إلى الشرق من سور المدينة. أما الجزء الذي يصل بين الجزءين المذكورين سابقاً، فهو ضيق يبلغ عمقه وعرضه حوالي 40 سم[2].

وبإشراف الجامعة العبرية بالقدس ودعم من الجمعية المسماة جمعية مدينة داوود، جرت تنقيبات أثرية عام 1981 في محاولة لتعرُّف التوضعات السكنية في المدينة من العصر الحجري النحاسي (الكالكوليتي) إلى عام 70 م. ومن خلال تلك التنقيبات، عثر على تحصينات المدينة التي تعود إلى العصر البرونزي الوسيط، أي إلى الفترة اليبوسية[26].

هذا، إلى جانب تنقيبات أثرية قامت بها سلطات الاحتلال في عامي 82 و83 في المدينة القديمة وفي جبل سكوبس وفي جبل صهيون وفي المناطق المجاورة لمدينة القدس في خربة عين التوت والعيساوية. وفي عامي 81 و82 جرى مسح أثري عثر فيه على حد زعمهم على ثمانية وثمانين موقعاً أثرياً تشمل مستوطنات ومعاصر زيت ومزارع مسورة وأبراج مراقبة ومدافن ومحاجر وأفران كلس وتوضعات زراعية وحمامات. هذا، إلى جانب أدوات ولقى تعود إلى عهود ما قبل التاريخ من الدور الموستيري والدور الحجري القديم الأعلى وبقايا أبنية وأدوات

---

(25) *Encyclopedia Excavation*, p. 612.

(26) B. Mazar, *The Excavations in the Old City of Jerusalem Near the Temple Mount*, Jerusalem, 1971, p. 1; and M. Bendou, *The Area of the Temple Mount in the Islamic Period*, pp. 97-102;

العابدي محمود، **الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن**، عمان، 1973، ص ص. 123 - 124.

من عصر ما قبل الفخار النيوليتي. وإلى الجنوب من تل الفول التي تقع على الحدود الشرقية من المنطقة الممسوحة، وإلى الجنوب من خربة الصومعة، عثر على كسر فخارية وأدوات من العصر الكالكوليتي ـ الحجري النحاسي. لقد سبق أن تعرف الأب نصر ا لله هذا الموقع عام 1936، حيث جمع حوالي ثلاثة آلاف أداة صوانية من الثقافة الغسولية، وبالقرب منها عثر على بيوت شبه دائرية قال عنها السيد نصر ا لله إنها تعود إلى العصرين الميغاليتي (Megalithic) والكالكوليتي (Chalculithic)؛ كما عثر على بقايا من العصور البرونزية والحديدية والفترة الهلنيسية والبيزنطية[27].

ويندرج تحت هذا الأمر النفق الذي حفرته السلطات الإسرائيلية تحت الحرم القدسي الشريف؛ فهو يخدم التنقيبات الأثرية وأهدافها وبعدها السياحة. وكذلك مشروع النفق المزمع إقامته بدءاً من ساحة البراق. أما الأهداف التي من أجلها قامت تلك التنقيبات، فهي عديدة ومتشعبة وتختلف باختلاف الأشخاص والمؤسسات والأهداف التي دفعتها للقيام بتلك التنقيبات الأثرية.

إن بقاء مدينة القدس الشريف حية على الدوام في أذهان أصحاب الديانات السماوية الثلاث هو الذي دفع البعض للقيام بإجراء دراسات ومسوح وتنقيبات أثرية هدفها تعرُّف تاريخ المدينة عبر العصور وأهميتها الروحية والاستراتيجية. لقد سعى المسلمون والمسيحيون واليهود على الدوام لزيارة بيت المقدس والتبرك بزيارة المقدسات هناك ومشاهدتها. وبسبب ذلك، جرى التنافس بين أصحاب الديانات الثلاث على امتلاك القدس الشريف، ذلك التنافس الذي بلغ حد الحرب، في حروب مشهورة في التاريخ. كيف لا ومن يملك القدس يملك أقدس بقعة في العالم؛ كما اتخذ التنافس مظاهر أخرى، منها التنقيبات الأثرية التي قام بها الصهاينة ولا يزالون يقومون بها في محاولة منهم لدعم نظرية الحق التاريخي المزعوم الذي ينادي به ساستهم في محاولة تثبيت شرعية الكيان!! إلا أنهم فشلوا حتى الآن في العثور على شواهد تؤيد ذلك. وقد تسببت هذه النظرية القصرية

---

(27) *Excavations and Surveys*, Vol. I, pp. 49-66.

الصهيونية للتراث الحضاري في القدس خاصة، وفي فلسطين عامة، في تخريب كثير منه وفي اعتماد تفسيرات تاريخية خاصة.

واعتماداً على ما سبق عرضه من معلومات تاريخية وكتابية استقيت من المصادر التاريخية والتنقيبات الأثرية، نخلص إلى ما يلي:

1) إن القدس عربية النشأة والثقافة والسكان، أسسها وقام على تطويرها وتطوير مؤسساتها الثقافية والدينية العموريون والكنعانيون واليبوسيون، وهم من العرب القدماء الذين نزحوا من الجزيرة العربية أو من سورية. وهي لا تختلف في تطورها عن المدن السورية أو الفلسطينية الأخرى.

2) لم يسبق للعبريين أن أقاموا عاصمة خالصة بالقدس، حيث لم يثبت تاريخياً أنهم احتلوا القدس. تتحدث الروايات التاريخية عن احتلالهم لقلعة صهيون بالقدس فقط. وأكبر دليل على ذلك هو بقاء سكانها اليبوسيون فيها بكثافة في الأعمال التجارية أو في الجيش أو في المؤسسات الدينية. ويعني هذا أن المدينة ظلت عربية في مجتمعها وثقافتها ولغتها.

3) لم يتوصل المنقبون الأثريون إبان الحكم العثماني أو الانتداب البريطاني أو الاحتلال الإسرائيلي إلى العثور على بقايا عبرية خالصة. إلا أن كثيراً من تلك فسرت خطأ، وقد أظهر علماء الآثار المنهجيون بطلان تلك التفسيرات وخطأها.

4) إن أكثر المخلفات الحضارية الظاهرة في القدس الآن هي مخلفات حضارية عربية إسلامية ومسيحية مثل قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة، إلى جانب ما في المدينة القديمة من خانات ومدارس وأسواق وجوامع وتكايا ومستشفيات وغيرها. وهذا يفسر سبب الهجمة الصهيونية على تغيير البيئة التاريخية للمدينة وطمس معالمها.

5) ثبت بالدليل التاريخي المؤكد أن العرب المسلمين حموا المقدسات الخاصة بدينهم وبالأديان الأخرى من العبث. وعليه، فمن حقهم استمرار هذه

المهمة التاريخية، أي من حقهم الاستمرار في القيام بدورهم التاريخي في حماية المقدسات الدينية في مدينة القدس ودعوة العالم لتأييد ذلك الحق.

6) وحتى تظل القدس عربية إسلامية ومسيحية في بيئتها التاريخية، فإنه من الضروري تنشيط البحوث التاريخية والدراسات المعمارية التي كانت تقوم بها المؤسسات العربية والدولية، وتصحيح الأخطاء الفادحة التي وقعت.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية والمعربة

أبو طالب، محمود، **آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة. أضواء جديدة**، عمان، 1978.

العابدي، محمود، **الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن**، 1973.

العسلي، كامل (محرر)، **القدس في التاريخ**، عمان، 1973.

طومسون، توماس، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، تعريب صالح علي سوداح، بيروت، 1995.

حتي، فيليب، **تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان**، ج 1: العموريون، مؤسسة فرانكلين ودار الطليعة، بيروت.

شعث شوقي، **أضواء على الأبحاث الأثرية بفلسطين**، الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، المجلد 2، جامعة حلب، 1983.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول مادة «آثار» ومادة «علماء الآثار» (شوقي شعث). القسم الثاني، قسم التاريخ، «القدس» (كامل العسلي).

هاليدار، ألفرد، **العموريُّون من هم؟ وما هي مواطنهم؟**، تعريب د. شوقي شعث، دمشق، 1993.

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية

Kenyon, K. M., *Archaeology in the Holyland*, 1979.

- , *Digging up Jerusalem*.

- , *Jerusalem Excavation, 3000 Years of History*, London, 1967.

Yadin, Y. (ed) *Jerusalem revealed.*

Encyclopedia of Excavation, Vols. 1-4.

Moorey, Roger, *Excavations in Palestine*, 1981.

Warren, *Memoirs of the Survey of Western Palestine (1867-1884).*

- - , *Underground Jerusalem.*

Bliss, F. S. and Dickie, A. C., *Excavations of Jerusalem (1894-1897).*

Mazar. B., *The Excavation in the Old Jerusalem Near the Temple Mount*, Jerusalem, 1971.

Ben Dou, M., *The Area of the Temple Mount in the Islamic Period. The Omayyed Structures Near Al Haram Al-Sharif*, 1971, I-I.

Encyclopedia of Excavation the Holyland, Oxford, 1975.

Excavations and Surveys, Vol. 1, 1982.



النمطي في الأساس الصوتي للعربية

الدكتور محمد الأوراغي
كلية الآداب ـ الرباط

ثبت أن جهاز التصويت الإنساني مهيَّأٌ خلقةً لأن ينتج كل الأصوات اللغوية المستخدمة في جميع اللغات البشرية؛ كانت منقرضة أو مستعملة حالياً أو يمكن استعمالها استقبالاً. لكن أي لغة بشرية ليس لها أن تستخدم جميع الممكن المقدور عليه، وإنما تضطر كل واحدة إلى استرفاد العون من «مبدإ الخفة»[(1)] لاختيار عدد محصور من العناصر الصوتية وإهمال الباقي.

وكل عنصر صوتي اختارته اللغة ل 1، من مجموع الممكن المقدور عليه، فلوظيفة التغاير الدلالي المسندة إليه في ل 1. ولا تكون لذاك العنصر تلك الوظيفة في اللغة ل 2 إذا كانت ل 2 قد أهملته. كما يُحتمَل أن توظف اللغة ل 2 عناصر تهملها اللغة ل 1 جميعاً أو تهمل بعضها.

يترتب على ما سبق أن ليس من طبع أي عنصر صوتي صادر عن جهاز التصويت البشري أن يكون مهملاً أو مستعملاً. وإنما يصير كذلك بالجعل. وما تجعله لغة في مستعمَلِها يحتمل أن يشكل مهملَ غيرها وبالعكس. وليس للغة أن تفضل أخرى بالنظر إلى ما تستعمل من عناصر صوتية أو تهمل.

يراعى في انتقاء عنصر صوتي، فضلاً عن الاستجابة لمبدإ الخفة، أن يكون له في النسق الرمزي قيمةٌ صوتية ليست لمثله ولا لضدّه، وأن يكون لتلك القيمة الصوتية، في النسق الرمزي المستعمل للتواصل، وظيفة التغاير الدلالي. وما يجمع

(1) انظر الفارابي، **كتاب الحروف**، ص. 136. فيما يتعلق بدور المبدإ المذكور في انتقاء اللغات لعينة من التصويتات.

بين القيمة الصوتيـة والوظيفـة الدلاليـة فهـو «تصويتـة»؛ كمـا في الأثْنـاء (أ، ب) التالية:

(1)　(أ) . ثالِمٌ، حَثٌّ، حَثِيرَةٌ.
(ب) . ظالِمٌ، حَظٌّ، حَظِيرَةٌ.

وما عَدِمَ الوظيفةَ، وإن توفر على القيمة الصوتية، فهو «بديـل». كمـا في الثُّنى (2) الموضح بالكتابة الصوتية في الطرة (2) أسفله.

(2)　(أ) . سِجارٌ.
(ب) . سِجارٌ

ولا يعني اللغات من أسسها الصوتية سوى التصويتات التي يناط بها التغـاير الدلالي، وما عداها فحشو لا وظيفة لـه؛ كـ«البدائـل المركبـة»[3] و«التصويتـات المقترضة». وكل تصويتة لغوية، من حيث وظيفتهـا في النسـق الرمـزي المستعمل للتواصل، يجب حسبانُها مادةً صوتية لا تتجزأ. لكنها بالنظر لذاتهـا فهـي متجَزِّئـة إلى أجزاء متناهية. إذن باعتبار وظيفة التغاير الدلالي تُعـاملُ التصويتتـان (/ ص / ، / ث) الفارقتان في الثُّنَى (3 أ، ب) معاملـة صُوَيْـت (التفخيـم) الفـارق في الرُّبـاع (4 أ ــ د). لكن من حيث القيمة الصوتية لا يتجزأ صويـت التفخيـم، بينمـا /ص/ تتجـزأ إلى صُوَيْتات (الصفير والهمس والتفخيم) تجزؤ /ث/ إلى (النفث والجهر والترقيق).

---

(2)　(أ) sijárun
(ب) sigárun

(3)　نطلق مصطلح البدائل المركبة على الوحدة الصوتية المؤلفة من تصويتتين متجـاورتين والـتي تستعمل بديلاً لإحداهما أو بديلاً لتصويتة مغايرة لهما. من الضرب الأول التاء المنطوقة في المغرب مشربة بالسين، حيث تُتلفَّظ (الفتاة) بمثـل (الفتسـاتس). ومن الثـاني التـاء المشربة بالشين المكونـة لوحـدة صوتيـة تستعمل في الكويت وجنوب العراق بديلاً لكاف المخاطبـة، فيكـون تلفـظ (كتـابُكِ) بمثـل (كتـابتش). أما مصطلـح التصويتات المفترضة، فيصدق على أصوات لغوية تأخذه لغة من غيرها وتستعملها خاصة في المقـترض من المفردات المعجمية. من هـذا القبيـل تصويتـات /V/، و /P /، و/ g /، الـتي أدخلتهـا بعـض الأقطـار في الأساس الصوتي لعربيتها. وبذلك حافظت على النطـق الأصلي للألفـاظ الدخيلة عليهـا مثـل (تلفزيـون، وبونابارت، وكارودي) بدل اللجوء إلى تعريبهـا. وكـان معهـد الدراسـات والأبحاث للتعريـب من بين المؤسسات التي ابتدعت هذه الظاهرة الصوتية وعملت على نشرها بكافة الوسائل.

(3) (أ) . صَلْمُ (الأنف أو الأذن؛ أي قطعهما).

(ب) . ثَلْمُ (السيف؛ أي إحداث كسور بحده).

(4) (أ) . دَ رْ سُ (القرآن؛ أي إمعان النظر فيه لفهم مقاصده)[4].

(ب) . د رْ سُ (القمح؛ أي تهشيمه لفصل الحب عن التبن).

(ج) . دَ رْ صُ (الأرنب؛ أي ابنها).

(د) . ضَرْسُ (الكلب؛ أي عضه بالأضراس).

اتضح مما سبق أن ليس لقالب النّطق أن يهتم بالتمثيل للبدائل اللهجية ولا للتصويتات المقترضة، إذ المطلوب إقامة نموذج شبيه بنسق التصويتات النمطية المستعملة في العربية.

1. 1 - قيم تصويتات العربية

تتناقل كتب النّطْق في اللسانيات الغربية أن التصويتات المستعملة في اللغات البشرية يتراوح عددها ما بين عشرين وخمسين تصويتة. يهمنا أن نعرف عدد ما في العربية، خاصة وأن دارسي هذه اللغة لم يجمعوا على رقم معيَّن[5]،

---

(4) تغليظ الراء هكذا « ر » في (درس القرآن) و (مسرح العرائس)، دال على أن التفخيم قيمة صوتية تضطلع بوظيفة التغاير الدلالي في مقابل الترقيق المصور هكذا « ر » ـ كما في (درس القمح) و(مسرح الأغنام). يعني هذا أن من بين التصويتات ما لا تتجزأ قيمته الصوتية كالتفخيم في مقابل الترقيق، إذ هما الصويتان المتعاقبان على (التزوير + الجهر). ومنها ما يتجزأ إلى أجزاء متناهية. /ص/⇦ (صفير + همس - تفخيم)، و/ث/ ⇦ (نفث + جهر + ترقيق). إذن قول اتروبتسكوي إن التصويتة (أي le phonème) لا تتجزأ يصدق باعتبار وظيفة التغاير الدلالي كما أسلفنا. أما من حيث القيمة الصوتية، فمنها ما يكون مؤلفاً خلافاً لما ذكره في كتابه : "**مبادئ النّصْغ**". (Troubezskoy, *Principes de phonologie*, p. 44).

(5) ذكر سيبويه أن العربية تستعمل تسعاً وعشرين تصويتة. قال: «حروف العربية تسع وعشرون حرفاً: الهمزة والألف والهاء والعين والحاء والغين والخاء والكاف والقاف والضاد والجيم والشين والياء واللام والراء والنون والطاء والدال والتاء والصاد والزاي والسين والظاء والذال والثاء والفاء والباء والواو والميم». (**الكتاب**، ج 2، ص. 404)؛ والعدد نفسه يكرره المبرد في **المقتضب**، ج 1، ص. 328، وإن نسب إليه ابن جني خلاف ذلك (انظر: **سر صناعة الإعراب**، ج 1، ص. 46)؛ أما تمام حسان من المحدثين، فقد أوصلها إلى إحدى وثلاثين (انظر: **مناهج البحث في اللغة**، ص. 90).

وأن نحدد بدقة القيمة الصوتية لكل منها. كما يعنينا أن نكشف أيضاً عن «وظيفية الحركون» وعددها بالقياس إلى المستعملة فارقاً في العربية.

إدراك المطالب المذكورة لا يتأتى دون تحديد منهجية للعمل. وهذه تعني تأسيس مقدمات أولية من شأنها أن تعيِّن ما يجب قوله في وصف تصويتات العربية وما يمتنع. وهي تتفرع إلى:

1) أوليات تعم كل فصوص اللغة وقوالب النحو. من هذا الضرب مبدأ البيان الذي منه الفصل بين التصويتات النمطية والبدائل اللهجية. ومبدأ الخفة الفارق، داخل الممكن المقدور عليه، بين الأساس الصوتي المستعمل وغيره المهمل.

2) أوليات تخص قالب النُّطْق. وهذه تضم علاقة المجانسة أساس «مبدإ التساند» الذي يرتّب التصويتات في «محور عمودي»، فترقى في سلمية يرتكز فيها اللاحق على السابق. وعلاقة المخالفة التي تنظم بدورها تلك التصويتات في محور أفقي، وينتج عن ذلك نسق هرمي.

الوصف الذي أنجزه قدماء اللسانيين العرب لتصويتات لغتهم إذا قيدناه بما سيق من الضوابط صار في الإمكان الانتهاء إلى القيمة الصوتية النسقية التي يمكن إدراكها آليّاً. ولارتباط تلك القيم بأبنية أحيازها، تعين التمهيد لها بوصف مناسب لجهاز التلفظ.

1. 2 - التشريح اللساني لجهاز التصويت البشري

يعنينا في هذا المبحث أن نتعرَّف أولاً طريقة اللغات في «تشريح» جهاز التصويت البشري، لأن هذه لا تسير وفق منهجية علم التشريح الذي يرتكز على تحليل العضو من أجل تحديد بنية أجزائه وشكل كل جزء وكذا العلاقات القائمة بين مختلف الأجزاء. كما تؤجِّل عمل المشرِّح لجهاز التصويت، وهو يربط الأبنية العضوية التي ينتهي إليها تحليله بوظائفها الإنتاجية لأصوات لغوية[6].

(6) يدخل في هذا الصنف من العمل ما فعله ابن سينا في كتابه "**أسباب حدوث الحروف**"، حيث بدأ بتشريح الحنجرة واللسان، فكشف عن سائر الأعضاء المكونة لهذا الجهاز. ثم انتقل إلى إفراد أعضاء مخصوصة بقيمة صوتية متميزة.

إن اللغات، كغيرها من المجالات، تتدرج بالقياس إلى مستعملها من الأعم نحو الأخص[7]. فتقطّع جهاز التصويت بالقسمة الأولى إلى ثلاث مناطق: أمامية ووسطى وخلفية. وبالقسمة الثانية تتجزأ كل منطقة إلى شعبتين؛ إذ تتفرع المنطقة الأمامية إلى خيشومية و«أسنافية»[8]، والوسطى إلى مستعلية ومستفلة، والخلفية إلى لهوية وحلقية. وبالقسمة الثالثة تنحل كل شعبة إلى عدد محصور من الأحياز كما سيأتي. وسوف نقتفي نهج اللغة في تحليل جهاز التصويت كما يمكن أن نعبر عن ذلك من جديد بالمبيان (5) الآتي:

. **(5)**

منطقة خلفية	منطقة وسطى	منطقة أمامية
لهوية	مستعلية	خيشومية
حلقية	مستفلة	أسنافية

قبل الشروع في تفصيل محتوى المبيان (5)، ينبغي تسجيل ما يلي من النتائج:

1) - جهاز التصويت البشري مهيَّأ خلقة لأن ينحل تدريجياً إلى المناطق الثلاث، فتجزيء كل منطقة إلى الشعبتين، ثم توزيع كل شعبة إلى عدد محصور من الأحياز.

2) - استناداً إلى مبدإ الخفة، ينتفي كل ما من شأنه أن يُجبِر اللغات البشرية على توظيف أعضاء الشعب الستة لإنتاج التصويتات التي يحتاج إليه نسقها النّصْغي. وبعبارة أخرى، للغات البشرية الخيرة في توظيف أعضاء جميع الشعب المذكورة أو توظيف ما يخف عليها منها.

---

(7) في تدرج المعرفة يقول ابن سينا: «إن العقل أول شيء إنما يعقل المعنى العام الكلي، وثانياً يتوصل إلى ما هو مفصل. فلهذا نجد الناس كلهم مشتركين في معرفة الأشياء بنوع أعم. أما نوعية الأشياء، فإنما يعرفها أكثر من بحثه أكثر». (**البرهان**، ص. 56).

(8) أسنافي مركب مزجي من أسناني وشفوي.

3) - باعتبار الموظف من أعضاء جهاز التصويت، يلزم أن تتفرع اللغات بَدْءاً إلى نمطين: (أ). «لغات إمكانية» كالعربية المتميزة باستغلال جميع الإمكانات الستة، فتوفر لها الخيشومي /ن، م/ والأسناني /ف، ب/ والمستعلي /ض، ظ/ والمستفل/ ل، د/ واللهوي/ ق، ك/ والحلقي/ ع، ح/. (ب). «لغات اقتصارية» كالفرنسية ونحوها الإنجليزية المتميزتين بالاقتصار على استغلال بعض الشعب، وإهمال بعضها الآخر، فخلا نسقهما النصغي من المستعلي وأغلب الحلقي.

4) - درجة تمايز القيم الصوتية تحددها علاقتا المخالفة والمجانسة. فهي مرتفعة في اللغات الإمكانية نتيجة علاقة المخالفة المناسبة للغات تستثمر جميع المناطق وشعبها الموضحة بالمبيان (5)، وتنخفض في اللغات الاقتصادية بحسب عدد المناطق الصوتية التي يوظفها النمط الأخير. إذ من لغات السودان الإفريقي ما يقتصر على المنطقة الأمامية، وشعبة المستفل من المنطقة الوسطى. كما تركز لغات آسياوية على شعبتي الحلقي والمستعلي. وفي مثل هذه الأضرب تقوى علاقة المشابهة بين تصويتاتها، وتضعف القيم التي تميز كل تصويتة عن مثيلاتها.

5) - ارتفاع درجة تمايز القيم الصوتية يترتب عليه، من جهة، انخفاض «عتبة الانتظام» في سلمية التساند، كما سنوضحه بعد قليل؛ ويلزم عنه، من جهة ثانية، زيادة نسبة المفردات الفصيحة. ويحصل عكس ذلك إذا انخفضت درجة التمايز، بحيث تصعد «عتبة الانتظام»، في سلمية التساند، وتنزل نسبة المفردات الفصيحة[9].

1. 3 - تنميط الأصوات اللغوية

تتناقل كتب النصغ أن الأنساق النصغية لجملة من الثوابت العامة، منها «المبدأ التصنيفي» الذي يجبر كل اللغات البشرية على تصنيف تصويتاتها تصنيفاً أولياً إلى صنفين اثنين:

---

(9) الفصاحة في مستوى المفردات تقاس بالمسافة التي تفصل بين مخارج التصويتات الداخلة في تكوين الألفاظ المفردة. إذا تباعدت المخارج، فصحت اللفظة؛ وإذا تقاربت، ثقلت. (انظر ابن جني، **المنصف**، ج 1، ص. 75؛ وما أورده السيوطي، **المزهر**، ج 1، ص. 185؛ وكذلك ما نقله عنه تمام حسان في كتابه **مناهج البحث في اللغة**، ص. 135).

التاريخ العربي



(أ). صوامت؛ وهي المتمايزة، في النسق النصغي، بقيمها الصوتية وبوظيفة التغاير الدلالي، فضلاً عن تشكلها في الكتابة بصورة الحرف. وكل عنصر ينتمي إلى هذا الصنف يختص بمباشرته لوظيفة التغاير الدلالي في جميع اللغات. وهذا الضرب يمكن توضيحه بالمثال التالي:

(6) (أ) . {صفير + جهر + ترقيق} ⇐ / ز / ⇐ (زَيْف) ⇐ [غِشٌّ و تمويه]

(ب) . {صفير + همس + ترقيق} ⇐ / س/ ⇐ (سَيْف) ⇐ [ضَرْبٌ بالسيف]

(ج) . {صفير+ همس+ تفخيم} ⇐ / ص/ ⇐ (صَيْف) ⇐ [اشتداد الحر]

وكل مَنْ أو ما يسمع التصويتة المتكونة من اجتماع الصُّوَيْتات بين الحاضنتين {...} يلزمه إذا كتب أن يخط الصورة بين المائلين /.../ بحيث ينتج عن حلول أحدها محل الآخر في القَوِلات بين القوسين (...) اختلاف المعنى الوارد بين المعقوفين [...]. وكذلك شأن سائر التصويتات النمطية في أي لغة.

(ب). صوائت؛ وهي أيضاً تتمايز، في النسق النصغي، بقيمها الصوتية، وتُخَطُّ في الكتابة بصور الحركون. وهي، من حيث وظيفة التغاير الدلالي، تختلف من نمط لغوي إلى آخر. ففي لغات جذعية كالفرنسية تكون الصوائت كالصوامت في مباشرة وظيفة التغاير الدلالي[10]. لكنها في العربية من اللغات الجذرية ليس للصوائت سوى دور التمييز بين صيغ القَولات. إذ لا دخل للمد، بوصفه من الصوائت، في مباشرة التغيير الدلالي بين (مَطَر) و (مَطَار). وإنما يباشر بناء الصيغة الصرفية لإخراج الأولى على هيأة (فَعَلَ) والثانية على هيأة (مَفْعَل). من جملة ما يدل على انتفاء التأثير المباشر للصوائت ثباتُ قَولات المثال (7) الآتي على معناها وإن تغيرت الصوائت العارضة لبعض صوامتها[11].

---

(10) الفرنسية تأتلف وغيرها من اللغات الجذعية في مباشرة كلا الصنفين من التصويتات لوظيفة التغاير، كما يظهر من المقارنة بين (أ) و (ب) في المثال (01). وتتميز من جهة أخرى بكثرة الصوائت التي تصل فيها إلى ستة عشر صائتاً. وهو عدد يكاد يقترب من صوامتها (19).

(01)

(أ). pale / male.

(ب) . par / pire / père / paire / pour / port / peur / pure /.

(11) للوقوف على المزيد من أمثلة النماذج المذكورة أعلاه، راجع: ابن السكيت، **إصلاح المنطق**.

(7) (أ) . وُجْدٌ ، وَجْدٌ ، وجْدٌ.

(ب) . عَدْمٌ ، عَدَمٌ ، سُقْمٌ ، سَقَمٌ.

(ج) . قِمْعٌ ، قِمَعٌ - شِبْهٌ ، شَبَهٌ.

وتمثّل ظواهر الاختلاس والإمالة وكل تغيير بالحركة والسكون أدلة قوية على انحصار دور الصوائت في تشكيل أوزان صرفية، بها يناط التغاير الدلالي بين ما اتفقت صوامته؛ كما في (خَلٌّ) و (خِلٌّ)، باعتبار الأول يدل على (سائل شديد الحموضة) والثاني على (الصديق الوفي). ونحوه (اللَّبْس: اختلاط الأمر) و (اللِّبْس: الكسوة)، ومنه (الحُزْن: الغمّ) و(الحَزَن: غليظ الأرض المرتفع).

ثبت أن اللغات يسمح لها مبدأ الخفة باختيار أصواتها النمطية، ويضطرُّها مبدأ التصنيف إلى توزيع تصويتاتها المنتقاة إلى مجموعتين: فئة الصوامت المتميزة في كل لغة بقيمها الصوتية وبمباشرة جميعها لوظيفة التغاير الدلالي، وفئة الصوائت التي يكون لها في اللغات الجذعية وظيفة الصوامت، بينما دورها في العربية من اللغات الجذرية لا يتجاوز إقامة بنيات وزنية مخصوصة. ويهمنا الآن أن ندرس من خلال علاقتي المخالفة والمجانسة كل تصويتة مما تستعمله العربية.

1. 4 - مبدأ التساند النصغي

مبدأ التساند يتأسس داخل فص النصغ على علاقة المجانسة القائمة بين متوالية من التصويتات. موحِّد عناصر هذه المتوالية «نواة صوتية» تسري في الجميع، وفارقها انفراد كل عنصر في المتوالية بصُوَيْت واحد على الأقل يمثّل القيمة الصوتية لذاك العنصر داخل مجموعته التي تضمه. لكن قيمته، بالقياس إلى عنصر منتمٍ إلى مجموعة أخرى، تتشكل من النواة الصوتية فقط، إذ يمكن لعناصر المجموعتين الاشتراك في «الصُّوَيْتات الهامشية» المنضمَّة إلى الصُّوَيْتَيْن النّوويَّين: «الصفير» و«النفث». كما يتضح من ملاحظة عناصر المجموعة (7) ومقارنتها بعناصر مِثْلِها (8) بعدها.

(7) (أ) {صفير + جهر + ترقيق} ⇐ / ز /.
{صفير + همس + ترقيق} ⇐ / س/.
{صفير+ همس+ تفخيم} ⇐ / ص/.

(8) (ب) {نفث + همس + ترقيق} ⇐ / ث /.
{نفث + جهر + ترقيق} ⇐ / ذ/.
{نفث+ همس + تفخيم} ⇐ / ظ/.

يُستدَلُّ من هذا المثال على أن «التأليف» مبدأ عام يستغرق جميع فصوص اللغة، ويمس كل مستوياتها. فالجملة تنحلُّ تركيبياً إلى «مركبات»؛ مثل «المركب الإضافي» و«المركب التَّبعي» و«المركب الحرفي» و«المركب الإشاري» و«المركب الموصولي» و«المركب الاسمي»[12].

وكل واحد من تلك المركبات ونحوها يتألف من «عناصر» قابلة لأن تنحلَّ «معجمياً» إلى «مداخل»، يقبل أغلبُها الانفكاك إما إلى «الجذر» و«الصيغة»؛ كما هو حالها في اللغات الجذرية كالعربية، وإما إلى «الجذع» و«اللواصق» كما في الفرنسية ونحوها الإنجليزية من اللغات الجذعية.

والجذر أو الجذع كلاهما قابل لأن يتجزأ «نَصْغِيّاً» إلى بضع تصويتات: كالزاي /ز/ ونحوها /س/، /ص/، /ث/، /ذ/، /ظ/. وكل تصويتة تقبل بدورها أن تنحلَّ إلى صُوَيْتات؛ كالصفير أو النفث، والجهر أو الهمس، والتفخيم أو الترقيق، والشِّدَّة أو الرَّخاوة.

(أ) . جهاز التصويت البشري مستعد خلقة لأن ينتج «صُوَيْتات أولية»، قد لا يتجاوز عددُها بضعةً وعشرين. من هذا العدد القليل من الأوليات، وبفضل «مبدإ التركيب»، تشكِّل كلُّ لغة نسقَها النصغيَّ الذي يضم في بعضها ما يناهز الخمسين تصويتةً مؤلفةً من الصويتات الأولية. وهذه النتيجة تدعم خاصية سبق

---

(12) كل مركب مما سردنا أعلاه يستغرق أمثلة متعددة إذ يصدق المركب الإضافي على نحو «كتاب سيبويه» و«سيارة الإسعاف» و«عصير فاكهة». ويشمل المركب التبعي ما كان من قبيل «القمر الأحمر» و«ياسر عرفات» و«الإنسان عينه» و«الفاكهة لُبُّها». والمركب الحرفي يعم مثل «إلى القدس» و«سوف يعود». والباقي يتناول بذاك التوالي الأمثلة: «ذلك الكتاب» و«الرجل الذي» و«الرجل».

أن أثبتناها للتصويتة في أي لغة؛ وهي إمكان تجزيئها باعتبار القيمة الصوتية إلى صُوَيْتات، وعدم إمكان ذلك بالنظر إلى وظيفة التغاير الدلالي.

(ب) . الصُّوَيْتات الأولية (وهي الماثلة قبل السهم ... ⇐ والداخلة في تكوين التصويتات المؤلفة والواقعة بعده ⇐ ... في المثالين «7، 8»)، صنفان:

1) «صويتات نووية»، كالصفير والنفث ونحوهما؛ يضطلع كلٌّ واحد منها أولاً بدور التجميع لتصويتات معينة في مجموعة واحدة، وهو فعل صويت الصفير مثلاً بالنسبة إلى {/ز/،/س/،/ص/} في المثال (7)، وكذلك شأن صويت النفث الذي يقوم أولاً بإدراج التصويتات {/ث/،/ذ/،/ظ/} في مجموعة (8) من المثال نفسه. ويقوم هو وصويت الصفير ثانياً بدور «التمييز الخارجي». إذ يُمَثِّل كلٌّ منهما جهة اختلاف عناصر المجموعة (7) عن عناصر المجموعة (8).

2) «صُوَيْتات هامشية»، كالجهر والتفخيم والشدة ومقابلاتها الهمس والترقيق والرخاوة. وهذا الصنف يضم عناصر صوتية أقل مما يضمه الصنف الأول. ومع ذلك، يأتلفان باعتبار قيام كلٍّ منهما بدَوْرين في النسق النصغي. أول تأثير الصُّوَيْت الهامشي يظهر في «التمييز الداخلي»، حيث يدل التقابل بين التفخيم والترقيق على جِهَتَي اختلاف /س/،/ص/ الواقعين في المجموعة (7). كما يمثل الجهر ومقابله الهمس جهَتَي اختلاف /ث/،/ذ/ داخل المجموعة (8). أما تأثيره الثاني، فيتجلى في تنظيم التصويتات المنتمية إلى المجموعة نفسها في «سلمية تساند» كما تتمثّل في العبارة (9) التالية:

(9) . (أ) ز < س < ص

(ب) ث < ذ < ظ

سبق أن أثبتنا في موضع آخر[13] أنّ العنصر الأخير في السلمية، كالصاد في (9 أ) أو الظاء في (9ب)، يتعلق وجوده في اللغة بوجود الذي يتقدمه مباشرة، كالسين والذال في المثال نفسه. كما أن مثول أحد هذين الأخيرين مرتبط بالذي

---

(13) للمزيد من التفصيل، انظر: محمد الأوراغي، «التصويتات النمطية وبدائلها اللهجية»،ضمن مجلة **التاريخ العربي**، العدد الثامن، ص ص. 171 ـ 181؛ **اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم**، ص. 139.

سبق، وكذلك يستمر إلى أول عنصر في السلمية، وبينا أيضاً أن أي لغـة تسـتعمل التصويتة اللاحقة يلزمها أن تستعمل السابقة ولا ينعكس.

(ج) . اتخاذ مبدإ التساند أساساً لتنظيم التصويتات يلغـي تجميعهـا المؤسـس على الانتساب إلى «المخرج» نفسه [14]، لأن الانتظـام القـائم علـى سـريان الجرس نفسه في متوالية من العناصر الصوتية المتمايزة بصويتات هامشية أورد من الانضمـام الذي يراعي انتساب عناصر مخصوصة إلى منطقة معينة من جهاز التصويت البشري، لأنه قد لا يستفـاد من اتخاذ مخرج ما بين الشفـتين أساساً لإدراج العناصر {/ب/ ، / م/ ،/ و/} في مجموعة واحدة؛ لأن مثل هذه العنـاصر، وإن اتحـدت (مخرجاً)، لا يُوحِّدها صويتٌ نووي. وسوف نرى أن ما وحَّده صُوَيْـتٌ نـووي، توحَّـد مخرجاً أيضاً؛ لأن أي صويت فهو وليد بنية عضوية متشكلة في جهة من جهاز التصويت.

وكذلك، لا يستفاد مـن التجميـع القـائم على صُوَيْت هامشـي: كاتخاذ الجهر ومقابله الهمس منطلقاً لتوزيع تصويتات اللغة على مجموعتين. وإذا تغـير المنطلق، كـالتفخيم ومقابله الترقيق، توزعت تلـك التصويتـات مـن جديـد على مجموعتـين أخريين. ويستمر التقسيم على هذا المنوال حتى تنقضي الصُّوَيْتات الهامشية المتقابلة أسـاسُ إمكـان التفريـع الثنائي لتصويتات العربية [15]. يترتب على المثبت في الفقرة الأخيرة أن «مبدأ التسـاند» أنسب الأسس لتصنيفٍ أورد للعناصر الصوتية في أي لغة.

---

(14) جمّع اللغويون العرب القدماء والمحدثون تصويتات العربية في مجموعات، نسبة إلى الموضع الذي تخرج منه عناصر كل مجموعة. للتوسع في الموضـوع، انظـر مـن القدمـاء :سيبويه، **الكتـاب**، ج 2، ص. 404؛ والمبرد، **المقتضب**، ج 1، ص. 328؛ وابـن جـني، **سر صناعة الإعـراب**، ج 1، ص. 52؛ وابن الجزري، **النشر في القراءات العشـر**، ج 1، ص. 199؛ ومـن المحدثـين راجـع: تمـام حسـان، **مناهج البحث في اللغة**، ص. 124؛ و**اللغة العربية معناها ومبناها**، ص. 59.

(15) للاطلاع على التقسيمات الثنائية المستندة إلى تقـابل الصويتـات الحاشـوية، انظـر: المبرد (**المقتضب**، ج 1، ص. 330)، تجده يقول: «ومن الحروف حروف تجري على النفس، وهي التي تسمى الرخوة؛ ومنهـا حـروف تمنـع النفس، وهي التي تسمى الشدية؛ ومنها حروف إذا رددتها في اللسان جرى معها الصوت، وهي المهموسة؛ ومنهـا حروف إذا رددتها ارتدع الصوت فيها، وهي المجهورة؛ ومنها حروف تسمع في الوقـف عنـد نـبرة بعلـهـا، وهـي حروف القلقلة... ومنها المطبقة والمنفتحة. ونحن ذاكرو جميع ذلك بأوصافـه إن شـاء الله»؛(انظر أيضـاً مبحـث «أقسام الحـروف» في: ابن جني، **سر صناعة الإعـراب**، ص. 68؛ ومبحـث «صفـات الحـروف» في: ابـن الجزري، **النشر في القراءات العشر**، ج 1، ص. 202؛ ومبحث «تقسيم الحروف» في: تمام حسـان، **مناهج البحث في اللغة**، ص. 121؛ ومن الغربيين، انظر المبحث الخـامس من كتاب يَكُبْسـون، **ستة دروس في الصوت والمعنى**، ص. 79 [Roman Jakobson, *Six leçons sur le son et le sens*]).

2. انتظام التصويتات

لن نطيل في سرد جوانب الضعف في مختلف التصنيفات السابقة التي ارتكز أصحابها على اشتراك العناصر الصوتية في المخرج والصفة، لأن اتباع هذا التقليد لا يسنجم مع اللسانيات النسبية التي أقمناها للتنبؤ بالأنحاء النمطية؛ ولأن اتخاذ هذه النظرية إطاراً يلزم عنه تنظيم «مجموع المقدور عليه» في سلاسل من العناصر الصوتية المتوالية، بحيث يتوافر للغات البشرية إمكانات الخيرة في تبني بعض تلك السلاسل واقتطاع حلاقات منها، وهو ما سيؤدي إلى تكوُّن أنساق نصغية نمطية، كما سيتضح بعد قليل من المبحثين التاليين.

2. 1 ـ تنميط الصوائت

تقدم أن هذا الضرب من العناصر الصوتية يتميز بكونه يُخَطُّ في كتابة كل اللغات بصورة الحركون، وبكونه يباشر وظيفة التغاير الدلالي في لغات جذعية كالفرنسية، وليس له، في لغات جذرية كالعربية، سوى دور التمييز بين صيغ القَوِلات التي تباشر الوظيفة المذكورة.

وتبيّن أيضاً أن الانتظام أساسه العلاقتان: **1)** علاقة المخالفة بين صويتات نووية محصورة العدد؛ **2)** علاقة المجانسة بين تصويتات يجمعها صويتٌ نووي ويفرق بينها صُوَيْتاتٌ هامشية، وهي أقل عدداً. وبواسطة مبدأ التساند تنظم تلك التصويتات في سلمية، وهو ما سنتحقق منه الآن.

استناداً إلى علاقة المخالفة، وبإدخال «الصُّوَيْت العدمي» الذي يأخذ في كتابة اللغة العربية شكل الصفر ويسميه نحاتها السكون، يلزم أن يَضم «المقدور عليه» أربعة صوائت نووية ليس غير، وهي:

(أ) . **الفتحة**: اسم يصدق على صويت «الأَ» النووي الذي يتكون في المنطقة الخلفية من جهاز التصويت البشري، ويتولد بنقرة واحدة للأوتار تحدثها كمية من النفس تدفع الصوت الناتج في فتحة الفم من غير أن يعترض مجراه شيءٌ يغيِّر من جرسه.

(ب) . **الضمة**: اسم يطلق على صُوَيْتِ «الأُ» النووي الذي ينشأ بالمنطقة الأمامية. ويتولد «الأُ» هو أيضاً بنقرة واحدة للأوتار تحدثها كمية من النفس تدفع الصوت الناتج إلى بنية عضوية يشكلها ضمُّ الشفتين مع نتوئهما إلى الأمام لتكوين فوهة ضيقة.

(ج) . **الكسرة**: اسم لصويت «الإِ» النووي الذي ينشأ بالمنطقة الوسطى. ويتولد بالكيفيَّة نفسها، لكن الصوت الناتج يدفعه النفس هذه المرة إلى بنية عضوية مغايرة تتشكل في وسط الفم بشد اللسان إلى الطبق وإلصاق حافتيه بالأضراس العليا، حتى إذا ضاق المجرى لم يسمع غير «الإِ».

(د) . **السكون**: اسم أطلقه نحاة العربية خاصة على «الصويت العدمي» الناتج عن تسكين الأوتار وحبس النفس والكف عن تحريك أعضاء التصويت. ومن مجموع هذه الخصائص تتكوَّن قيمة السكون (ه) العدمية التي قابلها الواضع بالقيمة العددية صفر (0). وبما أن الصفر يعد ضمن مجموعة (N)، أي الأعداد الطبيعية الصحيحة، فلا مبرر لإخراج السكون من مجموعة الحركون، وقد شخّصت العربيةُ عناصرَها، تباعاً، بالصور الماثلة في المبيان (10) الآتي.

(10) . { ـَـ ، ـُـ ، ـِـ ، ـْـ }

بموجب علاقة المخالفة الصوائتُ الأربعة { ـَـ ، ـُـ ، ـِـ ، ـْـ } نووية. وكونها كذلك لا تخلو لغةٌ بشرية من أحدها. وبمقتضى علاقة المجانسة يمكن الحصول على صوائت أخرى من جنس الصوائت الثلاثة الأولى. وليس أمام اللغات عندئذ سوى أن تسلك أحد الطريقين: إما «التضعيف»؛ بمعنى إضافة صائت نووي إلى نفسه فينتج صائت مولّد هو ضعف أصله، وإما «التطفيف»؛ وهو تلوين الصائت النووي بجرس مغاير سواء كان من جنسه أو من جنس صائت نووي آخر. وكل لغة أنشأت صوائت لمكوِّنها النُّطْقي بأحد المسلكين فإن الطريق المهمل قد يشكل «ظواهر موضعية» في كونها النَّصّي، كما سيأتي في الفصل الثاني.

العربية من اللغات التي اختارت طريق التضعيف لإنشاء صوائت مولّدة. فحصلت بتضعيف الفتحة (ـَـ)، كما في التمثيل (ـَ + ـَ)، على الفتحة الطويلة (ـَـا). وبجمع ضمة إلى مثلها (ـُ + ـُ) ولّدت الضمة الطويلة (ـُو). كما أنتجت، بإجراء العملية نفسها (ـِ + ـِ)، الكسرةَ الطويلة (ـِي). أما السكون (ـْـ) بوصفه صويتاً عدمياً، فإنه لا يَنتّج من تضعيفه غيرُه؛ إذ نحصل من (ـْ + ـْ) على (ـْ) ليس غير.

استدل ابن جني على أن المدود الثلاثة {ـَـا، ـُـو، ـِـي} أضعافٌ، تباعاً، للحركات الثلاث {ـَـ، ـُـ، ـِـ}. وقد ختم مبحث «الحركات أبعاض حروف المد» بقوله: «فلولا أن الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها، لما نشأت عنها، ولا كانت تابعة لها»[16]. وفي تنصيص ابن جني على «الصوائت الأوائل والصوائت التوابع» تصريح واضح بالانتظام السلمي الناتج عن مبدإ التساند وإن لم يذكر هذا المبدأ باسمه.

نخلص مما تقدم إلى أن العربية من النمط اللغوي الذي يضم نسقُه النُّطْقي سبعة صوائت: (أ) الفتحة والفتحة الطويلة، (ب) الضمة والضمة الطويلة، (ج) الكسرة والكسرة الطويلة، (د) السكون. وجميع هذه الصوائت تنتظمها سلمية التساند (11) التالية:

(11) . (أ) ـَـ < ـَـا .
(ب) ـُـ < ـُـو .
(ج) ـِـ < ـِـي .
(د) ـْـ < ∅ .

وتفيد هذه السلمية أن أي لغة استعملت الصائت اللاحق، وهو الواقع بعد رمز الأقل (<) يلزمها أن تستعمل أيضاً الصائت السابق الواقع قبل الرمز نفسه (<) ولا ينعكس؛ وأن للصوائت التوابع، باعتبار وظيفة التغاير الدلالي، دور

---

(16) سر صناعة الإعراب، ج 1، ص. 20.

الصوائت الأوائل في اللغات الجذعية. لكن دورها في اللغات الجذرية ينحصر في التفريق بين الصيغ الصرفية. فلا يؤدي إحلال أحد التوابع محل أحد الأوائل في قَولَة إلى تغيير الكلمة، وهو ما تكشف عنه المقارنة بين الأزواج القَولِيَّة في مجموعة المداخل المعجمية التالية.

(12) . (أ) زمَـــن / زمـــان.
(ب) مفاتِـح / مفاتيـح.
(ج) بُـرصـة / بورصـة.

بدل التضعيف اختارت لغات كالفرنسية أن تنتهج مسلك التطفيف؛ ويتلخص هذا الإجراء في إدخال تعديلات بسيطة على مخارج الصوائت الأوائل، بحيث ينشأ عن كل تغيير في مخرج الضمة مثلاً أحدُ الصوائت التوابع لها. وتوابع كل صائت تزيد أو تنقص بالقياس إلى عدد التغييرات الممكن إجراؤها على مخرج هذا الأخير مع المحافظة على جرسه النووي. وبالنظر إلى ما يتصف به مخرج الفتحة من الاستطالة، لا يقبل هذا الأخير إدخال تعديل عليه، وبالتالي لا توابع لصائت «الأ» في الفرنسية ونحوها من اللغات[17].

وقد كشفت أمثلة الطرة (9) من المبحث (1. 3) عن نماذج من «الأُوات» التابعة للضمة ونماذج أخرى من «الإيات» التابعة للكسرة، و لم نهتد إلى إشارات تدل على وجود توابع للفتحة، كما تعبر من جديد أمثلة (02) من الطرة [18] أسفله.

---

(17) ذكر نَصَغيُّون أن لبعض الصوائت في اللغات الأوروبية توابع كالضمة والكسرة بخلاف الفتحة. للتثبت من ذلك، انظر «خصائص الصوائت» في: اتروبتسكوي، **مبادئ النصْت**، ص. 100 (Toubetzkoy, *Principes de phonologie*)؛ وانظر أيضاً: مالنبرج، **مجالات النُطق**، ص. 30 (B. Malmberg, *Les domaines de la phonétique*).

(18) يستشف من التدرج العددي للأمثلة المسرودة هنا من اللغة الفرنسية أن التحكم في تصريف الشفتين أبلغ منه في باقي الأعضاء. فمخرج الضمة أكثر قابلية للتغيير؛ لذا تفرع عنه من الصوائت التوابع للضمة أكثر من توابع الكسرة. وإذ لم يتولد عن الفتحة صائت، فلأن مخرجها لا يتحمل تغييرا مع المحافظة على جرس «الأ».

(02) - pour < port < peur < pure...
- pire < père < paire...
- par <...

نخلص مما سبق إلى أن اللغات البشرية مجبرة على توظيف الصوائت الأوائل الأربعة {الضمة، والكسرة، والفتحة، والسكون}، لكنها مخيرة في سلوك أحد المنهجين؛ التضعيف أو التطفيف، لتوليد صوائت توابع. وتبيّن أن العربية من اللغات التي اختارت المسلك الأول المرتكز على عملية الجمع، والمتميز بكون الصائت الأصل يتولد عنه صائت تابع واحد ليس غير، إلا السكون فلا تابع له. وبذلك تشكل العربية مثالاً لنمط لغوي لا يضم نسقه التصويتي سوى سبعة صوائت؛ كما تنتظمها السلمية (10) المذكّر بها هنا.

(11) . (أ) ـَ < ـَا .

(ب) ـُ < ـُو .

(ج) ـِ < ـِي .

(د) ـْ < ∅ .

وفي المقابل، اختار نمط آخر من اللغات مسلك التطفيف القائم على إدخال تعديلات تخص مخرجَيْ الضمة والكسرة خاصةً، فتولّدت لهما توابعُ يختلف عددها تبعاً للتغييرات التي يقبلها مخرجا ذينكم الصائتين.

2 .2 ـ تنميط الصوامت

الصوامت عبارة عن تصويتات متمايزة في النسق النصغي بقيمها الصوتية، وبمباشرة وظيفة التغاير الدلالي، وبخطها في الكتابة بالحروف. وهي، بالقياس إلى الصوائت، أكثر عدداً وقابلية للتراكب. وعناصر الصوامت تنتظمها كالصوائت علاقتان:

(أ) علاقة المخالفة بها يحصل التمايز الخارجي بين الصويتات النووية التي تدخل في تكوين مجموع المقدور عليه، وكل صويت نووي، من المقدور عليه، يلزمه أن يجمع بين الاختصاص بقيمة صوتية خلافية مرتبطة بمخرجه، وبين سريانه في عدد من التصويتات.

(ب) علاقة المجانسة بواسطتها يتأتى تكوين مجموعات من التصويتات. كل مجموعة تضم عدداً من العناصر التي يسري فيها الصُّوَيْت النووي نفسُه ؛

ويحصل تمايزها داخلياً بواسطة الصُّوَيْتات الهامشية. وبالصويت النووي تكون لمجموعة معينة جهة خلافية بالنسبة إلى باقي المجموعات التصويتية، وبالصويت الهامشي تكون للتصويتة جهة خلافية داخل مجموعتها.

اتضح أن راسمة الصامت تتناول كل تصويتة تباشر وظيفة التغاير الدلالي بواسطة قيمتها الصوتية المركبة من صُوَيْت نووي يمثل جهة خلافية بين مجموعات من العناصر الصوتية، ومن صويتات هامشية تمثل جهة خلافية بين عناصر صوتية تنتمي إلى المجموعة نفسها. وظهر أن الصويتات الهامشية، بالقياس إلى الصويتات النووية، قليلة العدد متقابلة إلى درجة التضاد، كما يكشف عن ذلك تقابل الثنائيات في الثُّلاث (11) التالي:

(13) . (أ) جهر V همس

(ب) شدة V رخاوة

(ج) تفخيم V ترقيق

بخفقة النفس للوترين في الحنجرة يهتزان، فيتولد عن تذبذبهما جرسٌ مرتفع قوي هو الجهر المدرك بحاسة السمع عند التلفظ بتصويته /ع/ ونحوها. وفي المقابل يأتي الهمس؛ أي الصدى المنخفض الضعيف الناشئ عن مرور النفس في مجراه من غير أن يصطدم بالوترين؛ فيتكوَّنُ مثل الجرس المسموع عند إصدار /هـ/ أو نحوها.

أما الشدة، فصفة لصدى الفرقعة المصاحبة للانفجار الناجم عن انعتاق مباغت لمقدار من النفس المحبوس حبساً تاماً خلف نقطة إصدار الجرس المسموع عند التلفظ بمثل /ق/. وإذا اندفع النفس محتكاً بحافّات ممرِّه الضيق نسبياً وجرى الصوت معه، تولد الجرس الموصوف بالرخْو المسموع إذا تُلُفِّظ بمثل /ث/.

ومن المحتمل أن ينشأ تقابل آخر يرتبط بنوع التغيير الذي يمكن إحداثه بحجرة الرنين، لأن إطلاق الجرس من حيِّزه يحتمل أحد الأمرين: إما أن يكون ترديده في حجرة رنين مقعرة؛ يحدها سقفُ الحنَك وإطباق اللسانِ عليه؛ برفع مؤخره نحو اللهاة ومد أسلته إلى اللثة، فيولد شكلُ هذه الحجرة جرسَ التفخيم المسموع عند إصدار

/ض/ ونحوها /ط/ أو /ظ/ أو /ص/. وإما أن يكون الترديد في حجرة رنين مسطحة، يتبعه نشوء جرس الترقيق الذي يجامع تصويتات /س/ ونحوها /ت/ أو /د/ وهلم جرّاً.

اتضح أن التقابلات الثلاثة يمكن إجمالها في: **1)** إعمال الوترين أو عدم إعمالهما. و**2)** إحكام سد مجرى النفس أو تضييقه ليجري الصوت فيه. و**3)** تقعير حجرة الرنين أو تسطيحها، وليس بين المتقابلين حالة وسطى ينشأ عنها «صُوَيْتٌ بيني»[(19)].

قائمة الصويتات الهامشية المتقابلة، وإن ضمّت بضع ثنائيات كما في الثُّلاث (13)، فإنها توفر ثُمانية من «القيم الخلافية» التي يمكن استثمارها للتمييز الداخلي بين التصويتات المكونة لمجموعة واحدة يسري في كل منها الصويت النووي نفسه. العدد المذكور من القيم الخلافية يمكن صوغه كما يلي:

(14) (أ) جهر + شدة + تفخيم.
(ب) همس + رخاوة + ترقيق.
(ج) جهر + شدة + ترقيق.
(د) همس + رخاوة + تفخيم.
(هـ) جهر + رخاوة + تفخيم.
(و) همس + شدة + ترقيق.
(ز) جهر + رخاوة + ترقيق.
(ح) همس + شدة + تفخيم.

---

(19) تحدث نصْغيون عن التوسط، وهو الصويت البيني الذي يقع في الوسط بين طرفي النقيض. وضبطوا موقعه بين ثنائية الشدة والرخاوة خاصة. وبناء على التقابلات الصريحة الموصوفة أعلاه لا يُتصور وجود صويت بيني خلافاً لما جاء في سيبويه. (**الكتاب**، ج 2، ص. 406). وردده بعده نصغيون كثير منهم :المبرد، **المقتضب**، ج 1، ص. 320؛ وابن جني، **سر صناعة الإعراب**، ج 1، ص. 69؛ والزمخشري، **المفصل**، ج 2، ص. 290؛ وابن يعيش، **شرح المفصل**، ج 10، ص. 128. التصور نفسه انتقل إلى القراء، كما في: ابن الجزري، **النشر في القراءات العشر**، ج 1، ص. 203؛ والشاطبي، **حرز الأماني**؛ وابن القاصح، **سراج القارئ المبتدئ**، ص. 409. وكرر ذكره من اللغويين المحدثين بغير اختبار أو تمحيص تمام حسان في **اللغة العربية معناها ومبناها**، ص. 59؛ وأعاده من جديد في **مناهج البحث في اللغة**، ص. 87.

التقابل الثنائي بين الصويتات الهامشية في الثّلاث (11) يوفر من القيم الخلافية المحصورة في المسرد (12) أكثر مما يفتقر إليه النسق النصفي في أي لغة من اللغات. وعد الافتقار إذا أضيف إلى رهن القيمة الخلافية بالتقابل الصريح تكوّن من الجميع مبرر قوي على انتفاء الصويت البيني.

وإن توظيف كل هذه القيم الصوتية سيؤدي لا محالة إلى رفع «عتبة الانتظام» في سلمية تساند إلى الثمانية، وهو مستبعد لمبرّر مهم؛ وهو تجنب الإكثار في النسق النّصْغي من التّصويتات المتجانسة التي تصدر من الحيز الواحد. إذن يعنينا الآن الوقوف على كيفية استخدام اللغات للتقابلات الثنائية في الثّلاث (13).

2.2.1 - نوَيات الصوامت وهوامشُها

بموجب علاقة المخالفة يُفترض أن يستقل كل صامت بصويت نووي استقلالَ هذا الأخير بحيِّز منشئه الخاص. فلا يصدر من الحيز الواحد أكثر من صُوَيْت نووي واحد، ولا يكون الصويت النووي الواحد لأكثر من صامت واحد. إذا صحت «الأحادية النّطْقية»؛ (من الحيز الواحد يتولد صويتٌ نووي واحد يقوِّم تصويتةً واحدة سواءٌ كانت صامتاً أو صائتاً)، استغنى النسق النصغي عن القيم الخلافية التي توفرها الصويتات الهامشية. لكن هذه الأحادية مكلفة، إذ تجبر المتكلم، أيّاً كانت بنيةُ أعضائه النُّطقية، على استغلال كل الأحياز في جميع الشعب المكونة لمختلف مناطق جهاز التصويت البشري، كما يوضحه المبيان (5) من المبحث (1 .2)، وفي ذلك نقض لمبدإ الخفة والاقتصاد في الجهد[20].

يلزم عن المثبت في آخر الفقرة السابقة أن يصدق الشق الأول من الأحادية النّطقية؛ فلا يتولد عن الحيز الواحد سوى صويت نووي واحد، ولا يصح شقها

---

(20) بنية جهاز التصويت البشري وإن كانت واحدة لكن أعضاءها متغايرة الأحجام والأشكال، وهو ما يحمل ناطقين على استغلال ما يخف من المناطق النطقية وإهمال ما يثقل عليهم، ويتكرر ذلك مع غيرهم، فاختلفت اللغات من حيث التصويتات المستعملة في كل منها. للمزيد من التفصيل، انظر: الفارابي، **كتاب الحروف**، ص. 136.

الثاني لأن مبدأ الخفة يستوجب إعمال أعضاء نُطقية وإهمال أخرى، فكان المحصول أقل من الحاجة، واشتركت تصويتات، من اللغة الواحدة أو من لغات مختلفة، في صويت نووي. وإذاك تتدخل الصويتات الهامشية لإحداث جهة خلافية، كما يتبين مما يلي:

(15) (أ). **الحفيف**: صُوَيْتٌ نووي يتولد عن حيِّز متشكل من إلصاق الشفة السفلى بالثَّنْتَيْن العُلويين من غير حبس تام للنفس المدفوع إليه. وصُوَيْتُ الحفيف يسري في أكثر من صامت واحد في نسق نَصْغِي واحد أو في نسقين متغايرين. فهو الجامع بين الصامتين الواقعين ثالثاً في القَولَتين الأعجميتين؛ (تلفون/ تلفِزْيون). والمسموع ثالثاً أيضاً عند التلفظ بمثل القَولات العربية؛ (سلَف/ علَف/ تلَفَ). اشتراك صامتين من النسق الواحد في صويت الحفيف النووي يستوجب:

أولاً: إحداث جهة خلافية، فيُضْطَرُّ إلى إدخال احتمال واحد على الأقل من التقابلات الثنائية بين الصويتات الهامشية الماثلة في الثلاث (13)، وبه يحصل التغاير كما يوضح المثال (15 ب ج) التالي:

(15) . (ب) حفيف + همس ⇐ ف (تلفون)

(ج) حفيف + جهر ⇐ ڤ (تلفزيون)

ويدعو ثانياً إلى إدراج ذينك الصامتين في سلمية تساند الشرط الرئيس لقيام نسقية نصغية نمطية. ونحصل بذلك على المثال (15 د) التوضيحي ونحوه (03) في الطرة (21) من الهامش أسفله.

(15) . (د) **ڤ** < V ...

هذه السلمية تعبر، كغيرها من سلميات التساند، عن ضوابط ثابتة لا تتخلف، وإنما يتغير في كل منها ما يخص العناصر الصوتية الماثلة فيها. إذ تنص هذه على ما يلي:

---

(21) بالسلمية (03) ينتظم الصامتان (/ V / , / F /) المسموعان من تلفظ القولتين، الإنجليزية (five)، والفرنسية (vif) كالآتي: ... V < F (03).

1) سريان الصويت الخفيف النووي في الصامتين (/ف/ ، / v /).

2) جهة الخلاف يحدثها تقابلُ صويتَي الجهر والهمس الهامشيين.

3) كل لغة تستعمل الصامت اللاحق / v /، كالفرنسية، يلزمها استعمال الصامت السابق /ف/ ، ولا ينعكس.

4) كل لغة اكتفت كالعربية بالصامت السابق /ف/ لا يلزمها اللاحق /v/ ، لكن نسقها النصغي مجبر على ملاحظة صويت الجهر المميز للصامت المهمل، لأن الهمس لا يميّز الصامت /ف/ في نسقه إلا إذا قوبل بالجهر المميز لصامت آخر في النسق نفسه أو في نسق نصغي آخر. وبهذا المعنى ينبغي فهم التقابلات الثنائية بين الصويتات الهامشية. والذي أوردناه هنا لا يتخلف في الباقي.

(16). (أ). **الغنّة**: صويت نووي ينشأ في الخيشوم إذا انفتح المجرى الأنفي بإبعاد الصفاق الحنكي، وانغلق طريق الفم مطلقاً بإطباق الشفتين أو نسبياً بإلصاق محيط اللسان بمغرس الأسنان العليا. وهو الجامع بين الصامتين المسموعين أولاً عند التلفظ بالقولَتين: (نَجْدٌ / مَجْدٌ)، وثانياً عند إصدار مثل: (عَنيدٌ / عَميدٌ)، وأخيراً في نحو (إعْلاَنٌ / إعْلاَمٌ).

اشتراك الصامتين / ن / - / م / في صويت الغنة يستوجب، فضلاً عن صوغهما في سلمية، إحداث جهة خلافية. ويحصل تغايرهما بتقابل ثنائية الشدة (الناجمة عن فتح مفاجئ للشفتين المطبقتين، وانعتاق مباغت للنفس المحبوس في الفم خلفهما)، والرخاوة (وهي الصويت الذي يجري متصلاً في المجرى الأنفي من جراء الانسداد النسبي لطريق الفم). ويكون تمايز ذينك الصامتين، كما في (16ب ج)، وانتظامهما النسقي كما في (17).

(16). (ب) غنة + رخاوة ⇐ / ن /.

(ج) غنة + شدة ⇐ / م /.

(د) ن > م ...

العبارة (16) تدل بمحتواها على سريان صويت الغنة النووي في الصامتين /ن/ ـ/ م/، فـأُدخِل تقابلُ «رخاوة/ شدة» لإحداث جهة فارقة، فحصل التمايز واستُغني عن باقي الصويتات الهامشية، حتى صار ذكرها من قبيل الحشو. كما تنص على أن اللغة التي تستعمل / م / يلزمها أن تستعمل / ن / أيضاً، ولا ينعكس[22].

(17). (أ). **الصفير**: راسمة لوصف الصويت النووي المتولد عن جريان النفس بين الثنايا المطبقة، وبغير أحد هذين السببين لا ينشأ الصفير الحسيسي. يدل على ذلك انتفاؤه عند العض ولو على قطعة من ورق دقيق. وهو الجامع بين الصوامت المسموعة أولاً عند النطق بالقَولات (زاد، ساد، صاد) والمسماة في اللسانيات العربية القديمة كذلك بحروف الصفير لصدور جميعها من حيز أسناني[23].

اشتراك الصوامت / ز/ ـ / س / ـ / ص / في الصويت النووي نفسه يستوجب إدخال ثنائية الجهر والهمس لإحداث جهة فارقة بين / ز / ، / س /. ثم إعمال ثنائية الترقيق والتفخيم لإيجاد قيمة خلافية يحصل بها تغاير / ص / ، / س/. وهو ما يمكن التعبير عنه بما يلي:

(17) (ب) صفير + ترقيق + جهر ⇐ / ز /.
(ج) صفير + ترقيق + همس ⇐ / س /.

(د) صفير + همس + ترقيق ⇐ / س /.
(هـ) صفير + همس + تفخيم ⇐ / ص /.

أثبتنا في موضع آخر[24] أن لغات كالفرنسية ونحوها الإنجليزية لا توظف صويتَ التفخيم في التغاير الدلالي. لكن نسقها النَّصْغي مجبر على ملاحظته، وإلا انتفى مقابل الترقيق، وعندئذ يفقد كلاهما القدرة على إحداث الجهة الخلافية المطلوبة.

---

(22) من خلال تزجية سيمون ديك للكليات اللزومية ذكر هذه العلاقة بين الصامتين: / N / - / M / ونص على محتوى السلمية (16 د) أعلاه. للمزيد من التفصيل، انظر كتابه **نظرية النحو الوظيفي** (S. Dijk, *The Theory of FG*).

(23) راجع ابن سينا، **أسباب حدوث الحروف**، والمصادر المسرودة في الطرة (17).

(24) انظر: محمد الأوراغي، **الوسائط اللغوية**، ج 2، الفصل السابع منه.

إعمال الثنائيتين: «الجهر v الهمس» و«الترقيق v التفخيم» سيرفع عتبة الانتظام؛ في اللغات التي توظفهما كالعربية[25]، إلى الثلاثي كما في السلمية (17و). بخلاف اللغات التي تكتفي كالفرنسية بالترقيق وبملاحظة مقابله التفخيم الذي أهملته، فإن نسقها النصغي سيضطر إلى التخلي عن الصامت الثالث في السلمية المذكورة.

(17) (و). ز < س < ص ...

يعتبر التقابل المحصور بين إعمال لغات لثنائية «الترقيق v التفخيم» وإهمال غيرها لها من الأسباب المباشرة في تنميط الأنساق النصغية[26]، لأنه بالإضافة إلى ارتفاع عتبة الانتظام، في المكون النطقي، بدرجة فإن الإبدال مثلاً، في المكون النّصْغي، سيتسع هو أيضاً بالنسبة نفسها، كما سنوضح ذلك لاحقاً إن شاء الله.

(25) راجع الطرة 4 في الفصل الأول من هذا العمل.

(26) التنميط اللغوي ربطناه بالوسائط اللغوية. وهذه كما نتصورها عبارة عن إمكانات متقابلة تجبر اللغات جميعاً على اختيار بعضها لإمكان وإهمال مقابله المنتقى من بعضها الآخر، فتحصل اللغات بدءاً في أنساق نمطية. للمزيد من التفصيل، انظر: الأوراغي، **الوسائط اللغوية**، ج 1، الفصل 3 منه.



دور الحركة الصهيونية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876 - 1919 م)

الدكتور تيسير جبارة
جامعة النجاح الوطنية ـ نابلس ـ فلسطين

مقدمة

تولى اللورد بالمرستون وزارة الخارجية البريطانية عام 1830 م أول مرة. وكان ضعف الإمبراطورية العثمانية واضحاً، خاصة عندما احتل محمد علي باشا منطقة بلاد الشام عام 1830 م. لذا حاول بالمرستون أن تبقى الدولة العثمانية سليمة وحية، في حين كانت روسيا وفرنسا تتلهفان على موت الدولة العثمانية أملاً في الحصول على نصيبهما من تركة الإمبراطورية. لذا كان بالمرستون يبحث عمّن يحمي مصالح بريطانيا في الشرق العربي، فوجد ضالته في اليهود، وذلك بتأسيس كيان لهم في المستقبل.

وقد بحث بالمرستون الموضوع مع اللورد شافتسبري؛ لكن شافتسبري أفصح عن مشروع أعده منذ زمن وأطلع بالمرستون عليه، وهو الاستيطان اليهودي في فلسطين وتكثيفه. و لم ينجح مشروع شافتسبري، لكن صاحبه لم يعرف اليأس، وهو صاحب الجملة المأثورة: «فلسطين أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض، أي اليهود». وقد تبنى الصهاينة فيما بعد هذه الجملة وأصبحت من أوّل الشعارات الصهيونية: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

كان بالمرستون في مقدمة الساسة الإنجليز الذين نفخوا في الصهيونية قبل أن تولد عام 1897 م والتي تتبع الروح العنصرية الاستعلائية، وشدد على ربط

تركيا بالغرب، وذلك عن طريق مشروع الاستيطان الصهيوني، وكان يقول إن تركيا بلد متأخر وبحاجة إلى اللحاق بركب الحضارة الغربية.

وتم افتتاح أول قنصلية بريطانية في القدس عام 1834 م، وذلك لحماية المصالح البريطانية في الشرق أولاً، والاهتمام بتشجيع اليهود للهجرة إلى فلسطين ثانياً. وكانت التعليمات البريطانية للقنصلية في القدس الاهتمام بشؤون اليهود وتسجيلهم في القنصلية بقصد حمايتهم. وقد كتب القنصل الإنجليزي في القدس المستر ديكسون بتاريخ 1893/7/11 م إلى المستر آرثر نيكلسون مسؤول وزارة الخارجية البريطانية ما يلي: «يحصل لي الشرف أن أكتب لك قائمة بأسماء اليهود الروس الذين سجلوا أسماءهم في القنصلية البريطانية لحمايتهم إلى الأبد، وأذكر لك أنني بعثت بقائمة مماثلة إلى السلطات العثمانية في القدس»[1]. وكان القنصل الإنجليزي يقدم هذه الكشوفات إلى بلاده أيضاً. وقد ساعد الإنجليز عدداً من اليهود على شراء الأراضي في فلسطين وبناء مستعمرات يهودية عليها، ولا سيما في مناطق زمارين وملبس وعيون قارة والخضيرة وتل أبيب (تل الربيع) [2] وغيرها.

وكانت تعليمات بالمرستون إلى القنصل البريطاني في القدس تقديم تقارير عن وضع اليهود في فلسطين وضرورة حمايتهم، وكانت رسائله تنص على اعترافه باليهود أُمَّةً وارتباطهم بفلسطين. وفي أيار عام 1839 م وتنفيذاً لتعليمات بالمرستون أرسل ينغ - نائب القنصل في القدس - إلى وزارة الخارجية تقريراً يقول فيه: «إن عدد اليهود المقيمين في فلسطين 9690 شخصاً، وإن وضعهم بائس، وإنهم يعتمدون اعتماداً كاملاً على المساعدة الخارجية»[3]. ومن المعروف أن الحماية البريطانية كانت لليهود الذين يحملون جنسيات أجنبية. أما يهود الإمبراطورية العثمانية (يهود الراية)، فكانوا يعتبرون رعايا للإمبراطورية خاضعين لتشريعات السلطان.

(1) أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، ملف رقم Fo195/ 1806/ No .38.
(2) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، ص. 16.
(3) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**، ترجمة أحمد عبد الله، ص. 119.

وكان دعم بالمرستون للاستيطان اليهودي في فلسطين جزءاً متمماً لنزعاته الصهيونية. وهذا دعم لخطة سافتسبري الداعية لإعادة اليهود بشكل جماعي إلى فلسطين.

وهكذا نلاحظ أن بريطانيا قد خططت لضرورة التكلم مع السلطان العثماني لتجميع اليهود في فلسطين تحت الحماية البريطانية وبموافقة السلطان، ولكن هذا التخطيط كان الهدف الأول منه المصلحة البريطانية تجارياً، وذلك بسبب موقع فلسطين على الطريق بين بريطانيا والهند. وقد صرح بذلك توماس كلارك في كتابه "**الهند وفلسطين**" عام 1861 م فقال:

> إن بعث الأمة اليهودية سوف ينعش بني إسرائيل ويعود علينا بأفضل المنافع قاطبة. ومن المؤكد أن احتلال اليهود لفلسطين تحت حماية بريطانيا يجب أن يكون بمثابة الضرورة القصوى على الإطلاق. وإذا كانت بريطانيا تعتمد من جديد على تجارتها كحجر الزاوية في عظمتها، وإذا كان أقرب مجرى للتجارة وأفضله يمر عبر القارات الثلاث الكبرى، وبما أن اليهود يؤلفون شعباً تجارياً في الجوهر، فهل توجد بادرة أكثر طبيعية ومنطقية من زرعهم على طول ذلك الطريق القديم العظيم للتجارة القديمة؟ [4].

وتركزت مصلحة بريطانيا في الشرق في تأمين المواصلات إلى الهند عبر سوريا وفي المحافظة على أمن الهند الذي كان مهدداً من قبل روسيا وفرنسا. لذا وجدت بريطانيا أنه لابد من التحالف بين بريطانيا الاستعمارية والصهيونية الدينية.

وهكذا كانت بريطانيا تخطط للمحافظة على إمبراطوريتها الممتدة من كندا في الغرب إلى الهند في الشرق وأستراليا في الجنوب الشرقي، هذه الإمبراطورية التي لا تغرب عن مستعمراتها الشمس.

الحركة الصهيونية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

سميت الحركة الصهيونية بهذا الاسم نسبة إلى جبل صهيون في القدس، وقامت بين يهود روسيا في أواسط القرن 19 «حركة أحباء صهيون» أو

---

(4) علي محمد علي، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، ص. 34.

الصهيونية. إن كلمة «صهيون» في أصلها كلمة كنعانية أطلقت على الجبل الشرقي في مدينة القدس. وقد وردت كلمة «صهيون» في التوراة خمسين ومائة واثنتين مرة على أنها المدينة المقدسة كما وردت سبع مرات بالمعنى نفسه في العهد الجديد[5].

إن الحركة الصهيونية الحديثة ما كان ممكناً أن يكون لها دور، أو أن تقوم لها قائمة، لولا الجذر الديني الذي اعتمدت عليه جسراً أو إلى حد لا بديل عنه بين الشتات والدولة. فهذا الجسر هو صلة الوصل بين اليهود أينما كانوا وبين الهدف الرئيس للحركة الصهيونية وهو تجميع اليهود وإقامة دولة خاصة بهم في فلسطين، علماً بأن عدداً منهم أراد دولة لليهود في أي مكان في العالم، وتطورت حركة أحباء صهيون على يد ليوبنسكر في كتابه "**التحرير الذاتي**" - نشر بالألمانية عام 1882 م - ليؤكد أن اليهود ليسوا جماعة دينية فقط، بل هم أمة مستقلة بذاتها وخلاصهم من حياة الاضطهاد لا يكون إلا بتحرير أنفسهم باستقلالهم في أرض يعيشون فيها عيشة قومية حرة، ولم تكن هذه الأرض بالضرورة فلسطين[6].

وهناك نوعان من الصهيونية السياسية هما: الصهيونية غير اليهودية، وهي الصهيونية التي خطط لها زعماء الاستعمار، والصهيونية اليهودية وهي التي خطط لها زعماء اليهود. لذا فالصهيونية غير اليهودية هي تلك التي نادى بها الغرب لدوافع استعمارية، وذلك بقصد احتلال بلاد المشرق العربي عن طريق المناداة بضرورة تجميع اليهود في فلسطين. وأصبح للحركة الصهيونية أنصار من اليهود يدافعون عنها ويؤيدونها، وهدفها تجميع اليهود في فلسطين وإقامة دولة لهم فيها، وهناك جمعيات وحركات أخرى يهودية في أوروبا كان الهدف من تشكيلها تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين وشراء الأراضي وتوزيعها على اليهود[7].

---

(5) بيان الحوت، **فلسطين. القضية، الشعب، الحضارة**، ص. 272.

(6) خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908 – 1918 م**، م. ت. ف.، مركز الأبحاث، بيروت، 1973، ص. 17.

(7) عيسى السفري، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية**، ص. 9.

كان لورنس أوليفانت عضو البرلمان البريطاني من الشخصيات القوية الداعمة للصهيونية، وهو صاحب نظرية إعادة إحياء الإمبراطورية العثمانية لمواجهة الإمبراطورية الروسية، وقام لورنس بزيارة فلسطين حيث درس ظروف الاستيطان والاستعمار الزراعي فيها ونشر كتابه "**أرض جلعاد**" الذي اقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية شرقي نهر الأردن تكون تحت السيادة العثمانية والحماية البريطانية، وقدم توصيات بشأن السكان العرب في فلسطين. فمثلاً، قال: يجب طرد البدو لأنهم مولعون بالحرب. أما الفلاحون، فيجب وضعهم في أراضٍ خاصة بهم كالهنود الحمر في أمريكا الشمالية[8]. وأقام لورنس اتصالات بين الصهيونيين اليهود وغير اليهود. وكان أوَّل اتصال له مع «حركة أحباء صهيون» التي تشكلت من الأوربيين الشرقيين، والذين كان همهم الأكبر هو الفرار من موجة المذابح التي أعقبت اغتيال القيصر الإسكندر الثاني عام 1881 م. وفي خلال سنتي 1881 - 1882 م بدأت تتشكل جمعيات في روسيا هدفها تحقيق هجرة اليهود إلى فلسطين. وقد عرفت هذه الجمعيات باسم «حب صهيون»، ثم اشتهرت باسم «أحباء صهيون». وقد عقد «أحباء صهيون»، أول مؤتمر لهم عام 1884 م، ويعتبر هذا المؤتمر أول محطة بارزة في تاريخ هذه الحركة. وقد انتشرت فروع لأحباء صهيون في أوروبا الشرقية. وحصلت «جمعية أحباء صهيون»، عام 1890 م على ترخيص رسمي من السلطات الروسية معرفة عن نسها بأنها «جمعية لمساعدة اليهود الزراعيين والحرفيين في فلسطين وسوريا». وبسبب النزاعات الداخلية في الحركة، فشلت وأخذ أفرادها يعمل كل واحد بمفرده.

إن الانتقال بالمشروع الصهيوني من الساحة الأوروبية المسيحية إلى الساحة الأوروبية اليهودية كان واضحاً. وقد أفصح هيرتسل في مؤتمر بال عام 1897 م عندما قال إن النداءات والدعوات الفكرية لتجميع اليهود لم تجد أذناً صاغية حتى بين اليهود أنفسهم في الثلاثينيّات من القرن التاسع عشر، ولكن في الستينيّات من القرن نفسه بدأت هذه الدعوة تلقى نجاحاً. ومن أبرز الرواد لهذه

---

(8) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**، ص. 141.

الحركة في هذه المرحلة ثلاثة يهود هم يهودا الكلعي وكاليشر وهس، ثم جاء بنسكر متأخراً عن هذه المرحلة. ولد يهود الكلعي في يوغوسلافيا، وكان حاخام الطائفة اليهودية في سراجيفو ـ في البوسنة. نشر كتاباً في تعليم اللغة العبرية، وكتاباً آخر عام 1840 م عنوانه "**شلوم يروشالايم**" حث فيه اليهود على دفع 10/1 من مدخولهم لمساعدة يهود القدس، وسكن فيها في أواخر عمره ومات فيها عام 1878 م. وكان الكلعي أول الداعين إلى تحديث اللغة العبرية وأول من نشر فكرة إنشاء جمعية ليهود العالم لتوحيدهم[9].

وأما تسفي هيرش كاليشر، فهو من روسيا. كان حاخاماً للطائفة اليهودية في مدينة ثورن، وتقع هذه المدينة حالياً في بولونيا. نشر كتاباً عام 1862م بعنوان "**البحث عن صهيون**"، وكان أول كتاب يصدر بالعبرية في أوربا الشرقية بشأن المستعمرات الزراعية في فلسطين. وبمبادرة منه، أنشأت المدرسة الزراعية في ملبس: «بتاح تكفاح» (مفتاح الأمل) قرب يافا.

وأما موشي هيس، فهو يهودي ألماني وكان صديقاً لماركس، وقد أصدر كتاباً بعنوان "**روما والقدس**". قال هس إنه من الممكن استرداد فلسطين عن طريق إغراء السلطان العثماني بالمال، لكنه لم يعتقد أن الأغنياء اليهود سيذهبون لفلسطين. أطلق هس على الشعب اليهودي «الشعب الممتاز». أما المساواة بين البشر، فيناقضها هس كل المناقضة. وأما ليوبنسكر، فكان من رواد الحركة الصهيونية في روسيا، ولد في بولونيا ودرس في أوديسا، تجول في أوروبا داعياً اليهود للتجمع في أي مكان، أصدر كتابه "**التحرر الذاتي**" بالألمانية. وأبرز ما جاء في كتابه عدم التركيز على فلسطين.

وكانت أهداف الصهيونية متوافقة مع الاستعمار البريطاني حتى إنها أصبحت فرعاً له، وأصبح أشد أنصار الصهيونية هم أولئك الذين يشغلون مناصب هامة في الدوائر الحكومية في إنجلترا. وأخيراً، ترأس بعض اليهود الدعوة الصهيونية وعبروا عن اهتمامهم بالعمل السياسي من أجل توطين اليهود في

---

(9) بيان الحوت، **فلسطين**، ص. 312.

فلسطين. وكان من هؤلاء ليوبنسكر صاحب كتاب "**التحرر الذاتي**". لقد تأثر هذا بمذابح عام 1881 م في بلاده، فهاجر إلى وسط وغرب أوروبا داعياً إلى إحياء القومية اليهودية وإقامة دولة يهودية، وذكر في كتابه أن هذه الدولة ليست بالضرورة في صهيون في فلسطين وإن كان يفضل هذا، وقال:

> يجب أن نجد وطناً لهذا الشعب حتى نكف عن التجوال في العالم وحتى نعيد إقامة الأمة اليهودية... إن هدفنا في الوقت الحاضر ينبغي ألا يكون استعادة الأرض المقدسة إنما نطالب بأرض لنا... أية أرض... إننا لا نريد قطعة من الأرض ذات اتساع يستطيع أن يأوي إخواننا البؤساء، قطعة من الأرض تظل ملكاً لنا ولا يستطيع أحد أن يطردنا منها[10].

وفي هذه المرحلة بالذات، وفي إثر المذابح القيصرية ضد اليهود في روسيا، ابتدأت الهجرة الجماعية الأولى إلى فلسطين، وهي الهجرة التي كانت الشعارات الدينية عنواناً لها، والفقر والاضطهاد من مبرراتها. ومن أبرز نتائج الهجرة من روسيا أن اليهود توجهوا في أغلبيتهم إلى الولايات المتحدة وكذلك إلى فلسطين. فكانوا في أمريكا نواة الجالية اليهودية الضخمة، وكانوا في فلسطين نواة الصهيونية. كان شبح الاضطهاد الذريعة الكبرى للهجرة الصهيونية نحو فلسطين، لذلك أصبح من هموم الدعاية الصهيونية التركيز على سيرة الاضطهاد.

وزادت الهجرة الصهيونية إلى أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر، مما أدى بأمريكا عام 1890 م إلى بعث مندوبين اثنين إلى أوروبا الشرقية لدراسة أسباب الارتفاع المفاجئ في الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة، وذكر المندوبان الأميركيان في تقريرهما: «إن أغلبية يهود روسيا يعيشون في ظروف أشد سوءاً من الفلاحين والعمال الروس»[11]. لذلك فضل كثير من اليهود الروس الهجرة إلى أمريكا البلد الجديد بدلاً من الهجرة إلى فلسطين. وذكر هرتسل في كتابه

---

(10) علي محمد علي، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، ص. 39.

(11) **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة**، منشورات الطلائع بإشراف حبيب قهوجي، ص. 61، هامش 20.

"**الدولة اليهودية**": «سيذهب أولاً أولئك الذين هم في حالة بؤس ثم يتبعهم الفقراء» [12].

وأقيمت مستعمرات في فلسطين عام 1882 م وهاجر عدد من اليهود الروس إليها، ولكن بسبب صعوبة العيش في فلسطين وصعوبة التأقلم وقلة الخبرة الزراعية عاد بعض المستوطنين إلى روسيا وذهب قسم منهم إلى أمريكا وقليل منهم بقي في القدس. وكانت البعثات المسيحية قد أنفقت على عودتهم إلى أوروبا[13]. وأما يهود فلسطين، فلم يعجبهم قدوم الهجرات اليهودية من الخارج والإقامة في فلسطين، لأن المهاجرين يزاحمونهم اقتصادياً في فلسطين. وقد أثبت هرتزل في يومياته هذه الحقيقية التاريخية التي كشفت عن المعارضة اليهودية الفلسطينية للصهيونية[14]. كما واجهت عملية الاستيطان في فلسطين مقاومة عنيفة ومسلحة من العرب في هجومهم على المستوطنات في وقت مبكر من إقامة تلك المستوطنات اليهودية. وفي عام 1870 م، أنشأ يهود فرنسا مدرسة زراعية قرب يافا تدعى بالمكفية؛ وتقوم المدرسة على أراضي قرية يازور العربية. كما أنشأ اليهود الإنجليز أول مستعمرة لهم في أراضي قرية ملبس العربية قرب يافا، وهي مستعمرة بتاح تكفا، أي مفتاح الأمل. وكانت هذه المستعمرة تعيش على المساعدات التي قدمها اليهودي روتشيلد، وذلك لتشجيع اليهود على البقاء في فلسطين. ووصل عدد من الطلاب اليهود من روسيا من جمعية «بيلو» التابعة لحركة «أحباء صهيون» إلى فلسطين في 1882/8/5 م وأسسوا مستوطنة ريشون ليتسيون (الأول في صهيون) بين القدس ويافا. وقد تأسست بين عام 1882 - 1884م تسع مستوطنات وضعت أساس الاستيطان الحديث في فلسطين[15].

وتأسست بين عام 1889 و1908 م ثماني مستوطنات جديدة. ولم يتوقف إنشاء المستوطنات أو شراء الأراضي حتى خلال الحرب العالمية الأولى. فقد

---

(12) هرتزل، **الدولة اليهودية**، ص. 110.

(13) Walter Laquer, *A Short History of Zionism*, p. 78.

(14) **استراتيجية الاستيطان**، منشورات الطلائع بإشراف حبيب قهوجي، ص. 79.

(15) خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908 - 1918 م**، ص. 18.

حصلت المنظمة الصهيونية خلال الثلاث السنوات الأولى من الحرب على 40 ألف هكتار من أجود الأراضي، وذكر كالفاريسكي أن هناك أربع مستوطنات في الجليل تأسست في فترة الحرب العالمية الأولى[16].

وتذكر الكتب التاريخية أن الهجرة الصهيونية إلى فلسطين مرت في مرحلتين هما: الهجرة الأولى (1882 - 1904 م) والهجرة الثانية (1905 - 1914 م). أما قبل ذلك التاريخ، فكانت الهجرة إلى الولايات المتحدة من روسيا ورومانيا. لقد شهدت الهجرة الأولى موجتين: تسمى موجة الهجرة الأولى بالعبرية «عالياه» كانت عام 1881 - 1884 م، و لم يصل فلسطين منها سوى 2 % فقط من هذه الموجة والباقي توجه إلى أمريكا. وتم إنشاء مستعمرات في هذه المرحلة مثل ريشون ليتسيون (عيون قاره) وروش بيناه (الجاعونه) وزخرون يعقوف (زمارين) وبتاح تكفا (ملبس). أما الموجة الثانية من (عالياه الأولى) فكانت خلال سنتي 1890 – 1891 م من روسيا. ومن أهم المستعمرات التي قامت آنذاك هي رحفوت (ديران) وحواره (الخضيرة) ومشمار هايرون ويئير طوفياه والمطله[17]. وكان الممول لهذه المستعمرات روتشيلد أحد أغنياء اليهود. وهناك مشكلات داخلية واجهت هذه الهجرة الأولى، وهي الأمراض التي تفشت بينهم مثل الملاريا وقلة الخبرة الزراعية واختلاف الجو الذي جاءوا منه. لذا هاجر بعضهم من فلسطين لأمريكا، ورجع بعضهم الآخر لروسيا، وترك آخرون المستوطنات إلى القدس. وفي مواقع لم تستقطب المستعمرات إلا عدداً ضئيلاً بسبب سكناهم في المدن، وكان عدد الذين سكنوا في هذه المستوطنات ستة آلاف مستوطن فقط.

وكانت الهجرة الثانية (عالياه الثانية) في فترة 1905 - 1914 م حيث تأسس مكتب فلسطين في هذه الفترة على يد آرثر روبن عام 1908 م، وكان مسؤولاً عن الاستيطان، واستطاع إقامة 9 مستوطنات في ستة أعوام وقد شيدت في هذه المرحلة مستعمرة تل أبيب عام 1909 م. ثم أُنْشِئَتْ منظمة هاشومير في هذه الفترة

---

(16) **المصدر نفسه**، ص. 276.

(17) بيان الحوت، **فلسطين**، ص. 394.

ومعناها الحارس عام 1909 م ولم يبلغ عدد الحراس اليهود أكثر من مئة شخص لحراسة المستعمرات. وقد كان هؤلاء نواة لمنظمة الهاجاناه العسكرية فيما بعد. ويقول المؤرخ اليهودي والتر لاكور إن أبرز نتائج الهجرة الثانية كانت:

1) برهان اليهود على قدرتهم أن يكونوا مزارعين وقدرتهم على تطوير وسائل حديثة في المستعمرات.

2) إحياء اللغة العبرية.

3) تصميم عدد من اليهود على البقاء في فلسطين، بالرغم من كل الصعوبات[18].

اليهودي الصهيوني ثيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية

كان ثيودور هرتزل أول من خطط لإنشاء دولة يهودية، حيث شرح في كتابه الذي صدر عام 1895 م بعنوان "**الدولة اليهودية**" فكرة إيجاد دولة لليهود. وتناول في كتابه نقطاً عن كيفية إنشاء الدولة اليهودية وشرح فيه أحوال اليهود في أوروبا فقال:

> إننا شعب واحد، ولقد حاولنا بشرف وفي كل مكان أن نندمج في الجماعات التي نعيش فيها. إننا نعامل في الدول التي نعيش فيها على أننا غرباء. إن إقامة دولة جديدة ليست بالشيء المستحيل. وستكلف وكالتان متخصصتان بالقيام بهذا العمل هما «جمعية اليهود» و«الشركة اليهودية»، وستخول الجمعية السلطات للتفاوض مع الحكومات بكونها ممثلة للشعب اليهودي، وسيكون هدفها خلق الدولة اليهودية. أما الشركة، فهي لتمويل هذه العمليات[19].

وذكر في كتابه أن الأرجنتين مناسبة لإيجاد دولة يهودية فيها، لأنها أرض واسعة وفيها عدد قليل من السكان. أما عن فلسطين، فقال إنها مناسبة أيضاً لأن فيها ذكريات تاريخية، وأضاف قائلاً: «وإذا وافق السلطان على إعطائنا فلسطين، فإننا

---

(18) **المصدر نفسه**، ص. 399.

(19) علي محمد علي، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، ج 1، ص. 53.

في مقابل ذلك سنتعهد بتنظيم الأموال المالية لتركيا، وسنعمل على أن نظل مرتبطين بكل أوروبا التي ستضمن بقاءنا»[20].

كيف سيتم تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين؟ لقد وضح هرتزل ذلك عندما شرح المشروع الصهيوني في يومياته عام 1895 م قائلاً إن جوهر المشروع الصهيوني هو انتزاع الأرض العربية من أصحابها وإعطاؤها مستوطنين أو مهاجرين يهود من الخارج، ولن يتم الاستيطان إلا على حساب العرب، وأضاف هرتزل قائلاً:

> يجب أن نستخلص ملكية الأرض التي ستعطى لنا ولكن باللطف والتدريج، وسنحاول أن نشجع فقراء السكان على النزوح إلى البلدان المجاورة، وذلك بتأمين أشغال لهم هناك ورفض إعطائهم أي عمل في بلادنا... على أننا يجب أن نقوم بكلتا العمليتين، استخلاص الأرض وإبعاد الفقراء بتعقل وحذر[21].

وفي 1897/8/29 م عقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بال بسويسرا. وكانت أبرز القضايا في هذا المؤتمر بعث اليهودية في يهود أوروبا الغربية وتعليم اللغة العبرية لليهود. أما القضية الأساسية للمؤتمر، فهي توجيه أنظار اليهود ومشاعرهم نحو فلسطين وتحويلها عن أمريكا أو أي مكان آخر.

وكان مؤتمر بال نقطة هامة في تاريخ الحركة الصهيونية، لأن الأعضاء الذين شاركوا فيه درسوا الوسائل الكفيلة لنجاح خطتهم في تأسيس وطن أو كيان ليهود العالم. وقد التقى في هذا المؤتمر الصهيوني تياران، الأول منهما يمثل جماعة «محبي صهيون» الذين ركزوا حديثهم على تأسيس مركز لليهود في فلسطين، بينما الثاني يمثل أنصار «الدولة اليهودية» الذين أرادوا تأسيس دولة يهودية في أي مكان، لكن اتفق الطرفان وقررا إنشاء وطن قومي لليهود[22]. كما تم في هذا المؤتمر وضع برنامج الحركة الصهيونية السياسي وجاء فيه:

---

(20) **المصدر نفسه**، ص. 55.
(21) **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة**، منشورات الطلائع، ص. 89.
(22) **المصدر نفسه**، ص. 55.

تكافح الصهيونية من أجل إنشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين يحميه القانون، ويرى المؤتمر أن الوسائل التالية تؤدي إلى الغاية المنشودة. وهذه هي قرارات مؤتمر بال:

1 - تشجيع العمال اليهود الصناعيين والزراعيين استعمار فلسطين على أسس مناسبة.
2 - تنظيم وربط جميع اليهود عن طريق المؤسسات المحلية أو الدولية طبقاً لقانون «كل أمة».
3 - تعزيز وتشجيع الإحساس والشعور القومي اليهودي، أي إيقاظ الوعي اليهودي.
4 - اتخاذ الخطوات التمهيدية لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقتها على أهداف الحركة الصهيونية[23].

وأضاف المؤتمر أن كل شخص يهودي يعتنق المبادئ التي وضعت في مؤتمر بال يكون صهيونياً وعليه دفع شلن واحد في السنة، والشلن هو عملة نقدية تساوي 20/1 من الجنيه.

ألقى هرتزل خطاباً في مؤتمر بال قائلاً:

إننا نريد أن نرسم أسس البناء الذي سيأوي يوماً الشعب اليهودي. إن الواجب كبير جداً... سنستمع إلى تقارير عن وضع اليهود في مختلف الأقطار... إن الوضع باستثناء حالات نادرة لا يدعو للارتياح... إن الشتات المبعثر للشعب اليهودي قد تحمل في كل مكان اضطهاداً... ومنذ التاريخ السحيق والعالم يسيء فهمنا... إن الصهيونية هي العودة إلى الحياة اليهودية قبل أن تكون عودة إلى الأرض اليهودية... سيكون من أول نتائج حركتنا تحويل المسألة اليهودية إلى مسألة خاصة بصهيون... إن هجرة اليهود ستبدأ إنعاشاً للأرض الفقيرة، بل في الحقيقة فهو إنعاش للإمبراطورية العثمانية بأكملها[24].

دام عقد المؤتمر ثلاثة أيام حضره أكثر من مائتي مندوب يمثلون سائر الهيئات اليهودية وخرج بتوصيات هامة وخطيرة[25].

---

(23) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**، ص. 149؛ وانظر جمال عبد الناصر، **هذه هي الصهيونية**، ص. 47.
(24) علي محمد علي، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، ج 1، ص. 77. وثيقة رقم 35.
(25) **المصدر نفسه**، ج 1، ص. 94. وثيقة رقم 37.

وعندما رجع هرتزل من بال إلى فيينا، كتب في جريدته، بقصد الدعاية لتأييد الصهيونية، قائلاً:

لو طلب مني تلخيص أعمال مؤتمر بال، فإني أقول، بل أنادي على رؤوس الأشهاد أنني أسست الدولة الصهيونية. وقد يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك، ولكن العالم قد يشهد بعد خمسة أعوام أو بعد خمسين عاماً قيام الدولة اليهودية حسبما تمليه إرادة اليهود بأن تنشأ لهم دولة[26].

وعقدت مؤتمرات صهيونية أخرى بعد المؤتمر الأول، حيث عقدت عدة مؤتمرات صهيونية معظمها عقد في بال. وقد قرر المؤتمر الصهيوني الثاني إنشاء بنك لتمويل المشاريع الصهيونية برأس مال قدره مليونا جنيه إسترليني. وعقد المؤتمر الثالث بتاريخ 1899 م أكد قرارات المؤتمرات السابقة. وعقد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن، وذلك بقصد استثارة عطف الرأي العام الإنجليزي على الصهاينة. أما المؤتمر الخامس، فقد تقرر فيه التخطيط لإنشاء جامعة عبرية وإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، وعقد مؤتمر صهيوني سادس بتاريخ 1903 م وهو آخر مؤتمر يشهده هرتزل لأنه توفي عام 1904 م. وفي هذا المؤتمر ثار عليه الأعضاء الصهاينة، لأنه قبل اقتراح الإنجليز بتأسيس وطن قومي لليهود في أوغندا بإفريقيا[27].

واتخذ مؤتمر بال الصهيوني قرارات علنية وأخرى سرية. أما العلنية، فخلاصتها تأسيس دولة لليهود في فلسطين، وعهد لذلك بتقوية الحركة الزراعية وشراء الأراضي في فلسطين. وأما السرية، فهي تلك التي سميت بـ"**قرارات حكماء صهيون**". وقد تسربت منها نسخة إلى مراسل جريدة "**المورننج بوست**" اللندنية في روسيا وقام بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، و"**البروتوكولات الصهيونية**" هي الخطة التي وضعت للسيطرة على العالم[28].

---

(26) جمال عبد الناصر، **هذه هي الصهيونية**، ص. 48.

(27) تيسير جبارة، **تاريخ فلسطين الحديث**، ص. 32.

(28) عبد الله التل، **خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية**، ص. 165. وذكر التل أن أول ترجمة للعربية قام بها محمد خليفة التونسي عام 1951 م، ونشرتها دار الكتاب العربي عام 1951 م.

وكان قد صدر كتاب الإنجليزية بعنوان "**بروتوكولات حكماء صهيون**" عام 1919 م في لندن وصدرت الطبعة الحادية والثمانون سنة 1958 م بالإنجليزية أكثر من مليون نسخة وبلغ عدد البروتوكولات أربعة وعشرين بروتوكولاً، «هو مخطط شامل لتقويض كل ما هو قائم في هذا العالم، ولا سيما أوروبا المسيحية وروسيا الأورثوذكسية والبابوية والإسلام وإقامة ملكٍ يهوديٍّ لنسل داود على هذا العالم المنهار» [29].

مقابلة هرتزل للسلطان عبد الحميد الثاني

كان هرتزل نشيطاً في اتصالاته مع الشخصيات الهامة في أوروبا وتركيا، وكان أحياناً يطلب منهم الاتصال بالسلطان عبد الحميد لإقناعه بإعطائه فلسطين. فطلب مثلاً من ليونسكي ـ صديق السلطان ومفوض الشؤون الأرمنية ـ أن يقنع السلطان بهجرة اليهود لفلسطين. فقال ليونسكي لهرتزل إن السلطان قال له إنه لن يتخلى أبداً عن القدس. قال هرتزل: «سندبر هذا الأمر... سنجعل القدس خارج حدود الدولة اليهودية ـ المكان المقدس يمتلكه كل المؤمنين»[30]. وقد نقل ليونسكي رأي السلطان عبد الحميد إلى هرتزل في 1896/6/19 م بشأن بيع فلسطين لليهود، فذكر ليونسكي لهرتزل:

> قال السلطان لي: إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي، فانصحه ألا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحدة من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي... لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها، ليحتفظ اليهود ببلايينهم. فإذا قسمت الإمبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل. إنما لن تقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان[31].

ثم بعث هرتزل رسالة للسلطان عبد الحميد بتاريخ 1896/8/25 م عرض فيها دفع مبلغ عشرين مليون جنيه إسترليني ضريبة يدفعها اليهود الذين سيقيمون بفلسطين

---

(29) بيان الحوت، **فلسطين**، ص. 349؛ انظر أيضاً إبراهيم خليل أحمد، **إسرائيل والتلمود**، ص. 106.
(30) علي محمد علي، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، ج 1، ص. 62. وثيقة رقم 25.
(31) **المصدر نفسه**، ص. 66. وثيقة رقم 28.

للسلطان العثماني، تكون في السنة الأولى مئة ألف جنيه وتزداد إلى مليون جنيه سنوياً، ويزداد دفع الضريبة على مقدار ازدياد الهجرة اليهودية التدريجية إلى فلسطين غير المحدودة ثم يعطى المهاجرون الاستقلال الذاتي[32]. وعندما زار القيصر الألماني فلسطين، وكان صديقاً للسلطان، تقدم هرتزل لمقابلة القيصر وألقى خطاباً أمامه في 1898/11/2 م، يستشف منه أن يتدخل القيصر لإقناع السلطان العثماني بإعطاء فلسطين وطناً قومياً لليهود. قال هرتزل:

> نحن نطلب من جلالتكم مساعدتكم السامية من أجل المشروع في «إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين»، ولكنا ما كنا نقدم على مثل هذا الطلب لو كان في خطتنا أدنى أذيّة أو تعد على حاكم هذا البلد (السلطان عبد الحميد)... نحن نخطط لقيام شركة يهودية لأراضي سوريا وفلسطين والتي ستحمل على عاتقها مهمة القيام بهذا المشروع (الوطن القومي) ونطلب لها أن تكون تحت حماية القيصر الألماني...[33].

كان هرتزل قد قابل القيصر الألماني غليوم قبل هذه المرة مرتين سابقتين: الأولى في إستامبول في 1898/10/18 م، والثانية في فلسطين في 1898/10/29 م. وفي كل مرة كان هرتزل يضرب على وتر الحماية الألمانية للوطن القومي اليهودي الذي يخطط له. وذكر أن الاستعمار الصهيوني في فلسطين برعاية ألمانيا وحمايتها سيفتح الطرق البري لآسيا من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي. بعد أن تيقن هرتزل أن هذه المساعي في إقناع القيصر الألماني لم تثمر، ركز جهوده على كسب تأييد بريطانيا التي عرضت عليه استعمار أوغنده عام 1903 م[34].

بعد هذه الرسائل المرسلة للسلطان عبد الحميد الثاني، وبعد هذه الوساطات الأوروبية والتركية والألمانية ورفض السلطان عبد الحميد التنازل عن فلسطين، قرر هرتزل مقابلة السلطان لإقناعه. وقد كتب هرتزل في مذكراته عن مقابلته للسلطان عبد الحميد الثاني في 1901/5/18 م أنه بحث مع السلطان مسألة الديون العثمانية بأنها شوكة في حلق السلطان وعلى اليهود مساعدته، فرفض

---

(32) **المصدر نفسه**، ص. 69. وثيقة رقم 30.
(33) **المصدر نفسه**، ص. 106. وثيقة رقم 43.
(34) إميل توما، **جذور القضية الفلسطينية**، ص. 59.

السلطان عبد الحميد العرض. وفي أثناء اجتماع هرتزل مع السلطان عبد الحميد عام 1901 م لأول مرة، طلب منه هرتزل فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بدلاً من أوروبا والعمل على إنشاء حكومة يهودية تابعة للسلطان العثماني. ولكن السلطان رفض هذا الطلب بشدة أيضاً وأصدر قانوناً يقضي بمنع اليهود المهاجرين من الإقامة في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر[35].

وقد منحت الدولة العثمانية المهاجرين اليهود بطاقات حمراء ليسهل عليها مراقبتهم وطردهم من البلاد لو مكثوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر، على أن يتم ترحيل اليهودي عن طريق القنصلية ذات العلاقة التي ينتمي إليها، وكانت البطاقة التي يحملها اليهودي من السلطات التركية مكتوب عليها الجنسية والمهنة وسبب الرحلة لفلسطين[36].

ويعزو لوثر (السفير البريطاني في الأستانة) أن سبب تشدد عبد الحميد في رفض الهجرة الصهيونية لفلسطين هو الصدر الأعظم كامل باشا (1886 – 1891 م)، لأنه شرح للسلطان النتائج الخطيرة لمثل هذه السياسة على الدولة العثمانية. ولم يستطع هرتزل الذي قابل السلطان مرتين بواسطة الأستاذ Armenius Vambery أن يقنع السلطان عبد الحميد بالتخلي عن معارضته[37].

ثم بعث هرتزل رسالة أخرى للسلطان في 1901/6/17 م طلب فيها تأسيس شركة يهودية في الدولة العثمانية تدعى الشركة العثمانية اليهودية يبلغ رأسمالها خمسة ملايين جنيه تركي هدفها تنمية الزراعة والصناعة والتجارة في آسيا الصغرى وفلسطين وسوريا، وأن تقوم هذه الشركة بدفع ستين ألف جنيه سنوياً للدولة العثمانية مقابل الامتيازات التي يمنحها السلطان للشركة بالإقامة، وذكر هرتزل في رسالته قائلاً للسلطان العثماني:

> إن خدماتي الخالية من أية مصلحة في هذه المشروعات هي تحت تصرف جلالتكم حتى وإن كنتم لا تعتقدون أن من المناسب البدء الآن... لا أسأل في عملي لجلالتكم

---

(35) ناجي علوش، **المقاومة العربية في فلسطين (1917 - 1948 م)**، ص. 37.

(36) خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908 - 1918 م**، ص. 24.

(37) **المصدر نفسه**، ص. 42.

إلا شرف استعادة ثقة جلالتكم فيّ ... سيكون لمشروع الشركة "العثمانية ـ اليهودية" فائدة أخرى وهي أن دافعي الضرائب بشراً وممتلكات سيزدادون في كل المناطق التي ستعمل الشركة فيها، وستدفع الشركة المزيد من الضرائب بنمو عملها. وسيتدفق رأس المال اليهودي من كل زاوية ليوطد نفسه هناك وليبقى في الإمبراطورية [38].

إن كل هذه الإغراءات المادية من هرتزل لسداد ديوان الدولة العثمانية قد رفضها السلطان عبد الحميد الثاني. وقد بلغت الديون على الدولة العثمانية حوالي 85 مليون جنيه إسترليني كان قد استدانها السلاطين العثمانيون السابقون من الدول الأوروبية بفوائد عالية. حاول هرتزل الحصول على فلسطين من السلطان عبد الحميد بعدة طرق، منها: أولاً، الإغراءات المادية، وذلك بسداد ديون الدولة العثمانية؛ وثانياً، إنشاء شركة يهودية عثمانية؛ وثالثاً، الوساطات الأوروبية والتركية لدى السلطان لإقناعه. وقد فشل فيها هرتزل كلها. ثم قرر هرتزل أخيراً الحصول على فلسطين عن طريق إنشاء جامعة عبرية في القدس، حيث قدم هرتزل اقتراحاً بهذا المشروع للسلطان العثماني في 1902/5/3 م قال فيه: : «إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم، والأساتذة اليهود يملأون جامعات البلدان... إننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم ولتكن في القدس مثلاً. عندها لن يضطر الطلاب العثمانيون الذهاب إلى الخارج...»[39]. ولقي مشروعه هذا الرفض من السلطان أيضاً.

كان السلطان عبد الحميد الثاني يتصدى للمخططات الصهيونية التي تريد ابتلاع فلسطين والقدس خاصة. لذا أصدر قوانين وتشريعات لمنع هذه المخططات. ومن أهم خطواته ربط سنجق القدس مباشرة بالصدر الأعظم في إستنبول حتى يشرف بنفسه على منع تغلغل النفوذ الاستعماري والصهيوني في فلسطين عامة والقدس خاصة. وأشار هوجارت ـ وهو أحد البريطانيين المتخصصين في أمور الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى ـ إلى أن الاستيطان هو الذي دفع السلطان عبد الحميد عام 1887 م إلى جعل القدس سنجقاً مستقلاً عن ولاية

---

(38) علي محمد علي، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، ص. 121. وثيقة رقم 48.
(39) **المصدر نفسه**، ص. 128. وثيقة رقم 50.

دمشق ومتصرفيَّة لها اتصال مباشر بالصدر الأعظم[40]. وكانت متصرفيّة القدس تضم أقضية القدس ويافا وغزة والخليل وبئر السبع، وذلك حسب التقسيمات الإدارية العثمانية.

وعندما علم السلطان أن سيل الهجرة الصهيونية من روسيا قد يتدفق إلى فلسطين بسبب ما جرى ضد اليهود من قبل الحكومة القيصرية أرسل في 1882/6/29 م رسالة إلى متصرف القدس طلب فيها منع اليهود الذين يحملون الجنسيات الروسية والرومانية والبلغارية من الدخول إلى القدس، وكانت قوانين عام 1882 م التي أصدرها السلطان لا تسمح لليهود بدخول فلسطين إلا في حالة واحدة وهي الحج ولمدة ثلاثة أشهر، على أن يحجز جواز سفر الزائر ويودع في مركز البوليس التركي حيث يستبدله مؤقتاً بـ«الجواز الأحمر»؛ ولكن ظلت تلك الأوامر حبراً على ورق، لأن اليهود استطاعوا خرقها «بفضل البخشيش»[41].

كان السلطان على معرفة بفساد الإدارة الحكومية وانتشار الرشوة والمحسوبية عند كبار الموظفين، لذلك كان يحرص على تعيين موظفين أكفاء مخلصين على سنجق القدس حتى لا يقعوا فريسة إغراءات قناصل الدول الأجنبية واليهود. ومن هؤلاء الموظفين رءوف باشا الذي كان متصرفاً للقدس بين عام 1876 وعام 1888 م. لكن سعى سفير الولايات المتحدة الأميركية (أوسكار شتراوس) اليهودي الأصل إلى طرد رءوف من منصبه، وذلك بالضغط على السلطات التركية، ووافقت السلطة التركية على استبدال هذا الوالي بوالٍ آخر أقل عداءً للصهيونية، لأن مواقف وأعمال رءوف باشا أدت إلى تجميدٍ النشاط الصهيوني في متصرفية القدس خلال فترة ولايته[42].

وفي عام 1890 م قدم وجهاء القدس عريضة احتجاج للصدر الأعظم ضد رشاد باشا متصرف القدس الجديد الذي أبدى محاباة وتحيزاً للصهاينة، بخلاف

(40) خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني وصداه (1908 – 1918 م)**، م. ت. ف.، مركز الأبحاث، بيروت، ص. 24.

(41) حسان حلاق، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية**، ص. 97.

(42) صبري جريس، **تاريخ الصهيونية**، ج 1، ص. 110.

سلفه رءوف باشا؛ وكذلك قدموا عريضة أخرى عام 1891 م طالبوا فيها بإصدار فرمان سلطاني يمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، لأنهم لاحظوا بداية النشاط الصهيوني لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين[43]. لذا أصدر السلطان فرماناً عام 1900 م جدد فيه إقامة اليهود الزائرين لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر. فاحتج الصهاينة وطلبوا من الدول الأوروبية الاحتجاج على هذا القانون، فاحتجت إيطاليا وأمريكا وبريطانيا. وكان رد الصدر الأعظم أن ذلك الفرمان ليس جديداً، بل هو تجديد لفرمان صدر منذ عشرين عاماً. ولكي يخفف السلطان من حدة هذه الاحتجاجات، وافق على مقابلة هرتزل عام 1901 م[44].

وفي عام 1898 م أصدر السلطان عبد الحميد قوانين جديدة منع فيها اليهود من دخول القدس. وقد بلغ من تشدد السلطات العثمانية في تنفيذ هذه القوانين أنها منعت القنصل البريطاني في أنطاكيا من الدخول ما لم يقدم التعهد المطلوب باعتباره يهودياً، ذلك التعهد الذي يقضي بأن يغادر البلاد خلال المدة التي حددها القانون.

وبالرغم من هذه الإجراءات العثمانية المشددة للحفاظ على فلسطين، استطاع اليهود الصهاينة التسلل إلى فلسطين بمساعدة بعض القناصل الأوربيين في فلسطين، وقبول بعض الموظفين العثمانيين الرشاوي. لكن أعيان القدس طالبوا الصدر الأعظم باتخاذ إجراءات فعالة وكفيلة بمنع تدفق اليهود إلى فلسطين وشرائهم الأراضي.

علم هرتزل أنه من المستحيل إقناع السلطان عبد الحميد أو شراء ذمّته بالمال؛ لذلك دبر الصهاينة مؤامرة لخلعه أو زج تركيا في حرب عالمية[45]. وبما أن تركيا ضعيفة، فهي لابد من أن تخسر الحرب. وهذا ما حصل فعلاً فيما بعد.

---

(43) إسماعيل أحمد ياغي، «موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهودية والصهيونية»، بحث مقدم إلى **المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام**، ص. 5.

(44) حسن صبري الخولي، **سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين**، ص. 7.

(45) **جريدة فلسطين**، عدد رقم 408 ـ 41، بتاريخ 1921/8/24 م.

ومن الغرابة أنه أثناء خلع السلطان عبد الحميد عام 1908 م والثورة عليه، جاء موظف عثماني يهودي كان يعرفه السلطان وسلمه رسالة الخلع عن الحكم. وكان هذا اليهودي مندوباً عن حركة «تركيا الفتاة»، فاستغرب السلطان عبد الحميد لهذه المكيدة المدبرة[46]. لقد التقت مصلحة اليهود مع مصلحة «تركيا الفتاة» للإحاطة بالسلطان عبد الحميد وأوضحت رسائل السفارة البريطانية في الأستانة إلى الخارجية البريطانية عن الدور الذي لعبه اليهود وجماعة يهود الدونمة في مجالس «تركيا الفتاة» في مدينة سالونيك. ويقول لوثر (السفير البريطاني) في تركيا أن عمانويل (قره صو) المحامي الماسوني اليهودي من سالونيك كان قد أسس محفلاً فيها له صلة بالماسونية الإيطالية. وأضاف لوثر أن قره صو، النائب اليهودي في سالونيك، قد أظهر حماساً شديداً في تأييد التقدم نحو العاصمة لخلع السلطان، وأن قائد الفرق الأربع المتجهة إلى العاصمة من سالونيك هو الكولونيل رمزي بيه الذي عين رئيساً لمعاوني السلطان محمد الخامس (محمد رشاد) وأن قره صو هو أحد أعضاء الوفد الذي أبلغ عبد الحميد بقرار خلعه في 1909/4/24 م[47]. وبعد أن رضخ عبد الحميد لقرار خلعه عن العرش، أشار إلى قره صو وقال بغضب: «..... ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة... بأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي...؟ »[48].

وكان السلطان عبد الحميد يعلم أهداف اليهود من محاولة تملك فلسطين. وقد قام عدد من الفلسطينيين والعرب في البرلمان العثماني بشرح خطورة الحركة الصهيونية وأهدافها للسلطان العثماني. وقد كتب السلطان في مذكراته عن خطر اليهود قائلاً:

> لدينا عدد كاف من اليهود. فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً (في فلسطين)، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين؛ وإلا فإن

---

(46) **مذكرات السلطان عبد الحميد السياسية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1979 م، ص. 34.

(47) خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني**، ص. 43.

(48) **المصدر نفسه**، ص. 44.

اليهود إذا استوطنوا أرضاً، تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير. وبذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم[49].

بعد إعلان الدستور العثماني عام 1908 م وإعطاء الحرية السياسية للأجانب، نشط الصهاينة في السيطرة على الصحافة في تركيا. فوصل الأستانة د. فيكتور جاكبسون (صهيوني روسي)، وأشرف على الدعاية في الأستانة، أو ما سموه حملة «تنوير سياسية منظمة». وجاء جابوتنسكي ممثلاً للصحيفة الروسية الصهيونية وأوكلت إليه مهمة الإشراف على شبكة من الصحافة تديرها الصهيونية[50]. وهذه الصحف كثيرة وبلغات أجنبية وتركية ولا داعي لتعدادها.

نتيجة للمواقف الصلبة للسلطان عبد الحميد ضد مخططات الاستعمار والصهيونية، أصبح من المؤكد لدى زعماء الدول الاستعمارية أنه لا مجال لتنفيذ المشروع الصهيوني وتهويد فلسطين ما دام السلطان على العرش.

لقد ضحى السلطان عبد الحميد بعرشه من أجل فلسطين. والذي يؤكد ذلك وثيقة تاريخية بخط السلطان تبين سبب خلعه، وهي رسالة وجهها بعد خلعه إلى شيخه في الطريقة الشاذلية الشيخ محمود أبي الشامات شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق. وقد نشر هذه الرسالة الأستاذ سعيد الأفغاني الدمشقي في مجلة "**العربي**" الكويتية في عددها الصادر كانون أول عام 1972 م ضمن مقالة بعنوان «سبب خلع السلطان عبد الحميد»، جاء فيها:

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم «جون تورك» وتهديدهم، اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة. إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة فلسطين. ورغم إصرارهم، فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم 150 مليون ليرة إنجليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي: «إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فضلاً عن 150 ليرة ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي. لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف

---

(49) **مذكرات السلطان عبد الحميد السياسية**، مؤسسة الرسالة، ص. 34.
(50) خيرية قاسمية، **المصدر السابق**، ص. 50.

المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً. وبعد جوابي القطعي، اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيعيدونني إلى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الأخير»[51].

وبعد خلع السلطان عبد الحميد ازداد النشاط الصهيوني المنظم على شتى المستويات، وكانت فرحتهم ظاهرة بسبب خلع السلطان عبد الحميد. فقد كتب الصهيوني الأمريكي ريتشارد غوتهايل ـ رئيس الفرع الأمريكي للمنظمة الصهيونية قائلاً: «ما من أحد يخفق قلبه فرحاً وابتهاجاً مثلما يخفق قلب الصهيونيين على انقلاب تركيا الفتاة»[52].

بعد أن فشل هرتزل في إقناع السلطان عبد الحميد، وبعد أن فشل في إقناع القيصر الألماني، اتجه إلى بريطانيا. فبدأت مفاوضات بين هرتزل وجوزيف تشمبرلين (سكرتير وزير المستعمرات البريطانية) بشأن استيطان اليهود في عدد من الأقطار، فقدم هرتزل في 1902/10/22 م مشروعاً لاستعمار جزيرة قبرص وشبه جزيرة سينا حتى العريش. لكن تشمبرلين استبعد مشروع جزيرة قبرص بسبب رفض اليونانيين المسلمين في الجزيرة. وأبدى تشمبرلين نظرة إيجابية نحو سينا، وعرف هذا بمشروع العريش[53]. وقد طلب تشمبرلين من هرتزل أن يتكلم مع لاندسون في وزارة الخارجية ويبحث معه مشروع العريش، وعندئذ بعث هرتزل إلى لاندسون مذكرة بتاريخ 1902/10/24 م ذكر فيها أهمية المنطقة واستفادة بريطانيا مع تجمع اليهود في سينا. فقال في مذكرته: «... هناك حوالي عشرة ملايين يهودي في العالم لا يستطيعون في جميع البلدان أن ينتموا إلى إنجلترا علناً إنما سينتمون إليها بقلوبهم إذا هي قامت بعمل مثل هذا فأصبحت حامية للشعب اليهودي...»[54].

ولكن اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر رفض اقتراح هرتزل بالاستيطان في سينا، ففشل المشروع. ثم اقترح تشمبرلن منح أوغندا في

---

(51) **السلطان عبد الحميد الثاني: مذكراتي السياسية**، ص. 35.
(52) رفيق شاكر النتشه، **السلطان عبد الحميد وفلسطين**، ص. 184.
(53) إميل توما، **جذور القضية الفلسطينية**، ص. 58.
(54) علي محمد علي، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، ص. 133. وثيقة رقم 52.

كينيا للاستعمار الصهيوني، واقتنع هرتزل بهذا العرض الإنجليزي. وبحث هرتزل هذا الاقتراح في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقد أيضاً في بال في الفترة ما بين 23 و28 آب عام 1903 م. ونجح هرتزل في أخذ موافقة أكثرية المندوبين على قبول العرض وإقامة «فلسطين جديدة» في أوغندا.

لكن مشروع أوغندا فشل أيضاً لأكثر من سبب، منها: معارضة المستوطنين الإنجليز في أوغندا لأي استيطان يهودي يهدد مواقعهم، ومعارضة قسم من الصهيونية اختيار أوغندا اعتقاداً منهم أنها لن تحرك عواطف اليهود كما تحركها فلسطين التي ترتبط حسب اعتقادهم بتقاليدهم وطقوسهم الدينية، ومنها أن المؤتمر السابع الذي عقد في بال في 1905/7/27 م رفض مشروع أوغندا.

عقد المؤتمر السابع الصهيوني بعد وفاة هرتزل - زعيم الحركة الصهيونية - عام 1904 م. وفي هذا المؤتمر السابع انشق الصهاينة إلى قسمين: قسم منهم أراد العودة إلى البرنامج الصهيوني الأصلي وهو استعمار فلسطين، وقسم منهم أراد استيطان اليهود في أي جزء ملائم من العالم، وتزعم هذا الفريق إسرائيل زانغويل من كبار الصهيونيين البريطانيين الذي شكّل «الاتحاد الإقليمي اليهودي»[55]. لقد وضع زانغويل معادلة لتنفيذ المشروع الصهيوني، فقال: يجب أن تكون إسرائيل «نظيفة كلياً من السكان العرب، وإما لا إسرائيل»[56].

وقد قرر المؤتمر السابع الصهيوني التخلي عن فكرة استعمار أوغندا والتمسك بفلسطين. وبالرغم من هذا القرار، فإن الهجرة اليهودية استمرت إلى أمريكا وفلسطين. لكن اليهود في فلسطين رفضوا استقبال الصهاينة القادمين من أوروبا، وأيدوا مشروع استيطان أوغندا ورفضوا استيطان فلسطين، حتى إن يهود فلسطين شكوا إلى السلطات التركية من قدوم المستوطنين من أوروبا[57]. وكان سبب تأييد يهود فلسطين لمشروع أوغندا يكمن في كونهم ينظرون بارتياب وازدراء للصهيونية السياسية، ويخشون أن يؤدي تدفق المهاجرين اليهود بأعداد

---

(55) أميل توما، **جذور القضية الفلسطينية**، ص. 61.

(56) **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة**، منشورات الطلائع، ص. 90.

(57) **المصدر نفسه**، ص. 78.

كبيرة إلى تهديد علاقات حسن الجوار مع العرب. وكان وايزمن يصنف يهود فلسطين ضمن فئة «عديمي الجدوى والفائدة»[58].

حل وايزمن محل هرتزل في زعامته الصهيونية[59] بسبب وفاة الأخير، وكان وايزمن صديقاً لبلفور صاحب الوعد المشؤوم الذي صدر عام 1917 م. وقد أنشأ مكتباً تنفيذياً للحركة الصهيونية في لندن لكسب تأييد الحكومة البريطانية.

أقر المؤتمر الصهيوني الثامن استئناف النشاط الصهيوني العملي في فلسطين، وقامت شخصيات صهيونية بزيارات استطلاعية إلى فلسطين لدراسة إمكاناتها، بدأها وايزمن بحجة إنشاء مشاريع صناعية في فلسطين، واستغرقت رحلته ثلاثة أسابيع، توصل إلى انطباع أثناء مشاهداته أن الصهاينة في فلسطين يعتمدون على مساعدات خارجية وأن أبناءهم يتركون المستوطنات ويذهبون إلى المدن أو يعودون من حيث أتوا من أوروبا. والتقى وايزمن أثناء وجوده في فلسطين بآرثر روبن (الألماني الروسي) الذي جاء لفلسطين عام 1907 م مكلفاً من المؤتمر الصهيوني، وتوصل إلى انطباع كما توصل وايزمن من هجرة الصهاينة من الريف للمدينة. وقد عينت اللجنة التنفيذية الصهيونية آرثر روبين بتولي منصب ممثل المنظمة الصهيونية في فلسطين مديراً للدائرة التي عرفت باسم «مكتب فلسطين»، ومقره في يافا، ومهمته تقديم معلومات عن فلسطين والإشراف على النشاط العملي فيها تساعده شركة تطوير أراضي فلسطين (Palestine Development Company)[60].

كانت الأهداف والغايات الصهيونية واضحة، وهي تهجير أكبر عدد ممكن من اليهود المضطهدين في الدول الأوروبية إلى فلسطين للعمل بالزراعة والصناعة، واعتقد الصهاينة أن الدولة العثمانية ترغب في إعمار البلاد وأن الدول الأوروبية لا تمنع فقراء اليهود من ترك بلادهم والانتقال إلى البلاد الشرقية، وخطط الصهاينة لأن يشكلوا وطناً قومياً يهودياً في فلسطين بعد أن يكثر العنصر اليهودي فيها.

---

(58) **المصدر نفسه**، ص. 80.

(59) كانت المنظمة الصهيونية قد قام بإدارتها بعد وفاة هرتزل لجنة مركزية برئاسة ولفسون صديق هرتزل.

(60) خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني** ص. 27، هامش 79.

من أهم المؤسسات التي أنشأتها المنظمة الصهيونية من أجل تحقيق أهدافها ما يلي:

1 - البنك الاستيطاني اليهودي (The Jewish Colonial Trust) برأس مال قدره مليونا جنيه إسترليني. وهو شركة مسجلة في لندن عام 1899 م من أجل تطوير فلسطين والبلاد المجاورة صناعياً وتجارياً.

2 - بنك أنجلو فلسطين (Anglo Palestine Bank)، وهو فرع للبنك الأول. وله فروع في يافا والقدس وحيفا وصفد وبيروت والخليل وطبريه وغزة. وهو شركة مسجلة برأس مال قدره 100,000 جنيه تأسس عام 1903 م، هدفه منح القروض للأغراض الصناعية والتجارية.

3 - الصندوق القومي اليهودي (Jewish National Fund)، ويعمل تحت منظمة البنك الأول. ويطلق عليه بالعبرية «كيرين كايمت». وهو شركة إنجليزية برأس مال قدره 300,000 جنيه إسترليني. هدفه جمع الأموال بشتى الطرق للحصول على أرض في فلسطين للشعب اليهودي. تأسس عام 1907 م واشترى حتى نهاية الانتداب 758,000 دونمٍ[61].

4 - شركة تطوير الأراضي (Palestine Land Development)، وهي شركة إنجليزية سجلت في عام 1909 م في لندن برأس مال قدره 17,500 جنيه إسترليني هدفها الحصول على الأراضي للصندوق القومي اليهودي وشركات الاستيطان وبيعها للمستوطنين في المستقبل.

الخاتمة

لقد وضعت الحكومة العثمانية صعوبات أمام المنظمة الصهيونية في الحصول على صفقات بيع الأراضي: فالسلطة العثمانية زمن السلطان عبد الحميد هي التي وقفت ضد شراء الأراضي. أما بعد عام 1908 م، فالعرب وقفوا بشكل

(61) حبيب قهوجي، **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة**، ص. 129.

فـردي ضـد الصهاينـة ومشـاريعهم. وبـالرغم مـن ذلـك، فقـد اسـتطاع الصهاينـــة بأساليب عدة الحصول على الأراضي وإنشاء المستوطنات، حتى أنـه حـين انتهـت الحرب العالمية الأولى عام 1918 م كان في فلسطين 40 مستوطنة معظمها في الجليل ومرج بن عامر وسهل سارونة، بلـغ عـدد سـكانها حـوالي 12,000 نسـمة وتملـك 400,000 دونم وهي من أحسن أراضي فلسطين[62]. واعـترفت المنظمـة الصهيونيـة والقنصل البريطاني في القدس بالمعارضة العربيـة للاستيطان اليهـودي في فلسـطين وحوادث الاشتباكات بـين العـرب والمسـتوطنين خاصـة في يافـا وطبريـا وحيفـا، وكذلك اعترفت المنظمة الصهيونيـة بشـعور الاسـتيلاء والهيـاج لـدى المسـتوطنين واتهمت الجريدة اليهودية "**جويش كرونيكل**" السلطات المحلية بعجزها عن إعـادة الأمن إلى المنطقة. كما أن الجرائد العربيـة الـتي صـدرت في فلسـطين أواخـر عـام 1908 م قد نبهت إلى الخطر الصهيوني[63].

---

(62) كاميليا بدر، **نظرة على الأحزاب والحركات السياسية الإسرائيلية**، ص. 58.

(63) الجرائد العربية التي صدرت في فلسطين أواخر عام 1908 م هي: "**الأصمعي**" في يافا لصاحبها حنا عبد الله عيسى، و"**القدس**" لصاحبها جرجي حنانيا، و"**الكرمل**" في حيفا لصاحبها نجيب نصار.

المصادر والمراجع

الحوت، بيان، **فلسطين. القضية، الشعب، الحضارة**، دار الاستقلال، بيروت، 1991.

أرشيف وزارة الخارجية البريطانية.

أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية.

السفري، عيسى، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية**، يافا، 1937.

الشريف، ريجينا، **الصهيونية غير اليهودية. جذورها في التاريخ**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1985.

النتشة، رفيق شاكر، **السلطان عبد الحميد وفلسطين.**

التل، عبد الله، **خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية**، دار القلم، 1964.

بدر، كاميليا، **نظرة على الأحزاب والحركات السياسية الإسرائيلية**، ط 3، جمعية الدراسات العربية، القدس، 1985.

توما، إميل، **جذور القضية الفلسطينية**، المكتبة الشعبية، الناصرة.

جبارة، تيسير، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط 2، البيادر، القدس، 1986.

حلاق، حسان، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية.**

دروزة، محمد عزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، بيروت، 1959.

عبد الناصر، جمال، **هذه هي الصهيونية.**

علي، علي محمد، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، ج 1، مركز دراسات الشرق الأوسط.

علوش، ناجي، **المقاومة العربية في فلسطين** (1917 – 1948 م)، بيروت، 1967.

مذكرات السلطان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1979.

منشورات الطلائع، بالتعاون مع مؤسسة الأراضي للدراسات الفلسطينية بإشراف حبيب قهوجي، **استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة**، ط 1، 1978.

قاسمية خيرية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه** (1908 — 1918 م)، م. ت. ف.، مركز الأبحاث، بيروت، 1973.

ياغي، إسماعيل أحمد، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية**.

رسالة العالِم من خلال شعر علال الفاسي

الدكتور محمد الروكَي
كلية الآداب ـ الرباط

يمتاز الأستاذ علال الفاسي[1] ــ رحمه الله ــ، في مجال عطائه الشعري، بعمق شاعريته وصدقها، وطول نفسه الشعري، يدل على ذلك ويصدقه: كثرة شعره وغزارته، واستمرار إنتاجه من صباه إلى آخر حياته.

والمتأمل في شعر علال ـ على اختلاف أبنيته ومعانيه ومضامينه ـ يجد أنه من حيث المضمون لا يخرج عن المجال الديني والسياسي والاجتماعي إلا قليلاً. وتبعاً لذلك، فإنه من حيث الشكل، لا يكاد يجد فيه أثراً للجمال الفني ورونق الشعر وبهائه، إلا في قصائد معدودة، معظمها ـ أو كلها ـ من قبيل ما خرج عن شعره الديني والسياسي والاجتماعي. وسبب ذلك أن الرجل لم يستخدم شعره لذات الشعر، و لم يجعل منتهى شاعريته أن تخدم الجمال الفني وتبدع فيه، بل إنه

---

(1) هو محمد علال الفاسي، ينتمي إلى أسرة آل الجد، التي هاجرت من الأندلس إلى المغرب زمان المحنة. ولد سنة 1326 هـ/ 1910 م في أسرة محافظة وبيت علم وصلاح، حفظ القرآن مبكراً، وتلقى تعليمه الأول في مدرسة حرة، ثم التحق بجامع القرويين، فتخرج منه عام 1936 م. بدأ يشتغل بالتدريس وهو طالب بالقرويين، فأنشأ مدرسة الناصرية (مدرسة حرة)، ثم عين أستاذاً لتاريخ الإسلام بجامع القرويين.
نشأ منذ فتوته على حب الإصلاح والتغيير وخدمة الوطن والأمة الإسلامية، وخوض المعركة والجهاد ضد المحتل.
اهتم منذ شبابه بإصلاح التعليم ومناهجه وهياكله وطرائقه... وإصلاح الإدارة ومراكز التوجيه والتسيير... كما اهتم ـ في نضاله ودفاعه ـ بالفئات المستضعفة، مثل المرأة والفلاح وغيرهما، وركز في عمله النضالي والجهادي على فئة الشباب وعلق عليه آماله في إصلاح المجتمع وبنائه من جديد...
جال في كثير من البلدان العربية والأوروبية، وله مؤلفات كثيرة ومقالات متعددة إلى جانب مجموعات شعرية حافلة بشعره النضالي الذي سخره للدفاع عن وطنه وأمته ودينه... .
توفي رحمه الله عام 1974 م.

جعل غايته فيه خدمة المبدإ الذي يومن بـه والفكـرة الـتي يعتقـد صوابهـا، والمعنـى الـذي ينقـدح في قلبـه وعقلـه. فهـو إذاً شـاعر المبـدإ، وشـاعر الفكـرة، وشـاعر المضمون، يهمه أن يبلـغ غايتـه ـ في شـعره ـ بعبـارة واضحـة مباشـرة، يدركهـا الجميع، ويعيها الجميع، ويستجيب لها الكثير. وبعبارة جامعة: إنه شاعر رسالة.

إن العالم الحقيقي الذي يرث سر النبوة وتركتها، هو الـذي يجـاهد بعلمـه ويسهم به في إصلاح المجتمع وبنائـه علـى أسـاس قيـم الإسـلام ومبادئـه وفضائلـه ومكارمه، باذلاً في سبيل ذلك فكره ووقته وماله ونفسه. وكذلـك كـان الأستاذ علال مجاهداً بعلمه علـى جبهـات متعـددة، وأشـكال مختلفـة؛ بنضالـه السياسـي، وإصلاحه الاجتماعي، وتدريسه، وتأليفه، وخطابته، وشعره. فالشعر ـ إذاً ـ جبهة من جبهات جهاده العلمي، وأداة من الأدوات التي اعتمدها في أداء رسالة العـالم، ومن ثم لم يهتم بمظاهر الجمال الفني، والرونق الأدبي، إلا ما جاء مـن ذلـك عفـواً وسـجية، وكأنه أحس ذلك واستعد له منذ طفولته حين قال في إحدى قصائده المبكرة[2]:

وما أنا ذو الشعر الذي طار صيتـه ... وردده مـن لا يـزال مناغيـا
فـآتي بالسـحر الحـلال تحديـا ... وأنظم مـن شـعري عقـوداً غواليـا
ولكنـي طفـل تسيـل دموعـه ... فينظمهـا للقـارئـين قـوافيـا

ولقد كان الشعر أول وسيلة سـلكها عـلال الفاسـي في طريقـه الجهـادي والحركي والنضالي، وكان الشعر أول وسيلة اشـتهر بهـا في مجتمعـه وبيـن قومـه، شاباً يحب الإصلاح والتغيير والبناء والتجديد لوطنـه وأمتـه، واسـتمر يعتمـد هـذه الوسيلة إلى آخر حياته... خمسون عامـاً ـ إذاً ـ كـانت مملوءة بالعطـاء الشـعري الذي وقفه على خدمة دينه ووطنه وأمته.

ومنذ أن فتح عينيه في الدنيا، وجـد نفسـه في مجتمـع يعبـث بـه الاستعمار، وينعم بخيراته، ويستنزف دماء أبنائـه ويستعبدهم، فـأدرك خطـورة الوضـع ومـرارة

(2) انظر محمد بن العباس القباج، **الأدب العربي في المغرب الأقصى** ، المطبعة الوطنية، الرباط، 1347 هـ/ 1929 م، ج 2، الصفحة ما قبل الأولى. (وهي التي تحمل صورة علال الفاسي).

الواقع، فأعد نفسه وجندها لخوض المعركة وأداء الرسالة، وكانت صرخته الأولى هي تلك القصيدة التي بث فيها لوعته وتحسره على أمته المنكودة، وأمله في تحريرها من سلطة الاستعمار، واستعداده لإنقاذها بما يملك من نظر بعيد، ونفس لا تقبل الضيم ولا ترضى الظلم. يقول[3] في مطلع هذه القصيدة وهو حينئذ ابن سبع عشرة سنة:

أبعد مرور الخمس عشرة ألعب ... وألهو بلذات الحياة وأطرب

ولي نظر عال ونفس أبية ... مقاماً على هام المجرة تطلب

وعندي آمال أريد بلوغها ... تضيع إذا لاعبت دهري وتذهب

ولي أمة منكودة الحظ لم تجد ... سبيلاً إلى العيش الذي تتطلب

قضيت عليها زهر عمري تحسرا ... فما ساغ لي طعم ولا لذ مشرب

ولا راق لي نوم وإن نمت ساعة ... فإني على جمر الغضا أتقلب

وإلى جانب تحسره على أمته المنكودة المنكوبة، فهو يتألم ويتضجر من أصحاب النفوس الصغيرة الذين يشغلهم متاع الدنيا عن أن يفكروا لتخليص البلاد من حكم المستعمر، ويجاهدوا في سبيل ذلك. ومن ثم فهو يتوجه إلى الشباب مثله ويعقد آماله عليهم في تحرير البلاد والعقول وردها إلى قوتها ومجدها. يقول في القصيدة نفسها [4]:

وما ساءني في القوم إلا عقولهم ... وظنهم أن المعالي تذهب

وكنت أرى تحت العمائم حاجة ... فما هي إلا أن يروم المرتب

بلوت بني أمي سنين عديدة ... فألفيت أن النشء للخير أقرب

ولما كان الشباب هو البديل المرتقب، والمادة الصالحة لحمل راية الجهاد، والمعول عليه في الشدائد والصعاب، راح الشاعر علال يشحذ عزائمهم وينهض

(3) **المصدر نفسه**، ص ص. 2 ـ 4؛ وانظر: **المختار من شعر علال الفاسي**، ص ص. 87 ـ 88 (إعداد اللجنة الثقافية لحزب الاستقلال، ط 1، 1976).

(4) **المصدر السابق نفسه**.

هممهم ويذكي فيهم روح الجهاد ويعدهم ليوم الكريهة بالتكوين العلمي والثقافي من جهة، والتحميس العاطفي من جهة ثانية. يقول في قصيدة أخرى مبكرة يخاطب بها الشباب وهو دون العشرين من عمره[5]:

كل صعب على الشباب يهون	هكذا همة الرجال تكون
قدم في الثرى وفوق الثريا	همة قدرها هناك مكين
قد حسبناهم رجالاً فكانوا	ولهم في الحياة مغزى ثمين
مثلوا ما مضى لهم من فخار	ليرى ما أتاه دهر خؤون
ليرى كيف ضاع عزم وعز	وعرا بعده فتور وهون

وفي سياق هذه الروح الحماسية التي يزرعها في الشباب، يذكرهم بجهاد الآباء وقوتهم وجرأتهم على الأعداء فيقول[6]:

أين ضاعت عزائم ونفوس	أين ضاعت معارف وفنون
أين آباؤنا وأين حماهم	أين ساحاتهم وأين الحصون
أين من دوخوا الفرنج ودالت	لهم الهند عن رضى والصين
لتسل عنهم الفرنجة تخبر	ك إذا اشتدت الحروب الزبون

ثم يمضي في قصيدته مخاطباً الشباب[7]:

يا شباب البلاد أحييتمونا	فلنا فيكم رجاء متين
قد بعثتم رجاءنا فأديموا	سيركم واعملوا ولا تستكينوا

---

(5) انظر **المختار من شعر علال الفاسي**، ص ص. 116 ـ 117؛ و**الأدب العربي في المغرب الأقصى**، ج 2، ص ص. 8 ـ 9.

(6) **المصدران نفسهما.**

(7) **المصدر نفسه.**

يا شباب البلاد فيكم أحيي همماً علقت عليها الظنون

يا شباب البلاد فيكم أحيي كل شهم بما يفيد يدين

ويقول في صرخة حماسية مبكرة يبث فيها توجهاته النضالية وطموحه الجهادي، معولاً فيها على الشباب، معبراً فيها عن عقيدته التي يجاهد من أجلها ومبدئه الذي لا يتزحزح عنه، وهو ابن سبع عشرة سنة[8]:

ولي أمة غصبت حقها سأخدمها بسنا الخدمات

وأنفخ في نفسها نهضة تروق على سائر النهضات

وألقي على نشئها نظرة ترقي البنين وتعلي البنات

فتبلغ ما أبتغيه لها وما يرتجيه جميع الحماة

فلي مبدأ سوف أخدمه وأبلغه رغم أنف العداة

وليس علي إذا غضبوا وكانوا الوشاة وأردى الوشاة

سيكفيني الله شرهم وهل مثلهم يرد العزمات

وإني على مبدئي سائر فإما حياة وإما ممات

وفعلاً، فقد ظل علال الفاسي سائراً على مبدئه، مستمسكاً بعقيدته ومدافعاً عنها، مجاهداً في سبيل دينه إلى آخر حياته، لم يغير من ذلك ولم يبدل، ولم تؤثر فيه التهديدات ولا الإغراءات، يصدق هذه الاستمرارية والثبات على المبدإ قصائده وصرخاته التي جادت بها قريحته في آخر حياته، من ذلك قوله في قصيدته التي نظمها قبل وفاته بنحو عام[9]:

بني العرب الكرام ألا رجوعاً عن الطغيان والنظم الشديده

كفى استبدادكم في الحكم نهجاً على ما سنت الدول العتيده

---

(8) انظر **المختار من شعر علال الفاسي**، ص. 140؛ و**الأدب العربي في المغرب الأقصى**، ج 2، ص ص. 5 ـ 6. وقد ورد فيه البيت الأول هكذا: ولي أمة فقدت مجدها...

(9) انظر **المختار من شعر علال الفاسي**، ص ص. 225 ـ 226.

على نهج اليمين بما لديه — من التأييد للفكر البليده
وفي نهج اليسار لقد قبلتم — جحوداً منه واخترتم جموده
ألا عودوا إلى الإسلام إنا — نراه حل أزمتنا المبيده
نجدد أمرنا منه ونحيي — معالمه المنيرة والمشيده
فمنه نعيد للإنسان طرا — كرامته وعزته المريده
ونبني منه حكماً مستقيماً — على أسس منظمة جهيدة
ديمقراطية الإسلام أسمى — حكومات بما التزمت عهوده
يراقبها الضمير وروح شعب — عليها في تصرفها شهيده
فلا ترضى بغير العدل حكماً — توطد من شرائعه قيوده
وليس لها سوى تدبير عيش — وحفظ مصالح الشعب الأكيده
وصون الدين والدنيا جميعاً — وحفظ كياننا بيد حديده
بني قومي نصحتكم هلموا — إلى الإسلام والتزموا بنوده
وجدوا في نضالكم تجدوا — حياتكم كما بدأت سعيده

فانظر إلى هذه الصرخة التي أسمعها قومه وهو في آخر عهده بالدنيا، وقارنها بصرخاته الأولى المبكرة التي دوى بها في مجتمعه وهو فتى ابن سبع عشرة سنة، تجد أنها متكاملة متناغمة، ينظمها نسق واحد وعقد واحد ويستوعبها وعاء واحد ومعدن واحد أصيل.

لقد شب علال وتربى على الإيمان بالمبدإ والثبات عليه، وربى الشباب على الثبات والصبر، وظل في شعره يدعو إلى ذلك. من ذلك مثلاً قوله في قصيدته التي قالها وهو ابن 23 سنة[10]:

(10) انظر **المختار من شعر علال الفاسي**، ص.ص 20 ـ 21.

ثق يا بلادي أني ما أزال على ... ما كان عندي من عزم وإيقان
أنا الأبيّ الذي لا يستكين إلى ... ضيم ولا يختشي من كيد إنسان
ما أن تلين قناتي عند معضلةٍ ... ولا يضعضع ركني عند بهتان
أنا الوفيُّ لشعبي والمدافع عن ... قومي بكل يد عندي وعرفان
لا يحسب القوم أن النفي يرجعني ... عن مبدإ حل في روحي وجسماني
أو أن عزمي يهوي في مؤامرة ... قد دبرت من فرنسي وإسباني
ما النفي ما السجن بل ما الموت في وطن ... ما زلت أرعاه إخلاصاً ويرعاني
وطدت نفسي على ما كان من زمن ... فلست أخشى على عزمي وإيماني

وبهذه الثقة والثبات والرسوخ على المبدإ يخاطب قومه وأبناء وطنه من منفاه وهو ابن 28 سنة في قصيدة أخرى قائلاً[11]:

ويا وطني إن صرت عنك مغربا ... فحبك في قلبي يقيم على المدى
لقيت بك الآلام لكنني على ... هواك مقام مخلص لك في الفدا
وحسبي هناءً أن أكون معذبا ... لتنعم بالعيش الهنيء وتسعدا

ولا يفوته في هذه القصيدة أن يذكر أبناء قومه بما تحملوه من أمانة، وأنه متأكد من ثباتهم على المبدإ، وله يقين وثقة با لله أنه سيحقق آماله:

ولي ثقة في الشعب لابد أنه ... سيعمل للمبدا الذي قد تقلدا
سيبقى على ما قد رفعنا أساسه ... ويسلك في النهج الذي قد تعبدا
وَعِنْدِيَ في ا لله اليقينُ بأنَّهُ ... يحقق أمالاً ويبلغ مقصدا

وإلى جانب رسوخه وثباته على القيم والمبادئ، وصبره وتحمله من أجل ذلك، فهو عزيز النفس، أبيّ، لا يقبل الضيم ولا يرضى بالدّنية، مستعد لتحمل

(11) **المرجع نفسه**، ص ص. 77 - 78.

الشدائد والمحن المادية والمعنوية دون أن يرضى بأن يكون محل إشفاق وعطف ولا أن يشمله جميل أحد أو صنيعه:

إنـي لأقبـل مـوت الجـوع معتزمـاً　　　كي لا أكون محل البذل والصدقـة
ولست أقبـل في الـلأْوَاءِ أحملـها　　　أنـي أكـون محل العطـف والشفقـة

وهو يوطن نفسه للدفاع عن وطنه وبذل ما يملك في سبيل حمايته وجلب كرامته حتى ولو تخلى عنه الجميع. فهو مستعد ليفدي بلاده بنفسه وروحه ولا يقبل أن يشاركه في هذه المكرمة أحد:

إنـي لأقبـل بـذل النفـس في وطـني　　　كـي مـا يتـم بــه كونـــي فنتحــد
ولســت أقبــل فيبــذلي مشــاركة　　　بـل أبتغـي بـــفداه الدهــر أنفــرد
أموت للمغرب الأقصى على ثـقـة　　　أن لن يموت معي من موطني أحـد

فهو ـ إذاً ـ لا يسمح لنفسه أن تكون دون منزلة العزة والإباء والاستعلاء في الحق والقوة والثقة بالنفس التي مأتاها الثقة با لله عز وجل. وقد أدرك برسوخه في هذه المنزلة واستقراره في هذا المقام، أنه لم يخلق لنفسه، وإنما خلق لدينه ووطنه، خلق من أجل الجهاد والتضحية لترسيخ القيم الإسلامية في مجتمعه وبنائه عليها بناء محكماً مرصوصاً لا تمتد إليه الأيدي ولا تؤثر فيه المعاول. وقد بث هذه المعاني السامية في كثير من قصائده، منها قوله في قصيدة : "نموت ويحيى الوطن"[12]:

لـذة المـــوت حيـاة الوطــن　　　وفـداه مـن صـروف الزمـــن
هــو بغيــاي الــتي أطلبهـــا　　　وهـو لي كـل فخــار أبتـــي
أنـا لم أخلـق لنفسـي إنمـا　　　أنـا مخلـوق لأجـل الـوطـن

---

(12) أحمد قبش، **تاريخ الشعر العربي الحديث**، لبنان، 1971، ص. 172

وهي معان كبيرة وقيم سامية استقاها من معدن الإسلام ورضع لبانها من ينابيعه، واستخلصها من قيمه وفضائله ومكارمه، واستوعبها من مادته ومضامينه، فصاغ نفسه منها، وبنى ذاته على أساسها، وراح يبثها في قومه ويبني نفوسهم عليها، إعداداً لأمة الجهاد التي تدافع عن دينها ووطنها، وتحمي دماءها وأعراضها وأموالها من يد العدو الغاشم، والمستعمر الظالم، ونظمه وقوانينه وقيمه التي ميع بها الأخلاق وأفسد بها المبادئ والمثل، وعلمانيته التي مزق بها شمل الدين والأمة، وحال بها بين الدين والدنيا، وبين الشريعة وحكم الحاكمين، فأصابها بذلك وهن وضعف وخور عميق راحت تلتمس جبره في الحلول الغربية الملفقة، وترجو ضماد جراحها في الاستسلام لهيمنة الغرب والانحناء أمام سوطه وقضيبه! فأدرك علال أن من لوازم رسالته ورسالة غيره من العلماء: تحريك الأمة المنكودة المستعمرة، وتحريضها على الجهاد والدفاع عن كرامتها وسيادتها، ودفعها بقوة إلى التحرر من سلطة الاستعمار وطغيانه المادي والمعنوي.

لقد أدرك علال أن أمته غزيت غزوين خطيرين: غزواً مادياً عسكرياً سياسياً، وغزواً فكرياً عقدياً ثقافياً إعلامياً؛ وأن التخلص من الغزو الأول رهين بقومة الأمة، وجمع شملها، ووحدة بنائها، وترصيص صفها، لأن في ذلك قوتها وصلابتها، ولأنها بذلك عزّت وانتصرت في سابق مجدها. ومن ثم ركز السيد علال في تخطيطه لتحرير بلاده من هذا الغزو العسكري والسياسي على الدعوة إلى الوحدة والتعاون والانصهار في قيم الإسلام ومبادئه، والتجند الجماعي لحماية الإسلام وتحقيق مصالحه. يقول مقرراً هذه المعاني في قصيدته الملحمية التي نظمها بمناسبة ذكرى معركة وادي المخازن[13]:

بني وطني ماذا دهاكم فصرتم	إلى فرقة مبغوضة وتطاحن
أعيدوا لهذا الشعب ماضي مجد	وكونوا لنصر الحق خير مثابن
ولا تدعوا الأعداء تعبث بيننا	وتخلق فينا موجبات التباين

(13) **المختار من شعر علال الفاسي**، ص ص. 50 ـ 51.

فمغربنـــا في حاجـــة لاتحادنـــا لنكسب حقاً ضائعاً في التشاحن
ألسنا بني الإسلام والوطن الذي توحد بالإسلام بين الأماكن؟

وهذه الوحدة التي يدعو إليها مشروطة عنده بتوحيد العقيدة والتوجهات الكبرى، وتوحيد الأغراض الكبيرة التي تتطلع إليها النفوس. وفي ذلك يقول ضمن ملحمته السابقة[14]:

إذا نحن وحدنـا العقيـدة واستوَتْ مطامحنـا نلنـا السـها بالميـامن
أصيخوا بني قومـي لدعـوة نـاصح حريص على الإصلاح بالحق آمـن
فهـذا نـداء الحـق مـن كـل جانب يـردده أبـطـال وادي المخـازن

وأما التحرر من الغزو الفكري والثقافي والعقدي فطريقه أشق، ومصاعبه أشد. لذلك جاءت صرخاته فيه أعمق وأعلى صوتاً، لأن الأمة قد تحقق التحرر والاستقلال السياسي، لكنها تبقى مستعمرة فكرياً مشدودة إلى جهة المستعمر منبهرة به منصهرة في بوتقته ذائبة في شخصيته وذاته! وهذا أشد وأنكى من الغزو الأول. لذلك دعا الشاعر علال إلى التخلص من ضواغط الغرب وكسر قيوده، والتحرر الكامل من التبعة له. ونعى على أذنابه الذين ورثوا مخلفاته واستحفظوا على تركته ومتابعة سبيله التي سلكها بيده. وشنع على النابتة التي نبتت في أحضان الاستعمار وشبت على عينه ونُشِّئَتْ في حجره ويده! في مثل هؤلاء يطلق شاعرنا صرخته الشعرية، وأغرودته الشعورية الوجدانية التي سماها: «أغنية من الباطن» نفث فيها زفراته التي انبعثت من أعماقه وأطلق فيها ثورة بركانية على نفر من أبناء المغرب وَالوا الأجنبي المحتل، واستمرأوا الذل والهوان، وعقدوا أنفسهم على الهزيمة، ورضوا بالفشل، واستسلموا لليأس، وقبلوا أن يكونوا من الأتباع الأذلة الذين لا يرون إلا ما يراه السادة الحاكمون حقاً كان أو باطلاً، هذه الفئة التي يوجه إليها صرخته وثورته هجرت لغتها، وانبهرت بلغة المحتل، فأصبح لسانها

(14) **المصدر نفسه**، ص ص. 50 - 51.

غريباً في وطنها وعن أمتها، وهي أيضاً رضيت بحكم الأجنبي، وتخلت عـن فكـرة التحرير، فانســاقت وراء مـا يريـده المحتـل، مـبررة ذلـك بأسمـاء براقـة مـن التقنيـة والتحرر والتقدمية.... وأكثر من ذلك فهي قد رضيت أن تكون حربـاً علـى كـل ما من شأنه أن يؤكد شخصية الأمة ويبعث فيها روح المقاومة للمعتدين والمحتلين، فحاربت بذلك دين الأمة الذي تؤمن به وتحتكم إليـه، وزرعـت في البـلاد مقـابل ذلـك قوانـين المسـتعمرين وأحكـامهم ونظمهـم، وقـاومت المعـاهد الإسـلامية وخصوصاً جامعة القرويين التي كانت رمز الحفاظ على كيان الأمة، ونشرت مقابل ذلـك مـدارس التبشـير وشـجعت المذاهـب المنحرفـة الـتي تديـن بـالولاء للمحتلـين كالبهائية والصهيونية. وفي الأخير، ينفـي الشـاعر عـلال أن تكـون هـذه الفئـة ذات انتماء قومي مغربي وديني إسلامي، ويصفها بالخروج عن الأمة، ويعتبرها عـدواً مـع الأعداء، ويدعو إلى نبذها ومقاطعتها. يقول الشاعر علال في أغرودته هذه[15]:

قولوا لنا:
هل أنتم من قومنا؟
من شعبنا، من أرضنا؟
قولوا لنا:
هل أنتم من ديننا؟
من جنسنا من أهلنا؟
أم أنتم الإفرنج من أبناء غال؟
وتراثكم من غيرنا؟
قولوا لنا:
إن كنتم من قومنا، فعلام لا ترضون أن تتكلموا بلساننا؟
وعلام في كل المجالس تنطقون
تتحدثون وتدرسون وتكتبون
كأعاجم لا يعرفون من الكلام

(15) المصدر نفسه، ص. 41 وما بعدها.

سوى لغات الفاتحين؟
وتفرنسون شبابنا وبرامج التعليم
ومناهج التفكير والأبحاث والتدوين
وعلام لا ترضون بالعربية الفصحى
لغة الإدارة والدراسة والشؤون
قولوا لنا:
مع ذلك هل أنتم لنا
من قومنا
قولوا لنا.

* * *

إن كنتم من شعبنا فعلام لا تتحررون
تتحالفون مع الأجانب في ابتزاز متاعنا، أموالنا، خيراتنا
وتدافعون عن الرواسب، رأس مال الأجنبي
وتفضلون تراثه ورجاله ومعلميه
وتخلدون الهيمنات الأجنبية والتسلط باسم ما تدعونه بالتقنيه
تتحالفون لأنكم تخشون شعباً أنتم منه؟ كذلك تدعون
قولوا لنا. مع ذاك هل أنتم لنا، من شعبنا قولوا لنا.

* * *

إن كنتم من أرضنا فعلام لا تستعجلون
رد الأراضي من يد المستعمرين
وإلى يد الفلاح مزدرع الحقول
بفتات ما يرضى به المستعمرون
وذوو الحمى من قومنا، والغاصبون الأرض للفلاح باسم الحوز، حوز الظالمين
وعلام لا تستعجلون خروج جيش الأجنبي
وتحررون قواعد الوطن العزيز

قولوا لنا: إن كنتم من أرضنا فَعَلاَمَ لا تتقدمون، وتنظمون نضالنا
لنرد ما أخذوه، من أقطارنا، صحرائنا
ولنخرج الإسبان من تلك المدائن سبتة ومليلية ومن العيون
ولنسترد لأرضنا وادي الذهب
ومن الجيوب لدى الشمال وفي الجنوب
مع ذاك هل أنتم لنا؟
من أرضنا

* * *

قولوا لنا: إن كنتم من ديننا فعلام لا تتحاكمون إلى شريعة ديننا
وتفضلون الأجنبي إذا تشرع أو حكم؟
وتقاومون معاهد الإسلام
وعلومه وثقافة الإسلام في أسمى أصالة
وتراثنا السامي وجامعة بناها الأولون
وتتابعت في رفع رايتها القرون
وتفجرت منها العلوم وكل شيخ قائم بالدرس، بالتفكير والإبداع
والتنوير والتبشير بالدين الحنيف
ويرفع ألوية الحضارة في أفريقيا
وينقل معرفة الجدود إلى أوربا الجاحدة
وتشجعون مدارس التبشير والتنصير
ومعاهد المتهودين
ومراكز البعثات
وتسامحون مبشري الزيغ الجديد
زيغ البهائية الحقود
حلف الصهاينة الكنود
ودعاة كل الهرطقات وكل تحريف وهدم

والريب والتجريد والعدمية
مع ذاك هل أنتم لنا؟ من ديننا؟
قولوا لنا: هل أنتم من ديننا؟ من قومنا؟ من شعبنا؟ من أرضنا؟ قولوا لنا!

* * *

وقد أدرك شاعرنا علال بوعيه السياسي والاجتماعي والثقافي أن العدو المحتل بات مؤكداً عنده أن مأتى الاحتلال ومدخل الغزو في الأمة الإسلامية كافة هو ضربها في دينها وقرآنها ولغتها، وإحداث قطيعة بينها وبين هذه الأصول التي بها ترتبط حضارتها وقوتها وكيانها. فراح يصرفها عن ذلك ويربطها بنواقضه، مستعملاً في ذلك كل ما يملك من الوسائل والإمكانات، ومجنداً له كل طاقاته. ومن ثم فإن شاعرنا لم يفته أن يعي بهذا المخطط الرهيب، ويتفطن لهذه المؤامرات المرعبة، فجعل ضمن صرخاته الجهادية الثورية: الدعوة إلى الحفاظ على القرآن واللغة العربية، لأن حفظ اللغة العربية يضمن حفظ القرآن، وحفظ القرآن يضمن حفظ الدين، وحفظ الدين يضمن حفظ شخصيتنا وهويتنا الحضارية وكياننا الآدمي وسيادتنا الإسلامية العليا. يقول ـ رحمه الله ـ في قصيدته «اضطهاد لغة القرآن»[16]:

إلى متى لغة القرآن تضطهدُ ... ويستبيح حماها الأهل والولد
أما دروا أنها في الدهر عُدَّتُهم ... وما لهم دونها في الكون ملتحد
ولن تقوم لهم في الناس قائمة ... أو يستقيم لهم في العيش ما نشدوا
إن لم تتم لهم بالضاد معرفة ... أو يكتمل لهم في الضاد معتقد
إن العقيدة في الأوطان ناقصة ... ما لم تكن للسان الشعب تستند
وكيف يصغون للأعداء تذكرها ... وأصل ما وصفوه الحقد والحسد
تآمروا وأعدوا كل مدرسة ... بها قواعد الاستعمار تقتعد

---

(16) انظر **المختار من شعر علال الفاسي**، ص. 133 وما بعدها؛ وانظر أحمد عبد اللطيف الجدع وحسني أدهم جرار، **شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث**، ج 7، ص. 52 وما بعدها.

تعلم الجهل بالماضي الذي صنعت يد العروبة والآتي الذي تعد
وتنكر اللغة الفصحى وما نظمت من المعاني وفيها العلم والرشد

ويستمر في صرخته هذه منددا بالعدو الكائد، موعيا بمخططاته ومؤامراته على لغة الإسلام، ناعيا على المتقاعسين العاجزين الذين ماتت فيهم الغيرة على دينهم ومقدساتهم، ثم يوجه فيها خطابه إلى الحكومة ويحملها مسؤولية حماية اللغة العربية والدفاع عنها من ضربات العدو وأتباع العدو(17):

قل للحكومة والأيام شاهدة عودي إلى الحق لا يصددك منتقد
عودي إلى خطة ترضى البلاد بها ويستقيم بها للملة الأود
وحرري الضاد حتى يستبين لها مجالها الحر لا قيد ولا صفد
عار رواسب الاستعمار نكلأها وعندها الجهل والإذلال والكمد
عار قد استعجمت أقوالنا وغدت أفكارنا بمعاني الخصم تتحد

ولم يكن يغيب عن شاعرنا أن مسؤولية حماية اللغة والدفاع عنها، وجعلها لغة التعليم والتدريس والإدارة، غير مقصورة على الحكومة بل هي مسؤولية الشعب أيضا وأمانة في عنق أبنائه عليهم أن ينهضوا بها ويطالبوا بحقوقهم فيها ويقوموا لها قومة رجل واحد(18):

الأمر للشعب فليعلن إرادته وكلنا طاعة للأمر يعتمد
إنا بني الوطن الأسمى الأُساةُ له والجند للضاد نحميها ونجتهد
من لا يؤدي إلى الأوطان واجبه فهو العدو فما ترضى به البلد
هبوا بني الوطن الأسمى إلى عمل من شأنه الفوز للأوطان والرَّغَدُ
وناصروا الضاد في كل المواقف إذ من فوزها غاية التحرير تمتهد

---

(17) المصدر نفسه، ص ص. 135 - 136.
(18) المصدر نفسه، ص. 136.

وبهذه الروح نفسها يطلق صرخاته دفاعاً عن القرآن، ودعوة إلى الاستمساك به والحفاظ عليه، لأن في ذلك حفظ الدين وإقامة شرائعه وأحكامه. فالقرآن دستور المسلمين، وأصل تشريعهم الرباني. يقول ـ رحمه الله ـ ضمن قصيدته الطويلة التي نظمها بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم[19]:

يا أمة قرآنها دستورها	وزعيمها كان النبيَّ المرسلا
عودي إلى الدين الحنيف عقيدة	وشيعة وتخلقاً وتعقلا
ما في سوى القرآن خير يجتبى	أو في سوى الإسلام نهج يبتلى
الله خَارَكَ للرسالة فانهضي	لتواصلي عمل الجدود الأولا
ميراث أحمد دينه وكتابه	لك عدة تغنيك عما أعملا
قل للذين رضوا ثقافة غيرهم	وتصوروا الإسلام عهداً قد خلا
أيليق أن تبقى العروبة بيننا	جسدا بلا روح ولفظاً عطلا
جربتم دعوات غير محمد	ماذا جنيتم هل عقدتم موصلا؟

وفي أجيج هذه الصرخات الشعرية المحركة، لم يفت شاعرنا علالاً أن يخص بعطفه وحنانه الفئات المستضعفة في مجتمعه، فيطالب بحقوقها ورفع الحيف عنها، وصرف الاهتمام والعناية إليها مسوية بينها وبين سائر فئات المجتمع حتى يكتمل البناء وتلتحم الصياغة. وينصب اهتمامه على الفلاح والمرأة بوجه خاص:

أما الفلاح، فلأنه العنصر الذي قاسى كثيراً، وظلم كثيراً، وأعطى كثيراً، وأخذ قليلاً. يقول رحمه الله ضمن قصيدته «الفلاح المغربي»[20]:

ويح حال الفلاح أصبح عبدا	وغدا عيشه عناء ونكدا
نزعوا أرضه وغلوا يديه	سلبوه العيش السعيد الأودا

(19) **المختار من شعر علال الفاسي**، ص. 179.

(20) **المرجع نفسه**، ص. 164.

كـــل يـــوم تصيبـــه نكبـــات جعلتـــه إلى النوائـــب قصـــدا
صـار مرمـى استغلال كـل قـوي ومجـالاً للنهـــب مـــن يتصـــدى
يطلـــب الحـــاكم الضيافـــة منـــه وهـو للضيـف لم يكـن مسـتعدا
ويـرى القـائـد "التويـزة" شـرطا لحـيـاة الـفـلاح لا يـتـعـدى

ويمضي في صرخته إلى أن يقول مخاطباً المستنزفين والمستغلين والغاصبين، مذكياً في نفوس الفلاحين روح الغيرة على الكرامة والدفاع عن النفس وحقوقها:

أيـهـا الآكـلـون مـن عـرق الفـــلاح أنـى تـرون في العـيـش رغـدا
أيهـــا الســـالبون نـــوم بنيـــه اهجعوا سوف يبـدل النـوم سـهدا
أيـهـا الـهـازئـون من دمعـة الـشـا كي ستغدو الدموع حقـداً وكيـدا

إلى أن يقول:

أرجعـوا أرضـه الـتي قـد نزعتـم وامنحـوه الحيـاة ذلـك أهـــدى
نحـن قـوم تـعـودوا الصـبر أحـيـا نـا ويـغـدون في الوقـائـع أسـدا

وأما المرأة، فقد دعا إلى تعليمها وتربيتها وإعدادها لوظيفتها الاجتماعية إلى جانب أخيها، وتحريرها من رواسب الجاهلية ومخلفات الاستعمار. ولعله بذلك أول من دعا إلى ذلك ونادى به في المغرب؛ يقول ضمن دعوته هذه[21]:

يـا قـوم مـا هـاتي الجهالـة منكـم إنـي أرى سيل التعصـب مفعمـا
البنـت مثـل الطفـل إن أصلحتهـا صلحت، وإلا كنـت أنـت المجرمـا
ربـوا الفتـاة علـى المعـالي إنهـا إن هذبـت تلج السـبيل الأقومـا
البيـت عمدتـه الـفـتـاة فـإن تـدم في الجهل أضحى ذا العماد مهدمـا

(21) أحمد قبش، **تاريخ الشعر العربي الحديث**، ص. 172.

هكذا إذاً عاش الشاعر علال مجاهداً بشعره كما جاهد بعلمه ونضاله، وجعل من شعره الصادق الواضح أداة من أدوات رسالته التي عرف وزنها وقيمتها وقدرها حق قدرها. إنها رسالة العالم في حياته وواقعه ومجتمعه وأمته، إنها أمانة الجهاد والإصلاح والتغيير والبناء الحضاري، التي أناطها الله بالعلماء ورثة الأنبياء. ولقد أدى الرسالة وبلغ الأمانة ما وسعه ذلك، وجاءت رسالة العالم في شعره ـ كما رأينا ـ مشتملة على الأصول الآتية:

1 ـ الدعوة إلى الحفاظ على الإسلام والاستمساك به والالتزام به عقيدة وشريعة؛

2 ـ الدعوة إلى الحفاظ على القرآن واللُّغة العربية؛

3 ـ الدعوة إلى الاستقلال والتحرر من التبعية والغزو الغربي المادي والمعنوي؛

4 ـ الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية وترصيص صفها؛

5 ـ الدعوة إلى الصبر والثبات والرسوخ على قيم الإسلام ومبادئه؛

6 ـ الدعوة إلى شحذ العزائم، والتربية على العزة الإيمانية والاستعلاء في الحق؛

7 ـ الدعوة إلى رد الحقوق إلى أصحابها المهضومين المستضعفين؛

وقد جمع هذا كله في مقطع من قصيدته الطويلة: «توقيعات الذكرى»[22]:

كفاحاً إلى أن تنال البلاد، وشعب البلاد، جميع الحقوق
يميناً بحق الشرف
لنجلي الأجانب عن أرضنا
ونسترجع المغتصب
نعيد إلى الشعب سلطته
نعيد إلى الفرد حريته
نعيد لعاملنا رزقه

---

(22) **المختار من شعر علال الفاسي**، ص. 65.

نجدد للفكر قيمته

نعيد إلى الدين حرمته

نعيد إلى الضاد مركزها

ونخلص للأمة العربية

ونعمل للوحدة العربية

عليكم بني وطني أملي فسيروا معي إنني معكم

بني وطني وبني أمتي إلى ساحة العمل الملتقى

وإذا كان الأستاذ علال الفاسي قد تواعد بني وطنه وأمته ساحة العمل، في قصيدته هذه التي نظمها قبل وفاته بنحو ثلاث سنين، فإني أقول محيياً إياه ومكبراً جهاده ونضاله وبطولته[23]:

صَرَخْتَ... فَأَسْمَعْتَ كُلَّ بَعِيدٍ وَنَادَيْتَ بالقِيَم السَّامِيَه

وَغَذَّيْتَ بالفِكْرِ مَنْ قَدْ أَتَى يُجَلْجِلُهَا صَرْخَةٌ عَالِيَه

وَأَعْدَدْتَ جيلاً سَوَاعِدُهُ تُلَوِّحُ بالرَّايَةِ الْقَانِيَه

فَنَمْ آمِناً بدِيَارِ البِلَى غَداً نَلْتَقِي الفِئَةَ البَاغِيَه

ويُبْصِرُ كُلٌّ نِهَايَتَهُ وَتَرْجِعُ أَنْفُسُنا رَاضِيَه

(23) الأبيات لصاحب المقال، محمد الروكي.



جامع الزيتونة
أهمّ معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية

الدكتور محمد الباجي بن مامي
المعهد الوطني للتراث ـ تونس

«وهـذا الجـامع من أحسـن الجوامـع وأتقنهـا وأكثرهـا إشراقاً» (العبدري الحيحي (688 هـ/ 1289 م))

ارتبط تاريخ جامع الزيتونة بمدينة تونس ارتباطاً عضوياً، وهو ثاني جوامع المغرب الإسلامي. فبعد مدينة القيران وجامعها الذي أسسه عقبة بن نافع سـنة 50 للهجرة، أتى دور مدينة تونس سنة 79 هـ/ 698 م.

فبسقوط قرطاجة العظيمة، ومسح القائد حسّـان بـن النعمـان لرسـومها، ظهرت للوجود بالقرب منها مدينة جديدة كتب لها أن تخلف جارتها نهائياً، وأن تصبح عاصمة للبلاد التونسية. وكان اختيار حسّان ابن النعمان لموقعها ناتجـاً عـن عوامل استراتيجية مرتبطة بـالحضور البيزنطي في مياه البحـر الأبيـض المتوسـط، خاصّة وأن أطماعهم في منطقة دحروا عنها منذ عهد قريب ما زالت متأججة.

وبالرغم من أن المصـادر الـتي سبقت الفـترة الإسـلامية تذكـر أن تونـس كانت قرية بربرية ليس لها أهمية تذكر لوجود قرطاج بقرب منها، فإن الحفريـات أثبتت عكس ذلك.

ومع الفتح الإسلامي، تغيرت المعطيـات، وأصبـح من الضـروري أن يكـون خـط المواجهة من الداخل، خاصة وأن البحرية لم تكن تضاهي آنذاك الأسطول البيزنطي.

هكذا إذن أسّس حسان بن النعمان تونس بين سنتي 79 هـ/ 698 م و84 هـ/ 704 م، فاختطّ هذا القائد الفاتح المدينة الجديدة، بطريقة ذكية. إذ جعل فيها إضافة إلى الصناعة، مسجداً ذكره البكري، إلا أنه لا يفيدنا إن كان هو الجامع الأعظم الحالي. ويؤكد ابن الشباط والرقيق القيرواني أن عبيد الله بن الحبحاب هو المؤسس للجامع سنة 114 هـ/ 732 م. أما ابن عذاري، فيذهب إلى أن تاريخ التأسيس يعود إلى سنة 116 هـ/ 734 م. لكن هل يمكن الاعتقاد أن المسلمين بقوا طوال ثلاثين سنة من غير جامع يؤمّونه ويصلون فيه؟ وهكذا من الممكن تصور أن عبيد الله بن الحبحاب قام بتوسيع الجامع وإضافة بعض الزيادات فيه، لكن من الراجح أن حسان بن النعمان لم يبن جامعاً؛ بل استعمل معلماً قديماً وجعل منه مسجده.

إذ أن بعض العناصر المعمارية تجعلنا نفترض أن جامع الزيتونة ببعض مكوناته الحالية يرجع إلى الفترات التي سبقت دخول المسلمين الفاتحين، وهذا اعتماداً على بعض النقاط، خاصة منها:

1) أولاً وبالذات نلاحظ أن لأقسام من الجدران السميكة التي تحيط بالجامع من الخارج نمطاً يختلف تماماً عما عهدناه في العمارة الإسلامية بصفة عامة لا في مدينة تونس فقط، بل في البلاد التونسية وما جاورها. فتتكون هذه الأقسام من حجارة ضخمة استعملت في المعالم الراجعة للفترة الرومانية ثم البيزنطية، لكن يمكن الافتراض أن حساناً أو ابن الحبحاب أعاد استعمال حجارة كانت موجودة في بعض المعالم الرومانية أو البيزنطية؟ وهذا النمط من العمارة نفسه نلاحظه في جامع القصر: فقبل أن يستغل آل خراسان هذا المعلم ليصبح جامعاً، أمكن التأكد من أنه كان معلماً دفاعياً يرجع حسب ما توصلنا إليه إلى الفترة البيزنطية، إذ رمم المعهد القومي للآثار والفنون هذا الجامع في بداية الثمانينيّات ولا حظنا آنذاك ضخامة سمك جدار القبلة الذي يبلغ 2,20 م. لذلك أجري سبر أول أمام المحراب، مما أثبت أنه محفور مباشرة في جدار القبلة، مما دفع لمواصلة فتح أسبار أخرى (عددها سبعة) في كامل أنحاء المعلم. ووضحت هذه الأسبار عن طريق اللّقى الأثرية وكذلك عن طريق وجود جدران ما زالت قائمة الذات وبعض الأسس

والأرضيات، إلخ. أن المعلم يرجع إلى الفترات السابقة لدخول المسلمين الفاتحين، وتيقّنا من أن الخراسانيين استغنوا عن السقف الأصلي للمعلم، وعن عقوده التي عثرنا على أقسام منها تحت سطح الأرض. وبعد إعادة بناء السقف، بقيت الجدران على حالها بمكوناتها وبسمكها الذي كانت عليه خلال الفترة البيزنطية، وهي مشابهة في نمطها وفي ضخامتها لبعض الأقسام التي ذكرناها بعد بالجامع الأعظم. وهكذا تكاد تستقل الجدران الخارجية عن بقية عناصر المعلم، وهي تبدو للناظر كأنها «أسوار قلعة».

2) يبعث تصميم بيت الصلاة نفسه على الاستغراب. فالبلاطات تأخذ اتجاهاً منحرفاً بالنسبة إلى الجدارين الشرقي والغربي اللذين يحددان هذه البلاطات. فلو بني بيت الصلاة خلال الفترة المتراوحة بين 248 هـ/ 863 م و250 هـ/ 864 م، لاختير تصميم مخالف يجعل من البلاطات والمسكبات تأخذ اتجاهاً موازياً للجدارين الخارجيين، وهو ما يجعلنا نرجح أن هذه الجدران كانت موجودة قبل اتخاذ المعلم جامعاً لمدينة تونس، وأن المسكبات والبلاطات أضيفت خلال الأعمال الأغلبية بالجامع، وهي المنسوبة للمستعين بالله العباسي والراجعة لسنة 250 هـ/ 864 م والتي أخذ خلالها الجامع شكله ومساحته الحاليين.

وهكذا تبدو العناصر الداخلية الموجودة بقاعة الصلاة كأنها محشورة حشراً داخل الجدران الخارجية؛ كما أن انحراف اتجاه القبلة يعتبر انحرافاً هاماً بالنسبة إلى بقية الجوامع الأخرى، وربما يمكن تفسيره بوجود جدار القبلة قبل تأسيس الجامع؟ ومن الأكيد أن الأغالبة عند إعادتهم بناء الجامع لم يحاولوا تغيير اتجاه القبلة بالرغم من علمهم بانحرافه الهام عن الاتجاه الصحيح، إذ أن إدخالهم أي تغيير كان من الممكن أن ينتج عنه تحويرات هامة في طبيعة البناء.

إضافة إلى هذا، فقد وصلتنا العديد من الروايات والأساطير حول تأسيس الجامع وإقامته في هذا المكان، من بينها خاصة تلك الرواية التي وردت في "**المؤنس**" لابن أبي دينار والتي تخص الراهب ترشيش الذي كان مقيماً في المكان الذي أقيمت عليه الزيتونة، وهو الذي دلّ المسلمين الفاتحين ليقيموا عليه جامعهم

بعد أن حماه قبل وصولهم من أيّ تدنيس، هذا إضافة إلى اكتشافات المعهد الوطني للتراث بإشراف الأستاذ حامد العجابي التي تعود إلى سنة 1972، والتي حصلت في القسم الشرقي للجامع، حيث عثر على مقبرة مسيحية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي. كما يؤكد عالم الآثار الفرنسي كوكلر (P. Gauckler) أنه شاهد بقايا كنيسة رومانية توجد تحت مكان المئذنة الحالية. وقد توصل إلى ذلك عندما حصل تهديم صومعة الجامع الراجعة للفترة المرادية. وقد تم ذلك خلال سنة 1312 هـ/ 1894 م، وهي ربما أدلة على ارتباط هذا الجامع بأحد البناءات القديمة التي نرجح أنها كانت مبنى دفاعيّاً، إذ أن الجامع مرتفع وكان مطلاً على البحر من قسمه الشرقي، فيؤكد أبو عبيد الله البكري في مؤلفه "**المسالك والممالك**" أن الجالس داخل الجامع كان بإمكانه مشاهدة السفن بالبحر. لهذا كان الجدار الشرقي للجامع أهم النقاط التي يمكن عن طريقها مراقبة حركات أساطيل الأعداء، ويمكن الافتراض أن حسانا بن النعمان نفسه هو الذي بنى برجي المراقبة الموجودين حالياً بكل من الزاويتين: الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية. كما يذكّر قسم من الجدار الشرقي بجدران الحصون والأربطة بصفة عامة؛ فحجارته السميكة تؤكد هذا الدور الدفاعي، وربما يمكن تفسير استغناء الجامع عن المئذنة حتى نهاية العهد الحفصي بوجود هذين البرجين اللذين كان يتم الأذان انطلاقاً منهما. وهكذا، فإنه يمكن اعتبار الزيتونة معلماً محصّناً ومدعماً ببرجي المراقبة، مما يدل على أن الجامع كان يحمي المدينة من هجمات الأعداء، ويضم المصلين والمدافعين على حد سواء.

لذلك من الراجح أن حسانا بن النعمان لم يبن جامعاً، بل استعمل معلماً قديماً، وجعل منه مسجده، مثلما حصل في بعض الجوامع الأخرى كجامع دمشق وجامع قرطبة. وهكذا من الممكن أنه استغل معلماً دفاعياً أو كنيسة، ولم يشيد جامعاً، وأن بن الحبحاب وسّع بيت الصلاة؟

يكوّن إذن تأسيس جامع الزيتونة نقطة استفهام أساسية لمعرفة تاريخ إنشاء المدينة وتاريخها، ويبقى الرد ـ مثلما أكده الدكتور محمد العزيز بن عاشور في كتابه: "**جامع الزيتونة. المعلم ورجاله**" ـ مرتبطاً باكتشافات أثرية جديدة

يمكن أن توضح ما غمض من هذه الناحية. وقد أكدت أهمية هذا المعلم، لأنه بقي على مر التاريخ العنصر الأساسي المؤثر في بقية جوامع المدينة.

وعلى الرغم من هذه الافتراضات، فإننا نجهل كل الجهل ما قام به حسان بن النعمان أو ما بناه عبيد الله بن الحبحاب، إذ لم تصلنا أية معلومات أو أي أثر عنها.

من أول المؤرخين الذين اهتموا بهذا المعلم: الدكتور أحمد فكري في كتابه "**مسجد الزيتونة الجامع في تونس**" (القاهرة، دار المعارف بمصر، سنة 1953). وقد أكد في بحثه أهمية الجامع وأنه من أثرى المعالم العربية الإسلامية على الإطلاق، فهو يعد من بين الأربعة الجوامع الأكثر قدماً في العالم الإسلامي، أي جامع القيروان وجامع دمشق وجامع قرطبة. أما المعالم الإسلامية التي سبقتها زمنيا، فإما اندثرت (كجامع سامراء المشهور بصومعته «الملوية» وجامع أبي دلف) أو أعيد بناؤها: ونذكر على سبيل المثال جامع عمرو بالفسطاط وجامع الكوفة وجامع المدينة.

كما درس هذا الجامع لوسيان قولفان في كتابه حول العمارة الدينية الإسلامية. هذا، إضافة إلى أعمال الأستاذ سليمان مصطفى زبيس وجورج مارسيه وألكسندر ليزين...

أما آخر الأعمال حول الزيتونة، فهي للأستاذ محمد العزيز بن عاشور والأستاذ عبد العزيز الدولاتلي.

وهكذا، فإن الجامع يعد من المعالم التي تم الاهتمام بها اهتماماً خاصاً.

وبالطبع، فقد حظي الجامع على مر التاريخ باحترام وإجلال سكان مدينة تونس وأهل البلاد بصفة عامة، مما دفع بكل الحكام والسلاطين إلى الاعتناء بالزيتونة أكثر من اهتمامهم بأي معلم آخر.

ومن الواضح أن القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي مثل فترة ازدهار وانتعاش اقتصادي وتطور عمراني لمدينة تونس. ولعل هذه الأسباب هي التي دفعت بأبي إبراهيم أحمد أمير الدولة الأغلبية إلى إعادة بناء الجامع. ويفيدنا النويري أنه بدأ الأشغال سنة 248 هـ/ 863 م، لكن أدركته المنية قبل الانتهاء منها

سنة 249 هـ/ 864 م. فواصل هذه الأعمال أخوه زيادة الله الثاني الذي مات هو أيضاً قبل نهاية البناء سنة 250 هـ/ 864 م، وهو ربما السبب الذي دفع إلى نسبة هذه الأعمال إلى الخليفة المستعين بالله العباسي.

وهكذا اتخذ الجامع انطلاقاً من تلك الأشغال شكله ومساحته الحاليين واحتوت الزيتونة خلال تلك الفترة ستة أبواب فقط. ومن الملاحظ أنه تم بناء الجامع آنذاك بالحجارة الضخمة، بينما يرى بعض المؤرخين أن هذه الحجارة تعود إلى الفترة التي سبقت دخول المسلمين الفاتحين، وهي ربما مثلت قسماً من المعلم القديم الذي أشرنا إليه من قبل.

وقد احتفظ الجامع بالعديد من عناصره المعمارية والزخرفية الأولى الراجعة إلى تاريخ تأسيسه، لكن لم يمنع هذا من وجود بعض أعمال الترميم والإضافات في مختلف الفترات.

ونلاحظ أن المؤسس لم يحتج إلى صنع الأعمدة (السواري) وتيجانها التي ترتكز عليها سقوف بيت الصلاة. فقد كانت المواقع الرومانية والبيزنطية تزخر بها. لهذا تم جلبها خاصة من قرطاج، وأعيد استعمالها في الجامع. وهكذا يُمثل بيت الصلاة متحفاً ثرياً جداً لتيجان الأعمدة التي يبلغ عددها ثمانين ومئة تاج. وأهم هذه التيجان المستعملة في الجامع الأعظم هي من النمط الكورنتي المعروف باستعماله لورقة الاقنثة؛ هذا، إضافة إلى النمط البيزنطي وكذلك المزدوج (الكورنتي والأيوني في آن واحد). وقد احتوت هذه القطع على أشكال حيوانية تمثل نسوراً، لكن تم محو بعض أقسامها خاصة الرؤوس والأجنحة لتنافيها مع مبادئ المذاهب السنية المحرمة لتجسيم الكائنات الحية. ومع هذه التيجان، نجد بالجامع عدداً من التيجان الإسلامية وهي تلك التي تظهر في قبتي الجامع، الأولى وهي قبة المحراب الراجعة إلى العهد الأغلبي، والثانية قبة البهو ذات النمط الزيري والمتأثرة بالفن العباسي، وكذلك التيجان ذات النمط الأندلسي بواجهة المحراب وأخرى من العهد الخراساني والحفصي ويوجد كل منهما في زاوية المحراب. كما تم الاهتمام بتوزيع الأعمدة، بصفة متناظرة، مما أضفى على بيت الصلاة الكثير من الأناقة والجمال.

ويعتبر الجامع من أثرى المعالم الإسلامية من حيث احتواؤه على العديد من النقائش التي تمدنا بمعلومات ضافية حول مختلف أقسام المعلم.

أول هذه النقائش تلك التي تبرز على الإفريز المحيط بقاعدة قبة المحراب والتي تمدنا بتاريخ بناء الجامع، وهي ذات خط كوفي، ونصها:

> بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته على يدي نصير مولاه سنة خمسين ومائتين. ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء الله﴾. صنعه فتح الله.

أقيمت هذه القبة على نمط قبة محراب جامع القيروان، إذ تعد هذه الأنموذج المحتذى، لكن تمثل قبة جامع الزيتونة تطوراً للعناصر الجديدة التي ظهرت أول الأمر بجامع عقبة، وهي المتمثلة في الضلوع البارزة والمقرنصات، كما نلاحظ فيها تفوقاً في البناء وتقدماً في الزخرفة، وعرفت هنا أول مرة فكرة استقلال الضلوع البارزة عن الخوذة المفصّصة، وهي تعتبر المؤثّرة في نوعية القباب ذات الضلوع المتقاطعة التي عرفناها لأول مرة بجامع قرطبة الأموي.

ونلاحظ أن طاقية القبة تستند إلى اثنين وثلاثين عموداً، كما تتخلل الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة في المحيط الدائري لرقبة القبة. ولقاعدتها شكل مربع، تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة، تتخذ كل منها شكل قوقعة. وتنقسم القبة من الداخل إلى ثلاثة طوابق، هي صورة مطابقة للأصل لما يوجد في الخارج.

أما قبة البهو والمجنّبات، فترجع إلى الفترة الفاطمية وهي التي أكد الدكتور أحمد فكري أنها متأثرة في زخارفها الداخلية بتأثيرات عباسية. وتمدنا نقيشة ذات خط كوفي ثبتت على إفريز بقاعدة القبة بمعلومات حول المؤسس وتاريخ البناء، ونصها:

> بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين. مما أذن الله برفعه فيسر عمله/ وأعان عليه بتوفيق على يد (فراغ) مبتغيا فيه رضى الله الكريم/ محتسباً ثوابه فتم بعون الله وتأييده في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح فيه بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة.

إلا أننا نلاحظ محو اسم صاحب القبة. ومن الواضح أن ذلك كان رد فعل أتباع المالكية ـ المذهب السائد آنذاك بالبلاد ـ على الشيعة الذين حكموا البلاد مدة زمنية تواصلت من أواخر القرن الثالث الهجري إلى أواسط القرن الرابع. وبعد تحولهم إلى مصر، حاول المالكية فسخ كل ما يمكن أن يذكر بحضورهم، خاصة بعد أن خرج المعز بن باديس الصنهاجي عن طاعة الدولة الفاطمية. ومن المعلوم أن أبا المنصور العزيز با لله الفاطمي تولى الحكم ابتداء من سنة 365 هـ/ 975 م إلى 386 هـ/ 996 م، وهو ما يدفعنا إلى نسبة قبة البهو إلى هذا الخليفة الفاطمي، ومن الراجح أن منصور بن بلكين بن زيري أمير صنهاجة آنذاك (373 هـ/ 983 م/ 386 هـ/ 996 م) هو الذي قام بأعمال البناء بأمر من العزيز با لله.

كما نعثر على نقيشة تؤرخ الأعمال نفسها وتوجد على وسادتين يعلو كلاًّ منهما تاج عمود تستند إليه القبة من ناحية باب البهو.

نص النقيشة الأولى:

بسم ا لله الرحمن الرحيم/ صنعه أحمد البرجيني وأبو الثنا/ أبو عبد ا لله ابن القفاص وبشر بن البرجيني/ وصلى ا لله على محمد خاتم النبيين.

أما نص النقيشة الثانية، فهو:

بسم ا لله الرحمن الرحيم/ كان ابتداء العمل في المجنبات/ والداموس والقبة/ في شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وثلاثمائة وتم/ جميع ذلك في جمادى الأول من سنة خمس وثمانين وثلاثمائة.

وتعتبر قبة البهو أجمل القباب بالبلاد التونسية: لتناسق تخطيطها، ودقة تفاصيلها المعمارية، وتناسق نسبها وثراء زخارفها؛ وهي تتميز بظهور عنصر زخرفي جديد يتمثل في تناوب اللونين الأبيض والأحمر خاصة في العقود التي طغت على قسم من الجدران نفسها، وهي ربما من التأثيرات المصرية التي وردت على إفريقية عند انتقال الفواطم إلى القاهرة المعزّية.

وتواصل الاهتمام بالجامع أيام دويلـة بـني خراسـان الـتي حكمـت مدينـة تونس مدة قرن كامل (451 هـ/ 1059 م إلى 555 هـ/ 1160 م)، فأضافوا ستة أبواب جديدة للجامع وهـم الذين بنوا مقصورة الإمام التي تـروي الأسـطورة: «أن امـرأة يهودية أسلمت، وكان مسكنها ملاصقاً المحراب، فحبّسته على الجـامع، ممـا سمـح بإضافة المقصورة». وترجع كتابة هذه المقصورة إلى فترة أبي محمد عبد الحـق بـن عبد العزيز بن خراسان، كما تثبت نقيشـة ذات خـط كـوفي متمـيز أن المقصـورة الشرقية أضيفت في بداية الفترة الخراسانية وأمـر ببنائهـا القـاضي عبـد الرحمـن بـن محمد بن الولي الصالح سيدي محرز وذلك سـنة 457 هــ/ 1064 م، وأضيفـت أيضـاً البوابة الغربية للجامع في آخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

أما الأبواب الخشبية المطلة مـن بيـت الصلاة على الصحـن، فقـد أمـر بصنعها السلطان أبو يحيى زكرياء المشهور باللحياني، وذلـك سنة 716 هـ/ 1316 م، وهي التي تؤرخها النقيشـة ذات الخـط الكـوفي المتـأخر الـتي تعلـو بـاب البهـو المواجه للمحراب. ونصها:

> بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما. هذا ممـا أمر به الخليفة الإمام أمير المؤمنـين أبـو يحيـى زكريـاء ابـن الأمـراء الراشـدين في شـهر رمضان المعظم عام ستة عشر وسبعمائة.

ويبدو أن أول مئذنـة تم بناؤهـا بالجـامع كـانت خـلال الفـترة الحفصية. فيذكر الزركشي في كتابه "**تاريخ الدولتين**" أن السلطان (أبا فـارس عبـد العزيـز) «أمر بعمل بيت المكتب بمجنبة الهلال جوفي جامع الزيتونة تحـت الصومعـة»، وتم بناء بيت الكتب سنة 822 هـ/ 1419 م. لهذا يمكن التـأكد مـن أن الصومعـة ترجـع إلى فترة سبقت هذا التاريخ. ثم أمر محمد بـاي المرادي ببنـاء مئذنـة أخـرى سنة 1063 هـ/ 1655 م (وهو المشهور بحمودة باشا). وقد أرّخ الشريف الإدريسي هـذه المنارة بقصيـدة مـا زلنـا نعثر على نقيشتها بالجـامع، لكـن تداعـت هـذه المئذنـة للسقوط فعوضت بالمئذنة الحالية خـلال سنة 1312 هـ/ 1894 م، وهـي متـأثرة في نمطها بالمآذن الموحدية التي ما زالت بعض أمثلة منهـا قائمـة الـذات، خاصـة منهـا

«الكتبية» بمراكش وصومعة «جامع حسان» بالرباط، وكذلك «الخيرالدا» بإشبيلية. وأول من أدخل هذا النمط للبلاد التونسية هو أبو زكرياء الأول في جامع الحفصيين بالقصبة، وذلك خلال سنة 631 هـ/ 1233 م. وهنا من واجبنا التساؤل عن سبب عدم وجود مئذنة بالجامع خلال الفترات الإسلامية الأولى وحتى خلال العهد الحفصي الأول، وبالرغم من أنه ليس لدينا أي إجابة مقنعة، فإنه من الراجح أن وجود برجي المراقبة جعل الذين شيدوا الجامع يستغنون عن إقامة الصومعة التي تعتبر من العناصر القارة بكل جوامع الخطبة، ومن الممكن أن الآذان كان يتم انطلاقاً من فوق أحد هذين البرجين؟

بالطبع، لم يكن دور الجامع مقتصراً على الأمور الدينية فقط، بل لعب أيضاً دوراً عملياً أساسياً. فقد كان أيضاً جامعة علمية طبقت شهرتها الآفاق.

وقد ساد الاعتقاد عند الخاصة والعامة أن جامع الزيتونة كان مقر علم وتدريس منذ أول تأسيسه، إذ يقول حسن حسني عبد الوهاب «إن جامع الزيتونة هو أسبق المعاهد التعليمية للعروبة مولداً وأقدمها في التاريخ عهداً، وذلك منذ سنة 120 هـ/ 737 م. وذهب مذهبه العديد من المؤرخين: فيرى محمد العنابي في تحقيقه لـ "**فهرست الرصّاع**" بأن علياً بن زياد وابن أشرس درّسا بجامع الزيتونة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلاديّ وربما اعتمد في هذا على نص لأبي العرب، حيث يذكر أنه «كان بتونس علي بن زياد وابن أشرس وابن أبي كريمة»، لكن دون التأكيد أنهم درسوا بالجامع، ولا يوجد مصدر آخر يبين بوضوح أن ابن زياد قد جلس مدرساً بالزيتونة بل كل ما نعرفه أنه كان يدرّس بمنزله، ولعله قام أيضاً بمهمة الإفتاء بالجامع؟ والراجح أن بعض المؤلفين اعتبروا أنه درّس بجامع الزيتونة، نظراً لمستواه العلمي الهام.

نحن لا نعلم إذن بالضبط تاريخ بداية التعليم في هذا الجامع، ولا نعلم أيضاً متى أصبح فيه التعليم منظّماً. وأول نص يشير إلى التدريس بجامع الزيتونة يعود إلى سنة 603 هـ/ 1206 م. وخلاصة القول فيما يخص الدراسة بجامع الزيتونة أن هذا المعلم يرجح أن يكون قد لعب دوراً تعليمياً منذ تأسيسه، كما كان الشأن

بالنسبة للمساجد الجامعة بالمدن الأخرى في المغرب العربي وفي المشرق الإسلامي، فقد جرت العدة من الأيام الأولى في الإسلام أن يتخذ من أهم جوامع المدينة مركزاً للتعليم.

ومما يبعث على هذا الاحتمال تواجد علماء أجلاء بمدينة تونس، بداية من القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، فيذكر أبو العرب تسعة من بينهم أهم أهل العلم والفضل والفقهاء بها، غير أن إشارات المصادر تعوزنا بالنسبة للقرون الخمسة الأولى من تاريخه. ومهما يكن من أمر، فلم تكن لجامع الزيتونة الأهمية التي أصبح عليها مع بداية العهد الحفصي. فانطلاقاً من الربع الثاني للقرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلاديّ، ازدهر التعليم بالجامع وأصبح له شأن عظيم وعرف بصفته معهداً علميّاً طبقت شهرته الآفاق وجاءه الطلبة كذلك من الناحية الغربية للبلاد ـ المغرب الأقصى والجزائر حالياً وحتى السودان. ولهذا أصبح جامع الزيتونة من أهم الجامعات العلمية بالمغرب الإسلامي.

إلا أن الجامع عرف في القرن العاشر الهجريّ/ السادس عشر الميلاديّ، تقهقراً وانكماشاً في نشاطه العلمي نتيجة ضعف ثم سقوط الدولة الحفصية ودخول الإسبان إلى تونس، ثم أتى العثمانيون فأهملوا الجامع خلال الفترة الأولى لحكمهم. وكان ذلك ربما نتيجة لاعتماده المذهب المالكي، وهو ما يخالف المذهب الرسمي للحكام الجدد الحنفيين.

لكن هذه الحالة لم تدم طويلاً، إذ استعاد الجامع مكانته الأولى في تونس بداية من النصف الثاني للقرن الحادي عشر الهجريّ/ السابع عشر الميلاديّ، نظراً للأهمية التي يتمتع بها المذهب المالكي، وما يتمتع به الجامع من مكانة لدى مختلف الطبقات وخاصة منها العلماء. وفي أواسط القرن الثالث عشر الهجريّ/ التاسع عشر الميلاديّ، فقدت المدارس نهائياً دورها في ميدان التعليم، ما عدا دراسة الحديث. واستقل الجامع الأعظم بكل مواد الدراسة، وتواصل التعليم فيه حتى بداية النصف الثاني للقرن العشرين.

ويبدو أنه كان للتعليم بالجامع الأعظم انطلاقاً من الفترة الحفصية حرية شبه مطلقة. فالطالب ليس مرغماً على الحضور أو الانصراف في موعد معين، وهو غير مقيد بالحضور لأستاذ دون آخر؛ فهو يحضر للشيخ الذي يعتبره أفضل من غيره، فيستطيع أن يلازمه أو أن ينتقل إلى حلقة شيخ آخر (ومن الأمثلة ملازمة البرزلي لشيخه ابن عرفة مدة أربعين سنة).

ونتج عن هذا تكاثر عدد الطلبة في الجامع الأعظم. فعددهم فيه غير محدود، إذ كان الجامع مفتوحاً للجميع، بينما كان عدد الطلبة في المدارس محدوداً لا يمكن أن يتجاوز رقماً معيناً. ففي أكثر الأحيان يحدد منشئ المدرسة عدد الطلاب الذين يسمح بهم بالإقامة فيها، وهو يكون في أكثر الأحيان موافقاً لعدد غرفها.

وهنا سنحاول تعرّف محتوى برامج التعليم. وأول ما يتبادر إلى الذهن هو التساؤل هل حصل تطور في محتوى هذه البرامج؟ وهل وقع تغيير في موادها عبر العصور؟

في الحقيقة، يبدو من العسير أن نتتبَّع تطور مواد التدريس في الجامع الأعظم لقلة المصادر (التي يبرز من بينها خاصة "**السنن الأبين**" لابن رشيد الفهري، وكذلك "**فهرست**" الرصّاع، هذا إضافة لـ "**مقدمة**" ابن خلدون ورحلة ابن خلدون شرقاً وغرباً، وبعض الرحلات الأخرى للعبدري والقلصادي والبلوي...)، وإنما أهم ما يمكن معرفته هو برامج التعليم عامة لا تفصيلاً. لا يمكن بالطبع سرد كل المصنفات التي درست، لأنها تتفاوت في الأهمية. فمنها ما درّس باستمرار أو على الأقل خلال فترة زمنية طويلة نوعاً ما، ومنها ما لم يدرّس إلا عرضاً، حسب ما يمكن استنتاجه في المصادر.

والملاحظ أن جل الشيوخ الذين درّسوا في الجامع الأعظم درّسوا مصنفاتهم، إلا أنها في غالب الأحيان لا تدرّس بعدهم إلا في بعض الحالات الشاذّة خاصة منها "**مصنّف**" ابن عرفة.

ومما نستنتجه أن جل مواد التدريس شملت المدارس والجامع الأعظم على حد سواء. فالطالب الذي يحصل على مشيخة مدرسة، بعد دراسته بالزيتونة كثيراً ما يهتم بإعادة تدريس ما قرأه من قبل. فالعديد من شيوخ المدارس كانوا يقومون بالخطة نفسها في الزيتونة أو بغيرها من الجوامع. ولهذا لا نجد ذكراً لمكان تدريس أحد المصنفات في بعض الأحيان، وإنما نستنتج أنه حصل تدريسه وشرحه بالجامع الأعظم وبغالب المدارس.

وبالطبع، لم تكن كل المصنفات على الأهمية نفسها. فمنها التي تواصل تدريسها من غير انقطاع إلى عصرنا هذا، ومنها التي حصل فتور في تدريسها، أو انقطاع تام عن الالتجاء إليها أو النظر فيها. ويبدو أن السبب في ذلك وجود كتب لا يمكن الاستغناء عنها لأهميتها القصوى، وبقيت متداولة من غير انقطاع، وأخرى كان لها حظوة وقتيّة فقط ما فتئت أن تعدتها الأحداث، أو ظهور مؤلفات جديدة أخذت مكانها. ففي بعض الأحيان، مثلاً، يذهب طالب إلى المشرق، وعند رجوعه يدرس بدوره ما قرأه. إلا أنه في الكثير من الأحيان لا يتواصل بعده تدريس هذا المصنف. وهنا نشعر أنه كان هناك نوع من «الموضة». فمحتوى التعليم أيضاً يؤثر فيه مرور الزمن ويتجدد من وقت إلى آخر.

ومن أهم ما نستطيع أن نلفت النظر إليه، أنه بداية من الفترة الحفصية، اتسمت الدراسة بالاعتناء بالشروح والحواشي والتلاخيص والمختصرات، بينما حصل إهمال جزئي للمراجع الأصلية، وهو ما يمكن استنتاجه من مجموع مصنفات المدرسة خلال هذه الفترة. وقد انتقد ابن خلدون هذه الطريقة المتّبعة في التدريس، قال:

> ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء والعلوم، يولعون بها، ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة في ذلك الفن. وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسراً على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطوّلة في الفنون للتفسير والبيان، فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق... وهو فساد التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل.

ويوافق النص المعلومات التي أتت بها المصادر الأخرى.

وفي أوائل العهد الحفصي، نلاحظ أن علوم القرآن من القراءات والتفاسير. وكذلك علوم الحديث كانت أهم ما يحصل درسه بالزيتونة، إذ اعتمد المذهب الموحدي على هذين العلمين في الدراسة؛ لكن عند رجوع المالكية إلى سيطرتها المطلقة، أي أواخر القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، أعطيت أهمية لمادة الفقه، فروعاً وأصولاً. وإلى جانب المحدثين والفقهاء، وجد أصحاب علم الكلام، كما اهتم الأساتذة بعلمي النحو والصرف. هذا، إضافة لعلم الفرائض والأدب والتاريخ والبلاغة والجدل والمنطق، وبعض العلوم الأخرى.

ونتيجة لاستقطاب الجامع لعدد هام من الطلبة والشيوخ، ونظراً لأنه كان قبلة الجميع، أسست فيه العديد من المكتبات. فبأمر من السلطان أبي فارس عبد العزيز بنيت المقصورة الغربية قرب الصومعة، وذلك في بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي (822 هـ/ 1419 م)، وفي مقصورة محمد حفيد الولي الصالح سيدي محرز نفسها أمر أبو عمرو عثمان بإنشاء مكتبة سنة 854 هـ/ 1450 م، وهو السلطان نفسه الذي بنى ميضأة السلطان التابعة للجامع، ونص النقيشة التي تعلو النافذة المثناة هي: «مما أمر به الخليفة الإمام أبو عمرو عثمان أيده الله ونصره في عام أربع وخمسين وثمان مائة في رجب».

وبنيت مكتبة العبدلية المنسوبة للأمير أبي عبد الله محمد في الناحية الشرقية للجامع، وتولى هذا السلطان الحكم من 899 هـ/ 1492 م إلى 932 هـ/ 1525 م. إلا أن هذه المقصورة انقرضت منذ مدة قصيرة. وتعود خزائن المكتبة إلى سنة 1256 هـ/ 1840 م، التي حبّسها على الجامع أحمد باشا باي الحسيني. ووردت الختمة العظيمة التي ما زال يقرأ فيها القرآن، من الأندلس، وذلك سنة 868 هـ/ 1463 م. وقد تم ترميمها على يدي محمد باي بن حمودة باشا صاحب جامع سيدي محرز، وذلك حسب النقيشة المحلية للصندوق سنة 1084 هـ/ 1673 هـ.

أما أحلك الفترات التي مرت بها مدينة تونس والجامع الأعظم، فقد كانت خلال الحرب الإسبانية ـ التركية؛ إذ دخل الإسبان إلى تونس سنة 941 هـ/ 1535 م، وكذلك في سنة 980 هـ/ 1573 م، فنهبت خزائن الكتب ومزقت

المخطوطات وحرقت، وداستها الخيل بأرجلها وأزال الجند الإسباني الخشب المكون للسقوف، للتدفئة؛ كما اقتلع هؤلاء الأعمدة المرمرية وتيجانها، وبقيت هذه الفترة في الذاكرة الشعبية كأسوإ ما حدث للجامع الأعظم، و لم ترجع الأمور إلى نصابها إلا بعد هزيمة الإسبان النهائية سنة 981 هـ/ 1574 م، فأعيدت للجامع حرمته ورمم من جديد وساهم في هذه الأعمال الشيخ صالح أبو الغيث القشاش الذي أعاد بناء السقوف سنة 1031 هـ/ 1621 هـ. وتبدو هذه الأعمال بالنسبة إلى الفترة العثمانية الأولى واضحة في بعض أقسام الجامع، خاصة بالمنبر، الذي تم ترميمه سنة 991 هـ/ 1581 م، وذلك حسب النقيشة التي تعلوه والتي تمدنا بهذا التاريخ، كما نعثر على نقيشة بمقصورة حفيد سيدي محرز نفسها التي ترجع لسنة 1005 هـ/ 1596 م، والتي تؤرخ لإنشاء الشباك المطل على داخل بيت الصلاة على يدي القائد التركي: حسين باشا.

كما تعود النقوش الجصّية التي تحيط بالمحراب وتحلي كذلك الحدائر الموجودة فوق التيجان إلى فترة الإمام تاج العارفين البكري، وذلك سنة 1047 هـ/ 1637 م. وهو ما تفيدنا به النقيشة المطلية باللون الأخضر والمثبتة على إفريز محيط بعقود قاعدة قبّة المحراب من الداخل والخارج والتي تمدنا باسم هذه الشخصية الهامة في تاريخ الجامع. هذا، إضافة إلى أعمال الترميم التي أرختها النقيشة التي تعلو الباب الرئيس للقسم الشرقي للجامع. ونص هذه النقيشة:

بسم ا لله الرحمن الرحيم وصلى ا لله على سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطاهرين الطيبين وأصحابه أنجم المهتدين. مما أذن ا لله سبحانه وتعالى برفعه فسر عمله وأعان عليه بتوفيقه وهديه فتم بحوله وتأييده إنشاء هذه المجنبة الشرقية والزيادة المقبولة المستحسنة المرضية المحدثة بصحن الجنائز من أولها إلى آخرها وسقفها وكذلك الدّرج الطالع الكبير الملاصق للساقية والدرج الطالع الملاصق للمقصورة المولوية العثمانية وتبليط الصحن المذكور، كل ذلك بأمر الشيخ الإمام الهمام شيخ مشائخ الإسلام عمدة العلماء الأعلام وحيد دهره وفريد عصره العالم الرباني أبي عبد ا لله محمد تاج العارفين العثماني ونظره السديد أيّد ا لله ذكره وخلا ستره وكذلك أمر - حفظه ا لله تعالى - بإحياء السقاية المذكورة وتجديدها وتسديدها بعد إندراسها وهي التي أنشأها المرحوم برحمة ا لله تعالى أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز عام ثمانية

وأربعين وستمائة (؟) ثم أحياها بعد ذلك المرحوم برحمة ا لله تعالى أمير المؤمنين أبو عمرو عثمان سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وردها لأصلها السابق سينتفع منها الفقراء والمساكين بالشرب والاستسقاء وقفاً مؤبداً جارياً كما كان حالها سابقاً. قال ا لله العظيم على لسان نبيه الكريم ﴿فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن ا لله سميع عليم﴾. كل ذلك ابتغاء ثواب ا لله سبحانه وتعالى للمتصرفين من عباده المخلصين في جمادى الأول عام سبعة وأربعين وألف عرف ا لله بركته المنفق والمتسبب والساعي في شيء منه، صنعه محمد الأندلسي بن غالب.

ومما ثبت لنا خلال أعمال سنة 1989، أن المحراب الأول للجامع يوجد خلف المحراب الحالي الذي أضيف حسب ما يبدو خلال فترة أعمال «النّقشة حديدة» نفسها. كما أنه من الممكن أنها ترجع إلى الفترة الخراسانية. أما اللوحة الرخامية المتصدرة لجوف المحراب، فهي ترجع للقرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وذلك عند تفاقم أمر المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، وهذه اللوحة الرخامية التي كتب عليها: «بسم ا لله الرحمن الرحيم لا إله إلا ا لله محمد رسول ا لله والقرآن كلام ا لله» تثبت موقف أهل السنة والجماعة من أزليّة القرآن.

ومن أبرز عناصر الجامع: منبره الذي يعد ثاني أقدم المنابر في العالم الإسلامي، وهو يرجع إلى عام 250 هـ/ 864 م. وبالرغم من أنه يشبه في أغلب تفاصيله منبر جامع القيروان المؤرخ بسنة 248 هـ/ 863 م، فإنه أصغر منه حجماً، ولم يتبق من حشواته سوى ست وأربعين (23 من كل ناحية)، وهي تبرز باختلاف زخارف كل واحدة عن الأخرى والتي تتمثل في أشكال هندسية محفورة ذات مربعات ودوائر ومعيّنات، كما تحتوي على زخارف نباتية على شكل أزهار ذات أربعة فصوص وتوريقات تحيط بها، ويمثل مجموعها زخرف رشيق ومتناسق. كما لهذه الزخارف تشابه مع الزخارف الجصيّة الموجودة على لوحات مثبتة في أعلى البلاطة الرئيسة وكذلك بأعلى الرّواق الجنوبي الشرقي لبيت الصلاة.

ويبدو تصميم الجامع متأثراً بجامع القيروان. فتخطيط هذا الجامع كان أنموذجاً محتذى لبيوت الصلاة في الكثير من المساجد سواء كان ذلك في إفريقية أو

المغرب وكذلك الجزائر والأندلس. فهو شبه مربع، وتتجه العقود الحدوية الشكل في اتجاهين: فهي متعامدة مع جدار القبلة من جهة، وموازية له من جهة أخرى. وأعرض المسكبات السبع هي الممتدّة بمحاذاة جدار القبلة، كما أن بلاطة المحراب هي أعرض من بقية الأربع عشرة بلاطة التي يبلغ طول كل منها 26 متراً. وهي تكون مع أعراض المسكبات: التخطيط المتعارف عليه بشكل T اللاتينية، وهو التصميم الأكثر انتشارا بالبلاد التونسية والمتأتية أبعاده من أبعاد قبة المحراب نفسها.

ويحتوي صحن الجامع الفسيح على مزولة شمسية تعود إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

كما اشتهر الجامع بمنشآته المائية التي توفر الماء الصالح للشراب لسكان مدينة تونس بصفة عامة، وخاصة منها المواجل المبنية تحت سطح الجامع في قسمه الشرقي، والتي درسها الدكتور عبد العزيز الدولاتلي في مؤلفه "**الزيتونة. عشرة قرون من الفن المعماري التونسي**"؛ كما نعلم أن السلطان المستنصر الحفصي حوّل قسماً من الماء الوارد عن طريق حنايا هادريان إلى القصبة، ومنها يتم إيصال كمية من الماء إلى الجامع الأعظم التي تزود بعض الأسبلة والسقايات المنتشرة بالجدران الخارجية للجامع. وقد بقي أثر سبيلين، الأول عن يسار المدخل الرئيس المواجه لسوق الفكّة، والثاني بالجدار الغربي، وهو مواجه مباشرة لمدخل المدرسة المرادية.

هكذا اعتبر أغلب المؤرخين للفن والعمارة الإسلاميين، الزيتونة، نتيجة لثرائها واحتفاظها بالعديد من عناصرها، من أقدم المعالم الإسلامية القائمة الذات، ومن أثراها فنّاً ومعماراً.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

ابن أبي دينار، **المونس في أخبار إفريقيا وتونس**، تحقيق وتعليق محمد شمام، تونس، 1967.

ابن أبي الضياف، أحمد، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تونس، 1963 - 1966.

ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، بيروت، 1992.

ابن الشماع، أحمد، **الأدلّة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق عثمان الكعّاك، تونس، 1936.

ابن فضل الله العمري، **مقتطف من كتاب مسالك الأمصار في ممالك الأنصار: إفريقية والمغرب والأندلس**، نشر ح. ح. عبد الوهاب، مطبعة النهضة، تونس، دون تاريخ.

ابن قنفذ، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس، 1968.

البكري، أبو عبيد الله، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** (جزء مستخرج من كتاب **المسالك والممالك**)، تونس، 1992.

خوجة، حسين، **ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، تونس، 1975.

الرصّاع، أبو عبد الله محمد، **فهرست الرصّاع**، تحقيق وتعليق محمد العنّابي، تونس، 1967.

الزركشي، محمد، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق وتقديم الحسين اليعقوبي، تونس، 1998.
السراج، أبو عبد الله محمد، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1970 - 1978.

المراجع العربية

ابن الخوجة، محمد، **تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد**، تحقيق وتقديم الجيلاني بن الحاج يحيى وحمّادي الساحلي، بيروت، 1986.
ابن عاشور، محمد العزيز، **جامع الزيتونة. المعلم ورجاله**، دار سراس للنشر، تونس، 1991.
ابن محمود، المختار، «جامع الزيتونة من أقدم الكليات العلمية في العالم وأكثرها إنتاجاً»، **المجلة الزيتونية**، ج 2، نوفمبر 1937.
الحشايشي، محمد بن عثمان، **تاريخ جامع الزيتونة**، تقديم الجيلاني بن الحاج يحيى، تونس، 1974.
الدولاتلي، عبد العزيز، **الزيتونة عشرة قرون من الفن المعماري التونسي**، تونس، 1966.
- - ، **مدينة تونس في العهد الحفصي**، تونس، 1981.
زبيس، سليمان مصطفى، **بيوت آذن الله أن ترفع**، تونس، 1963.
- - ، **ديوان النقائش التونسية**، تونس، 1955.
- - ، **تحقيقات عن جامع الزيتونة في مدينة تونس العتيقة**، تونس، 1981.
سلامة، الطيب، «نظام التعليم الزيتوني»، **ملتقى ذكرى ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة**، تونس، 1979.

عبد الوهاب، ح. ح.، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، تونس، 1965 - 1966.

العجابي، حامد، «اكتشافات جديدة بجامع الزيتونة»، مجلة **إفريقية**، عدد 7 و8.

فكري، أحمد، **آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي**، تونس، 1949.

- - ، **مسجد الزيتونة الجامع في تونس**، القاهرة، 1953.

المعموري، الطاهر، **جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي**، تونس، 1980.

النيفر، الشاذلي، «الزيتونة في ماضيها وحاضرها»، **ملتقى ذكرى ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة**، 1979.

المراجع الفرنسية

Brunchvig, R., *La Berberie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XV^e^*, Paris, 1940-1947 .

Ferchiou, N., « Rinceaux antiques remployés dans la Grande Mosquée de Tunis; parenté de leur style avec certains monuments de Carthage», dans *Antiquités Africaines*, T. 17, 1981.

Golvin, L., *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*, Paris, 1970.

- -, « Notes sur les coupoles de la grande Mosquée Az-Zaytuna de Tunis », dans *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, 1966.

-, *La Mosquée.,Ses origines, sa morphologie, ses diverses fonctions*, Alger, 1960.

Lezine, A., *Architecture de l'Ifriquiya, recherches sur les monuments Aghlabides*, Paris, 1966.

Marçais, G., *L'architecture Musulmane d'Occident*, Paris, 1952.

Solignac, H., « Travaux hydrauliques Hafsides à Tunis », extrait du 2ème Congrès de la Fédération des sociétés d'A. N., Tlemcen, T. II, 1936.



الاستعراب الإسباني والتراث الأندلسي من خلال ثلاثة نماذج: خوان أندريس - غاينغوس - ريبيرا

الأستاذ محمد القاضي
طنجة

تحديد المصطلح: استشراق أم استعراب؟

يرفض الكثير من الإسبان المهتمين بالدراسات العربية والإسلامية نعتهم بالمستشرقين ويفضلون بدلها كلمة «الاستعراب» (Arabistas) نظراً لأنهم كلهم نذروا حياتهم لدراسة اللغة العربية وآدابها وحضارة المسلمين وعلومهم في شبه الجزيرة الإيبيرية بصفة خاصة دون أن يهتموا بلغات شرقية أخرى كالفارسية والتركية والأردية وغيرها، إلا ما كان من طرف بعض الباحثين المعاصرين وهم قلة. ويلح المستعرب بيدرو مارتينث مونتابيث على استعمال «كلمة "الاستعراب" (Arabista)، لأن الدراسات التي بدأت في إسبانيا وازدهرت منذ وقت طويل كانت الدراسات العربية، ولا توجد منذ بداية هذه الدراسات دراسات في التركية وفي الصينية والهندية وكلها تدخل في الاستشراق»[1].

ويرى الدكتور محمود صبح «أنه يجب التمييز بين المستعربين والمستشرقين في إسبانيا. المستعربون هم الذين يهتمون بالدراسات العربية الإسلامية، وبخاصة الأندلسية منها، والمستشرقون هم الذين يهتمون بقضايا الشرق على العموم، وبخاصة قضايا الشرق الأقصى»[2].

---

(1) الاستجواب الذي أجرته معه مجلة **"الوطن العربي"**، عدد 328، يونيو 1983، صفحة 73.

(2) الاستجواب الذي أجرته معه مجلة **"الفكر العربي المعاصر"**، عدد مزدوج 4 ـ 5، سنة 1980، ص. 165.

والاستعراب استعمال قديم. فقد استعمله ابن الفرية، وهو من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة. فإنه قال لما سأله الحجاج عن أهل البحرين: «نبط استعربوا»؛ قال: «فأهل عمان»؛ قال: «عرب استنبطوا»، وذلك يكون إما لغة أو انتساباً أو لعلاقة أخرى[3].

أما في الأندلس، فقد أطلقت كلمة «المستعربة» أو «المستعربين» (Mozarabes) على العناصر المسيحية التي استعربت في لغتها وعاداتها، ولكنها بقيت على دينها محتفظة ببعض تراثها اللغوي والحضاري. وقد كفلت لهم الدولة الإسلامية حرية العقيدة، فأبقت لهم كنائسهم وأديرتهم وطقوسهم الدينية التي كانت تقام باللغة اللاتينية، كما كان لهم رئيس يعرف بـ«القومس» (Gomez) وقاضٍ يعرف بقاضي العجم أو النصارى، يفصل في منازعاتهم بمقتضى القانون القوطي[4].

وقد وصف ألبارو (Alvaro) ونفسه تقطر حزناً وألماً فقال:

> إن إخوتي في الدين وأبناء رعيتي يتذوقون الأشعار والروايات العربية ويتعمقون في دراسة الفلاسفة المسلمين. وليت انصرافهم هذا يؤدي إلى مساعدتهم على دحض المذاهب الإسلامية أو الرد عليها، بل على العكس لكي يتمكنوا من هذه اللغة ومن آدابها وليجيدوا استعمالها أحسن فأحسن... أين نجد الآن علمانياً واحداً نصرانياً يقرأ الأناجيل أو حياة القديسين وأعمال الرسل والأنبياء؟ آه ويا للأسف! إن الشباب المسيحي الذي تميز بذكائه وعبقريته لا يجد اللذة والمتعة الروحية إلا في قراءة الكتب العربية وآدابها وينفقون الأموال الطائلة على شراء هذه الكتب وتشكيل مكتبات ضخمة، وينادون على رؤوس الأشهاد: أن لا آداب توازي الآداب العربية... كلموهم عن الكتب المسيحية يجيبوكم بازدراء: «إنها لا تستحق الانتباه...». آه ما أتعسنا! إن المسيحيين منا قد نسوا لغتهم، وبين ألف شخص منهم لا يوجد واحد يحسن كتابة رسالة إلى صديقه باللغة اللاتينية، ولكن إذا طلبته للكتابة باللغة العربية أجاد كل الإجادة بحيث أن الكثيرين من إخواننا في الدين يحسنون اللغة العربية أفضل من العرب أنفسهم[5].

---

(3) محمد الطنجي، «من أطوار الاستشراق ومراميه»، مجلة **دعوة الحق**، عدد 7، السنة 13، 1970، ص. 23.

(4) أحمد المختار العبادي، «الإسلام في الأندلس»، مجلة **عالم الفكر**، عدد 2، 1979، ص. 94؛ وانظر كذلك أسعد حومد، **محنة العرب في الأندلس**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ص. 121.

(5) سيمون الحايك، **عبد الرحمن الأوسط**، المطبعة البولسية، بيروت، ص ص. 166 ـ 167.

ولقد أدّى هؤلاء دوراً مهماً في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الممالك المسيحية بشمال إسبانيا وجنوب فرنسا، وكانوا أداة وصل بين شطري إسبانيا، و لم ينقطعوا عن التنقل بين أراضي المسلمين وأراضي النصارى في الشمال. فعملوا بذلك على نشر الثقافة الإسلامية بين أهل الشمال، وبخاصة عن طريق ترجمة كتب المسلمين، وشاركهم في ذلك اليهود حيث اضطلعوا بدور كبير في ترجمة المصنفات العربية إلى اللاتينية والقشتالية، مما جعل الفقيه الإشبيلي ابن عبدون ـ في القرن الثاني عشر الميلادي ـ يدعو إلى ألاّ «يباع من اليهود ولا من النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم. فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين»[6].

ومع مرور الزمن وتطور مفهوم «الاستعراب» وصيرورته ذا طابع علمي

يختص بدراسة حياة العرب وما يتعلق بهم من حضارة وآداب ولغة وتاريخ وفلسفات وأديان وله أصوله وفروعه ومدارسه وخصائصه وأتباعه ومنهجه وفلسفته وتاريخه وأهدافه. والمستعرب هو عالم ثقة في كل ما يتصل بالعرب وبلاد العرب أو باللغة العربية والأدب العربي، أو بالأحرى المستعرب هو من تبحر من غير أهل العرب في اللغة العربية وآدابها وتثقف بثقافتها وعني بدراستها[7].

ومهما يكن من أمر، فإن إسبانيا تميزت عن غيرها من الدول الأوربية الأخرى التي تدين بالشيء الكثير لإسبانيا العربية بأنها كانت سباقة إلى الاحتكاك بالعرب والاستفادة من حضارتهم وثقافتهم، مما جعلها تتبوأ مكانة خاصة في ميدان الاستعراب بصفة عامة؛ كما أن اهتمام الإسبان اتجه بالدرجة الأولى إلى دراسة الثقافة والفكر العربي الإسلامي الذي أنتجته العبقرية الأندلسية فأدوا للتراث العربي والإسلامي خدمات لا تنكر سواء بأبحاثهم ودراستهم الجادة أو بتحقيقاتهم للتراث الأندلسي واكتشاف مصادره ونفض غبار الإهمال عن كثير

---

(6) ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة**، ص. 57؛ «الإسلام في الأندلس وصقلية وأثره في الحضارة والنهضة الأوربية»، إعداد قسم البحوث والدراسات بمجلة **رسالة الجهاد الليبية**، عدد 57، 1987، ص. 84.

(7) سمايلوفتش، **فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر**، دار المعارف، 1980، ص. 34؛ وانظر منير البعلبكي، **المورد**، دار العلم للملايين، بيروت، ص. 58.

من المؤلفات المهمة التي لولاهم ما رأت النور؛ كما قاموا بوضع فهارس يستفيد منها الباحثون والمهتمون بالتراث الأندلسي.

I - خوان أندريس (1740 - 1817) والتأثير العربي في الثقافة الإسبانية

كتب الكثير عن التأثير العربي الإسلامي في الثقافة الغربية وتناول الباحثون والمهتمون هذا الموضوع بالدراسة والتحليل والمقارنة، فأبرزوا الدور الهام الذي لعبته الثقافة العربية الإسلامية بصفتها ثقافة إنسانية متطلعة إلى أفق أخلاقي رفيع المستوى، يعطي الحضارة امتدادها الإنساني، ويرتقي بمستوى الطموح البشري ليجعله طموحاً بانياً ومعبراً عن كرامة الإنسان وسمو وعيه. وقد حظيت هذه الثقافة بالتقدير والإعجاب من طرف الشعوب التي ارتبطت بالإسلام ديناً وثقافة وحضارة. ويعتبر الراهب الإسباني خوان أندريس (Juan Andres) أول من أشار إلى الأثر العربي في الثقافة الإسبانية خاصة والأوربية عامة. فقد ألف كتاباً عن أصول الأدب عامة وتطوراته وحالته الراهنة باللغة الإيطالية ونشره في سبعة مجلدات، وذلك بين سنتي 1782 و1798 وترجمه إلى الإسبانية بين سنتي 1784 و1806)، وهو بعنوان: *Origen progresos y estado actual de toda la letteratura*. وقد فجر فيه الكثير من القضايا الأدبية والفكرية والتاريخية: «وأعلن أن كل ما بلغته أوربا من نهضة في العلوم والفنون والآداب إنما كان بفضل ما تلقته من العرب عن طريق الأندلس وصقلية الإسلامية»[8].

وقال أندريس:

بينما تصرف المدارس الكنسية جهدها إلى تلقين الناس الأناشيد الدينية، وتعلمهم القراءة وعد الأرقام، وبينما نجد الناس في فرنسا كلها يهرعون إلى متز وسواسون يكتب أناشيدهم الكنائسية لكي يقوموها على النحو المتبع في كنائس روما، نجد العرب يعثون السفارات لاستجلاب الكتب القيمة ما بين إغريقية ولاتينية، ويقيمون المراصد لدراسة الفلك، ويقومون بالرحلات ليستزيدوا من العلم بالتاريخ الطبيعي وينشئون المدارس لتدرس فيها العلوم بشتى صنوفها[9].

---

(8) الدكتور محمود علي مكي، محاضرة ألقيت بجامعة قطر، **ثمار الفكر**، الموسم الثقافي السادس، 1980، ص. 128.

(9) آنخيل غونثاليث بالينثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ص. 533.

والجدير بالذكر أن أحكام الراهب خوان أندريس هذه قد أسسها على كتاب العالم اللبناني الماروني ميخائيل الغزيري (Miguel Casiri) (1701 – 1791) الذي استدعته الحكومة الإسبانية إلى مدريد سنة 1738 م وعينته موظفاً في المكتبة الملكية بمدريد، ومديراً مساعداً لمكتبة الأسكوريال، ومترجماً للملك في اللغات الشرقية وعهدت إليه الحكومة الإسبانية منذ البداية بالمهمة الرئيسة التي دعته إلى القيام بها، وهي دراسة المجموعة العربية بالأسكوريال والتعريف بها، ونزل الغزيري بقصر الأسكوريال في سنة 1749 ولبث مقيماً به حتى سنة 1753 م. وفي سنة 1760 م أصدر الجزء الأول من فهرسه اللاتيني الشهير بعنوان "**المكتبة العربية الإسبانية في الأسكوريال**". واتبع في وضعه قاعدة التركيز، وهي تدور حول المواد والتحليلات، وجرى على أسلوب الاقتباسات الموجزة والمطولة في إبراز قيمة المخطوطات ذات الأهمية الخاصة وترجمة هذه الاقتباسات إلى اللاتينية[10].

وتتلخص أفكار هذا الراهب في أن كل ما هو موجود في أوربا من الحضارة إنما يدين للعرب وإلى المسلمين، وأن الفضل في قيام الدراسات الطبية في أوربا يرجع إلى ما كتبه العرب، وأن قيام التأليف العلمي في أوربا في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه إلى العرب. وتأييداً لرأيه ذكر أسماء: Gerberto و Campamo Denovara و Adelardo و Alfonso Elsabio و Moraly و Bath، وقال إنهم أعلام حركة انتقال علوم العرب إلى أوربا وذهب إلى أن روجر باكون استقى مادة مؤلفه عن العدسات (anteojos) من الكتاب السابع من "**أوبتيكا**" للحسن بن الهيثم، وأن فيتاليون اختصر النظريات التي أودعها ذلك العالم المسلم في الكتاب نفسه وشرحها، وأن ليوناردو بساما أخذ علم الجبر من مؤلفات العرب، ونقل عنهم الأرقام العربية وأدخلها إلى أوربا، وعلمها لأهلها، وأن جيربرت درس علم الحساب العربي في إسبانيا الإسلامية وأدخله إلى المدارس الأوربية، وأن Ronaldo di

---

(10) انظر ذلك بالتفصيل في "**كتاب العربي**"، الكتاب العشرون، يوليو 1988، "أندلسيات محمد عبد الله عدنان" ـ نفائس المكتبة العربية في الأسكوريال، ص ص. 212 ـ 219.

Villanova تلقى تعليمه كله في إسبانيا الإسلامية على أيدي العرب وعن كتبهم ومدارسهم أخذ المعارف النافعة في الطب والكيمياء التي نشرها في أوربا.

وذهب أندريس كذلك إلى أن الفيلسوف الكتلاني Lulio مدين للأدب العربي في كثير، وأن أعلام الطب الأوربي قبل النهضة أمثال جلبيترو وجيرالمو إنما نهلوا من كتب العرب، ومن مؤلفات أبي القاسم الزهراوي على وجه الخصوص، وأن بيير دانييل هوست ذهب إلى أن ديكارت أخذ عن أعلام الفكر الإسلامي مبدأه الرئيس الذي يقول: «إن كل من يستطيع أن يفكر فهو موجود»، وأن كبلر استوحى اكتشافه الأفلاك الدائرية للكواكب من كتابات البطروجي، وأن بعض آراء سانتو توماس في الإلهيات مستقاة من كتب العرب «ولو لم يكن للعرب من الفضل إلا الاحتفاظ بذخائر العلوم التي أهلتها الشعوب الأوروبية ونقلها، وإيداعها أيدي الناس عن طيب خاطر لاستحقوا من أهل الأدب المحدثين الشكر والعرفان». أما عن إسبانيا الإسلامية خاصة، فقد أشار أندريس إلى حقيقة خطيرة أثبتها البحث العلمي فيما بعد، وهي أن الناس في الأندلس كانوا يستعملون لغتين دارجتين: إحداهما عربية والأخرى «رومانثية» (romance)، وأن كتدرائية طليطلة تضم مئات الوثائق باللغة العربية، خلفها النصارى الذين كانوا يستخدمون العربية في حياتهم.

وذهب إلى أن الشعر الإسباني إنما نشأ أول أمره تقليداً للشعر العربي، وانتهى إلى هذا الرأي استنتاجاً وقال: إن اختلاط النصارى والمسلمين من الطبيعي أن يدفع الأول إلى تقليد الآخرين، ويمضي مع تفكيره المنطقي. وصور هذا الشعر وقوالبه حرية بأن تنتقل إلى بروفانس عن طريق الصلات المتبادلة بين الفرنسيين والإسبان ـ نصارى ومسلمين ـ وتجوال شعراء التروبادور، فنشأ الشعر البروفانسي على أساس من الشعر العربي، فهو ينتسب إلى العرب أكثر مما ينتسب إلى اليونان واللاتين، إذ لم يكن لدى البروفانسيين علم بهذين الأدبين في حين أن شعر العرب كان أقرب إليهم مورداً.

ويؤكد أن قواعد القافية التي اتبعها الشعر الشعبي، إسبانياً كان أو بروفانسياً، وأساليب صياغة الشعر الحديث ونظمه مأخوذة عن العرب؛ وكذلك قصص الخرافات والحكايات ترجع في نشأتها إلى أصول عربية.

وقد بقيت هذه الإشارات المجملة التي كتبها خوان أندريس دون إثبات مؤكد في عصره، لأن شيئاً من آثار الأندلسيين لم يكن قد نشر إذ ذاك. أما اليوم وبعد قرنين من الزمن على صدور كتابه، فإننا نستطيع أن نذكر الكثير عن أثر المسلمين في آداب من جاء بعدهم من الشعوب الأوربية وخاصة الإسبان(11).

إن هذه الآراء والأحكام والجرأة على كتابتها ونشرها في ذلك الوقت من طرف راهب منفي، لأنه طرد من إسبانيا عام 1765 لأسباب داخلية متعلقة بخلافات داخل التنظيم الكنيسي المسيحي، ما كان لها لتقبل وخصوصاً من طرف معاصريه الذين عارضوا آراءه واعتبروها من نسج الخيال ونشطوا في الرد عليها سواء في إيطاليا أو في باقي الدول الأوربية.

II - باسكوال دي غايَنغُوس (1809 - 1897 م) باعث الدراسات العربية والإسلامية في إسبانيا

يعتبر باسكوال دي غاينغوس (Pascual de Gayangos) المؤسس الحقيقي للاستعراب العلمي الإسباني الحديث. فقد أمضى طفولته في باريس حيث درس على المستشرق الفرنسي المشهور دي ساسي (De Sacy) مدة ثلاث سنوات انتقل بعدها إلى لندن ومنها عاد إلى إسبانيا وبعدها إلى لندن، ومنها إلى إسبانيا.

في سنة 1833 عين غاينغوس مترجماً في وزارة الخارجية الإسبانية، وفي سنة 1843 عين لشغل كرسي اللغة العربية الذي أنشئ بالجامعة الإسبانية بمدريد. كان أول من اهتم به هذا الباحث هو دراسته للتراث الأندلسي تاريخاً وفكراً وحضارة، فتمكن من جمع مكتبة نفيسة ضمت أكثر من أربعمائة مخطوط. ويعد:

---

(11) آنخيل غونثاليث بالينثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، ص ص. 534 - 536.

رائداً لضرب جديد من الدراسات الأندلسية، يقوم على تفهم صحيح لحضارة العرب في إسبانيا وتقدير لمنجزاتها... غير أن أهم منجزاته على الإطلاق هو إعداده لطائفة كبيرة من تلاميذه خدموا الدراسات العربية طول القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (12).

قام غاينغوس بتصنيف كتاب عن تاريخ المسلمين في إسبانيا ثم فهرسته للمخطوطات الإسبانية في المتحف البريطاني:

ووصف قصر الحمراء مع بيان آثاره وتفسير كتاباته الحجرية. لندن 1843 م وفذلكة عن صحة الصحيفة الإخبارية للرازي في صفة الأندلس متنا وترجمة إسبانية... ورسالة في بيان فضل الأندلس وذكر علمائها عن المقري متنا وترجمة إنجليزية، وقصيدة مديح محمد وهي من الشعر الإسباني في القرن الرابع عشر (13).

لعل أهم أعماله في هذا الميدان هو وقوفه على مصدرين من مصادر التراث الأندلسي وتحقيقهما ونشرهما وهما: "**نفح الطيب**" للمقري. فقد قام بنشر قسمٍ كبيرٍ منه وترجمته إلى الإنجليزية في مجلدين (لندن ـ مدريد 1840 ــ 1843). يقول في مقدمته:

إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومي عميق، أو نزعة تعصب ديني، أبدوا دائماً أبلغ الاحتقار لمؤلفات العرب... فكانوا يرفضون وسائل البحث التي تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة، ويهملون المزايا التي قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية، ويوثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد. وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذي يطبع كتاباتهم أثر واضح. ذلك أن تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى ما يزال ــ بالرغم مما أفاض عليه النقدة المحدثون ـ معتركاً من الخرافة والمتناقضات (14).

أما المصدر الثاني، فهو كتاب "**تاريخ افتتاح الأندلس**" لابن القوطية الذي نشره في مدريد سنة 1868 م، «ويؤخذ على ناشره عدم تعمقه لفهم المعنى

---

(12) محمد علي مكي، «الأندلس في شعر شوقي ونثره»، مجلة **فصول**، عدد 1، المجلد 3، 1982، ص. 215.

(13) نجيب العقيقي، **المستشرقون**، دار المعارف، ج 2، ص ص. 182 ـ 183.

(14) محمد عبد الله عنان، «مقدمة» كتاب **دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية العهد الناصر**، ط 4، ص. 10.

العام للفصل أو المقطع لكثرة الأخطاء الإملائية والنحوية التي وقع فيها... وقد حظي المؤلف لقيمته العلمية والتاريخية بعناية كبار المستشرقين الإسبان»[15].

لقد كسر غاينغوس الصمت الطويل الذي فرض على كل ما هو عربي في إسبانيا منذ سقوط الأندلس، وتجرأ على الكلام وأثبت ذلك بالحجج والوثائق فكانت أعماله كما يقول غوستاف دوغه (Gustave Dugat) في كتابه "**تاريخ المستشرقين**": «في إسبانيا إن أعمال غاينغوس الجدية فيما يتعلق بتاريخ العرب معروفة لدى الجميع. لقد أنشأ عدداً من الطلاب الذين يهتمون بالدراسات الشرقية»[16].

وعلى العموم، فإن أعمال غاينغوس الاستعرابية تندرج في إطار تحرري لا يخلو من عطف نحو الماضي الأندلسي والموريسكي كما استشهد بذلك الكاتب الإسباني الكبير خوان غويتسولو في دراسته «تأملات في الاستعراب الإسباني»[17].

III - خوليان ريبيرا إي طَرَاكُو (1858 - 1934 م) أول من تبنى فكرة الأصل الإسباني لمسلمي الأندلس

يعتبر خوليان ريبيرا إي طراكو (Julian Ribera y Tarrago) واحداً من كبار المستعربين الإسبان، وقف حياته على دراسة الأدب الأندلسي وتاريخه. ولد في كركخنته (Carcajente) من أعمال بلنسية، تعلم اللغة العربية على المستعرب كوديرا، وتخرج من جامعة سرقسطة، وعين أستاذاً للعربية فيها سنة 1887 م، وأستاذاً لتاريخ حضارة اليهود والمسلمين في جامعة مدريد (1905 – 1927 م)، ثم اعتزل التدريس، وعكف على التأليف في بلنسية. وقد انتخب عضواً في المجمع

(15) ابن قوطية القرطبي، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق وشرح وتعليق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، ص. 25.

(16) ميشال جحا، **الدراسات العربية والإسلامية في أوربا**، ط 1، بيروت، معهد الإنماء العربي، ص. 129.

(17) انظر جريدة **العلم الثقافي**، عدد يوم 12/15/ 1984، ص. 1.

اللغوي الإسباني وفي غيره. وعد من بين كبار علماء الاجتماع والتاريخ والكشف عن أصل الشعر الغنائي الأوربي من المنابع العربية.

أنجز ربييرا العديد من الأعمال المهمة المتعلقة بالتراث الأندلسي منها نشره بمعاونة أستاذه كوديرا "**المكتبة العربية الإسبانية**"، وله "**دراسات عن نظم التدريس عند المسلمين الإسبان**" (سرقسطة 1893) و"**أصول القضاء العالمي في أرغون**" (سرقسطة 1897) و"**تاريخ القضاة بقرطبة**" للخشني القيرواني متنا وترجمة إسبانية، وكتب عليه بالعربية: وقف على طبعه خوليان ربييرا إي طراكو البلنسي (مدريد 1914)، كما نشر الملاحم الإسبانية سنة 1915 بمدريد، و"**ديوان ابن قزمان**" (مدريد 1922) و"**موسيقى الأندلسي والشعراء الجوالون**" (مدريد 1925 م)، كما ترجم إلى الإسبانية "**تاريخ افتتاح الأندلس**" لابن القوطية. وكان قد نشره غاينغوس وسابيدرا من قبله - مع إضافات من كتاب "**الإمامة والسياسة**" لابن قتيبة (مدريد 1926)، و"**الموسيقى العربية وأثرها في الموسيقى الإسبانية**" (مدريد 1927)، وصنف كتاباً بعنوان: "**بحوث ورسائل**" في جزئين اشتمل على الشاعر ابن قزمان والرد على دوزي، وأصول فلسفة رايموند لول، وجامعي الكتب والمكتبات في إسبانيا الإسلامية. وله في المجلات العلمية دراسات رصينة عن: أحوال العرب عند فتح الأندلس، وحول قلعة طريف، ومعاهدة سلام بين فيرناندو الأول حاكم نابولي وأبي عامر عثمان حاكم تونس. وقد حال الموت دون إنجاز كتاب: "**تاريخ الثقافة الإسلامية**". وقد أحصى مؤلفاته وقدم لها آسين بلاثيوس في كتاب عنوانه "**أحاديث ونبذ**" (1928 م)[18].

وككل مستعرب إسباني في عصره واجهته مشكلة التراث الأندلسي في لغته العربية الذي لم يكن متيسراً في إسبانيا:

> وحين عزم على أن يطبع أمهات المصادر الأندلسية في نصها العربي بإسبانيا، لم يجد غير مطبعة البرلمان. ففيها قسم عربي لطبع الوثائق السياسية، ولكنه يتقاضى أجوراً باهظة لا قدرة له عليها، فتركه ليفكر في أمر لا يظنه دار بخاطر مستشرق قبله (إذا

---

(18) بتصرف عن كتاب نجيب العقيقي، **كتاب المستشرقون**، دار المعارف، ج 2، ص ص. 189 - 190.

استثنينا المستشرقين الروس فقد مروا بالتجربة نفسها فيما أذكر): أن يشتري حروفاً عربية، وأن يعمل عليها مع طلابه، ويجمعون بأيديهم ويدفعون بما جمعوا إلى المطبعة، ويدفعون التكاليف من جيوبهم، ومن جيوب عشاق العصر العربي من الإسبان[19].

وهكذا انكب خوليان ريبيرا على دراسة التراث الأندلسي ثقافة وفناً وتاريخاً. وكان يعتبر الحضارة الأندلسية جزءاً من التراث الإنساني القيم، وأن كل منجزات الأندلسيين المسلمين في العلوم والفنون والثقافة ينبغي أن تنتسب إلى إسبانيا قبل أن تنتسب إلى الشرق العربي أو الغرب الأوربي؛ كما أنه يعتبر أن المجتمع المولد الجديد في الأندلس بعد الفتح والاختلاط والانصهار بين العرب الفاتحين والسكان الأصليين كان عربي اللسان إسلامي الدين، وردد علانية أنه:

ليس ثمة فضل في أن يعرف أحدنا اللغة العربية، فهناك ملايين الرجال يعرفونها، ويتحدثون بها خيراً منا. أما الذي نستطيعه دون قدرة الملايين، فهو أن نجعل منها دوراً نكتشف في هديه أصول الثقافة الإسبانية، ونوضح في ضوئها ما خفي من جوانبها، حين كانت العربية في وطننا لغة الثقافة ولغة الحياة[20].

خوليان ريبيرا وإسبانية الموشحات

تعددت الآراء واختلفت حول أصل الموشحات وأوزانها، وكان الباحثون ـ وما زالوا ـ منقسمين إلى رأيين بارزين ما بين الأصل الإسباني الأندلسي والعربي المشرقي، وكل فريق يدلي بآرائه وحججه في هذا الميدان. ويرى الدكتور زكريا عناني أن:

الآراء حول النشأة الأندلسية للموشحات أكثر من أن تحصى، ولكن ليس معنى هذا أن الموشحات ظاهرة مستقلة لا علاقة لها بالشعر العربي. فمؤلفو الموشحات هم أولاً وأخيراً شعراء عرب، وهذه حقيقة لم ينكرها حتى المستشرقون المنادون بأن في الموشحات عناصر إسبانة محلية[21].

---

(19) الطاهر أحمد مكي، «قمة الاستشراق الإسباني المعاصر»، مجلة **آفاق عربية**، عدد 3، السنة الثالثة، 1972، ص. 72.

(20) مجلة **آفاق عربية**، **مرجع سابق**، ص. 73. والرأي نفسه ورد في مجلة "**اللسان العربي**"، العدد الخامس (غشت 1967)، ص. 66.

(21) **الموشحات الأندلسية**، سلسلة عالم المعرفة، عدد 31، يونيو 1980، ص. 66.

ويذهب خوليان ريبيرا إلى «إسبانية الموشحات» ويدلل على نظريته هاته بما يلي: إن أهل الأندلس الإسلامي كانوا يستعملون اللغة العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها. وأما شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم، فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية (El romance). ثم إن هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية ومشرقية. وقد ازدرى أهل الأدب الفصيح والمعنيون بأمره هذا الطراز الجديد، بينما مضى الناس جميعاً يتناقلون مقطعاته سرا فيما بينهم، وذاع أمره داخل البيوت وفي أوساط العوام، وما زال أمره والإقبال يشتد حتى أصبح في يوم من الأيام لوناً من الأدب. وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين: إحداهما «الزجل» والثانية «الموشحة»، وهما في واقع الأمر فن شعري واحد، ولكن الزجل يطلق على السوقي الدارج منها، إذ لابد من أن يكون في اللغة الدارجة، فقد كان يتغنى به في الطرقات؛ أما الموشحة، فلا تكون إلا في العربي الفصيح، وإسمها كذلك عربي كما هو واضح[22].

وقد وافقه في هذا تلميذه أميليو غارسيا غوميث، ووافقهما بعض الباحثين العرب كالدكتور عبد العزيز الأهواني والدكتور مصطفى عوض الكريم وبطرس البستاني. وقد اعتمد هؤلاء على نقاط محددة في مذهبهم، منها أن الموشحات تختلف اختلافاً بيناً عن فنون الشعر العربي في المشرق لكونها استجابة لبعض متطلبات الفن الغنائي؛ وثانيها أن أوزان قسم الموشحات غير جارية وفق أوزان الخليل؛ وثالثها أن فن الموشحات قد ظهر في الأندلس، وحذقه الأندلسيون وأحبوه، لذا ذهبوا إلى أن هذا الفن تقليد لشعر غنائي أعجمي كان منتشراً في الأندلس عرفه كل من العرب والإسبان. ومما قوى اعتزاز هذا الفريق برأيهم اكتشاف مجموعة من الخرجات الأعجمية، وعددها ست وعشرون، في كتاب: "**عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس**" لعلي بن بشري الغرناطي، فضلاً عن

---

(22) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب أنخيل غونثاليث بالينثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، ص ص. 142 ـ 143.

الخرجات الأعجمية التي وردت في موشحات عبرية نظمها ابن النغرلة وابن جبيرول وموسى بن عزرا ويهودا هاليفي وغيرهم. لذا انبرى جماعة من العلماء لدراستها، ومن أولئك شتيرن (Stern) ونشرها في مجلة "**الأندلس**" (العدد 13، سنة 1948)، وغارسيا غوميث، ونشرها في المجلة المذكورة (الأعداد: 14، سنة 1949 و15، سنة 1950 و17، سنة 1952 و19، سنة 1954)، بل جزم غوميث بأن تلك الخرجات المشتركة بين الموشحات العبرية أغان قصيرة باللهجة الرومانتيّة كانت شائعة، وأنه على هذه الأغاني بنيت الموشحات[23].

كما اهتم ريبيرا بدراسة موسيقى الأغاني الإسبانية ودواوين شعراء التروبادور في أروبا في العصر الوسيط، فانتهى من دراساته المستفيضة إلى أن الموشح والزجل هما «المفتاح العجيب الذي يكشف لنا عن سير تكوين القوالب التي صبت فيها الطرز الشعرية التي ظهرت في العالم المتحضر إبان العصر الوسيط، وأثبت انتقال بحور الشعر الأندلسي فضلاً عن الموسيقى العربية إلى أروبا»[24]. وكان قد أكد وجود التماثل في تراكيب الأبيات وتعاقب القوافي لدى أغاني التروبادور (الشعر الغنائي الجوال) البروفانسية خلال العصور الوسطى كما هي في النتاج الأصلي للشعر الشعبي الأندلسي، وذلك في محاضرة ألقاها سنة 1912 م في المجمع الملكي الإسباني.

وكانت مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا أولى الإقطاعيات ازدهاراً، وكانت لغتها البروفانسية أشهر اللغات الرومانتية، وموقعها الجغرافي يجعل منها نقطة اتصال حضاري لا بين اللغات الرومانتية أو الشعوب اللاتينية فحسب، وإنما بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية أيضاً. فقد كانت على حافة الأندلس الإسلامي... وشهدت أول ازدهار أدبي لا يتخذ اللاتينية لغة له، وشغل هذا الازدهار قرنين كاملين في تاريخها، من مطلع القرن العاشر حتى عام 1210 م، وكانت تدين في ذلك طائفة من الشعراء دخلوا التاريخ تحت اسم التروبادور (Troubadour)[25].

---

(23) عباس مصطفى الصالحي، «الموشحات والأزجال»، مجلة **آفاق عربية**، عدد 5، ماي 1987، ص. 98. وهي الآراء نفسها التي يثبتها الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه "**فصول في الأدب الأندلسي**".

(24) أنخيل بالينثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، ص ص. 613 ـ 614.

(25) الطاهر أحمد مكي، «التروبادور ـ شعراء أوروبيون تأثروا بالشعر العربي»، مجلة **آفاق عربية**، عدد 10، يونيو 1976، ص. 69.

وثمة عامل ديني كان وراء اهتمام سكان بروفانس بالأندلس، وهو توافدهم سنوياً في أعداد كبيرة حجاجاً إلى كتدرائية سانتياكو دي كومبوستيلا (Santiago de Compostela) في الشمال الغربي من شبه الجزيرة، لأنها تضم رفات القديس يعقوب، وهم في غدوهم ورواحهم يلتقطون الأخبار، ويسمعون الإشاعات ويحملون ما يفتقدونه في بلادهم مادياً أو فكرياً. وكان المسلمون بدورهم يعرفون قيمة هذه الكنيسة... وأدى هذا إلى قيام رجال الدين المسيحيين فيما وراء جبال البرانس بمحاولة تعلم اللغة العربية ليتعرفوا إلى ما عند المسلمين[26].

وأول شاعر تروبادور عرف، ووصلتنا أخباره وجانب كبير من قصائده هو جيوم التاسع (1071 - 1127 م) وإليه ينسب ابتداع الشكل الجديد الغنائي، والذي يتخذ من شكل الموشحة العربية قالباً ينظم فيه أشعاره... ولم يجدد جيوم في الشكل فقط، بل في موضوعات هذا الشعر أيضاً. فكان أول من تغنى بجمال المرأة ودفعها إلى أن تحس بقيمتها. وكان جيوم قد رحل إلى المشرق في حملته الصليبية (عامي 1101 - 1102 م) وأقام في الشام حقبة من الزمن وجاء إلى الأندلس عام 1120 م ليساعد ألفونسو المحارب في معركة «كتندة» ضد مسلمي الأندلس، وتزوج من أندلسية هي ابنة راميرو الراهب ملك أرغون. وذلك يعني تأكيداً أنه كان يعرف أشياء كثيرة تتعلق بالإسلام والبلاد الإسلامية، ويرجح أنه كان يعرف اللغة العربية بقدر لا بأس به، يمكنه أن يقرأها ويتفاهم بها، وليس ثمة شك في أن غنائها وأشعارها كانت مألوفة لديه[27].

وقد استنتج خوليان ريبيرا من تأثير الموسيقى العربية في نشأة الموسيقى الأوروبية عنصرين مهمين حددهما عبد الرحمن بدوي وهما: أولاً، ظهور مذهب جديد في الموسيقى اسمه فن الميزان ظهر في أروبا لأول مرة في القرن

---

(26) الطاهر أحمد مكي، «العلاقة بين الشعر الأندلسي وشعر التروبادور»، مجلة **آفاق عربية**، عدد 6، فبراير 1983، ص ص. 31 - 33.

(27) الطاهر أحمد مكي، «التروبادور - شعراء أوروبيون تأثروا بالشعر العربيّ»، مجلة **آفاق عربية**، عدد 10، يونيو 1976، ص. 74.

الثالث عشر والكتب التي وضعها المؤلفون الأوروبيون في هذا الفن في ذلك القرن تشابه في معالجتها لأنواع الأنغام ما كتبه العرب في القرن التاسع في الموسيقى؛ ثانياً، استعمال الآلات الموسيقية العربية في أروبا وأهمها الربابة، وهي في أصلها أسيوية قديمة جداً، ثم العود وهو ما يجمع عليه المؤلفون في تاريخ الموسيقى أنه عربي دخل إلى أروبا عن طريق الإسبان؛ وثالثاً، الناي الأندلسي أو القيتارة الموريسكية[28].

كما اتجه إلى دراسة الملاحم الشعبية والقصص والأساطير الأندلسية وتأثيرها في الأدب الإسباني، ودلل على ذلك في بحث نشره سنة 1915 م، حيث لاحظ وجود آثار من شعر قصصي عند أوائل مؤرخي الأندلس من المسلمين لابد أنه كان مزدهراً في الأندلس خلال القرنين التاسع والعاشر، ومضى يلتمس ما في كتب التاريخ الأندلسي من بقايا أسطورية ذات أصول محلية، إذ غلب على ظنه أن هذه العناصر الأسطورية قد اندرجت في كتب التاريخ الإسلامي الأندلسي، وبالضبط كما حدث لأشعار الملاحم القشتالية من انتشار نظمها واندراجها في المدونات النصرانية في زمن متأخر. ذلك بأنه علاوة على ما تحدثنا به من المراجع من أن نفراً من الأندلسيين وصف أحداث فتح الأندلس وما تلاه من حروب في قصائد طوال كيحيى الغزال (توفي 250 هـ) والذي اشتهر بالغارات التي قام بها لعبد الرحمن الأوسط، وبأرجوزته التي كتبها عن فتح الأندلس والوقائع التي دارت بين العرب والإسبان... واستنتج من تحليله لبعض النماذج القصصية أنه كان لأهل الأندلس شعر قصصي شعبي، ولكنه ضاع ضياعاً يكاد يكون تاماً لسوء الحظ. ومن الممكن أن يكون هذا الشعر القصصي قد عاش طالما وجدت بين ظهراني أهل الأندلس جماعة يعمر قلوب أفرادها الحب للغة هذا الشعر وموضوعاته. ومن الممكن أن تكون هذه الجماعة قد وجدت بين الصقالبة الذين كان لهم أثر عظيم خلال فترة معينة من العصور الإسلامية من تاريخ إسبانيا. ومضى يتساءل إن كان من الممكن لهذا الأدب بعد أن أثبت وجوده أثر

---

(28) **دور العرب في تكوين الفكر الأوربي**، ط 2، 1979، ص. 44.

في الشعر القصصي الإسباني والفرنسي الذي ظهر بعد ذلك، فوجد بعد المقارنة أن الشعر القصصي الأندلسي البدائي لا يبدو لنا مجرد محاكاة جامدة لأدب أجنبي، بل هو يروي أخباراً كانت ذكرياتها غضة ماثلة في الأخلاق، إذا ذكرنا أن المدة بين وقوع الحادث الذي تدور الأسطورة حوله وبين اندراجها في مدونة تاريخية لا تكاد تعدو قرناً من الزمان تنشأ خلاله الأسطورة التي تندرج في ثنايا المدونة. وتلك الأساطير الأندلسية تتفق في هذا مع الأساطير الإسبانية، ومن بعض النواحي مع الأساطير الفرنسية، التي ظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وتتفق تلك الأساطير الأندلسية كذلك مع الإسبانية في أنها نشأت في النواحي والأعصر التي حفلت بالصراع والحروب، وتتفق مع الإسبانية والفرنسية في أن شخصياتها تاريخية[29].

كان خوليان ريبيرا من المتعصبين للعرق القومي الإسباني فكان أول من تبنى من المستشرقين فكرة الأصل الإسباني لمسلمي الأندلس معتمداً في ذلك على دور المرأة البالغ الأهمية في أسبنة المسلمين القادمين من المشرق أو من شمال إفريقيا، وفي إشاعة اللغة الرومانتية والإبقاء عليها والحفاظ على الخصائص البيولوجية الإسبانية، والتقاليد التي كان عليها الإسبان قبل الفتح الإسلامي بعامة، وفي مجال الحياة العاطفية والأسرية على نحو خاص. لقد جاء العرب أو البربر جنوداً فاتحين، أو أفراداً مهاجرين، وتزوجوا في الأندلس من نسائها جواري أو حرائر، وفي كل الأحوال كن ينحدرن في الأعمّ الأغلب من أصول إسبانية، ونشأ أولادهم هجناء في بيت مختلط. ويمضي ريبيرا بعيداً مع فكرته لينتهي بها إلى أن العرب القادمين إلى الأندلس فقدوا خصائصهم السلالية بصفتهم جنساً سامياً ابتداءً من الجيل الثالث أو الرابع، نظراً لتغلغل الدم الإسباني في عروق المسلمين.

ويثبت ذلك من الوجهة العلمية فيجري تجربته على الأسرة الأموية التي حكمت في الأندلس فيقول ما خلاصته: إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربي، لأنه كان من أم غير عربية؛ وكذلك ابنه هشام لا يحمل إلا ربع

---

(29) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب أنخيل غونثاليث بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ص ص. 603 ـ 613.

دم عربي، لأن أمه كانت جارية إسبانية. وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من أمير إلى آخر، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي. وهكذا إلى أن يصل إلى هشام الثاني، فلا يكون له من الدم العربي إلا جزء من أربعة وعشرين ألف جزءٍ[30].

ويعلق الدكتور أحمد هيكل على نظرية خوليان ريبيرا قائلاً:

لسنا ننكر الدافع الكريم الذي حمل الأستاذ ريبيرا على محاولة إثبات أن الأندلسيين إسبان مسلمون. فهو يعتز بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية وضمها إلى التراث الإسباني، ولكنّنا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبيرا في ما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عروبتهم، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التي أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربي في الدم الإسباني، لأننا لا نتصور أولاً أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق؛ ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء؛ ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربي في الأندلس كان ينجب دائماً من إسبانية جديدة، وإن كان تصادف ذلك في الأسرة الأموية. بقي أن نقرر أن هؤلاء الأندلسيين وإن كانوا مولدين جنساً ومختلطين دماءً، فهم عرب في قوميتهم، لأنهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم[31].

أما الدكتور الطاهر المكي، فيعلق على ريبيرا قائلاً:

نحن إذاً مع خوليان ريبيرا في الدور الذي لعبته المرأة الإسبانية بوصفها هذا، في مجال الحياة الأندلسية، وكان واضحاً ومقدراً، لكننا لا نتابعه في لعبة الأرقام التي اعتمد عليها، وأدارها في مهارة وسذاجة في الوقت نفسه، لأن العلم والشواهد التاريخية والظواهر النفسية والاجتماعية تقف في الجانب المقابل منها[32].

إنه مهما وجهت من تعليقات وملاحظات لبعض أعمال المستعرب الكبير، فإنه ينبغي أن نعترف له ببعض الإيجابيات المهمة في أعماله وأبحاثه ومجهوداته. فقد استطاع أن يثبت بالحجج والدلائل الدور العظيم الذي قامت به الأندلس

---

(30) أحمد هيكل، **الأدب الأندلسي. من الفتح إلى سقوط الخلافة**، دار المعارف، ص ص. 35 ـ 36؛ والطاهر أحمد مكي، **دراسات عن ابن حزم وكتابه "طوق الحمامة"**، ص ص. 249 ـ 250، وكلاهما اعتمدا على كتاب خوليان ريبيرا: *Disertaciones y opusculos*, Vol. 1, p. 14.

(31) أحمد هيكل، **الأدب الأندلسي. من الفتح إلى سقوط الخلافة**، دار المعارف، ص ص. 36 ـ 37.

(32) الطاهر أحمد مكي، **دراسات عن ابن حزم وكتابه "طوق الحمامة"**، ص ص. 225 ـ 252.

الإسلامية في مجال الثقافة والفن والفكر بصفة عامة، كما أنه ساهم مساهمة فعالة في تصحيح العديد من المفاهيم الخاطئة التي رسخت في أذهان العديد من الباحثين والكتاب الإسبان منذ مئات السنين، وذلك نتيجة التعصب الأعمى والتغاضي وعدم الاعتراف بأهم وأزهى فترة في تاريخ إسبانيا وهي الفترة العربية الإسلامية التي دامت ثمانية قرون.

تاريخ العلم عند المسلمين

الدكتور محمد السيد علي بلاسي
عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر
والخبير الدولي لمنظمة الإيسيسكو ـ القاهرة

لقد فجر الإسلام تاريخاً نسب إليه في العصر الوسيط، واهتم المؤرخون بتتبع حركات الفتوح الإسلامية التي وصلت إلى حدود الهند شرقاً وإلى جنوب فرنسا غرباً... على أن التاريخ الإسلامي ليس فتحاً عسكرياً فحسب بل هو إلى جانب ذلك حضارة متسعة باتساع الفتوح فيما بين الشرق والغرب[1].

فالإسلام الذي نادى بالتوحيد استطاع أن يشعر ذلك العالم المشتت الأطراف بوحدته، وأن يجعل هذه البيئة المترامية الأطراف تشعر بأنها تكون حضارة واحدة يربطها سمط واحد؛ وعن الإسلام نشأت الحضارة العربية؛ ومن الحضارة العربية تولد العلم العربي الذي ساهم في تكوينه مفكرون من مختلف القوميات والجنسيات: سريانيون وفرس وصابئة ومسيحيون ونساطرة ويونانيون وأقباط وعبرانيون وأتراك وذميون، ولكن بلسان عربي وفي ظل الدين الحنيف[2].

ومن هذا المزيج الإنساني كان الفكر الإسلامي إنسانياً أكثر منه إسلامياً!

والحقيقة أن نسبة هذا الفكر للإسلام نسبة تفتقر للدقة العلمية. فالإسلام منهج إلهي محدد بكتاب سماوي معجز. ومطلوب من المسلمين جميعاً أن يسيروا في

(1) أحمد صبحي منصور، **تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية** (كتاب مقرر على طلاب السنة النهائية لكلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر)، (المقدمة، ص أ)، دون ذكر الطباعة والتاريخ.

(2) أحمد سعيد الدمرداش، «مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ»، مجلة **المنهل** السعودية، الحلقة الأولى، العدد 450، جمادى الأولى، سنة 1407 هـ، ص. 123.

حياتهم الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية وفق ذلك التوجيه القرآني. إلا أن المفروض شيء، والواقع شيء آخر. وكما حدث بعض الانحراف عن المنهج الإسلامي السياسي بحيث وقعت حروب بين المسلمين، فقد كان الفكر الإسلامي مرتبطاً بتراثهم القومي قبل الفتح، أكثر منه ارتباطاً بالقرآن والسنة.

وساعد على هذه السقطة أن المسلمين نظروا للقرآن بصفته معجزة موجهة للعرب فقط، فهو معجز للعرب فقط، ونسوا أن القرآن معجز للإنس والجن في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وأن نهايات العلوم قد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم، كما أن منهجه العلمي التجريبي لم ترق إلى نظيره أي اجتهادات إنسانية؛ ولا أدل على ذلك من أن عصرنا العلمي الراهن لا يستطيع أن يخالف ما جاء في القرآن الكريم من حقائق علمية! ولو اتخذ المفكرون الأوائل من القرآن الكريم رائداً، لوفروا على أنفسهم وعلى الإنسانية قروناً من البحث والرقص على أنغام السابقين من اليونان والهنود.

إسلامنا دين العلم والمعرفة

لقد كان أول أثر من آثار القرآن في الفكر الإنساني اهتمامه الواسع بالعلم. قال ا لله تعالى ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. (العلق: 1). فهذا هو أول خطاب إلهي إلى النبي ﷺ، وفيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم[3]، لأنه شعار دين الإسلام؛ ذلك بأن العلم أساس التقدم والتعاون، وتبادل الخبرات والمنفعة. وقد كانت عناية القرآن بالعلم تفوق حد الوصف!

تأمل القرآن الكريم وتدبر آياته، تجده يدعو إلى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون وأحداث الماضي.

ولقد اشتمل القرآن على ست وثلاثين ومئتين وستة آلاف آية، منها خمسون وسبعمائة آية كونية وعلمية احتوت أصولاً وحقائق تتصل بعلوم الفلك

---

(3) **المرجع نفسه** (المقدمة: ص أ، ب بتصرف).

والطبيعة وما وراء الطبيعة والأحياء والنبات والحيوان وطبقات الأرض، والأجنة والوراثة والصحة الوقائية والتعدين والصناعة والتجارة والمال والاقتصاد، إلى غير ذلك من أمور الحياة، واحتوت باقي الآيات على الأصول والأحكام في المعاملات وعلاقات الأمم والشعوب، في السلم والحرب وفي سياسة الحكم وإقامة العدل والعدالة الاجتماعية وكل ما يتصل ببناء المجتمع. ذلك بأن القرآن من العمق والاتساع والعموم والشمول بما يقبل تفهم البشر له، أياً كان مبلغهم من العلم، وبما يفي بحاجاتهم في كل عصر، ويتجاوب مع أهل البداوة في يسر، ويبهر في عمقه أهل الحضارة الذين صعدوا في سلم الرقيّ وبرعوا في فنون العلم والمعرفة![4]

ولقد حث الإسلام المسلمين على طلب العلم، والتفقه في الدين، والبحث الدقيق في كل مجالاته وفنونه وفروعه، وأن يتحملوا المشاق في سبيل تحصيله وتعلمه، وأن يبذلوا كل طاقاتهم وقدراتهم في طلب المزيد منه.

الحض على العلم

لقد كان النبي ﷺ يشجع طلاب العلم ويرحب بهم، فرحاً بهم وبما يراه ﷺ من حفاوة الملائكة بهم وحبهم لهم، ويعلن ذلك في صراحة حينما أتاه صفوان بن عال المرادي ـ رضي الله عنه. قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله! جئت أطلب العلم. فقال: «مرحباً بطالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب». (رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد).

ويؤكد رسول الله ﷺ على المسلمين طلب العلم بأسلوب آخر من أساليب الترغيب المحبب الذي اختص به رسول الله ﷺ وهو لا يقول إلا حقاً، فيقول لأبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه: «يا أبا ذر! لأن تغدو، فتعلم آية من

(4) الشيخ الصابوني، **صفوة التفاسير، من أعلام المفسرين**، دار الرشيد، سوريا، ج 20، ص. 581.

كتاب الله خير لك من أن تصلي ألف ركعة»[5]. (رواه ابن ماجة بإسناد حسن)[6].

لذا، فإن من أعظم الواجبات على المسلمين أن يكلفوا جماعة منهم للتفقه في الدين. قال تعالى: ﴿... فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾. (براءة، من الآية 122).

يقول المراغي:

> وفي الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها. والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامي المراتب ما لا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع واجباً عينياً على كل شخص[7].

وإذا كان نشر العلم من أهم الفروض الإسلامية، فإن من كتم علماً أوجب الله سبحانه وتعالى بيانه للناس فإنه يستحق الطرد من رحمة الله ويلجم يوم القيامة بلجام من نار. ففي الأثر: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «من علم علماً فكتمه: ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار». (رواه أبو داود والترمذي وغيرهما). .

أرأيت إلى هذه الدعوة الصريحة الملحة لإزالة «الأمية» من المسلمين بواسطة المتعلمين حيال إخوانهم في الدين، فما تجد ديناً دعا إلى العلم والتعلم بكل الأساليب كما دعا الإسلام أبناءه ومريديه؛ ذلك لأن العلم هو سبيل الخير والرشاد والسعادة في الدنيا والآخرة...[8].

---

(5) أحمد عبد الرحيم السايح، «دعوة الإسلام إلى العلم»، مجلة **المنهل**، العدد 453، شعبان 1407 هـ، ص ص. 18 - 19 بتصرف.

(6) لمزيد من التفصيل، راجع: لطفي نصر، «كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟» ، مجلة **الهداية** البحريتيّة، العدد 113، رجب 1407 هـ، ص ص. 38 - 41.

(7) **تفسير المراغي**، ج 11، ص. 48.

(8) لطفي نصر، «كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ »، مجلة **الهداية**، العدد 113، رجب 1407 هـ، ص. 41 وما بعدها.

ممّا أفاد الإسلام به العلم

لم يكن الإسلام ديناً بالمعنى التقليدي للدين، وإنما هو نظام جديد لا يكتفي بمعالجة القضايا التي عالجتها الأديان من قبله من تنظيم العلاقة بين الفرد وربه فحسب أو تنظيم العلاقة بين الإنسان وأخيه في داخل مجموعة صغيرة، وإنما نراه يلجأ إلى العقل ليحرك به الوعي الذاتي للفرد ويدفع به إلى الاستقلال في الرأي[9]؛ لذا نجد أن الإسلام قد سلك في دعوته إلى الإيمان با لله وصفاته مسلكاً يثير العقل، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر.

قال تعالى: ﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق﴾. (الطارق: 5).

وقال: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق ا لله من شيء﴾. (الأعراف من الآية 185).

وقال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾. (يس: 40).

وقال: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾. (آل عمران: 190).

هذا الضرب من الآيات الكريمة فيه بعث العقل على النظر في الكون؛ وقد كان لذلك أثره في نمو الحياة العقلية[10]؛ حيث إن مجال استعمال العقل في الإسلام فسيح وعميق عمق الآيات التي خلقها ا لله في الأرض وفي السماء ودعا الإنسان إلى التفكير فيها! [11].

(9) أحمد الدمرداش، «مسيرة الفكر العلمي العربي عبر التاريخ»، مجلة **المنهل**، العدد، 450، جمادى الأولى 1407 هـ (الحلقة الأولى)، ص ص. 123 ـ 124. بتصرف.

(10) عبد الرحمن البهلول، «الإسلام دين العلم والمعرفة»، مجلة **منبر الإسلام** القاهرية، العدد 27، السنة 45، رجب 1407 هـ، ص ص. 72 ـ 73. بتصرف.

(11) أحمد صبحي، **تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية**، ص. 8. بتصرف يسير.

مواكبة التعليم للدعوة الإسلامية

ولقد بدأت الحركة التعليمية مع بداية الدعوة الإسلامية بصورة متواضعة تتفق وبداية الدعوة في مكة المكرمة، حيث كان الرسول ﷺ يجتمع بأصحابه والمؤمنين بدعوته في دار الأرقم بن أبي الأرقم أو في بيته ليعلمهم ويرشدهم ويدعم إيمانهم بالله وبمستقبل الدعوة. وحينما انتقل الرسول ﷺ إلى مهاجره الشريف في المدينة المنورة، وأخذت دعوته ﷺ في الذيوع والانتشار، شهد مسجد قباء، ثم المسجد النبوي الشريف ـ بعد أن بناه ﷺ؛ كما شهدت مرابع هذا البلد الطيب دوحة العلم والمعرفة وهي تنمو بسرعة، فتمتد أغصانها الخضراء الظليلة في كل اتجاه وهي محملة بأشهى الثمار.

ولحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى بعد أن ضرب أروع الأمثال وأنبل الأهداف بكلماته الحية، وأعماله الخالدة لكل الأجيال القادمة.

وتوالت الأيام، وتتابعت السنون ومراكز الثقافة والمعرفة في المجتمعات الإسلامية تتعدد منابعها وتتنوع روافدها. فانتشرت حلقات التدريس في المساجد والجوامع وفي منازل الأئمة والعلماء ودورهم، وكان المسجد النبوي أول جامعة إسلامية يلتقي المئات والألوف من الطلاب فيها حول حلقات التدريس التي يتصدر كل حلقة منها أحد كبار العلماء الذين عرفوا باطلاعهم الواسع وثقافتهم العميقة وقدرتهم على اجتذاب المتعلمين والتأثير فيهم. وهي الطريقة التي كانت متبعة في كافة أنحاء العالم الإسلامي إلى عهد قريب. وقد ساعدت هذه الحلقات مع امتداد الأيام سواء ما كان منها في المساجد أو في دور العلماء، ساعدت الكثيرين من الأميين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وأرباب المهن والصناعات على أن يصبحوا مع مرور الزمن على درجة كبيرة من العلم والمعرفة. ولقد أصبح هؤلاء العصاميون من طلبة العلم الذين كانوا بالرغم من أميتهم وكفاحهم يملأون المجالس التي يحضرونها علماً وأدباً وثقافة واسعة ومتعددة الجوانب بطريقة تدعو إلى الإعجاب والإكبار! [12]

---

(12) عبد الرحمن البهلول، «الإسلام دين العلم والمعرفة»، مجلة **منبر الإسلام**، عدد رجب 1407 هـ، ص. 75.

مسيرة العلم عند المسلمين عبر التاريخ

لقد ظلت العناية بالعلم والعلماء هكذا منذ فجر الدعوة الإسلامية، حتى كان عصر الدولة الأموية. فقد كان خلفاء هذه الدولة يعدون أنفسهم حماة للعلم ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزاً تشع منه الثقافة والعرفان... بدأت بعصر معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول ثم خالد بن يزيد بن معاوية المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب، وازدهرت في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك.

ونشطت حركة الترجمة نشاطاً واسعاً في عصر الرشيد والمأمون، وراسل المأمون ملك الروم وأرسل إليه جماعة من العلماء للحصول على الكتب النادرة من علوم الأوائل. واجتمعت في عاصمة الخلافة العباسية أهم كتب الفلاسفة والعلماء من الأغارقة في مختلف الفروع من طب ورياضيات وفلكيات... وطائفة من الكتب العلمية والحكمية الفارسية والهندية والسريانية... فتسنى لطلاب المعرفة والعلم في العالم العربي أن يهضموا في سنوات قليلة ما أنفق اليونان وسواهم القرون في إنشائه...

وقد كانت الكتب تهدى إلى الخلفاء على سبيل الاسترضاء. ولكن هارون الرشيد لما فتح عمورية وأنقرة، حمل معه إلى بغداد كل ما وجد فيها من المخطوطات واقتدى به ابنه المأمون.

وكان العلماء - آنئذ ـ يلحُّون في طلب المخطوطات بلا هوادة. وقد حدثنا حنين بن إسحاق عن مخطوط عرف باسم "**في البرهان**" بقوله: «إنني بحثت عنه بحثاً دقيقاً وجبت في طلبه أرجاء العراق وفلسطين ومصر... إلى أن وصلت إلى الإسكندرية، لكني لم أظفر إلا بما يقرب من نصفه في دمشق».

وفي غضون حكم المأمون (813 - 833 م)، وصلت الجهود الثقافية الجديدة قمتها. فلقد كان المأمون من مفاخر الدولة العباسية علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً. ولقد وجه عنايته للعلم وأكرم العلماء وأعلى مجالسهم، وانصرفت همته أيما انصراف إلى نقل العلوم والصناعات من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، حيث

عد ذلك من آكد أعماله وأنبل أغراضه، رغبة في رفع شأن أمته وإعزاز جانبها. كما أنشأ الخليفة المأمون في بغداد سنة 830 هـ معهداً رسمياً للترجمة مجهزاً بمكتبة أطلق عليه اسم «بيت الحكمة». فكان هذا المعهد ـ من وجوه كثيرة ـ أعظم المعاهد الثقافية التي نشأت بعد الفتح الإسكندري والتي أسست في القرن الثالث قبل الميلاد[13].

وفي عهد المأمون نبغ علماء كثيرون وحكماء وبلغاء وكتاب، ممن كانوا فخر الزمان وحلية الدهر، وعلى كتبهم ومؤلفاتهم ـ في مختلف العلوم والفنون ـ شيد الأوربيون حضارتهم الماثلة أمامنا الآن...[14].

وفي حدود سنة 856 م جدد المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد.

وقد استفادت مجالس العلم من التطور العلمي والترجمة اللذين كانا طابع ذلك العصر. ولما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد، انتقل مركز الثقل إلى الممالك والدويلات الشبيهة بالمستقلة. فالديلم كانت لهم مجالس علم، ثم السلاجقة، ثم الغزنويون والسامانيون.

ومن هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات أبي الفضل جعفر في عشرينيّات القرن الرابع الهجري، ومجلس أبي عبد الله الحسين بن سعدان في سبعينيات القرن نفسه. وكان مجلسه حافلاً بجلّة العلماء والأدباء، وكان يباهي بمجلسه بأمثال أبي حيان وابن مسكويه وأبي الوفاء، ثم مجلس السلاجقة وكان يتصدره الوزير الطغراني العالم الشاعر، ومجلس رابع كان يزدان بأمثال البيروني والفردوسي.

وقد بدأت هذه «الصالونات» أو الجمعيات العلمية في القصور المصرية منذ ظهرت الدولة الطولونية. وكانت دار الحكمة قد أنشئت بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله عام 395 هـ على غرار بيت الحكمة في بغداد. وقد حملت إليه الكتب من

---

(13) الدمرداش، «مسيرة الفكر العلمي»، مجلة **المنهل**، عدد رجب 1407 هـ (الحلقة الثالثة)، ص ص. 138 ـ 139. بتصرف.

(14) عبد الرحمن البهلول، «الإسلام دين العلم والمعرفة»، مجلة **منبر الإسلام**، عدد رجب 1407 هـ، ص. 75. بتصرف.

خزائن القصور وحمل إليها من خزائن الحاكم من الكتب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد الملوك قط، وأجريت الأرزاق على من فيها من العلماء والفقهاء والأطباء!

ومن أشهر العلماء في العصر الفاطمي الطبيب ابن بطلان وعالم البصريات ابن الهيثم: استدعى الحاكم بأمر الله الأول من سوريا، والآخر من العراق.

وفي تاريخ العلم عند المسلمين ستة يوضعون على القمة في قيادة الحركة العلمية وريادتها هم: المأمون، ونظام الملك، ونور الدين زنكي، والحاكم بأمر الله، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان أولغ بيك في سمرقند.

ارتبطت هذه الأسماء ارتباطاً وثيقاً. فالأول أنشأ بيت الحكمة، والثاني أسس المدارس النظامية، والثالث كان راعياً للعلوم في سوريا، والرابع أنشأ دار الحكمة في القاهرة وجلب العلماء والمخطوطات لها من الأرجاء كافة وأنشأ مرصد المقطم بإشراف ابن يونس الفلكي، والخامس حمى التراث العلمي من غوغاء التتار، والسادس هو مؤسس النهضة العلمية في الدولة التيمورية ونبغ في عصره جمشيد غياث الدين الكاشي وقاضي زادة رمى وشرع في تأسيس مرصد المراغة.

مسارات العلم في الأندلس

وفي الأندلس أصبحت قرطبة في ظل عبد الرحمن الثاني (821 - 852 م) مركزاً هاماً للرخاء الاقتصادي والنشاط الفكري جميعاً وتبوأت مقاماً عالمياً في عهد الخليفة الأول عبد الرحمن الثالث (912 - 961 م) حامي العلوم والآداب، وبفضل تشجيع مطرد النمو أيضاً تزايدت هذه النهضة في حكم ابنه إلى جميع أصقاع العالم الإسلامي لابتياع الكتب واستنساخها، ووفق في جمع مكتبة غاية في الثراء تقدر محتوياتها بأربعمائة ألف كتاب، كما كانت فهارس كتبها تملأ أربعة وأربعين جزءاً. وكان يساعد الخليفة في هذا النشاط العلمي وزيره محمد بن أبي عامر المتوفى عام 1002 م، وأخيراً كان حكم هشام (976 م - 1009 م) الذي ازدهرت العلوم على يديه...[15].

---

(15) الدمرداش، «مسيرة الفكر العلمي»، مجلة **المنهل**، العدد 452، رجب 1407 هـ (الحلقة الثالثة)، ص ص. 139 - 141. بتصرف.

وحمل الأزهر الشعلة

وليت شعري أن يظل الحال على ما هو عليه. فلقد انقسم المسلمون على أنفسهم في الأندلس، ومن قبل دهم التتار بغداد ـ حاضرة العلوم ـ، بل وأحرقوا ما فيها من كتب وألقوها في دجلة حتى غدت جسراً يعبرون عليه؛ كما قتلوا العلماء، وعطلوا المدارس، وأصبح المسلمون محكومين بقوم من غير جنسهم، كل هذا كوّن غيوماً في سماء المعرفة عند المسلمين. ولكن الله الذي تكفل بحفظ دينه والإبقاء على قرآنه هيأ الأزهر ليكون المكان الذي يشع منه نور العلم والمعرفة. فلقد لجأ العلماء الفارون إليه من وجه التتار؛ كما لجأ إليه العلماء المهاجرون من الأندلس، كلهم وجد فيه محطاً لرحاله، ومكاناً صالحاً لأداء رسالته.

وقد حبب الله إلى سلاطين المماليك أن يميلوا إلى العلم، وأن يقربوا العلماء ويغدقوا عليهم، فتخرج في الأزهر علماء أجلاء لا نزال ننعم بما خلفوه من دراسات واسعة شاملة في شتى ميادين المعرفة، كالسيوطي وابن منظور وابن هشام والسبكي وابن حجر...

وقد بقي الأزهر ـ كذلك ـ منارة هادية حين أطبقت الظلمات في العصر العثماني. ولعل شوقي قصد إلى هذه الفترة من تاريخ الأزهر حين قال فيه:

ظلمات لا ترى في جنحها ... غير هذا الأزهر السمح شهابا
قسماً لولاه لم يبق بها ... رجل يقرأ أو يدري الكتابا
حفظ الدين ملياً ومضى ... ينقذ الدنيا فلم يملك ذهابا..! (16)

وثمة أسباب أخرى لضعف المسلمين بعد حياة الازدهار العلمي الذي لم تعرف الدنيا له مثيلاً في وقتها؛ ونحن نرى أن من أعظم هذه الأسباب: أن المسلمين لم يعد يستفيدون من مواقفهم، ولم يعتبروا من ماضيهم، فالأمور عندهم أصبحت وقتية تنتهي بانتهاء وقوعها دون عبرة واستفادة!

---

(16) علي محمد حسن العماري، **التاريخ الأدبي للعصرين العثماني والحديث**، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، 1399 هـ، ص ص. 28 ـ 31. فراجعه تجد تفصيلاً.

ولو قبلنا صفحات ماضينا التليد، لوجدنا أن المسلمين الأوائل كانوا يطبقون مبدأ الاستفادة خير تطبيق.

ففي غزوة حنين ـ مثلاً ـ على الرغم من كثرة الغنائم التي تركها العدو في انسحابه، فإن المسلمين لم ينشغلوا بالاستيلاء على غنائم العدو، بل أوغلوا في تعقبه، مستفيدين في ذلك من درس غزوة أحد.

لذلك وجدناهم في سنين قلائل يفتحون العالم وينشرون الإسلام على ربوعه، ويقيمون حضارة فريدة في وقتها دانت لها جميع الحضارات.

أما حين ترك المسلمون مبدأ الاستفادة، فقد ماتت فيهم روح الطموح، وأسلموا راية حضارتهم إلى أعدائهم.

فالمسلمون في أثناء الحروب الصليبية كانوا يتمتعون بحضارة منقطعة النظير ومتكاملة الجوانب، مزجت تراث اليونان والإغريق والمصريين بأعظم تقدم وابتكار أضافه الإسلام إلى هذه الحضارة ـ وقت أن كانت أوربا تحيا في ظلام الجهل، وتعيش في محيط التخلف. إلا أن المسلمين حين لاقوا الصليبيين في حروبهم وانتصروا عليهم، راضوا الخمول والكسل، وفترت همتهم وعزائمهم، ولم يستفيدوا من موقفهم مع أعدائهم.

أما في الغرب، فقد كان الأثر عكسياً. فقد عرف الأوربيون كيف يعبرون من الهزيمة إلى النصر، ومن الجهل إلى العلم، ومن التأخر إلى التقدم، ومن حياة الدَّعة والخمول والكسل إلى حياة الجد والعمل، ومن حالة اليأس إلى حالة الطموح، فالتهموا الحضارة الإسلامية كالجائع المحروم من الطعام عندما يقدم إليه الطعام الشهي لا يبقي منه شيئاً!

بهذا أقاموا حضارة من لا شيء! ذلك لأنهم عرفوا الاستفادة ولو في أحلك الظروف! ! [17]

---

(17) محمد السيد علي بلاسي، «لابد أن نستفيد!» ، مجلة **البريد الإسلامي** (وهي مجلة فصلية تصدر عن دار تبليغ الإسلام بمصر)، العدد 7 ـ 9، سنة 1404 هـ، ص ص. 13 ـ 14.

الأصل والنقل

الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات: فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية. ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمة التي تميزها بين سمات الحضارة.

إلا أن البدعة الحديثة التي نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوربيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة الإسلامية بالنقل دون الإبداع، وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية ـ ولو كانت شرقية ـ بملكة الإبداع والتفكير الحر، ولا سيما في المباحث النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة؛ لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهي إلى تمييز العنصر الأوربي في أصوله الأولى، وهي الدعوى التي يسوغ بها سيادته على أمم العالمين!

وقال منهم قائلون: إن حضارة العرب التي ظهرت بعد الإسلام كانت حضارة منقولة على أيدي الأعاجم الذين دخلوا الإسلام! (18)

وأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نسأل: أين هي الحضارة التي أبدعت ولم تنقل؟ وأين هي الحضارة التي يقال عن جميع علمائها إنهم من عنصر محض خالص ينتمون إليه ولا يمتزج بالعناصر الأخرى؟

والحقيقة التي لا يشوبها شك أن كل حضارة مبدعة ناقلة، والحضارة الإسلامية ليست بدعاً في هذا المجال، وإنما أطلعت على فكر السابقين من يونان وإغريق وهنود وفرس وغيرهم من الأمم؛ إلا أن هذه الحضارة تميزت بهضم هذا التراث وأضافت إليه الكثير. فما من أمة تستطيع استيعاب التراث العلمي لغيرها من الأمم التي تفوقها حضارة، إلا إذا كانت قد وصلت إلى هذا المستوى من التراث. وقد كانت الأمة الإسلامية جديرة بذلك في وقت قصير. ذلك لأن مظلة

---

(18) عباس محمود العقاد، **أثر العرب في الحضارة الأوربية**، ط 2، دار المعارف، 1963، ص ص. 28 ـ 29. بتصرف

العلوم الفقهية وعلوم القـرآن والسـنة قـد أمدتهـا بإشـعاعات أسـرعت في تكويـن الفيتامينات للفكر العلمي الجديد [19].

أما عن الفرية القائلـة بـأن الحضـارة الإسـلامية ظهـرت علـى أيـدي غـير العرب، فنقول مجيبين عليهم: إن الإسلام لا يفرق بين جنس وآخر، ما دام الجميع قد دخل تحت مظلته، والحضارة الإسلامية قد اشـترك في تكوينهـا المسـلمون مـن جميع الأجناس، وكان للأمم الأعجمية ـ حقاً ــ قسـط كبـير في بنـاء صرحهـا في مختلف العلوم والدراسات[20]. إلا أنه ينبغي أن يعلـم أن هـذه الأمـم الأعجميـة لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الإسلام فيها، ولم تكن لها في إبان مجدها القديم فضيلة على العنصر العربي في الدراسات النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يـراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة...

ومن الثابت أنه ليس كل ما انتقل على أيـدي الحضـارة الإسـلامية عربيـاً محضاً في الأصول والفروع، ولكن حسـبها أنـه لم ينقطـع علـى أيديهـا. فـاتصلت بفضلهـا وشـائجه بالتـاريخ القديـم والحديـث، فحفظـت تـراث الإنسـانية كلهـا وزادت عليه ونقلته إلى من تلاها. وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خير ما يطلب من الحضارات[21]. كما أن ابتكارات الحضارة الإسلامية في شتى مجـالات المعرفة ـ مما لا يتطرق الشك إليه ـ دليل على أن حضارة الإسلام مبدعـة وليسـت ناقلة فحسب، كما يزعم المغرضون الحاقدون!

(19) الدمرداش، «مسيرة الفكر العلمي»، مجلة **المنهل**، عدد رجب 1407 هـ (الحلقة الثالثة)، ص. 138.

(20) محمد السيد علي بلاسي، «دولة العلماء إلى أين؟» ، جريدة **أخبـار العـالم الإسـلامي**، العـدد 956، ص. 12. فراجعه تجد تفصيلاً.

(21) العقاد، **أثر العرب في الحضارة الأوربية**، ط 2، دار المعارف، 1963، ص ص. 30 ـ 33. بتصرف.

ومضات من ابتكارات المسلمين[22]

أولاً: في الرياضيات

أ ـ الجبر: اخترعه العرب اختراعاً، ونقلته أوربا باسمه. والخوارزمي هو أول من ألف فيه بطريقة منظمة، واعتمدت أوربا على كتابه "**الجبر والمقابلة**".

ب ـ الحساب: ابتكر العرب النظام العشري والصفر، ونقلته أوربا باسمه العربي، ووضع العرب مؤلفات كثيرة في الحساب والنسب العددية والهندسية والتناسب واستخراج المجهول والجذور.

ج ـ المثلثات والفلك: وهم واضعو علم حساب المثلثات، وسهلوا حل كثير من المسائل، وربطوا بين الفلك والرياضة، ونبغ في ذلك الطوسي والبيروني والخازن...

د ـ الطبيعة والميكانيكا: عالج ابن سينا سرعة الضوء والصوت. ويعتبر ابن الهيثم في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور، وهو من أئمة علم الضوء...

ثانياً: الكيمياء

بطلها جابر بن حيان. فقد عرف عمليات التبخير والتقطير والترشيح والتكليس والتبلور، وحضّر كثيراً من المواد الكيميائية مثل نترات الفضة وكبريتور الزئبق، وقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية. واشتهر الرازي بالطب والكيمياء. وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى، وكان لمعرفته بالكيمياء أثر في طبه، وقد حضر الأحماض كحامض الكبريتيك والكحول...

ثالثاً: الطب

لقد عرف العرب المستشفيات، وعنوا بالطب عناية فائقة، ويحدثنا التاريخ: أنه قد دعي إلى الامتحان في بغداد نحو تسعمائة طبيب على عهد المقتدر

(22) لمزيد من التفصيل، راجع: **المرجع نفسه**، ص ص. 34 ـ 129؛ وصبحي منصور، **تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية**، ص ص. 88 ـ 105.

با لله، وهم غير الأساتذة الثقاة الذين تجاوزوا مرتبة الامتحان، وهي عناية بالطب والصحة لم تشهدها قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم. هذا في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية في أوربا تحرم صناعة الطب، لأن المرض - في زعمهم - عقاب من ا لله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه، وظل الطب محجوراً عليه بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعد الإيمان، عند استهلال القرن الثاني عشر للميلاد، وهو إبان الحضارة الأندلسية...

وكانت مؤلفات العرب في الطب هي عمدة المؤلفات التي اعتمدت عليها أوربا وما زالت في مجال الطب كمؤلفات ابن سينا والرازي وابن الهيثم وغيرهم...

فهذا قبس من ابتكارات المسلمين في بعض العلوم، وهناك ابتكارات وابتكارات للمسلمين - في شتى مجالات العلوم - لا يكفي لحصرها مجلدات ومجلدات، تلك التي بنت عليها أوربا حاضرها بعد ثباتها العميق!

ولعل هذا كله يلغي تلك الفرية القائلة بأن حضارة الإسلام كانت حضارة ناقلة وليست مبدعة.

ولا يسعنا أخيراً إلا أن نسوق قول المستشرقة الألمانية المنصفة زيغريد هونكه:

> وإننا لندين - والتاريخ شاهد على ذلك - في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوماً من الأيام قاتماً كالحاً باهتاً، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيبة بالعبير العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة...[23].

(23) زيغريد هونكه، **شمس الدنيا تسطع على أوربا**، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، ط 6، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401 هـ، ص. 20.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المراجع

أحمد صبحي منصور، **تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية**، كتاب مقرر على طلاب السنة النهائية لكلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر، دون ذكر الطباعة والتاريخ.

هونكه، زيغريد، **شمس الدنيا تسطع على أوربا**، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، ط 6، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401 هـ.

المراغي، **تفسير المراغي**، الجزء الحادي عشر.

العماري، علي محمد حسن، **التاريخ الأدبي للعصرين العثماني والحديث**، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، 1399 هـ.

العقاد، عباس محمود، **أثر العرب في الحضارة الأوربية**، ط 2، دار المعارف، 1963.

الصابوني، محمد علي، **صفوة التفاسير**، دار الرشيد، سوريا.

ثالثاً: الدوريات

أخبار العالم الإسلامي، جريدة أسبوعية تصدر عن إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

البريد الإسلامي، مجلة فصلية تصدر عن دار تبليغ الإسلام بمصر.

منبر الإسلام، مجلة شهرية تصدرها وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

المنهل، المجلة السعودية الأم، تصدر شهرياً عن دار المنهل للصحافة والنشر بجدة (أعداد متفرقة).

الهداية، مجلة شهرية تصدر عن وزارة العدل والشؤون الإسلامية بدولة البحرين.



مدد الجيوش في العصر النبوي والخلافة الراشدة

(القسم الثاني: تعزيز القوات الإسلامية خلال حركة امتداد الفتوح)

الدكتور سعد بن عبد العزيز القصيبي
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض

أولاً: جبهة المشرق (العراق وفارس)

وضح للخلافة الإسلامية من خلال حروب الردة مدى خطورة دور الفرس في تأليب المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية ضد المسلمين، وفكر المسلمون جدياً في إبعاد هذا الخطر، ولا سيما أن المثنى بن حارثة الشيباني طلب من الخليفة أن يؤمره على قومه وعلى الذين اعتنقوا الإسلام في تلك الجهات، وسبق للمثنى أن ساهم في مطاردة فلول المرتدين في المناطق الشمالية المتاخمة للبحرين، وأن وصل بقواته أثناء تلك المطاردة إلى القريب من مصب نهر دجلة والفرات[1].

وجد اقتراح المثنى من أبي بكر الصديق اهتماماً كبيراً، فوافق على ذلك. فأخذ يشن الغارات على عمال فارس. وطلب المثنى من أبي بكر الإمدادات والدعم، فاستجاب لطلبه. وتشير الروايات التاريخية إلى أن المثنى ألح في الإسراع بتلبية مطلبه، فأرسل أخاه مسعود بن حارثة يسأله المدد، ويقول: «إن أمددتني وسمعت بذلك العرب، أسرعوا إليّ وأذل الله المشركين، مع أني أخبرك يا خليفة رسول

---

(1) انظر محمود شيث خطاب، **قادة فتح العراق والجزيرة**، ص. 32.

ا الله ﷺ أن الأعاجم تخافنا وتتّقينا، فقال عمر يا خليفة رسول ا اللهﷺ ابعث خالد بن الوليد مدداً للمثنى بن حارثة»[2].

إذن فمسيرة الفتوح ابتدأت بطلب التعزيزات والإمدادات. ذلك بأنه إذا لم تكن فرق الجيش كافية، فإنها تتلقى الإمدادات رأساً من المدينة أو من الجهات الأخرى. ونجد حركة الإمدادات لم تنقطع خلال الفتوح[3].

واستجابة لمطلب المثنى كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه إلى العراق لنصرة المثنى بن حارثة وأسند إليه قيادة الجيش وأمره أن يبدأ بفرج الهند وهي الأبلة[4]؛ كما أمر عياض بن غنم أن يغزوها من الشمال وأن يبدأ بالمصيخ، وأمرهما أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام وألا يستعينا بمرتد ولا يستكرها أحداً، وأمرهما أن يتوجها إلى الحيرة، ومن وصلها فهو الأمير على صاحبه[5].

ودعماً لقوات المسلمين أمدَّ الخليفة أبو بكر الصديق خالد بن الوليد بالقعقاع[6] بن عمرو التميمي؛ كما أمد جيش عياض بن غنم بعبد يغوث[7] الحميري[8].

وتأتي تلك التعزيزات نتيجة أنه لما قرأ خالد بن الوليد رسالة أبي بكر على جده بأن لا يصحب معه إلى العراق كارهاً للقتال، فوجئ خالد بالكثير منهم يعودون، فكتب إلى أبي بكر يخبره بما حدث ويطلب منه أن يمده بجنود

---

(2) انظر ابن عبد البر القرطبي، **الإستيعاب في معرفة الأصحاب** (بهامش كتاب "**الاصابة**" لابن حجر، ج 3، ص. 497).

(3) إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع في عصر الراشدين**، ص. 270.

(4) الأبلة: على الخليج العربي قرب البصرة، ويسميها العرب فريج بلاد الهند، ميناء هام على شط العرب.

(5) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج 3، ص. 347؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج 2، ص. 385؛ ابن حبيش، **الغزوات الضامنة**، ج 2، ص. 11.

(6) القعقاع بن عمرو التميمي: أحد فرسان العرب، صحابي شهد الفتوح والوقائع. قال أبو بكر: «صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل». (انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج 3، ص. 230).

(7) عبد يغوث الحميري: عند الطبري عبد بن عوف الحميري، **تاريخ الرسل**، (ج 3، ص. 347).

(8) **الطبري**، ج 3، ص. 347.

آخرين. عند ذلك أرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد القعقاع، وقال عنه: «لا يهزم جيش فيه مثل هذا»[9]؛ كما قال فيه: «لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل» [10].

زحف خالد بجيوشه لنجدة المثنى، ووضع في خطته تحقيق الأهداف التي كلف بها من قبل الخليفة، وهي أن يدخل الأبله ثم يواصل سيره إلى الحيرة، فبدأ بالأبله وتشير الروايات التاريخية أن خالد التقى في الأبلة بجيوش فارسية كثيرة، وابتدأت بمبارزة بين خالد وهرمز. ويأتي دور صاحب المدد القعقاع حيث تشير الروايات إلى أن الفرس أرادوا الغدر بخالد عند المبارزة. فلما رأى ذلك القعقاع، حمل بجيش المسلمين، فأزال الفرس عن خالد وحمى القتال وانهزم المشركون. وهذه أول معركة بين المسلمين والفرس[11].

واصل خالد سيره صوب المناطق الأخرى ابتداءً بكاظمة، ثم الثني، ثم المذار، ثم أليس، وأخيراً الحيرة. وتشير بعض الروايات إلى أن خالد بن الوليد عندما وصل الحيرة ورأى فيها قوة كبيرة من الفرس، استمد أبا بكر فأمده بالقعقاع بن عمرو[12].

كما أن أبا بكر أمد خالداً بعدد من القوات[13]. وكانت تعليمات الخليفة أبي بكر لخالد حين خروجه لقتال الفرس أن استنفر من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، «ولا يغزونَّ معكم أحد أرتد حتى أرى رأيي فيه»[14].

وقاتل خالد أهل الحيرة فانتصر عليهم، وأقام بها قليلاً ينتظر عياضاً حيث أبطأ عليه. وعلى العموم، فمهمة خالد في العراق قد تحققت ووصل إلى الهدف وهو الحيرة.

أما الجيش الثاني بقيادة عياض، فإنه قد تعثر في طريقه في دومة الجندل. ولذلك كتب عياض بن غنم إلى خالد يطلب النجدة، حيث يحاصر في دومة

---

(9) الطبري، ج 3، ص. 346؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج 2، ص. 385.

(10) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج 3، ص. 230.

(11) انظر: الطبري، ج 3، ص. 349.

(12) انظر: ابن حجر، **الإصابة**، ج 3، ص. 230.

(13) ابن الأثير، ج 2، ص. 385.

(14) الطبري، ج 3، ص. 347؛ ابن حبيش، **مصدر سابق**، ج 2، ص. 11.

الجندل، فكتب إليه خالد: «من خالد إلى عياض؛ إياك أريد». وتوجه بعد ذلك إلى دومة الجندل، وتمكن في النهاية من نصرة عياض، واقتحم حصنها، وفتح الدومة. فتمكن عياض من القضاء عليهم بمعونة خالد، وعادوا إلى الحيرة[15].

بعد عودة خالد بن الوليد إلى الحيرة، أتاه كتاب من الخليفة يأمره فيه بالتوجه فوراً مدداً لجيوش المسلمين في الشام لنجدتهم، فاستخلف على الجيش المثنى بن حارثة الشيباني وتوجه خالد بأقصى سرعة من أقصر طريق إلى الشام[16].

وسيأتي تفصيل هذا المدد عند الحديث عن جبهة الشام.

ونواصل مسير تعزيزات الجيوش الإسلامية في جبهة العراق وفارس بعد رحيل خالد إلى الشام ووفاة الخليفة أبي بكر، حيث تشير الروايات التاريخية إلى أنه بعد رحيل خالد إلى الشام وجدها الفرس فرصة فأرسلوا جيشاً. ولكن المثنى تمكن من هزمهم. وعلى الرغم من هذا النصر الذي أحرزه، فإنه كان يدرك أنه من الضروري له أن يطلب مدداً من أبي بكر، خاصة بعد أن تناقص عدد جيش المسلمين في العراق. فبعث المثنى إلى أبي بكر يطلب منه المدد، وانسحب المثنى إلى تخوم أرض العراق منتظراً وصول المدد، وطال انتظاره له. فاضطر المثنى إلى أن يستخلف على جيشه في العراق بشير بن الخصاصية، وتوجه للمدينة لاستمداد أبي بكر بقوة جديدة، فوجد أبا بكر رضي الله عنه مريضاً على فراش الموت. ومع ذلك، أوصى عمر رضي الله عنه بانتداب الناس مع المثنى[17]. وتوفي أبو بكر بعد ذلك.

تولى الخلافة بعد وفاة أبي بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وتنفيذاً لوصية أبي بكر واستجابته لمطلب المثنى، كان أول شيء أحدثه عمر بعد وفاة أبي بكر من الليل أن نادى: الصلاة جامعة! ثم ندبهم، فتفرقوا على غير إجابة من أحد، ثم ندبهم في اليوم الرابع. فأجاب أبو عبيد مسعود الثقفي أول الناس وتتابع

---

(15) الطبري، ج 3، ص. 377؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج 2، ص. 395؛ ابن حبيش، ج 2، ص. 35 وما بعدها.

(16) انظر: الطبري، ج 3، ص. 393، 416؛ ابن الأثير، ج 2، ص. 286.

(17) انظر: الطبري، ج 3، ص. 413 وما بعدها؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج 2، ص. 416.

الناس[18]. وفي رواية: تتابع الناس على بيعة عمر رضي الله عنه حتى إذا كان اليوم الرابع، نهض أبو عبيد، فكان أول منتدب لحرب الفرس[19].

أخذ عمر رضي الله عنه يستنفر العرب كافة لهذا الأمر حتى الذين سبق لهم أن ارتدوا عن الإسلام ثم عادوا إليه مرة أخرى وحسن إسلامهم. فبدأ الناس يلبون أمره وكان أول منتدب بعد أبي عبيد سعد بن عبيد الأنصاري وسليط بن قيس فأمَّر عليهم عمر أسبقهم انتدابا أبا عبيد بن مسعود، ثم أوصاه وخرج بالجيش ليلحق بالمثنى الذي أمره عمر بأن يسبق الجيش وينتظر وصول المدد، والتقوا مع الفرس في معركة الجسر. ونظراً لضخامة جيش الفرس والفيلة التي أخافت خيل المسلمين وانقطاع الجسر، وفي النهاية على الرغم من شجاعة المسلمين واستبسالهم استشهد قائد المسلمين أبو عبيد، وانسحب المثنى بباقي الجيش على الرغم من جراحه، لكنه أحس وأدرك أنه في موقف حرج وأنه في أشد الحاجة للمدد السريع وأبلغ الخليفة عمر بما آل إليه أمر المسلمين وقائدهم، فتألم عمر لذلك، ولكنه قال لرسول المثنى إليه: ارجع إلى أصحابك، فامرهم أن يقيموا بمكانهم الذي هم فيه فإن المدد وارد عليهم سريعاً[20].

استجابة لهذا المطلب، أسرع الخليفة عمر يمده بمدد من بعض القبائل على رأسها قبائل من بجيلة فيهم جرير بن عبد الله البجلي وقومه، وعصمة بن عبد الله الضبي وقومه؛ كما أمد الخليفة عمر المثنى بغالب بن عبد الله الليثي الذي دعا قومه وقال: «يا عشيرتاه! أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما يرى!» ، فقالوا: «إنا قد أطعناك وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد». فدعا لهم عمر بخير وقاله لهم، وأمَّر على بني كنانة غالب بن عبد الله وسرحه، وأمَّر على الأزد عرفجة بن هرثمة وعامَّتهم من بارق وقدموا جميعاً على المثنى[21].

(18) الطبري، ج 3، ص. 447؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج 2، ص. 432.

(19) الطبري، ج 3، ص. 444.

(20) انظر: الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص. 114.

(21) الطبري، ج 3، ص. 463.

كما يشير الطبري وابن حبيش إلى استجابة عدد من قبائل العرب لنجدة إخوانهم في العراق. فممن خرج منهم هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع إليه من الرباب حتى أتى عمر فأمَّره عليهم وسرحه فقدم على المثنى، وخرج ابن المثنّى الجشمي، جشم بن سعد فأمَّره عمر على بني سعد وقدم على المثنى؛ كما أرسل عمر عبد الله بن ذي السهمين في أناس من خثعم، وربعي بن عامر التميمي من بني حنظلة وفيهم ابنه شبث بن ربعي؛ كما أمد المثنى بريعي بن عامر بن خالد العنود في أناس من بني عمرو؛ وأمد عمر المثنى بقوم من بني ضبة؛ وألحق عمر المثنى بأنس بن هلال النمري في أناس من النمر وابن مردي الفهري التغلبي في أناس من بني تغلب؛ كما قدم قرط بن جماح العبدي من عبد القيس فوجههم عمر رضي الله عنه إلى المثنى[22].

اشتد ساعد المثنى بوصول هذا المدد له ونازل الفرس عند البويب وتحقق لهم النصر، وانهزمت قوة الفرس، وسمع المثنى بعد ذلك بتولي يزدجرد عرش الدولة الفارسية ودعوته بحشد القوات في مواجهة المسلمين، كما أخذ يحرض أهل السواد في الثورة على المسلمين، وسير عدداً من الجيوش للأبلة والحيرة والأنبار. فاضطر المثنى إلى أن يبعث إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطلب مدد إضافي، نظراً لتلك التطورات التي حدثت في العراق[23].

وصلت الأنباء إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأعلن التعبئة العامة وقال: «والله لأخرجن ملوك العجم بملوك العرب»، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي أو شرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، وكتب إلى المثنى يأمره بالانسحاب من أرض العجم والتفرق في المياه حتى يجتمع إليه الإمدادات، وأمره ألا يدع في ربيعة ومضر أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أحضره طوعاً أو كرهاً[24]. كما كتب عمر إلى عماله أن يبعثوا من كانت له نجدة أو فرس أو

---

(22) الطبري، ج 3، ص. 463؛ ابن حبيش، ج 2، ص. 88 وما بعدها.

(23) الطبري، ج 3، ص. 477 وما بعدها؛ الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص. 119.

(24) الطبري، ج 3، ص. 478.

سلاح أو رأي وقال: «لا تدعا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى العجل العجل!»[25].

وتشير الروايات إلى أنه رضي الله عنه خرج إلى الحج ورجع، فجاءته أفواجهم إلى المدينة؛ ومن كان أقرب إلى العراق انضم إلى المثنى؛ وأرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح يأمره بصرف جند خالد بن الوليد إلى العراق، وعزم الخليفة عمر أن يقود بنفسه الجيش فخرج من المدينة ونزل بضرار، واستشار المسلمين في قيادة الجيش بعد ذلك واستقر الرأي على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله. فاجتمع الرأي على تولية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قيادة الجيوش، وسار سعد وانضم إليه جيش المثنى الذي توفي متأثراً بجراحه التي أصيب بها يوم الجسر بعد أن كتب وصيته مع أخيه المعني وسلمها إلى القائد سعد بن أبي وقاص[26].

وكتب سعد إلى عمر يستمده، فأمدهم أهل البصرة بخمسمئة وألف، وفي رواية لابن إسحاق أن المغيرة بن شعبة سار في أربعمئة وقيس بن مكشوح في سبعمئة[27].

وأمد عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص بعد خروجه من المدينة بمن اجتمع إليه. فقد أمده بألفي يماني وألفي نجدي من غطفان وسائر قيس[28]. ونزل سعد القادسية[29] منتظراً الفرس ومنفذاً توجيهات الخليفة عمر الأول فالأول.

وكانت موقعة القادسية من أشد المعارك ضراوة، وتعد من المعارك الحاسمة في التاريخ. حشد لها العجم كامل عتادهم وأكفأ قياداتهم. وكان المسلمون بقيادة الخليفة عمر يترقبون ما تسفر عنه هذه المعركة. وقد التحم القتال بين الطرفين

---

(25) **المصدر نفسه**، ص. 477.

(26) **المصدر نفسه**، ص. 489 وما بعدها؛ وفي رواية البلاذري أن أبا عبيدة أمد سعداً بقيس بن مكشوح المرادي. (ص. 314).

(27) خليفة بن خياط، **الطبقات**، ص. 132؛ البلاذري، **الفتوح**، ص. 314.

(28) الطبري، ج 3، ص. 486؛ كما أمر بعض القبائل التي جاءت لتساند المسلمين مدداً أن تكون بمثابة وقاية مثل قبائل الرباب وبني تميم وبني أسد، وأمرهم أن ينزلوا بين سعد بن أبي وقاص والمثنى بن حارثة. (الطبري، ص. 486).

(29) القادسية: بلدة صغيرة، تقع بالقرب من الكوفة.

نتيجة فشل المفاوضات التي حدثت بينها قبيل المعركة، ودارت الحرب. وقد عانى المسلمون في يومها الأول من فيلة العدو التي تسلحوا بها ضد المسلمين عناء شديداً. وسمي هذا اليوم يوم أرماث[30].

وفي اليوم الثاني من أيام هذه المعركة الخالدة تتجلى صورة من أروع صور المدد والتعزيزات القتالية للجيش الإسلامي، وسمي هذا اليوم بيوث أغواث نتيجة الغوث أو المدد الذي جاء إلى المسلمين.

تشير الروايات إلى أن أهل الشام[31] أمدوا إخوانهم في القادسية. وكان ضمن المدد هاشم بن عتبة بن أبي وقاص أميراً، وفي مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي، فنشط بهما الناس وسمي ذلك اليوم يوم أغواث[32].

وكان هذا المدد القادم من الشام تعداده قرابة ستة آلاف. فكان على رأسهم هاشم بن عتبة وفي مقدمته (كما سبق) القعقاع بن عمرو، وعلى مجنبة قيس بن هبيرة بن يغوث المرادي والهزاز بن عمرو العجلي[33].

وتشير الروايات إلى أن القعقاع انطلق بمقدمة جيش العراق وعدده ألف مقاتل قسمهم القعقاع إلى عشرات وأمرهم أن ينطلقوا، كلما بلغ عشرة منهم مدى البصر لحق بهم عشرة آخرون، وهكذا. فاستبشر المسلمون بهذا المدد، وما أن وصل القعقاع ميدان المعركة حتّى نازل وبارز قواد الفرس وتتابع وصول جند المقدمة عشرة عشرة كما أمرهم القعقاع. فقويت العزيمة. فكلما دخلت فئة، كبر لها المسلمون وهللوا، وأحس العدو أن مدداً جديداً قد وصل إلى المسلمين؛ كما أن القعقاع ابتكر حيلة عسكرية أمام القوات الفارسية. فقد عمد إلى بعض إبل جيش المسلمين فألبسها وجللها بأقمشة مبرقعة وجعل عليها بعض الفرسان ودفع

---

(30) الطبري، **مصدر سابق**، ج 3، ص. 448.

(31) يذكر المؤرخون أن الخليفة عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة في الشام: «إنك على الناس؛ فإن أظفرك الله، فاصرِف أهل العراق، ومن أحب من أمدادكم إذا هم قدموا عليكم...». (الطبري، **مصدر سابق**، ج 3، ص. 448؛ ابن حبيش، **مصدر سابق**، ج 2، ص. 71).

(32) الطبري، ج 3، ص. 542 وما بعدها؛ ابن الأثير، ج 2، ص. 473.

(33) الطبري، ج 3، ص. 543.

بها إلى أرض المعركة فأثارت الفزع في قلوب الفرس وجفلت خيلهم، فحمل عليهم المسلمون[34].

وفي ثالث أيام المعركة، عمد القعقاع إلى حيلة جديدة يشد بها أزر المسلمين ويقوي معنوياتهم ويجدد نشاطهم. فقد أوعز القعقاع لجنده الذين قدموا معه من الشام لينطلقوا إلى المكان الذي أتوا منه ثاني أيام المعركة، أن يقضوا ليلتهم هناك. وما أن يطلع الصبح حتى يعودوا إلى أرض المعركة، وكأنهم مدد جديد وصل من أرض الشام ليساعد جند المسلمين في القادسية وقال لأصحابه: «إذا طلعت الشمس، فأقبلوا مائة مائة؛ كلما توارى عنكم مائة، فليتبعها مائة. فإن جاء هاشم ببقية المدد، فذاك؛ وإلا جددتم للناس رجاء وجدّاً»[35].

كما أمر عاصم بن عمرو أخو القعقاع جنده بمثل ما قام به القعقاع، ووصل بقية المدد مع هاشم وعلم بما فعله القعقاع، فعمد هو أيضاً إلى تقسيم جنده إلى جماعات تضم سبعين رجلاً وأمرهم أن ينطلقوا إلى أرض المعركة، وما أن رآهم جند المسلمين في القادسية حتى ازدادوا استبشاراً وفرحاً، وكان ممن ضمن مدد هاشم قيس بن المكشوح المرادي[36].

وقد قدر الطبري بأن صنيعة القعقاع في اليومين الثاني والثالث من أيام المعركة قد أسهمت في ترجيح كفة المسلمين وساعدتهم على انتصارهم، وقال: «فلولا الذي صنع الله للمسلمين بالذي ألهم القعقاع في اليومين، وأتاح لهم بهاشم، كسر ذلك المسلمين»[37].

ويعلق بعض الباحثين على انتصار المسلمين في القادسية قائلاً: «فقد ساهم القعقاع بالنصيب الأكبر في تلك المعركة ونجح في ما ابتكره من حيل في شد عزيمة المسلمين وتشجيعهم، ودب الذعر والخوف في قلوب جند الفرس؛ كما

(34) **المصدر نفسه.**

(35) **المصدر نفسه**، ص. 551.

(36) **المصدر نفسه**، ص. 551 وما بعدها.

(37) **المصدر نفسه**، ص. 552؛ الميداني، **القعقاع بن عمرو**، ص. 109.

قضى مع شقيقه عاصم على أكثر فيلة الفرس وأعظمها (الفيل الأبيض). وكان عمله هذا من أسباب النصر»[38].

ويتضح من خلال هذا العرض كثرة إمدادات العرب إلى العراق بعد البويب. وحين سار سعد بن وقاص إلى القادسية، طلب منه أن يستنفر القبائل العربية في طريقه إلى العراق؛ كما كتب الخليفة إلى عماله على الكور والقبائل لاستنفار المقاتلين نجدة لإخوانهم أمام القوات الفارسية.

و لم تتأخر الخلافة في إرسال التعزيزات الأخرى. فنجد الخليفة عمر أمد سعد بن وقاص بالأطبه[39] (الأطباء).

وكان الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ شديد الحرص والحذر[40] على جنده في ميادين القتال أن يغتالوا من خلفهم. فلذلك كان يبعث لهم بالأمداد والدعم.

ففي أعقاب القادسية ضمن حوادث سنة 14 هـ، وجه الخليفة عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة وأمره بنزولها بمن معه وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها[41].

ويشير ابن الأثير إلى أن قطبة بن قتادة السدوس يغير بناحية «الخريبة من البصرة» كما كان المثنى يغير بناحية الحيرة. فكتب إلى عمر يعلمه مكانه، وأنه لو كان معه عدد يسير، ظفر بمن كان قبله من العجم فنفاهم عن بلادهم، فكتب إليه عمر يأمره بالمقام والحذر ووجه إليه شريح بن عامر، وقال له: «كن ردءاً للمسلمين»، فأقبل إلى البصرة وترك بها قطبة ومضى إلى الأهواز حتى انتهى إلى دارس (في البصرة) وفيها مسلحة الأعاجم فقتلوه، فبعث عمر عتبة بن غزوان[42].

---

(38) انظر: الميداني، **القعقاع بن عمر**، ص. 116.

(39) الطبري، ج 3، ص. 489.

(40) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج 4، ص. 72، 172، 183.

(41) الطبري، ج 3، ص. 590.

(42) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص. 486.

كما كتب الخليفة إلى العلاء بن الحضرمي أن يمده بعرفجة بن هرثمة، وقال عنه: «إنه ذو مجاهدة ومكايدة للعدو»، وأوصاه قائلاً: «فإذا قدم عليك، فاستشره وقربه وادع إلى الله»[43].

وكان عتبة بن غزوان قد كلف مجاشع بن مسعود على جماعة وسيرهم إلى الفرات، واستخلف المغيرة بن شعبة على الصلاة إلى أن يقدم مجاشع، فإذا قدم فهو الأمير، وسار عتبة إلى عمر، فظفر مجاشع بأهل الفرات. عندها قام العجم ضد المسلمين، فلقيهم المغيرة بن شعبة في المرغاب[44]، فاقتتلوا. وقال نساء المسلمين لو لحقنا بهم فكنا معهم فاتخذن من خمرهنَّ رايات وسرن إلى المسلمين لمساندتهم. فلما رأى المشركون الرايات ظنوا أن مدداً للمسلمين قد أقبل، فانهزموا وظفر بهم المسلمون وكتب إلى عمر بالفتح[45].

وهذا ما يوضح أهمية المدد ودور أهل المدد في نصرة جيوشها.

وبتلك التعبئة المظفرة في القادسية دخل المسلمون «المدائن» ومن انضم إليهم من الروادف وممن دخل في الإسلام من قبائل تغلب وإياد والنمر من عرب العراق في أعقاب موقعة القادسية. وكان سعد بن أبي وقاص قد أرسل عاصم بن عمرو، ثم اتبعه بستمائة من النجدات تمكن المسلمون على أثرها من إسقاط المدائن عاصمة الفرس، والتي على أثرها فرّ يزدجرد إلى جلولاء[46].

وكان يزدجرد ملك الفرس قد اتخذ من «حلوان» مقراً له بعد هروبه من المدائن. وتشير الروايات التاريخية إلى أن الثقل العسكري الفارسي والحشود كان في مدينة جلولاء. وقد حشد يزدجرد جيشاً كبيراً لمهاجمة المسلمين، فنشبت بين المسلمين والعجم معركة كبيرة تحقق للمسلمين فيها النصر على عدوهم. وقد شارك في هذه المعركة اثنا عشر ألف ممن شهد المدائن، وقد استمد المسلمون سعداً عندما رأوا كثرة إمدادات العجم، فأمدهم بمائتي فارس، ثم مائتين مائتين؛

---

(43) الطبري، ج 3، ص. 593؛ ابن الأثير، ج 2، ص. 486.

(44) المرغاب: نهر في البصرة. (انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج 5، ص. 108).

(45) الطبري، ج 3، ص. 596؛ ابن الأثير، ج 2، ص. 488.

(46) الطبري، ج 4، ص. 9؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج 2، ص. 512.

وجاء في الإمداد طليحة بن خويلد وقيس بن مكشوح وعمرو بن معدي كرب[47]. وفي رواية أن المدد ألف رجل (400 فارس، و600 راجل)[48].

كما كتب الخليفة عمر رضي الله عنه إلى سعد أن يبعث القعقاع بن عمرو التميمي إلى حلوان بعد هزيمة الفرس في جلولاء، بعد أن أمده بثلاثة آلاف من المسلمين، فتوجه إليها، وأقام هاشم بن عتبة رداءً له في جلولاء، فأدرك بعض فلول الفرس في خانقين ففتحها، ثم زحف إلى حلوان فدخلها بعد معركة حامية مع بقايا من قوات يزدجرد[49].

وبعد انهزام الفرس، قصد الهرمزان الأهواز وملك خوزستان. فكتب عتبة بن غزوان إلى عمر بخبره، فأرسل عمر إلى سعد أمير الكوفة أن يمدَّ عتبة، فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود، وأرسل عتبة بن سلمى بن القين وحرملة بن مريطة، وانتهى الأمر بطلب الهرمزان الصلح من المسلمين؛ كما أن الهرمزان انتقض بعد ذلك، فكتب عتبة إلى عمر بخبره، فأجابه بأن يقصده، وأمد المسلمين بحرقوص السعدي، ففتح سوق الأهواز، ثم بعث في أثره جزء بن معاوية وقاتل الهرمزان، فطلب الهرمزان الصلح من المسلمين، فوافق عمر على ذلك[50]. وبعد وفاة عتبة بن غزوان، واستحثاث يزدجرد الفرس ضد المسلمين، انتقض الهرمزان، فبلغ عمر خبره، فأرسل عمر إلى سعد بأن يبعث جيشاً كثيفاً بقيادة النعمان بن مقرن المزني، وكتب إلى أبي موسى بأن يبعث إلى الأهواز جيشاً كثيفاً وأمَّر عليهم سهيل بن عدي أخا سهيل، وبعث معه البراء بن مالك وعاصم بن عمرو وغيرهم، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبا سبرة بن أبي رهم، وكل من أتاه فمدد له[51].

وتمكن المسلمون في النهاية من أسر الهزمزان ودخول الأهواز، وأرسل الهزمزان مقيداً إلى المدينة ليرى عمر رأيه فيه.

---

(47) الطبري، ج 4، ص ص. 25 - 27؛ ابن حبيش، ج 2، ص ص. 271 - 273.

(48) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص. 138.

(49) الطبري، ج 4، ص. 34؛ ابن حبيش، ص. 276، 282.

(50) انظر: الطبري، ج 4، ص ص. 72 - 76؛ ابن الأثير، ج 3، ص. 544.

(51) الطبري، ج 4، ص. 83 وما بعدها.

وتشير الروايات أيضاً إلى أنه بعد دخول المسلمين جلولاء وغيرها، كتب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد يأمره بتوجيه عبد الله بن المعتم العبسي إلى تكريت وحدد له شكل التعبئة من مقدمة وميسرة وميمنة، وأمره أن يضم إليه مدداً من القبائل التي تقطن بلاد الجزيرة حول تكريت من عرب العراق مثل قبائل تغلب وإياد والنمر بن قاسط، وتمكن عبد الله سنة سبع عشرة للهجرة من فتح تكريت[52].

وبعد تلك الهزائم المتكررة للفرس، وجه يزدجرد رسله يستحثهم ضد المسلمين، فألقى بآخر ما لديه من قوة، فاجتمعت له جموع كثيرة وجههم إلى نهاوند. وكتب عمار بن ياسر بذلك إلى عمر، فجمع الناس للمشورة واستقر الرأي على إرسال المدد، وكتب بذلك إلى الأمصار وقال: «والله لأولين الحرب رجلاً يكون لأول الأسنة إذا لقيها غداً» [53].

قيل لأمير المؤمنين: من هو؟ فقال: النعمان بن مقرن المزني، فقالوا: هو لها، وكان النعمان يومئذ بالبصرة معه قواد من قواد أهل الكوفة أمدهم بهم عمر عند انتفاض الهرمزان فافتتحوا رامهرمز وايذج وأعانوهم على تستر وجندي سابور والسوس ـ كما سبق ـ، فكتب إليه عمر بذلك وقال: «إني وليتك حربهم، فسر؛ فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها» [54].

ويشير الطبري إلى أن عمر كتب إلى عبد الله بن عبد الله بن عتبان مع ربعي بن عامر أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا، كما كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن سر بأهل البصرة، وكتب رضي الله عنه إلى حذيفة بن اليمان أن سر بأهل الكوفة حتى تجتمعوا جميعاً بنهاوند[55].

---

(52) الطبري، ج 4، ص. 36؛ ابن الأثير، ج 2، ص. 523 وما بعدها؛ ابن حبيش، ج 2، ص. 283.
(53) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص. 133 وما بعدها؛ الطبري، ج 4، ص. 126.
(54) الطبري، ج 4، ص. 126.
(55) **المصدر نفسه**، ص ص. 118 ـ 138.

كما توافى إلى النعمان أمداد المدينة فيهم بعض المهاجرين والأنصار وقبائل شتى. وعند وصول مدد المدينة بقيادة المغيرة، كبر النعمان فكبر الجند[56].

وكان النعمان قد نادى بالرحيل إلى نهاوند وجيشه بالتعبئة، فطلب من مجاشع بن مسعود توفير المدد وسار على مقدمته نعيم بن مقرن، وعلى الميمنة والميسرة حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وكلف مجاشع بمؤخرة الجيش والتحقت أمداد المدينة المنورة ومن حولها، ثم أنشب المسلمون القتال، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين بالرغم من استشهاد قائدهم النعمان رحمه الله[57].

وكان نصر المسلمين في نهاوند نصراً كبيراً نتج عنه أنه لم تقم للفرس بعدها قائمة، ولم يثبتوا في مكان أمام القوات الإسلامية، واضطر يزدجرد إلى ترك بلاد فارس طريداً.

بعد انهيار القوة الفارسية في نهاوند، ضعفت المقاومة الفارسية، وأصبحت هذه المقاومة مقاومة محلية أو فردية تعتمد على قوة حكام الأقاليم ومن انضوى تحت لوائهم. فنتيجة لذلك، أذن الخليفة عمر للجيوش الإسلامية بانسياحها في بلاد العجم[58].

عين عمر رؤساء الأجناد وأمدهم بالأمداد من المدينة لإكمال فتح فارس، وبعث بالألوية وحدد لكل منهم وجهته. فقد أشار الطبري إلى أنه بعث بلواء خراسان إلى الأحنف بن قيس التميمي، ولواء أردشيرخره وسابور إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء اصطخر إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء فساودار ابجرد إلى سارية بن زنيم الكناني، ولواء كرمان مع سهيل بن عدي، ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو، ولواء مكران إلى الحكم بن عمير التغلبي؛ كما أمدهم عمر بأهل الكوفة، فأمد سهيل بن عدي بعبد الله بن عبد الله بن عتبان، وأمد الأحنف بعلقمة بن النضر النضري، وبعبد الله بن أبي عقيل، وبربعي بن

---

(56) **المصدر نفسه**، ص. 118؛ الخضري، **إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء**، ص. 97.

(57) روى البلاذري أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما جاءه نعي النعمان بن مقرن، وضع يده على رأسه وجعل يبكي. (انظر: **الفتوح**، ص. 373).

(58) الطبري، ج 4، ص. 137 وما بعدها.

عـامر، وبـابن أم غـزال الهمذانـي، وأمـد عـاصم بـن عمـرو بعبـد ا لله بـن عمـــير الأشجعي، وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق المازني؛ كما أمد بكـير بـن عبد ا لله الليثي بسماك بن خرشة الأنصاري[59].

وقد وردت إشارات في "**تاريخ الطبري**" توضح بعض الأمداد الواردة من المدينة من الأنصار وغيرهم[60].

كان في طليعة مهمة هذه الجيوش، بالإضافة إلى الانسياح في بلاد العجم، القضاء على فلول القوة الفارسية المتبقية مع يزدجرد ملك العجم. فسـار الأحنـف إلى خراسان ليلاقي يزدجرد فتتبعه في مناطقهـا مثل مـرو، وهـراة، ومـرو الـروذ، حتى أتته أمداد أهل الكوفة فسيرهم الأحنف أمامه إلى بلخ فسـاروا حتـى التقـوا بيزدجرد هناك وقاتلوه فهزموه حتى عـبر النهـر وقـد وردت الإشـارات إلى كـثرة الإمدادات من الكوفة ممن لحقت بالأحنف لفتح بلخ[61].

وسار بكير بن عبد ا لله إلى أذربيجان لفتحها، وكتب إلى نعيم بن مقـرن فاتح الري أن يمده بسماك بن خرشة ـ كما سبق. فلما طلع بكير بجبال جرميدان، قابله المنهزمون من واد روذ وعليهم اسفندبار (أخو رسـتم قـائد القادسية)؛ فقـاتلوا بكيراً وأسر اسفندبار، فقال لبكـير: السـلم أم الحـرب؟ قـال: بـل السـلم. فقـال: لا تقتلني وأمسكني معك، فإن أذربيجان لا يصالحونك ما لم أصالحك، فأمسكه بكير. وبعد مدة، وصل إليه مدد نعيـم. فسـار الجميع إلى أذربيجـان، فصـالح أهلهـا علـى الجزية. وكتب بكير إلى عمر بذلك، فأمره أن يولي عتبة بن فرقـد علـى أذربيجـان، ويتقدم هو مدداً لجيش الباب، فكتب عتبة لأهل أذربيجان كتاباً بالصلح[62].

وسار سراقة بن عمرو إلى الباب لفتحها[63]، وفي مقدمته عبد الرحمن بـن أبي ربيعة الذي يلقب «ذا النور». وقد سبقه بكير إليهـا وانتظـره، «حيـث كـان

(59) **المصدر نفسه**، ج 4، ص. 94؛ ابن الأثير، ج 3، ص. 553 وما بعدها.

(60) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج 4، ص ص. 138 ـ 147.

(61) **المصدر نفسه**، ص. 167 وما بعدها؛ ابن حبيش، **الغزوات الضامنة**، ج 2، ص ص. 379 ـ 382.

(62) الطبري، ج 4، ص. 153 وما بعدها.

(63) الباب: ثغر بالخزر هو الفاصل بين الفرس وأرمينية والروس يقـع على بحر الخزر (المعروف ببحر طبرستان). (**معجم البلدان**، ج 1، ص. 303).

ممداً مرسل من أذربيجان»؛ كما أمده عمر بحبيب بن مسلمة من الجزيرة. فلما أطل عبد الرحمن بن أبي ربيعة أمير المقدمة على الباب، والملك بها شهربزار، فكاتب عبد الرحمن بالصلح، فأجابه[64].

وفي رواية لفتح أذربيجان والباب أنه توجه إليهما بأمر عمر رضي ا لله عنه جيشان: أحدهما من حلوان يقوده بكير بن عمرو، والآخر من الموصل يقوده عتبة بن فرقد؛ كما لحق بهما بأمر عمر رضي ا لله عنه سماك من خرشه الأنصاري مدداً من سويد بن مقرن في الري[65].

وكان بكير قد وصل إلى أذربيجان قبل وصول عتبة وسماك. وقد طلب إليه أهلها الصلح، فأجابهم، ثم مضى بأمر عمر رضي ا لله عنه إلى الباب لينضم إلى جيش سراقة بن عمرو، وقد كان عمر رضي ا لله عنه بعث لفتح الباب سراقة بن عمرو الأنصاري وأتبعه بحبيب بن مسلمة مدداً من الجزيرة، وانتهى الأمر بالصلح[66] كما سبق.

توجه عبد ا لله بن عتبان الأنصاري من الكوفة بأمر عمر رضي ا لله عنه، فمر بالمدائن ثم نهاوند، وانضم إليه من انضم من الجند، وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه لإمداده من البصرة، وزحف إليهم ابن عتبان بجيشه لملاقاة الفرس في أصبهان، وانتهى الأمر بالصلح[67].

على أثر ذلك، تمكن المسلمون من فتح «همذان والري، وتابع سيره إلى قومس والدمغان»، بالإضافة إلى «جرجان وطبرستان وجيلان» عن طريق الصلح[68].

وقام العلاء بن الحضرمي والي البحرين بمحاولة لفتح اصطخر، ولكن هذه المحاولة لم يتحقق لها النجاح حيث حوصر جيشه. فأرسل إليه عمر من البصرة عثمان بن أبي العاص لنصرته، بالإضافة إلى عدد من قبائل البصرة التي وردت مع أبي موسى الأشعري حين لبى أمر عمر رضي ا لله عنه بمعاونة عثمان بن أبي

---

(64) الطبري، ج 4، ص. 155 وما بعدها.

(65) انظر الطبري، ج 4، ص. 153.

(66) **المصدر نفسه**، ص ص. 153 ـ 155؛ ابن الأثير، ج 3، ص. 27 وما بعدها.

(67) الطبري، ج 4، ص. 140.

(68) **المصدر نفسه**، ص ص. 147 ـ 153. للتفصيل عن فتح هذه المناطق حيث لم يرد فيها إشارة إلى المدد.

العاص، فسار إليه مدداً وتعزيزاً لقواته وفك الحصار عنه، ولكن اصطخر لم تخضع للقوات الإسلامية خضوعاً نهائياً إلا في خلافة عثمان بن عفان حيث أرسل إليهم والي البصرة عبد الله بن عامر، فتمكن من إخضاعها، وكان ذلك في مستهل خلافته رضي الله عنه[69].

كما افتتح سهيل بن عدي مدينة «كرمان» بمساعدة المدد الذي أمده به الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة عبد الله بن عبد الله بن عتبان بعد قتل مزربان كرمان[70].

وعندما توجه المسلمون لفتح سجستان بقيادة عاصم بن عمرو التميمي، لحقهم مدد عبد الله بن عمير الأشجعي، فالتقوا بجيش سجستان في معركة انهزم فيها أهل سجستان وانتهى الأمر بالصلح[71].

كما قصد الحكم بن عمرو التغلبي «مكران»، حتى انتهى إليها ولحق به شهاب بن المخارق بن شهاب المازني ممداً له، وأمده سهيل بن عدي وعبد الله بن عبد الله بن عتبان بأنفسهما. فانتهوا إلى دوين النهر، وكتب الله للمسلمين النصر بعد معركة كبيرة، وكتب الحكم إلى عمر يخبره بالفتح[72].

ومع استمرار الانسياح في بلاد العجم، فتح «فساردار بجرد»، حيث سار سارية بن زنيم الكلابي (الكناني) إلى هذه المدينة، والتقى مع أهلها بصحراء، فاقتتلوا. ثم إن الفرس استمدوا من بقربهم من أكراد فارس، فأمدوهم بجموع كثيرة. فدهى المسلمين أمر عظيم. وكان عمر رضي الله عنه قد رأى ليلة الواقعة فيما يرى النائم ما عليه المسلمون؛ فلما أصبح، نادى «الصلاة جامعة». حتى إذا كانت الساعة التي رأى فيها ما رأى، خرج إلى المسلمين، وكان سارية ومن معه بصحراء إن أقاموا فيها هلكوا وإن استندوا إلى جبل خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه

---

(69) **المصدر نفسه**، ص, 175؛ خليفة بن خياط، **تاريخ خليفة**، ص. 161 وما بعدها؛ ابن الأثير، ج 3، ص. 101.

(70) الطبري، **مصدر سابق**، ج 4، ص. 180.

(71) **المصدر نفسه**، ج 4، ص. 181.

(72) **المصدر نفسه**، ج 4، ص. 181 وما بعدها.

واحد. فقام عمر فقال: يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما، ثم صاح وهو يخطب: «يا سارية بن زنيم! الجبل الجبل!» ، ثـم أقبـل على المسلمين وقال: إن لله جنوداً، ولعل بعضها أن تبلغهم. فبحول ا لله وقوته، سمع سارية هذا الصوت (الذي هو بمثابة مدد) فانحاز بمن معه إلى الجبل وقاتل العدو حتى هزمهم، فأرسل عمر بالفتح؛ وسأل من في المدينة رسول سارية: هل سمعتم شيئاً يوم الواقعة؟ قال: نعم سمعنا: «يا سارية! الجبل الجبل!» وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه، ففتح ا لله علينا[73].

وفي هذه الحادثة كرامة من كرامات الخليفة عمر رضي ا لله عنه[74].

الجدير بالذكر أن يزدجرد اضطر بعد تعقب جيوش الخلافة له إلى أن يهرب إلى خارج إقليم فارس ملتجئاً إلى بلاد الترك ووضع نفسه تحت حماية ملكها؛ كما أن الخليفة عمر بن الخطاب رحمه ا لله أمر المسلمين بألا يتجاوزوا النهر الفاصل بين حدود البلاد الفارسية وبلاد الترك، وأن تتوقف الفتوحات عند هذا الحد. وظل الأمر كذلك حتى وفاته رضي ا لله عنه سنة 23 هـ.

وبعد وفاة الخليفة عمر رضي ا لله عنه، انتفضت كثير من الأقاليم الفارسية وأعلنت تمردها على المسلمين. فلما تولى الخلافة عثمان بن عفان رضي ا لله عنه، فكر في أمر المشرق وسرعان ما تمكنت جيوش الخلافة من إخضاعه، بل جاوزه إلى فتح مناطق أخرى، وتمكن المسلمون بقيادة الأحنف بن قيس من تتبع يزدجرد، وانتهى الأمر بقتله. وكان ذلك سنة إحدى وثلاثين للهجرة[75]. وتتابعت إمدادات الخلافة في إرجاع المشرق إلى حظيرة الدولة وضم أقاليم جديدة قريبة منها.

كما اهتم الخليفة عثمان بأرمينية عن طريق ولاية الكوفة، حيث أرسل واليها الوليد بن عقبة جيشاً بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي في اثني عشر ألفاً شتت شملهم. وقد جاء كتاب من عثمان إلى الوليد يأمره بأن يمد أهل الشام بجيش من

(73) **المصدر نفسه**، ج 4، ص. 178 وما بعدها.
(74) **المصدر نفسه**؛ جلال الدين السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص. 125.
(75) الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 293.

أهل الكوفة ـ كما قال عثمان: «وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة» ـ يقوده رجل ذو نجدة. فندب الناس مع سلمان بن ربيعة الباهلي، انتدب له ثمانية آلاف سيرهم معه إلى الشام(76).

وكان عبد الرحمن بن ربيعة قد غزا أرمينية، وأوغل في سيره فتجمع عليه الترك والخزر وقاتلوه قتالاً شديداً حتى قتل فتفرق جيشه فرقتين: إحدهما سارت نحو الباب والتقت بسلمان بن ربيعة الباهلي أخي عبد الرحمن الذي سيره سعيد بن العاص مدداً لأخيه فنجوا معه، وفرقة أخرى سارت نحو جيلان وجرجان، أمدَّها الخليفة عثمان بأهل الشام وعليهم حبيب بن مسلمة الفهري، وقاتل بهم قتالاً شديداً حتى طلب الروم الأمان(77).

وتشير الروايات إلى أن جموعاً من أهل اللان والخزر واجهوا المسلمين، فطلب حبيب من الخليفة عثمان مدداً، كما كتب إلى معاوية أن يمده بأقوام ممن يرغبون في الجهاد والغنيمة، فسير إليه معاوية ألفي رجل؛ كما أمر سعيد بن العاص عامله على الكوفة يأمره بإمداده بجيش عليه سلمان الباهلي فسار سلمان في ستة آلاف رجل من أهل الكوفة(78)، وقد أبطأ على حبيب المدد فتمكن من مباغتة الروم وقتل قائدهم فانهزموا، وأعان سلمان الباهلي حبيباً في فتوحات أرمينية حتى استشهد رحمه الله في معركة مع خاقان الخزر خلف نهر البلنجر(79).

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فتح معاوية جزيرة قبرص، وغزا معه كثير من كبار الصحابة؛ حيث سار من الشام إلى جزيرة قبرص وأمده والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح بنفسه فاجتمعا عليها فصالحهم أهلها على سبعة آلاف كل سنة(80).

---

(76) **المصدر نفسه**، ص. 247؛ باشميل، **حروب باشميل في الشام**، ص. 570 وما بعدها.
(77) **المصدر السابق**، ص. 248.
(78) البلاذري، **فتوح البلدان**، ص. 234.
(79) **المصدر نفسه**، ص. 240 وما بعدها؛ الطبري، **مصدر سابق**، ج 4، ص. 248.
(80) الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 258 وما بعدها.

وبتعاون جيش مصر مع أسطول الشام تمكن المسلمون من الانتصار على الروم في موقعة ذات الصواري التي غيرت مجرى التاريخ في البحر المتوسط، وفرض المسلمون سيطرتهم على شاطئ البحر[81].

تلك هي ملامح التعزيزات والمؤازرة التي قام بها جند الإسلام مساندة لإخوانهم في أقاليم العراق وفارس والمشرق.

ثانياً: جبهة بلاد الشام ومصر

في أثناء مواجهة حروب الردة، وجه الخليفة الصديق جيشاً إلى تيماء لحماية الحدود الشمالية المواجهة لروم ومراقبة تحركاتهم، وذلك بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، وأمره الصديق بألا يتجاوز الحدود الشمالية إلى الشام إلا بأمر من الخليفة. ويشير الطبري رحمه الله إلى أن الخليفة الصديق أمر خالد بن سعيد بأن ينزل تيماء ليكون ردءاً وسنداً لعمرو بن العاص، وأن يدعو من حوله من عرب المناطق المجاورة. وفي أثناء ذلك، سمع خالد بحشود رومانية بأطراف الشام، فأرسل لها خالد سرية انتصرت عليهم. وأراد الروم الانتقام من خالد، فالتقى الطرفان في معركة حامية انتصر فيها خالد، وبشر الخليفة بانتصاره وطلب التعزيزات والمدد ليواصل طريقه صوب الشام، وخاصة العاصمة؛ فبعث إليه تعزيزاً لقواته أوائل مستنفرة اليمن ومن بين مكة واليمن ومنهم ذو الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل الذي قدم قافلاً غازياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسَّرو وسمي هذا الجيش بجيش[82] البدال، فقدموا على خالد[83]، وألحق بهما الوليد بن عقبة[84].

ويفصِّل الواقدي في هذه التعزيزات وفرحة أهل المدينة بذلك، فيشير إلى أن المدينة استقبلت استقبالاً حافلاً أهل اليمن الذين قدموا للجهاد استجابة لنداء

---

(81) **المصدر نفسه**، ج 4، ص. 288.

(82) جيش البدل: أطلق على الذين قدموا مع عكرمة قافلين غازين من تهامة وعمان، فكتب أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل. فكلهم استبدل. فسمي ذلك الجيش جيش البدال.

(83) الطبري، **المصدر السابق**، ج 3، ص. 388.

(84) **المصدر نفسه**، ج 3، ص. 389؛ جميل المصري، **تاريخ الدعوة الإسلامية**، ص. 268.

أبي بكر، ونشرت الأعلام وخرجت المدينة عن بكرة أبيها تستقبلهم ورفعت الألوية المحمدية. وكان من بين هؤلاء قبيلة حمْيَّر وهم بالدروع والسيوف الهندية وأمامهم ذو الكلاع الحميري. فلما قرب من أبي بكر الصديق، أنشد يقول:

أتتك حمير بالأهلين والولد ... أهل السوابق والعالون بالرتب
أسد غطارفة شوش عمالقة ... يردوا الكماء غداً في الحرب القضب
الحرب عادتنا والضرب همتنا ... وذو الكلاع دعا في الأهل والنسب
دمشق لي دوت كل الناس أجمعهم ... وساكنيها سأهويهم إلى العطب

فتبسم أبو بكر الصديق رضي الله عنه من قوله، ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أبا الحسن! أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها، فأبشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين». فقال: صدقت. ويتابع الواقدي حديثه عن هذه الإمدادات، قائلاً: ثم أقبلت مذحج أهل الخير والعتاق والرماح وأمامهم سيدهم قيس بن هبيرة المرادي رضي الله عنه. فلما وصل إلى الصديق رضي الله عنه، جعل يقول: صلوا على طه الرسول:

أتتك كتائب منا سراعا ... ذوو التيجان أعني من مراد
فقدمنا أمامك كي ترانا ... نبيد القوم بالسيف النجادي

قال: فجزاه أبو بكر رضي الله عنه خيراً، وتقدم بكتائبه ومواليه. وتقدمت من بعده قبائل طيء يقدمها حارث بن مسعد الطائي. فلما وصل، همَّ أن يترجَّل، فأقسم عليه أبو بكر بالله تعالى أن لا تفعل، فدنا منه فصافحه وسلم عليه. وأقبلت الأزد في جموع كثيرة يقدمها جندب بن عمْرو الدوسي. ثم جاءت من بعدهم بنو عبس يقدمهم الأمير ميسرة بن مسروق العبسي. وأقبلت من بعدهم بنو كنانة يقدمهم غيثم بن أسلم الكناني. وتتابعت قبائل اليمن يتلو بعضها

بعضاً ومعهم نساؤهم وأموالهم. فلما نظر أبو بكر رضي ا لله عنه إلى نصرتهم، سر بذلك وشكر ا لله تعالى وأنزل القوم حول المدينة[85].

يذكر المؤرخون أن خالد بن سعيد الذي اجتاحت جيوشه أكثر بلاد فلسطين قد تهور بعض التهوُّر (قبل وصول المدد)، فتسرع في اندفاعه نحو قلب الشام. فعرضه ذلك لنكسة مؤلمة جعلته يخسر كل الأراضي التي اكتسبها جيشه في فلسطين[86].

أعلن الخليفة ما يسمى بالاستنفار العام في الحجاز ونجد واليمن ورغّب أهلها في الجهاد لفتح بلاد الشام. فقرر الصديق أن يبعث بأربعة جيوش لتدعيم قوة المسلمين بها. وقد عين لها قادة من أشهر القادة وأمهرهم، وعين لكل قائد إقليماً في الشام يكون مسرح عملياته القتالية وهم:

1 - أبو عبيدة بن الجراح (إقليم حمص).
2 - يزيد بن أبي سفيان (إقليم دمشق) .
3 - عمرو بن العاص (إقليم فلسطين).
4 - شرحبيل بن حسنة (إقليم الأردن (البلقاء)) [87].

فلم يزل أبو بكر يتبعهم الأمداد حتى صار مع كل أمير خمسمئة وسبعة آلاف [88].

لكن هذه الجيوش بعد اجتماعها لم تستطع أن تحرز نصراً على الروم الذين وقفوا عند نهر اليرموك إزاءهم، وطال وقوفهم أمام الجيوش البيزنطية أكثر عدداً وعدة. وعندما رأى أبو عبيدة وبقية القادة في اليرموك كثافة الجيوش الرومانية، أبلغوا الخليفة أبا بكر بالوضع، وطلبوا المدد والعون لإنقاذ الموقف. فاستاء أبو بكر وقرر إمدادهم بخالد بن الوليد الذي حقق انتصارات كبيرة في العراق،

---

(85) الواقدي، **فتوح الشام**، ص. 6 وما بعدها.
(86) محمد أحمد باشميل، **حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين**، ص. 24.
(87) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 7، ص. 3.
(88) البلاذري، **الفتوح**، ص. 129.

وأمره بالتوجه لليرموك بنصف قواته نجدة ومدداً لإخوانه في بلاد الشام، وقال أبو بكر: «وا لله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»؛ واتجه خالد بأسرع ما يمكن ومن أقصر طريق إلى الشام[89]، بقوة قدرها الطبري بعشرة آلاف[90].

وقد سار خالد مسرعاً بهذا المدد نجدة لإخوانه المجتمعين في منطقة حوران باليرموك. وقد سلك أقصر الطرق إلى بلاد الروم، بالرغم من خطره ومشاقه، إضافة إلى شح في المياه. ويتخلل الطريق صحراء قاحلة موحشة يتهيب أصحاب القوافل من اجتيازها ـ وهي صحراء السماوه. وحرصاً من قائد المدد خالد بن الوليد، سأل أفراد جنده ممن يعرف طبيعة هذه الصحراء أو سبق له اجتيازها ويعرف مواضع الماء فيها، فدلوه على رجل منهم يقال له رافع[91] بن عمير الطائي سبق أن اجتاز هذه الصحراء في سن شبابه مع أبيه. فاستدعاه أمير المدد خالد بن الوليد ووصف له طبيعتها القاحلة الموحشة وحدد له موضع نبع الماء في مكان معين بعد اجتياز مسافة معينة. فسأله خالد عن كيفية اجتياز هذه الصحراء أمام هذه المخاطر الموحشة. فدله رافع على خطة معينة تتلخص في احتياط الجيش في أكباد الإبل بعد تعطيشها. وإذا ما اجتاز المدد أو الجيش هذه المفازة وتجاوز المسافة إلى موضع نبع الماء الموصف من قبل رافع، ابتعد الخطر بإذن ا لله عن الجيش.

وعلى العموم، فقد سار خالد بهذا الجيش يصحبهم رافع بن عمير مستحسناً ما اقترحه من خطة، وأوشك الجيش في مسيره أن يهلك من العطش. ومما يزيد الأمر شدة وأسى أن صاحب الخطة أصيب في عينه بالرمد، فأصبح لا يبصر شيئاً. ولكن إرادة ا لله عز وجل أنقذت الجيش ومدده ونصره على اجتياز هذه الصحراء، ثم الخبرة التي لدى رافع. فدلهم على موضع نبع الماء وأنه بين جبلين في شكل قامة رجل وتحت شجرة العوسج التي حوله. وقد اهتدى الجيش

---

(89) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج 3، ص. 408.

(90) **المصدر نفسه**، ص. 394.

(91) رافع بن عمير الطائي: من قبيلة طيء اليمانية. يكنى أبا الحسن. كان لصاً في الجاهلية. شهد مع النبي غزوة ذات السلاسل مع عمرو بن العاص. يقال إنه هو الذي كلمه الذئب، فقد دعاه الذئب إلى اللحوق بالنبي ﷺ. توفي سنة ثلاث وعشرين قبل عمر بن الخطاب. (انظر: باشميل، **حروب الإسلام**، ص. 96).

إلى ذلك، على ما وصفه رافع، بالرغم من أن ذلك كان من ثلاثين سنة، ونجحت تلك الخطة ووصل جيش خالد (المدد) الروم بأقرب طريق[92].

وكان القائد عمرو بن العاص يواجه في فلسطين ضغطاً شديداً في الوقت الذي كانت القوات المسلحة تتجمع في اليرموك. فطلب مدداً مقابل الجيوش البيزنطية بقيادة أرطبون في أجنادين[93]، فتوجهت الإمدادات الإسلامية. وقد اشترك فيها خالد بن الوليد وعمرو بن سعيد بن العاص، وهاجم الجيش الإسلامي طلائع الروم في أجنادين، مما كان سبباً في لجوء الأرطبون إلى بيت المقدس[94]. وقيل إن هذه الموقعة بعد اليرموك.

نظم المسلمون جيوشهم ومضت أيّامٌ لم يتحدد فيها مصير أحد الطرفين. وفي هذه الأثناء جاء نبأ[95] وفاة خليفة المسلمين وتولي الخليفة عمر بن الخطاب أمور الدولة، فقرر عزل خالد. وكان المسلمون قد حملوا على الروم عندما رتب خالد بن الوليد القيادة بينهم. وفي النهاية، انهزم جيش الروم وقتل منهم عدد كبير قدره المؤرخون بعشرين ومئة ألف[96].

ومما يوضح أهمية المدد ودوره ما أشارت إليه بعض المراجع التاريخية إلى الدور الذي اضطلع به المدد المناصر لأبي عبيدة عند محاصرته قلعة حلب.

إذ تشير الروايات إلى أن أبا عبيدة حاصر قلعة حلب واستبطأ خبرهم على الخليفة عمر، فكتب إلى أبي عبيدة يسأله عن حال المسلمين ونتائج حصار حلب. فكتب أبو عبيدة إلى عمر يخبره بموقفه الحرج وشدة القوات البيزنطية في القلعة. وقد اقترح أبو عبيدة على الخليفة أن يترك حصارها ويتوجه إلى غيرها من المناطق الأخرى. لكن الخليفة عمر كتب إليه بأن يبقى، وبأن المدد يأتيه متواتراً إن

---

(92) انظر في ذلك بالتفصيل: **تاريخ الطبري**، ج 3، ص. 415 وما بعدها؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج 2، ص. 408؛ باشميل، **حروب الإسلام في الشام**، ص ص. 96 ـ 103.

(93) اجنادين: بلدة في فلسطين قرب الرملة شمال بحر جبرين غربي الخليل وجنوب غربي القدس.

(94) ابن الأثير، **الكامل**، ج 2، ص. 417؛ باشميل، **حروب الإسلام في الشام**، ج 10، ص. 120؛ انظر: إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع**، ص. 55.

(95) كانت وفاة الخليفة أبي بكر الصديق في جمادى الآخرة عام 13 هـ.

(96) الطبري، **المصدر السابق**، ج 3، ص. 399 وما بعدها؛ ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج 2، ص. 412.

شاء ا لله. وبعد زمن يسير، أخذ المسلمون يتوافدون على المدينة ويضعون أنفسهم تحت تصرف الخليفة، ومن بينهم المدد الذي وصل - وكان فيه عدد من الحضارمة - من طريف وكندة وفيهم مولى يوصف بأنه عملاق زنجي أسود يسمى «دامس» قد زاده ا لله بسطة في الجسم طولاً وقوة ومهابة وشكيمة أعجب به أبو عبيدة. ويأتي إعجاب أبي عبيدة به أن بَطْرِيقَ حلب هاجم أحد معسكرات المسلمين، فقام هذا الزنجي بمطاردة القوة البيزنطية، وكاد أن يقتل فيها البطريق. لذلك طلب منه أبو عبيدة أن يكون له دور في إخراج المسلمين بالحيلة مما هم فيه. وبالفعل، فقد عرض على القائد أبي عبيدة خطة دقيقة تتمثل في تسلق أسوار القلعة في جنح الظلام ومعه قوة فدائية وفتح أبواب القلعة للمسلمين عند الفجر، وطلب من أبي عبيدة أن يتظاهر بانسحابه موهماً العدو؛ وكانت نهاية الأمر أن نفذت هذه العملية بنجاح وبأقل خسارة، وذلك بفضل ا لله ثم بفضل هذا المدد الذي جاء مناصراً لأبي عبيدة[97].

رحم ا لله الخليفة عمر رضي ا لله عنه إذ خشي على الفاتحين من أن يتوطنوا في البلدان المفتوحة. فلربما مست الحاجة إلى تجنيدهم لنجدة إخوانهم في بلاد أخرى، أو لحماية بعض الأمصار، فلا يثقل عليهم ذلك[98].

لذلك درس الخليفة عمر مع القيادة العامة متطلبات الاستراتيجية العسكرية وإمكانات الأمة بعد الفتح. ولكثرة الواردات، ولدرء احتمالات العدو ضد الأراضي المفتوحة، خرج بنتيجة مهمة مفادها أن لابد من قوة ردع (طوارئ) احتياطية سريعة الحركة ذات قوة تلبي متطلبات الاستراتيجية العسكرية. وعليه، اتخذ قراراً مهماً بوضع قوة من النقلية لنقل قوات الجيش حيث تدعو الحاجة. فكان قراره بوضع أربعة آلاف فرس في كل مصر من الأمصار الثمانية، فيكون مجموعها اثنين وثلاثين ألف فرس يتحركون فور تلقي الأمر قبل تحرك بقية القطاعات الموجودة، وهذه الخيل موسومة في أفخاذها «حبيس في سبيل ا لله»[99].

---

(97) انظر بالتفصيل عن كيفية حسم هذه الموقعة في: باشميل، **حروب الإسلام في الشام**، ص ص. 424 - 440.

(98) نعمان ثابت، **الجندية في الدولة العباسية**، ص. 13 وما بعدها.

(99) جازم إبراهيم العارف، **الجيش العربي الإسلامي**، ص. 62.

هذه القوة الاحتياطية لا تستخدم إلا في حالات الطوارئ وبأمر من القائد العام. وقد خصص لها أناس مسؤولون عن أعلافها يومياً وفي مواسم الشتاء والصيف مع الاسطبلات الخاصة بها[100]. كما يتعهّدون الخيل والفرسان بالتدريب الجيد والتهيؤ المستمر.

ويشير الطبري إلى أن الخليفة عمر قد اتخذ هذه الخيول من فضول أموال المسلمين. فكان على خيل الكوفة القاضي سلمان بن ربيعة الباهلي، وعلى خيل البصرة جزء بن معاوية. وفي الأمصار الأخرى. وقال: «فإن نابتهم نائبة، ركب قوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس. فلما فرغوا، رجعوا»[101]. وهذا نوع من أنواع المدد.

وكان الخليفة عمر رضي الله عنه عندما وضع تلك الحاميات الكبيرة من الجند في المراكز الإسلامية الرئيسة، منعها من امتلاك الأراضي والاشتغال بالزراعة أو غيرها كي تكون على درجة قصوى من الجاهزية القتالية للتوجه إلى أي ميدان بصفتها نجدات أولية حتى تتلاحق جموع الجند غير النظاميين. وبلغ عدد هذه المراكز أيام عمر ثمانية، في كل منها قرابة أربعة آلاف جندي ـ كما سبق. ومن أهم تلك المراكز البصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، وظل عمر وخلفاؤه الراشدون يخصصون جانباً كبيراً من إيرادات بيت مال المسلمين لشراء الأسلحة والخيل والإبل وسواها من أدوات الحرب وخصصوا ميادين تدريب للجنود ـ الذين أخضعوا لنظام تدريبي صارم منعوا من الاختلاط بأهل الأراضي المفتوحة حفاظاً على نقائهم ـ وساحات رعي الخيل والجمال ووقفوها على تلك المهمات دون سواها[102].

الجدير بالذكر أن هذه القوة الاحتياطية التي تمثل الدعم والمدد قد استخدمها المسلمون في قتالهم. فيشير الطبري إلى فتنة كبيرة أثارها أهل الجزيرة من عرب النصارى تآمروا مع البيزنطيين للهجوم على المسلمين في الشام واحتلال حمص، وهاجموا أبا عبيدة بن الجراح في حمص. فاستشار أبو عبيدة جنده في مناجزة القوم أو التحصن حتى مجيء الغياث (المدد)، وكتب إليه الخليفة عمر بخروج

---

(100) **المرجع نفسه.**

(101) الطبري، ج 4، ص. 52؛ ابن الأثير، ج 2، ص. 530.

(102) وليد محمد جرادات، **استراتيجية الفتوحات الإسلامية**، ص. 107.

القوات لإمداده[103]. وقد وصلت النجدات (قوة الطوارئ) تلك القوة الاحتياطية، وتحركت نجدة لأبي عبيدة. فقد أمر عمر سعداً بأن يبعث بالجيوش لمساندة أبي عبيدة فبعث سعد على جناح السرعة عدة وحدات من الفرسان، وهي كما أشار إليها الطبري: فقد كتب عمر إلى سعد أن أندب الناس مع القعقاع بن عمر وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص؛ فإن أبا عبيدة قد أحيط به وتقدم إليهم في الجد والحث. كما كتب إليه أن سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأت الرقة؛ فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وإن أهل قرقيسياء لهم سلف. كما أن الخليفة أضاف إليه قوة بقيادة عبد ا لله بن عتبان إلى نصيبين، وقوة بقيادة الوليد بن عقبة باتجاه الجزيرة. مدد من العراق، وعلى رأس القوة الباقية الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه من المدينة باتجاه حمص. وقد نزل بالجابية (قرب دمشق)، ففتح ا لله عليهم، وكتبوا إلى عمر بالفتح وبقدوم المدد عليهم في ثلاث. وقد أثنى الخليفة على أهل الكوفة وقال: «جزى ا لله أهل الكوفة خيراً! يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار»[104].

وفي موضع آخر قال عمر عن أهل الكوفة: «الكوفة رمح ا لله وقبة الإسلام، وجمجمة العرب يكفون ثغورهم، ويمدون الأنصار»[105].

وعلى العموم، فقد كان لتلك القوة الاحتياطية دور في القضاء على تلك الفتنة[106] أو المؤامرة التي حدثت من نصارى الروم ضد المسلمين أجمعين.

ولما نزل عمر الجابية وفرغ أهل حمص، أمد عياض بن غنم بحبيب بن مسلمة، فقدم على عياض مدداً. وكتب أبو عبيدة بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم إليه عياض بن غنم[107].

---

(103) الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 50.

(104) **المصدر نفسه**، ج 4، ص. 52؛ ابن الأثير، **مصدر سابق**، ج 2، ص. 531؛ باشميل، **حروب الإسلام**، ص. 521 وما بعدها.

(105) الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 59.

(106) نعمان ثابت، **الجندية**، ص. 26.

(107) الطبري، **المصدر السابق**، ص. 55.

وفي قتال المسلمين مع «بلاد الروم»، سيَّر أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي[108] وأمده بمالك بن الحارث الملقب بالأشتر، فسلكوا درب بفراس[109] إلى بلاد الروم، فلقوا هناك جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل، فأوقعوا بهم. فقد سارع الأشتر بالاشتراك مع ميسرة إلى شن هجوم على الرومان الذين كادوا ينتصرون على قوة ميسرة، فتغير الوضع لصالح ميسرة وكتب الله النصر المؤزر لميسرة وقوة الدعم التي أرسلها أبو عبيدة[110].

وقد فصل الواقدي مخرج ميسرة وجهوده في مرج القبائل داخل الدروب في مواجهة كثرة جيوش الروم؛ وأن ميسرة استشار جنده في طلب المدد من أبي عبيدة أمير المسلمين في الشام، فأعلن النفير العام، فأسرع خالد بن الوليد في مقدمة القوم. وانتخب أبو عبيدة منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بألفين آخرين. فسار خالد بالجيش لمعونة ميسرة، ورفع خالد يديه إلى السماء ودعا قائلاً: «اللهم اجعل لنا إليهم سبيلا واطو لنا البعيد ويسر لنا كل صعب شديد». وسار نحو الدروب حتى التقى بميسرة، وفرح المسلمون بذلك وناجزوا الروم وانتصروا عليهم[111].

في الوقت الذي كان أبو عبيدة وخالد يحرزان النصر في شمال الشام، كان عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة يواجهان بدورهما قوات الروم التي اجتمعت في فلسطين. ولا شك في أن بيت المقدس هدف من أهداف فتح المسلمين للشام. وسبقت الإشارة إلى أن المسلمين تعقبوا القوات البيزنطية في اجنادين بقيادة أرطبون والتي اضطرت إلى أن تنسحب فارة إلى بيت المقدس[112].

---

(108) ميسرة بن مسروق العبسي: أحد التسعة الذين وفدوا على رسول الله ﷺ. كانت له منزلة كبيرة عند أبي بكر، وكانت له اليد الطولى في حروب الشام الشمالية.

(109) بفراس: مدينة تبعد عن أنطاكية حوالي أربعة فراسخ (16 ميلاً) (باشميل، **مصدر سابق**، ص. 450).

(110) الخضري، **إتمام الوفاء**، ص. 112؛ باشميل، **حروب المسلمين**، فتوح الشام، ص. 450 وما بعدها.

(111) انظر بتفصيل أوسع عن مسار المسلمين في هذه الدروب: الواقدي، **فتوح الشام**، ج 2، ص ص. 5 - 14.

(112) انظر آنفاً.

حرص عمرو بن العاص قبل أن يهاجم «بيت المقدس» على أن يعزلها عن باقي المدن القريبة منها. ثم اتجه بعد ذلك إليها وحاصرها. غير أن حصاره لها طال، إذ قاومت المسلمين مدة أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال. فبعث يطلب مدداً من الخلافة، فأمر عمر أبا عبيدة ابن الجراح بالتوجه إليها، واشترط صفر وينوس بطريرك بيت المقدس حضور الخليفة عمر بن الخطاب ليسلمه المدينة. فكتب أبو عبيدة للخليفة بذلك، فحضر الخليفة وتسلم مفاتيح مدينة بيت المقدس من البطريق، وكتب لهم عمر صلحاً بذلك[113].

وبعد أن تحقق للمسلمين فتح الشام ودخول بيت المقدس، لجأ الأرطبون إلى بلاد مصر التي أصبحت ملجأ وملاذاً للفارين من فلسطين[114].

فتح مصر

عرض عمرو بن العاص فتح «مصر» على عمر بن الخطاب عندما كان بالجابية. فوافق على ذلك. وتشير الروايات التاريخية إلى أن عمرو بن العاص سار بقوة أربعة آلاف، وسلك الطريق الساحلي، فاستولى على رفح، فالعريش، واشتبك مع القوات البيزنطية في الفرما وحاصرها مدة شهر ثم انتصر عليها. والتقى بقوات أرطبون بيبت المقدس في بلبيس وهزمهم المسلمون، ثم مضى إلى أم دنين[115] وحاصرها. فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه المدد، فأرسل إليه الخليفة عمر اثني عشر ألفاً بقيادة الزبير بن العوام، واستطاع عمرو بوصول هذا المدد أن يهزم قوات الروم في معركة عين شمس. وعلى أثرها اقترب من حصن نابليون[116].

هذا، بينما تشير رواية ابن عبد الحكم إلى أن عمرو بن العاص بعد فتح أم دنين نزل على حصن بابليون الذي يجمع القوات الرومانية داخله نظراً لمناعته، فطلب من عمر بن الخطاب مدداً بعد أن أبطأ عليه الفتح، فأمده بأربعة آلاف

---

(113) انظر: البلاذري، **الفتوح**، ص. 164؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 7، ص. 55.

(114) الطبري، **مصدر سابق**، ج 4، ص. 161؛ جميل المصري، **الدعوة الإسلامية**، ص. 308.

(115) أم دنين: قرية تقع في موقع حديقة الأزبكية بالقاهرة.

(116) انظر: الطبري، **مصدر سابق**، ج 4، ص. 107؛ البلاذري، **الفتوح**، ص. 249.

رجل على كل ألف منهم رجل، وكتب إليه عمر بن الخطاب: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف، الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. وقال عمر بن الخطاب: إن معك اثني عشر ألفاً، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة[117].

وأشار البلاذري إلى أن عمرو بن العاص دخل مصر ومعه خمسمئة وثلاثة آلاف، وكان عمر بن الخطاب قد أشفق لما أخبر به من أمرها فأرسل الزبير بن العوام في اثني عشر ألفاً[118] ممداً له حتى تم الفتح.

وبعد أن تم للمسلمين فتح مصر والإسكندرية، وفي خلافة عثمان رضي ا لله عنه، ندب الناس لفتح إفريقيا بعد عزل عمرو بن العاص فخرج إليه عشرة آلاف من قريش والأنصار والمهاجرين[119]. ولما أبطأ خبر الفتح على عثمان، أمدهم بجيش يرأسه عبد ا لله بن الزبير[120].

وفي إشارة للأمداد التي شاركت في فتوحات الشام والعراق ومصر، دون إشارة إلى الميادين والمواقع التي قاتل فيها هذا المدد، من ذلك ما حدث لمدد همذان بقيادة حمزة بن مالك الهمذاني الذي جاء مدداً لأبي عبيدة في الشام، وكذا إمدادات وفدت على الخليفة عمر بن الخطاب من قبائل الأزد، وغيرها من مساهمة القبائل اليمنية أمثال عمرو بن معدي كرب وقيس بن مكشوح وحجر بن عدي الطائي في معارك الفرس عندما أرسلهم سعد بن أبي وقاص إلى زهرة بن الحوية التيمي السعدي[121].

ثالثاً: الإمدادات لدرء الفتنة السبئية وآثارها

عندما خرج السبئيون على الخليفة عثمان بن عفان رضي ا لله عنه واتهموه باتهامات كثيرة وناظرهم في حججهم، لم يجدوا سبيلاً إلى الخلاص منه. فاتفق

---

(117) عبد الرحمن بن عبد ا لله بن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، ص. 51 وما بعدها.

(118) انظر: **فتوح البلدان**، ص. 250.

(119) الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 156.

(120) الخضري، **إتمام الوفاء**، ص. 165.

(121) فاطمة حمدان اليماني، **قبائل اليمن في العراق والشام ومصر منذ ظهور الإسلام إلى نهاية عصر الراشدين**، رسالة دكتوراه، ص. 37.

الثوار على خلعه من الخلافة. وحدث أن حوصر الخليفة في داره أربعين ليلة ومنعوا عنه الماء والطعام. وكتب الخليفة عثمان إلى الأمصار يستمدهم، وكان مما قاله:

> بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد؛ فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً... قد أغار علينا أقوام بجوار رسول الله ﷺ وحرمه وأرض الهجرة، وثابت الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أو من غزانا بأحد إلا ما يظهرون، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق...[122].

يقول الطبري: أتى الكتاب أهل الأمصار، فخرجوا على الصعبة والذلول. فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن سعد معاوية بن حديج السكوني، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو[123].

كما كتب عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد؛ فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فابعث إلى من قبلك من مقاتِلة أهل الشام على كل صعب وذلول...» . فلما قرئ كتابه عليه، قام يزيد بن أسد بن كرز البجلي، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر عثمان فعظّم حقه وحضهم على نصره وأمرهم بالمسير إليه. فتابعه ناس كثير، وساروا معه حتى إذا كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان رضي الله عنه، فرجعوا. كما كتب عثمان إلى عبد الله بن عامر أن اندب إليَّ أهل البصرة. فجمع عبد الله بن عامر الناس، وحضهم على نصر عثمان. سارع الناس إلى ذلك، فاستعمل عليهم عبد الله بن عامر مجاشع بن مسعود، فسار بهم. حتى إذا نزل الربدة، أتاهم قتل عثمان...[124].

وفي الأمصار المختلفة وقف رجال يحضون الناس على الخروج لتلبية طلب الخليفة في المدد. ففي الشام قام يحض الناس كل من الصحابيين الجليلين عبادة بن الصامت وأبي الدرداء عويمر بن عامر، ومن التابعين شريك بن خياشة النمري وأبو مسلم الخولاني وعبد الرحمن بن غنم[125].

---

(122) انظر: الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 351 وما بعدها. وفي موضع آخر: لما قرئ في الأمصار، أبكى الناس ودعوا لعثمان، وقالوا إن الأمة لتمخّض بشر (الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 342).

(123) الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 352.

(124) **المصدر نفسه**، ص. 368 وما بعدها.

(125) فاطمة حمدان، **قبائل اليمن**، ص. 90.

وفي البصرة قام الصحابيان عمران بن حصين وأنس بن مالك الأنصاري بالدعوة والحث والحض، ومن التابعين كعب بن سوار. وفي الكوفة عمل كل من الصحابي عبد الله بن أبي أوفى ومسروق بن الأجدع اليمني والأسود بن قيس النخعي وشريح بن الحارث الكندي وعبد الله بن عكم؛ وقد عمل هؤلاء على المسير في المدينة يطوفون على مجالسها يحثون الناس ويقولون: «يا أيها الناس! إن الكلام اليوم وليس به غداً، وإن النظر يحسن اليوم ويفتح غداً، وإن القتال يحل اليوم ويحرم غداً. فانهضوا إلى خليفتكم وعصمة أمركم! »[126].

ويشير الطبري إلى أن الثوار لما سمعوا بقدوم المدد من البصرة والشام نجدة للخليفة، أسرعوا في التخلص من الخليفة عثمان[127].

بعد استشهاد الخليفة عثمان تولى أمر المسلمين الخليفة علي بن أبي طالب. إلا أنه لم ينعم طوال حكمه بسبب المستجدات المترتبة على ما ظهر من أوضاع في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفي مقدمتها السبئية وما أعقب ذلك من الخلافات بين علي ومعاوية وما نتج عنه.

ومن أشهر التعزيزات والإمدادات التي أشار إليها المؤرخون أثناء الخلاف بين علي ومعاوية ما أورده الطبري من أنه جاء لمعاوية مدد بقيادة يزيد بن أسد البجلي، في حين جاء لعلي مدد بقيادة شبث بن ربعي الرياحي ووقف كل من مالك بن الأشتر وعمرو بن العاص يمدّان الطرفين بالخيل والرجال[128].

ومما ذكر من الإمدادات والدعم ما حدث عند خروج الخوارج بقيادة الخريت بن راشد الناجي، ومقاتلة زياد بن حفصة لهم، الأمر الذي اضطر الخريت إلى الهرب. وعاد زياد إلى البصرة لمداواة من معه من الجرحى، وأرسل إلى علي بالخبر. فأرسل علي إلى الخريت معقل بن قيس الرياحي في ألفين، وكتب إلى ابن

---

(126) انظر: فاطمة حمدان، **قبائل اليمن في العراق والشام ومصر**، ص. 90 وما بعدها.

(127) الطبري، **المصدر السابق**، ص. 382.

(128) **المصدر نفسه**، ج 4، ص. 569 وما بعدها.

عباس بالبصرة أن يمده بألفين من أهلها عليهم رجل ذو نجدة. فسار معقل ولحقه أهل البصرة، فوافوا الخوارج[129].

ومما يشار إليه من الإمدادات ما حدث في سنة 38 هـ عند دخول جيش معاوية مصر بقيادة عمرو بن العاص. فطلب محمد بن أبي بكر والي مصر في عهد علي بن أبي طالب مدداً من الخليفة لمواجهة جيش الشام، وكتب إلى الخليفة علي قائلاً: «فإن كان لك في أرض مصر حاجة، فأمدني بالرجال والأموال». فأرسل له علي المدد. وقبل وصول المدد إلى مصر، سمع بمقتل محمد بن أبي بكر؛ فرجع المدد[130].

رابعاً: إمدادات أخرى

سبقت الإشارة إلى أن الأمداد تتنوع بما يحقق مصالح المسلمين.

وإذا كانت مساهمة المسلمين في إمداد الجيوش هي طليعة تعاونهم وقمة تضحياتهم، فإن هناك إمدادات لا تقل عن تلك المشاركة بما يعبر عن تلاحم الرعية مع القيادة أو المسلمين بعضهم ببعض. فقد سبق الحديث عن الخليفة عمر أمد المسلمين في القادسية بالأطباء، وكان يبعث إليهم بالمواد الغذائية ومنها الغنم والجزر[131].

ومما يوضح حرص المسلمين والقيادة بعضهم على بعض ما حدث في العام 18 هـ من تدفق إمدادات الأقاليم للخليفة حين طلب النصرة والغوث ضد المجاعة التي حدثت في هذا العام. فقد وصفها المؤرخون بأن القحط والجفاف عم البلاد وضمرت الدواب حتى لم تعد صالحة للغذاء بعد ذبحها[132].

وقال ابن سعد عن ذلك إنه أصاب الناس جهد شديد وأجدبت البلاد وهلكت الماشية وجاع الناس وهلكوا حتى كان الناس يرون يستفُّون الرمة ويحفرون نفق اليرابيع والجرذان يخرجون ما فيها[133].

---

(129) انظر: الخضري، **إتمام الوفاء**، ص. 203.

(130) الطبري، **المصدر السابق**، ج 5، ص. 101.

(131) انظر آنفاً.

(132) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج 3، ص. 23 وما بعدها؛ الطبري، **تاريخ الأمم**، ج 4، ص. 96؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 2، ص. 555.

(133) ابن سعد، **المصدر السابق**، ج 3، ص. 235.

وقد سمي هذا العام بعام الرمادة، لأن الأرض كلها صارت سوداء، حيث كانت الريح إذا هبت ألقت تراباً كالرماد، فشهبت بالرماد حتى جعلت الوحوش تأوي إلى الإنس[134].

ولما كان هذا العام، زادت المحنة على المسلمين فتجلت العرب من كل ناحية فقدموا المدينة. فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وإدامهم؛ وكان عمر يتعاهد مرضاهم، وأكفان من مات منهم[135].

وعن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: كنا نقول: لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة، لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين[136].

عند ذلك، اضطر الخليفة عمر إلى الاستنجاد بالأقاليم والولايات الإسلامية لتغذية أهل المدينة وسكانها الذين تضرروا بصفة خاصة من هذه المجاعة. فقد كتب إلى أمراء الأمصار: أغيثوا أهل المدينة ومن حولها، فإنه بلغ جهدهم[137].

وفي رواية أن الخليفة كتب إلى أمر الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم[138]. وقد ورد عن الخليفة عمر أنه قال: «كيف لا يعنيني شأن الرعية إذا لم يعنني ما يمسهم»[139].

وكان عمر يكثر من الاستغفار ويخرج إلى المصلى طلباً للسقيا، وورد عنه أنه قال: «أيها الناس إني أخشى أن تكون سخطة عمتنا جميعاً، فاعتبوا ربكم وانزعوا وتوبوا إليه وأحدثوا خيراً»[140].

وقد أخذ عمر بن الخطاب بيد العباس، ثم رفعها وقال: «اللهم إنا نتوسل إليك بعم نبيك أن تذهب عنا المحل، وأن تسقينا الغيث. فلم يبرحوا حتى سقوا،

---

(134) **المصدر نفسه**، ص. 235؛ الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 98.

(135) ابن سعد، **المصدر السابق**، ج 3، ص. 240 وما بعدها.

(136) **المصدر نفسه**، ص. 239.

(137) الطبري، **المصدر السابق**، ج 4، ص. 99.

(138) **المصدر نفسه**، ج 4، ص. 100.

(139) **المصدر نفسه**، ص. 98.

(140) ابن سعد، **المصدر السابق**، ج 3، ص. 245.

فأطبقت السماء عليهم أياماً»[141]. وقد استجابت الأقاليم لنداء الخليفة في إمداد الرعية في المدينة، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف راحلة طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فقسمها وانصرف إلى عمله[142].

وكان الخليفة قد كتب لعمرو بن العاص: «واغوثاه!» ثلاثاً. فكتب إليه عمرو بن العاص: «أتاك الغوث، لأبعثن إليك بعير... أولها عندك وآخرها عندي»[143].

فبعث عمرو بن العاص إليه في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك، وبعث إليه في البر بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وبثلاثة آلاف عباءة؛ كما بعث إليه عمرو بن العاص بخمسة آلاف كساء، وبعث إليه والي الكوفة بألفي بعير تحمل الدقيق[144].

---

(141) **المصدر نفسه**، ص. 224؛ السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص. 132.
(142) ابن الأثير، **المصدر السابق**، ج 2، ص. 556.
(143) ابن سعد، **المصدر السابق**، ج 3، ص. 236.
(144) **المصدر نفسه**، ج 3، ص. 240.



أمين الريحاني (1876 - 1940) في المغرب العربي

الدكتور ميشال خليل جحا
الجامعة اللبنانية - الأمريكية - بيروت

كتب الكثير عن أمين الريحاني، واهتم به الكتاب العرب والأجانب، وترجمت أعماله إلى لغات عدة. يقول ابن شقيقه الدكتور أمين ألبرت الريحاني:

> إن سبعة وستين كتاباً وضع عن الريحاني، وأكثر من 6750 مقالاً أو مرجعاً صحفياً نشر عنه، وأكثر من ألف ومائة كتاب خصص عنه فصلاً أو جزءاً من فصل، وهذه المراجع نشرت في أربع وأربعين دولة، وفي ست وعشرين لغة، وذلك حتى نهاية عام 1995، أي بعد نيف ونصف قرن من رحيله[1].

بالرغم من ذلك، فإن أمين الريحاني لا يزال يستحق أن يكتب عنه وهو لا يزال، بعد مرور 60 سنة على رحيله، يثير الجدل ويشغل الناس وتتناوله الأطروحات الجامعية. هذا الرجل الذي كان متعدد المواهب والنشاطات مارس شتى فنون الأدب. لم يتلق علومه في جامعة من الجامعات، هو معلم نفسه تعلم من الطبيعة ومن الهجرة ومن المطالعة. في الطبيعة تأمل، ومن بلاد المهجر تنوّر، ومن الكتب والمتاحف وغرائب الدنيا وعجائبها التي شاهدها تعلم واتخذ العِبَر. فمن هذه العناصر الثلاثة تكونت شخصيته. وهو القائل: «السير في شوارع المدن الكبرى يذكّر الإنسان بالإنسان؛ وأما السير في الوادي أو الغاب، فيذكّر السائر بالخالق العظيم».

---

(1) **جريدة الأنوار**، السبت 15 أيار 1999، العدد 13658.

يقول عنه مارون عبود[2]:

> أمين الريحاني ثائر متمرد، هو رجل كفاح ومن كتّاب المعارك. يثير خلفه، وحوله، وفوقه، وتحته غباراً لا يُشقّ. يقول كلمته ويمشي،... واثق بأنه خلق أدباً جديداً. الريحاني هو أبو الشعر المنثور في الأدب العربي، وهو الذي مهّد الطريق لجبران وعبّدها.

كان أمين الريحاني أول مهاجر لبناني إلى أميركا يتحول من التجارة إلى الأدب: فبدلاً من أن يحمل «الكشّة»[3]، حمل القلم؛ وكان أول أديب عربي يكتب باللغة الإنجليزية وفي معظم الفنون الأدبية التي عرفتها هذه اللغة. وكذلك ترجم المعري إلى الإنجليزية.

عالج فنون الأدب كافة. كتب الشعر المنثور الذي أخذه عن Walt Whitman (1819 ـ 1892)، الشاعر الأميركي المعروف صاحب ديوان "**أوراق العُشب**" (Leaves of Grass) (1855) الموضوع بالشعر الحر. وكتب القصة والرواية والسيرة وأدب الرحلة والنقد والمقالة والرسائل، وألّف في الدين والسياسة والفلسفة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والجغرافيا. وهو مصلح اجتماعي وثائر متحرر كتب بالعربية والإنجليزية. ومارس الرسم والنقد الفني، هاجم الحكم التركي والانتداب الفرنسي على لبنان ودافع عن استقلال لبنان وسوريا وعن القضية الفلسطينية، وكان يؤمن بالعروبة ودعا إلى توحيد العالم العربي.

وفي سنة 1922، في رحلته إلى السعودية، سعى لكي تفوز شركات النفط الأميركية بامتيازات استخراج النفط[4] بدلاً من أن تسيطر عليه الدول المستعمرة، وخاصة بريطانيا التي فازت بامتياز استخراج النفط في العراق.

---

(2) **أمين الريحاني**، سلسلة اقرأ (131)، دار المعارف بمصر، 1953، ص. 52 و 54.

(3) حقيبة كبيرة تحتوي على بضائع كان المهاجر اللبناني يحملها على ظهره يدلل عليها ليبيعها.

(4) راجع ليونرد موزلي في كتابه "**لعبة القوى**".

Leonard Mosley, Power Play, *Weidenfeld and Nicolson Printed in Great Britain*, 1973, pp. 32-39.

أشاع البعض بأن أمين الريحاني كان «عميلاً» أو «سمساراً» لشركات النفط الأميركية، ولكن المعروف عنه أنه عندما توفي، لم يكن يملك من حطام الدنيا أيّ ثروة.

يورد مارون عبود في نهاية كتابه[5]:

الريحاني الذي مات عن لا شيء من الثروة إلاّ 15 ليرة لبنانية في بنك إسكندر حداد، و12 مثلها في بنك دي روما، وخمس ذهبيات في جيبه. والريحاني الذي كان يقول لأخته سعدى حين يعطي السائل كل ما يملك: «الكفن لا جيب له يا سعدى». هذا الريحاني قد عاد من رحلاته كلها و لم تكن يده السفلى أبداً، اللهم إلا بعض هدايا: سيف ابن سعود الخاص الذي حارب به ابن الرشيد، قرابه من ذهب ونصله يرجع تاريخه إلى الفتح الإسلامي في إيران.

وأهدى الشيخ خزعل إلى جلالة عبد العزيز سجادتين يوم كان الريحاني عنده، فقال الملك: نحن سكان خيام، أعطوها للأستاذ الريحاني. اسم إحدى هاتين السجادتين «شجرة الحياة»، واسم الثانية «الكرة الأرضية».

وهناك هدية ثالثة من العمر الطويل، وهي فرس أصيلة مسماة «نورة» باسم شقيقته. وأهدى إليه سلطان لحج صندوقة نحاس مزركشة، و«مداعة» طول نربيجها 18 قدماً. وعرض عليه الملك حسين الألقاب والأوسمة فأبى، ولكن قَبِلَ منه خنجراً ـ شريفاً ـ وقطعة من كسوة الكعبة، وهذه لم يحزها مسيحي.

وقد رأيت في البيت مسبحة مسيحية قيل إنها هدية من البابا لزوجة أمين، وقد حولتها تلك الزوجة إلى أم أمين. أما آثاره، فركوة قهوة وغلاّيتان، وريش، وضبوة[6] وقليل من التبغ، وقلم حبر وقلشين وعصا، والساعة وبندها المشهور، أي لقطتها التي كانت تتدلى على صدر أمين فيبدو بها كأحد رجالات فجر القرن التاسع عشر.

ساهم الريحاني في توطيد العلاقة بين المملكة السعودية وأميركا، هذه العلاقة التي ما زالت راسخة حتى يومنا هذا.

يقول شقيقه ألبرت الريحاني في مقدمة "**الريحانيات**"[7]:

---

(5) **المرجع السابق**، ص ص. 135 ـ 136.

(6) الضبوة عند العامة: كيس من جلد للتبغ، أو جراب صغير.

(7) **الريحانيات**، ج 1، طبعة جديدة منقحة في جزءين، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، 1956، ص. 5.

إن الريحاني في جميع ما كتبه كان ذلك المصلح الإنساني الجريء المحب لوطنه، وإن جميع مؤلفاته تجسم شخصيته هذه وتتسم بطابع تفكير عميق وثروة ثقافية عارمة. على أن "**الريحانيات**" تكشف للقارئ، أكثر ما تكشف، عن الريحاني الكاتب الأديب صاحب النظريات الفلسفية والآراء الاجتماعية الإصلاحية ذات الطابع الإنساني الصرف.

يقول أمين الريحاني في خطبة ألقاها في التياترو الكبير في بيروت:

منذ ثلاثين سنة وأنا أضرب الطينة بالحائط، فهل الحق على الطينة إذا كانت لا تلصق أم على الحائط، أم على اليد الضاربة؟
لا أجيب على هذا السؤال ولكن قبل أن أستودعكم الله أقول لكم هذه الكلمة، أقول لكم كلمتين، ثلاث كلمات. الأولى: إن خلاص الإنسان بيده، انهضوا ينهض الله معكم، الثانية: إن الأمة التي تكثر فيها الطفيليات لا تعيش طويلاً.
فكروا بالإنتاج قبل أن يهلككم الاستهلاك.
أما الكلمة الثالثة، فهي هذه: جارك القريب خير من أخيك البعيد، بل خير من أمك الحنون البعيدة.

فكانت النتيجة أن اعتقلته سلطات الانتداب الفرنسي وكان مصيره النفي.

هذا هو الريحاني الجريء الثائر المقاوم المقدام الذي لم يكن يهاب لا الانتداب ولا سلطة رجال الدين الذي أنزلوا به الحرم. وهو لم يكن ملحداً، لكنه كان يؤمن بالعلم والتطور وحرية الفرد. لم يأت ليستعبد الإنسان!.

وفوق ذلك كله، كان أمين الريحاني رائداً من رواد العروبة. آمن بالوحدة العربية وسعى إلى التوفيق بين البلدان العربية قبل العمل لتحقيق هذه الوحدة. إذ كيف يمكن للوحدة أن تتحقق قبل تسوية الخلافات ـ وما أكثرها! ـ بين الدول العربية؟ دعا إلى عروبة منفتحة غير متزمتة ولا متخلفة تأخذ بركب الحضارة والعلم والتطور. هل كان من دعاة قيام «جامعة دول عربية»؟

وفي هذا الصدد يقول منح الصلح[8]:

لقد وسع عالم الريحاني العالم العربي بأسره من مشرقه إلى مغربه من دون أن يعني ذلك أن هذا العالم في حجمه وحدوده المترامية قد تحوّل عنده إلى عالم خيالي

(8) منح الصلح، **جريدة السفير**، 1999/9/24، عدد 8408.

أجوف مفرغ من نكهة التراب والإنسان، مطموس الألوان والتضاريس والخصائص والأقاليم. وقد كان متنبهاً منذ البدء لوجود العصبيات والهويات العشائرية والطائفية والإثنية عامة في الواقع العربي، ولم يتردد في تناولها باسمها والحديث عنها في شكل مكشوف لم تتعوده الكتابات السياسية الوطنية والقومية والتقدمية مما أعطاه نكهة وصدقية، بل منهجاً تشخيصياً مباشراً أقرب إلى العلمية اعتمده الباحثون أخيراً بعد طول امتناع. ولم يكن يتحرج في أن يقول: المسلمون والمسيحيون والدروز والعلويون، إلخ.

إلى أن يقول:

رأى لفترة طويلة في اتحاد لبنان وسوريا ضرورة حيوية للاثنين، وفي الوقت نفسه أوصى أهل لبنان وأهل سوريا ممثلين بحكامهم وزعمائهم وأديانهم بعدم التشدد والمبالغة في ما يجب أن يكون لهذا البلد من حصة وذاك، أو في ما يجب أن يقتطع من هذا البلد أو ذاك. باختصار، كان واقعياً ومتسامحاً واقتحامياً معاً في توصياته. وتوصيته الام ظلت على الدوام إبقاء الباب مفتوحاً باستمرار لخطوات التعاون والجمع والتوحيد بين البلد العربي والبلد العربي الآخر. فسوريا ولبنان يتقاربان حتى يتحدا، والاثنان (موحدين) ينفتحان على أفق توحيدي أوسع، على العراق ثم على الجزيرة العربية ومصر حتى المغرب.

كان يدعو إلى يقظة الروح وإلى تحقيق الديموقراطية التي عاشها في أميركا، التي وإن كان قد عاش فيها مغترباً وحمل جنسيتها، فإنه لم يتغرّب بل ظل لبنانياً عربياً محباً لوطنه لبنان وللعرب يحمل همهم ويعمل لخيرهم، وكان ضد الطائفية والجهل والتعصب والتفرقة والذل والخنوع والاستسلام.

فأمين الريحاني هو أهم من كتب في أدب الرحلة عند العرب.

واللافت للنّظر أننا اليوم في نهاية القرن العشرين نجد الفكر العربي المعاصر يواجه «العولمة»، هذا التحدي الهائل والخطير، الذي حاول أمين الريحاني أن يطرحه في ما كتب وألّف وحاضر! فكان شاهداً على عصره ولا يزال بالرغم من مرور 60 سنة على رحيله.

بعد هذه المقدمة، يهمنا من هذا البحث أن نتناول ما كتبه الرحالة أمين الريحاني عن المغرب الأقصى. كان الأمين قد قام برحلته الشهيرة إلى جزيرة العرب ووضع كتابه "**ملوك العرب**" وعقد العزم على القيام برحلات إلى الأقطار العربية كافة

وفقاً لقناعته التي عبر عنها بقوله: «فالتنافر بين البلدان العربية مصدره الجهل والتباعد، ولا يزيله سوى التقارب فالتفاهم فالحب. فسلسلة من الكتب تُعنى بأحوال تلك الدول تكون خير سفير لتعاطف هذه الأقطار وتقاربها ووحدتها». وقد قام بهذا الكتاب ثم وافاه الأجل، فلم يحقق كل آماله بزيارة جميع البلدان العربية.

ولابد هنا من أن نشير إلى أن أمين الريحاني قد دأب على الترحال. فقد هاجر من وطنه لبنان وهو في العاشرة من عمره إلى أميركا الشمالية التي زارها مرات عدة وعاش فيها سنوات من عمره.

وعندما كان يركب الباخرة للسفر إلى أميركا، كان يحن عندما يتصل البحر الأبيض بالأوقيانوس وتدنو الشواطئ الأوروبية والإفريقية بعضها من بعض، يتلفت قلبه إلى الجبال الإفريقية المكلّلة بالضباب الشفاف والضياء، تلفت العاشق المشتاق. يصل إلى جبل طارق بن زياد الذي لم يبق من عروبته غير اسمه. يبدأ بطنجة التي تتمطّى في ظلال الفردوس الدولي، مطمئنة آمنة، راضية مرضية، ومن طنجة ـ مسقط رأس رحالتنا ابن بطوطة ـ إلى أول ميناء في إفريقيا الأطلنطيقية، إلى أصيلة، ومنها إلى العرائش فالدار البيضاء. ثم يصل إلى وهران في الجزائر وتلمسان وفاس ومراكش وجبال الأطلس. قرر الأمين أن يعرّج في طريق عودته من أميركا سنة 1939 على شمال إفريقيا وقد تجاوز الستين من عمره.

وفي كتابه "**المغرب الأقصى**"[9] في ثلاثة أجزاء ويقع في حوالي 700 صفحة. الجزء الأول يبدأ بجولة في تاريخ المغرب الأقصى الحديث بدءاً بالقرن السابع عشر وسعي الدول الأوروبية إلى أن يكون لها موطئ قدم في المغرب صراع بين فرنسا وإنجلترا وإسبانيا على وجه خاص. ثم يسترسل في ذكر تفاصيل الوقائع التاريخية منذ بداية القرن العشرين.

ثم يتناول جبل طارق وكيف أن الإسبان يعللون النفس بالسيطرة عليه وإنقاذه من سيطرة الإنجليز. فتح العرب جبل طارق سنة 711 م واستمر حكمهم 750 سنة إلى أن انتزعه منهم الإسبان سنة 1309 م ثم فقدوه. وفي سنة 1462 م كان

---

(9) **المغرب الأقصى، رحلة في منطقة الحماية الإسبانية**، دار المعارف بمصر.

الفوز لهم فأخرجوا العرب منه. وأما استيلاء الإنجليز عليه، فكان للمرة الأولى في الحرب الأوروبية (1701 - 1714 م).

ويتحدث عن طنجة جنينة الفرنجة! حيث تلتقي أمواج البحر المتوسط بأمواج المحيط الأطلسي، وحيث المناخ الدافئ والشمس المشرقة في كل الفصول وهو يصفها بأنها مدينة القصور والأسواق والجوامع...

يقول (ص. 84):

ها هوذا المغرب بفقره واتضاعه، بقناعته وصبره، ببساطته وكرامته، بأسماله ... وبإحساسه الشعري!

ها هوذا المغرب في مرحه وفرحه، في ألاعيبه وشعوذاته، المغرب الروائي الشعري، المغرب اليائس الضحوك، المغرب العجيب!

يقول (ص. 87) عن طنجة ما يلي:

فلقد ذكرنا الفينيقيين مؤسسي طنجة، والرومانيين مستعمريها، ثم جاء الفنداليون غازين ناهبين مخربين، والبيزنطيون مصلحين مستثمرين. فكانت طنجة في عهدهم على شيء من العمران. ثم فتحها العرب. ويوم مرّ بها إدريس الأول (788 م) قادماً من تلمسان، في طريقه إلى فاس، كانت طنجة أجمل مدينة في المغرب.

وما ذهب شيء من جمالها وعمرانها في عهد البرتغاليين الذين انتزعوها من العرب في سنة 1471، ولا في عهد الإسبان الذين خلفوهم بعد نيف ومائة سنة (1580)، خسر البرتغاليون طنجة مرة أثناء ذلك ثم استعادوها في سنة 1556.

وبعد ست سنوات من احتلالهم الثاني، عقد لملك الإنجليز شارلس الثاني على الأميرة ده براغنزا البرتغالية، فراحت طنجة مع الجهاز، انتقلت بزواج كاترين إلى حوزة الإنجليز، فحكموها ثماني عشرة سنة فقط. ذلك لأن مولاي إسماعيل الكبير قام يطالب برد «الجهاز» إلى أصحابه، فشهر الحرب على أقارب كاترين الجدد وأخرجهم من طنجة في سنة 1680.

منذ ذلك اليوم إلى آخر القرن التاسع عشر بقيت هذه المدينة في حوزة سلاطين المغرب، وهي تنعم بشيء من العمران المادي، وبأشياء من الأمن والنظام. ساد فيها السلم على الأقل والاطمئنان. أما تجارياً، فقد كانت أول مدن المغرب، وما زالت. ولا غرو فهي باب المغرب الأقصى من أوروبا والشرق وإليهما.

ثم يتابع (ص. 91) قائلاً:

ولكن فرنسا ـ وقد تعاظم نفوذها في المغرب بعد استقرار الحماية فيه ــ حاولت أن تستقل في إدارة طنجة، فاعترض الإسبان أشد الاعتراض، واستمر الإنجليز يقاومون كل ما في سياستها من نزعات الاستقلال أو الاستئثار.
فإن لم تكن طنجة إنجليزية، يجب أن تكون دولية.
وإن لم تكن طنجة للفرنسيين، فلا بأس أن تكون للجميع على السواء، ولو إلى حين.
وإن لم تكن طنجة للإسبان اليوم، فلابد أن تكون لهم غداً...
اجتمع ممثلو الدول، وهذه عقليتهم الطنجية، اجتماعاً تمهيدياً في لندن، في صيف سنة 1923، ثم نقلوا إلى باريس في أكتوبر، حيث تمت المؤامرة على عروس المغرب. فوقعت فرنسا في 8 ديسمبر 1923 المعاهدة التي قضت بأن تكون طنجة دولية، ووقعتها إسبانيا في 7 فبراير من السنة التالية. حي على الفلاح!
ولكن سكان طنجة، الوطنيين والأجانب على السواء، وخصوصاً الفرنسيين والإسبان الأجانب، استمروا يشكون ويحتجون. أما الفرنسيون، فلأنهم كانوا يأملون أن تستقل فرنسا في حكم المدينة. وأما الإسبان، فلأنهم خدعوا كما يقولون فحرموا الوظائف التي وعدوا بها في المعاهدات السابقة.
وأما الوطنيون، فلا شيء. إنهم أبناء المدينة المغتصبة!

ثم يتناول جبل طارق وسبتة جارته التي استولت عليها إسبانيا وارتضت ذلك، لأنها لم تستطع أن تأخذ جبل طارق من الإنجليز. ويقول عن سبتة إنها مثل طنجة فينيقية الأصل. استوطنها القرطاجيون، فاستعمرها بعدهم الرومان مرتين ثم الغوطيون.

ثم ينتقل إلى وصف المدينة البيضاء، فيصف موقعها وطبيعتها وجغرافيتها وسكانها ومناخها وتطوان وصناعاتها.

وهو يصف جغرافية المغرب وجبال الأطلس ارتفاعها وامتدادها وحتى عدد الأشجار المغروسة، فينقل عن تقرير وضعته الحكومة لسنة 1934 وفيه أن الأشجار المغروسة في تلك المنطقة الخليفية من بلاد المغرب تبلغ أربعة وثلاثين ومئتي ألف شجرة. والأرض المزروعة قمحاً وشعيراً تبلغ ثلاثة وستين ألف هكتار. ويتناول القبائل التي تقطن تلك المنطقة ويعطي تفاصيل دقيقة وإحصائيات موثّقة.

كما يتحدث عن السكان البربر الذين يقطنون هناك وتاريخ الحكم والحكام الذي توالوا على الحكم بدقة المؤرخ المتخصص بعلم التاريخ. ويذكر حكم البيت العلوي ويورد أسماء الذين حكموا منذ سنة 1630 م.

إلى أن يتناول نهضة التعليم (ص. 183). وهو يلاحظ ملاحظة صحيحة وهي أن أهل المشرق العربي لا يعرفون الكثير عن المغرب العربي، بينما المغرب العربي ـ على العكس من ذلك ـ يعرف الكثير عن المشرق العربي. وهو يتناول تطور التعليم، فيورد تنامي عدد المدارس وميزانيات المعارف وعدد الطلاب والطالبات في المدارس، ويقارن ذلك بينها وبين مصر ولبنان. ويذكر بعض الأساتذة المصريين واللبنانيين الذين يدرّسون ويعملون هناك أمثال حبيب سعادة وسلفه الشيخ عبد الله الدحداح والشيخ ميشال الخازن والأستاذ عبود أبي راشد، والمناهج التربوية الحديثة والمعاهد والمدارس التي يقسمها إلى ثلاثة أقسام: (1) المدارس المغربية، الابتدائية والثانوية، وهي تعلم اللغتين العربية والإسبانية، ومعلموها عرب وإسبان؛ (2) الكتاتيب وأكثر معلميها من الشيوخ؛ (3) المعاهد الدينية أو بالأحرى المساجد، التي تلقى فيها الدروس الدينية والفقهية مع بعض الدروس الأخرى كاللغة والحساب والجغرافيا والتاريخ. أضف إليها المعاهد الخاصة.

والأحزاب السياسية لها كذلك نصيب من كتابه، ومنها حزب الإصلاح الوطني الذي تأسس سنة 1936، وحزب الوحدة المغربية.

وهو يتناول كل ما تقع عليه عيناه: يصفه ويتحدث عنه كما يتناول الطرق الصوفية. ويفرد فصلاً عن الشريف أحمد الريسوني وموقفه من الإسبان ومن الفرنسيين وحواره مع الجنرال الإسباني سلفستر والصراع بينهما إلى أن تمت الغلبة للريسوني.

وهو في رحلته هذه ومشاهدته للأماكن والجبال والسهول والبطاح غالباً ما يقارن بينها وبين لبنان. والكتاب موشّى بأبيات الشعر التي يحفظها الأمين وقد يعدل في بعضها «كلمة» أحياناً كما في إيراده لهذا البيت للشريف الرضي:

وتلفتت عيني ومُذ خفيتْ   عنها «البطاحُ» تَلَفَّتَ القَلبُ

فيضع كلمة «البطاح» بدلاً من كلمة «الطلول» كما هي في الأصل.

وهو يتنقّلُ في أماكن المغرب، فيذهب إلى «سبتة» و«طنجة» و«مليلية» التي يخاطب منها الثغور العربية المنتشرة على سواحل البحر المتوسط كبيروت وحيفا ويافا والإسكندرية قائلاً (ص. 443):

> إني أخاف عليك، إن لم تقم الدولة العربية الموحدة، المفعمة بروح المدنية الحقة ـ مدينة الدين والعلم مقترنين ـ مدنية المادة والروح متعانقين ـ فتحميك من التيار الأوروبي الصائل الغلاب، وترد عنك أخطار الاستعمار الحديث التي بدأت تدس سمومها في دسم الثقافة والتجارة والسياسة والدين.

ثم يخاطب الملوك العرب:

> فيا ملوك العرب! ويا أمراء العرب! إن الأجل قريب، وإن اليوم الذي ستشاهدونه رهيب، إلاّ أن تستفيقوا وتعملوا، بعزم وإخلاص، العمل الواحد، مهما اقتضاه من بذل النفس والنفيس، فتحموا الثغور العربية على هذا البحر الأبيض ـ تحموها تحقيقاً لأماني أهلها...، تحموها وأنتم في البداية والنهاية أهلها.

وهدف المستعمر من وراء ذلك أن يثبت بأن الفرعونية والفينيقية والبربرية لا علاقة لها بالعروبة.

وفي الجزء الثالث من كتابه يتناول زيارته إلى إسبانيا، فيزور إشبيلية ومدريد ويلتقي بالجنرال فرنكو ويجري حديثاً معه وينتقل منها إلى قرطبة ويصف بلاد الأندلس وآثارها وهو كان يريد أن تنتهي الحرب الإسبانية الأهلية لكي تنعم بالسلام وتعيش في هناء. وقد انتهت فعلاً فشجعه ذلك على القيام برحلته هذه.

وإني أصرف النظر عن تناول هذا الجزء، لأنه لا علاقة له بالمغرب العربي.

ويكفي أن أشير في نهاية المطاف إلى أن أمين الريحاني في كتابه هذا قد برهن على أنه مؤرخ واسع الاطلاع لا يكتفي بنقل الأخبار وتسجيلها، بل إنه يشاهد الأماكن ويجول في البلدان ويحاور الناس ويراقب حياتهم ويصف تقاليدهم. وهو متمكن من المراجع التي يعود إليها في أبحاثه عن السياسة التي يتبعها الاستعمار. وهو يريد كذلك أن يُفهم الأميركان الذين يعتقدون أنه لا يوجد سواهم في هذا العالم ـ وهو العربي الغيور على سمعة عروبته يدافع عنها ـ فكان يكتب ويخطب ويؤلف بالعربي وبالإنجليزية لتحقيق ذلك حتى لا يبقى الأميركان على جهلهم. وسعى كذلك إلى مجابهة الصهيونية المتفشية في أميركا، وخاصة في نيويورك، والطامعة في السيطرة على فلسطين. ولكنه كان يعتقد أن الحق أصدق أنباء من الدولار! وأن فلسطين هي لأصحاب الحق لا لأصحاب الدولار.

هذا هو «دون كيشوت» أمين الريحاني الذي كان يمتطي جواده حاملاً رمحه، ذاهباً وعائداً من «الفريكة» قريته إلى نيويورك، ومن نيويورك إلى «الفريكة».

هذا الكتاب يدل على سعة اطلاع أمين الريحاني وغزارة علمه ودقة ملاحظته، مما يعطينا صورة عن الرجل الذي أحب الدرس والاطلاع والاستكشاف والمعرفة. وليست الغاية من زيارته هذه مجرد النزهة.

هذا هو أمين الريحاني الذي قال كلمته ومشى.

هكذا كان أمين الريحاني يدق ناقوس الخطر، محذراً الملوك والأمراء العرب من التخاذل والتصارع بدلاً من السهر على مصلحة الشعب وعزة الأمة.

ثم يتحدث عن الثروة الهائلة من المعادن، ولا سيما في «جبل الحديد» التي تجنيها الشركة الإسبانية للمناجم. ولا يذهب منها شيء للعرب أصحاب الأرض. وهناك الفحم والحديد والنفط الذي بيد الفرنجة.

وفي الفصل الثالث عشر يتناول العرب والبربر، مفضلاً تسميتهم: العرب والمغاربة. وهو يرى أن المغرب العربي كالمشرق العربي يعاني من الاستعمار الغربي الرابض على صدره والمستغل لثرواته والمتحكم بشعوبه؛ وكما أنهم اخترعوا الفرعونية في مصر والفينيقية في لبنان والبربرية في المغرب الأقصى، اخترعوا هذه النعرات القومية التي لم يكن لها وجود قبل الحرب العالمية الأولى من أجل استغلال الشعوب العربية في بلاد العرب، لأنها تصب في سياسة فرّق تسُد التي يهواها الاستعمار ويسعى من أجلها.

ويكفي أمين الريحاني فخراً أنه لا يوجد في العالم العربي رحّالة يوازيه، وأنه قد أبدع في أدب الرحلة الذي كان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وقفاً على الرحّالة الأجانب.



العلاقات السياسية والاقتصادية بين غرناطة وأرغون
695 هـ/ 1296 م - 726 هـ/ 1326 م
دراسة في وثائق قصر التاج ببرشلونة

الدكتورة أحلام حسن مصطفى النقيب
والدكتور مزاحم علاوي الشاهري
كلية التربية ـ جامعة الموصل ـ العراق

لقد شهد العقد الأخير من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي تطورات واضحة في سياسة بعض الممالك الإسبانية من جهة ومملكة غرناطة من جهة ثانية، أدت إلى قيام علاقات بينهما اتسمت بطابع الصداقة في أغلب أوقاتها بعد أن كانت حالة الحرب هي السائدة بينهما؛ كما نجم عن ذلك قيام تبادل اقتصادي أديمت استمراريته بالاتفاقيات التي أبرمت بينهما في أوقات متقاربة أحياناً، ومتباعدة أحياناً أخرى.

وهدف بحثنا تتبع تلك العلاقات السياسية والاقتصادية بين مملكة غرناطة العربية الإسلامية وجارتها مملكة أرغون النصرانية بين سنتي 695 هـ/ 1296 م و726 هـ/ 1326 م من خلال رسائل صدرت عن بلاط غرناطة إلى بلاط أرغون في شأن العلاقات بين المملكتين، وهي اليوم وثائق من محفوظات التاج الأرغوني الإسباني ببرشلونة[1].

---

(1) Alarcon y Santon and Ramon Garcia, *Delinarers Los Documentos de la Corona*, Madrid, 1940.

ويرمز له (Docum. Arab).

ويسعى البحث إلى كشف الأسباب التي تقف وراء استمرار تلك العلاقات أو انقطاعها، من خلال تعرُّف الظروف التي تحكم المنطقة بشكل عام وأثر ذلك على المملكتين بالاعتماد على ما جاء في المصادر التاريخية المعاصرة للحدث أو القريبة منه.

هذا، وتجدر بنا الإشارة إلى أن مجموعة الرسائل التي غطت مدة البحث سبع وعشرون رسالة جميعها موجهة إلى ملك أرغون جيمس الثاني (James II) (1291 - 1327 م) الذي شهدت السنة الأخيرة من حياته آخر رسالة من تلك الرسائل الموظفة في هذا البحث. وقد عاصره خمسة سلاطين في غرناطة آخرهم السلطان محمد الرابع (725 - 733 هـ/ 1325 - 1333 م). وسيقتصر البحث في إطار عنوانه على ما جاء في تلكم الرسائل من مضامين سياسية واقتصادية.

ومما يذكر في هذا الصدد اشتراك الرسائل الموجهة من سلاطين غرناطة ووزرائهم وقوادهم بالإشارة إلى ذكر ألقاب الملك الأرغوني بالنص على ذكر الأقاليم التي تخضع لحكمه. فهو «سلطان بلنسية، وملك أرغون، وقر صفة وقمط برجلونة»[2]. وهو في عام 714 هـ/ 1314 م «الملند عن البابا بالكنيسة العظمى»[3] (Delpapaen La Iglesia Mayor). وهو حاكم مناطق أخرى مثل ميورقة وسردانية، بالإضافة إلى ما ذكرناه آنفاً[4]؛ بينما لا تذكر الرسائل الاعتيادية أية ألقاب للسلطان الغرناطي، ولكن يندرج ذلك في الرسائل التي تحمل نصوص المعاهدات المبرمة بين الطرفين. فهو في سنة 695 هـ/ 1296 م «سلطان غرناطة ومالقة وما إليها»[5]، وهو في سنة 721 هـ/ 1321 م «سلطان غرناطة ومالقة والمرية ورندة والجزيرة»[6].

---

(2) Docum. Arab, N°. 7, 8, 9.

(3) Docum. Arab, N°. 10.

(4) Docum. Arab, N°. 1, 6.

(5) Docum. Arab, N°. 1.

(6) Docum. Arab, N°. 15.

وبقدر ما يتعلق الأمر بألقاب سلطان غرناطة، فإن ذلك يشير إلى طبيعة العلاقات التي قامت بين سلاطين غرناطة وبين بني مرين(7)، حكام المغرب الذين حازوا مجموعة من المدن الأندلسية على عهد أميرهم السلطان يعقوب بن عبد الحق (656 - 685 هـ/ 1258 - 1286 م) من أبرزها الجزيرة الخضراء وطريف ومالقة وقمارش ورندة وغيرها(8). ثم جاء ولده السلطان يوسف بن يعقوب (685 ـ 706 هـ/ 1286 - 1306 م) ليتنازل عن الكثير منها مكتفياً بطريف والجزيرة الخضراء(9).

أما فيما يتعلق بنفوذ الملك جيمس الثاني، فيتضح أنه كان في العقد الثاني من حكمه يقف على رأس الكنيسة الكاثوليكية بوصفه من أكابر حكام أوربا الكاثوليكية. وقد أظهر في مراسلاته مع المماليك في مصر اندفاعاً في دعم النصارى الساكنين فيها، فضلاً عن سعيه لفتح الكنائس فيها(10).

وزيادة على ذلك، فقد ابتدأت الرسائل بتأكيد العلاقات الوطيدة القائمة بين البلدين المقرونة بالمودة والصداقة، فضلاً عن استخدام ألقاب التفخيم للملك جيمس الثاني(11). وهو سياق تقتضيه بطبيعة الحال العلاقات الدبلوماسية بين البلدان التي تحرص على ديمومة مصالحها مع البلد الآخر.

ومهما يكن من أمر، فقد شهد عهد السلطان محمد الفقيه (671 - 701 هـ/ 1272 - 1301 م) أول رسالة حملت في مضمونها نص المعاهدة التي أبرمت مع مملكة

---

(7) قام المرينيون في المغرب الأقصى سنة 668 هـ/ 1269 م واتخذوا من مدينة فاس عاصمة لهم. ويعد السلطان يعقوب بن عبد الحق أول سلطان لهم بعد قضائهم على الموحدين في مراكش في العام المذكور آنفاً. وللمزيد من الاطلاع، ينظر: عبد الواحد بن علي المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1963، ص. 419؛ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق مصطفى أبو ضيف، ط 1، الدار البيضاء، 1988، ص. 114.

(8) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972، ص. 90.

(9) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدإ والخبر**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1959، ج 7، ص. 217.

(10) حياة ناصر الحجي، **العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية**، الكويت، 1980، ص. 121 وما بعدها.

(11) Docum. Arab, N°. 8, 9, 10, 11.

أرغون على عهد ملكها جيمس الثاني، وذلك في 11 رجب سنة 695 هـ 15/ أيار 1296 م[12]. وبذلك عدت بداية مرحلة جديدة في العلاقات وإقرار الصلح الذي تقرر سريانه في المملكتين بحسب ما أظهرته الاتفاقية التي أفصحت عن وصول كتاب من ملك أرغون يعلن فيه الالتزام بما سيصدر من اتفاق سيرد نفسه في رسالة السلطان الغرناطي التي جاء فيها:

- أن يكون الصلح جيداً وثابتاً طوال حياة الملكين.
- الإيفاء بميثاقه، وعدم إفساده، وأن لا يحمل أي طرف أحداً يفسد في أرض الطرف الآخر وفي رعيته.
- أن لا يتعاون أي من الطرفين مع عدو الطرف الثاني لا في البر ولا في البحر؛ كما أكدت الاتفاقية في الجانب الاقتصادي على ما يأتي:
- أن يدخل الأهالي والتجار من كلا البلدين براً وبحراً للبيع والشراء وحمل كل شيء دون اعتراض عليهم لا في أجسامهم ولا في أموالهم ولا في تجارتهم ولا في كل ما يخرجونه من ذلك البلد.
- تخصيص[13] فندق لهم في كل موضع ديوان وتقديم قنصل لهم يقضي حوائجهم كلها بحسب ما جرت به العادة.
- الالتزام بتغريم كل من يحدث من أهل البلدين كائناً من كان فساداً في أرض الطرف الثاني أو في رعيته أو في مالهم أو في تجارتهم في البر أو في البحر.

وهنا تثار أسئلة ملحة هي: لماذا حرص الطرفين في ذلك الوقت بالذات على عقد صلح بينهما؟ وما أثر ذلك على علاقة الممالك المجاورة من جهة، وغرناطة وأرغون من جهة ثانية؟

---

(12) Docum. Arab, N°. 1.

(13) إذا لم تكن الاتفاقية المعنية بالدرس تشير إلى طبيعة محتويات الفندق من غير السكن، فإن البنود التي وردت في بعض الاتفاقيات المعقودة مع الحفصيين على عهد الأمير أبي يحيى زكريا، مع تجار مدينة بيزة الإيطالية في جمادى الأولى سنة 713 هـ/ 1314 م تشير إلى أن الفندق الخاص بتلك المجموعة لا يشاركها أحد فيه حتى وإن كان من دينهم، وإن للفندق كنيسة للعبادة ومدفناً ومخبزاً. وللمزيد من المعلومات، ينظر:
Di Michele Amari, *I diplomi arabi R. Archivio Florention*, Frienze, 1863, p. 88.

وللإجابة عن ذلك قبل كل شيء، نشير إلى أن ما تحفظه المصادر التاريخية القريبة إلى عهد السلطان محمد الفقيه يقر بأنه كان «ممهد الدولة... أقام رسوم الملك فيها... مستظهراً على ذلك بسعة الصدر وأصالة السياسة ورصانة العقل... وطول الحنكة... وتملؤه التجربة»[14]. وهذا يعني أن المدة الطويلة التي أمضاها قبل عقد الاتفاقية والتي بلغت عشرين سنة كانت كافية لكي تعطيه الرؤية الأشمل وتهديه إلى سياسة صائبة تعزز دولته ومصالحها، ولا سيما أنه أحس بفداحة الخسارة التي لحقت بغرناطة يوم ارتضى أن ينحاز إلى ملك قشتالة ويتفق على وضع خطة للسيطرة على جزيرة طريف (Tarifa) معه إجراء لإبعاد المرينيين عن شؤون غرناطة. فتعهد ابن الأحمر آنئذ لسان شو الرابع ملك قشتالة بالإنفاق على جيشه مدة الحصار، لقاء أن يسلمها إليه بعد سقوطها. وبعد أربعة أشهر من الحصار المفروض عليها والذي اشترك فيه الملك جيمس الثاني بموجب الاتفاق القائم مع قشتالة آنذاك ضد المرينيين، سقطت في شوال سنة 691 هـ/ 1291 م وجاءت المصيبة عندما رفض ملك قشتالة التنازل عنها بالرغم من استلامه ستة حصون من ابن الأحمر لقاء تعاونه[15]. فذهبت طريف المعبر الستراتيجي الذي يتم منه جواز المغاربة، والقاعدة التي تشكل عيناً على من يفقدها من الاثنين المغاربة والغرناطيين[16].

ورداً لفعل ما جرى، عبر السلطان محمد الفقيه إلى المغرب ليعتذر للمرينيين عما حدث وليعيد المياه إلى مجاريها. وتحقق له ما أراد[17]. لكنه من جهة ثانية واصل جهاده في جبهة قشتالة، فحقق انتصاراً عسكرياً مهماً حين تمكن من فتح مدينة قيجاطة[18] والحصون التي ترجع إليها، وذلك في محرم سنة 695 هـ/

---

(14) لسان الدين بن الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978، ص. 50.

(15) ابن أبي الزرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ص ص. 380 - 381.

(16) ابن خلدون، **العبر**، ج 4، ص. 173.

(17) ابن أبي زرع، **المصدر السابق**، ص ص. 383 - 384.

(18) قيجاطة (Quesada) تقع على مقربة من أبده، من أعمال ولاية جيان، محمد عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، لبنان، 1984، ص. 488.

1295 م[19] وأن ينازل مدينة القبذاق من أعمال قرطبة ويدخلها في شوال سنة 699 هـ/ 1299 م[20].

أما فيما يتعلق بالأسباب التي دفعت مملكة أرغون إلى توثيق الصلات مع غرناطة، فهي إدراكها على عهد ملكها جيمس الثاني أن صلاتها مع العالم الإسلامي بوجه عام يكفل لها رفاهاً اقتصادياً ويعينها على حاجاتها، وهو منهج اعتمده الملك منذ السنة الثانية من حكمه عندما وقع اتفاقية صلح مع سلطنة المماليك في مصر في 19 صفر سنة 692 هـ/ 28 كانون الثاني 1292 م على الرغم من عقوبة الحرمان (Excommunication) التي كانت تصدرها البابوية بحق كل من يتاجر مع المسلمين[21] والتي تعرض لها هو أيضاً[22]، ولكنه مع هذا قد واصل نشاطه في هذا الاتجاه[23].

يضاف إلى ذلك أن مملكة أرغون كانت على خلاف سياسي قديم مع فرنسا والبابوية من جهة بسبب تشبثها بصقلية التي كانت تابعة لها على عهد ملكها بطرس الثالث (Pedro III) (1276 - 1285 م) وألفونسو الثالث (Alfonso III) (1285 — 1291 م) الذي اختارها منفصلة لأخيه، فتجدد النزاع من جديد مع البابوية وفرنسا[24].

وفوق هذا كله، فقد كانت مملكة أرغون تجد في نفسها المنافس القوي لقشتالة. فسعت إلى تقوية نفسها بالتدخل في شؤون قشتالة خاصة بعد وفاة ملكها سانشو الرابع لتدعيم ألفونسو دي لاسيردا، ولكي تزيد من أوضاع قشتالة سوءاً من جهة[25]، ولتعزز تواصلها مع غرناطة من جهة ثانية. فبادرت إلى عقد

---

(19) لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة، 1976، ج 1، ص. 569.

(20) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج 1، ص ص. 569 - 570.

(21) الحجي، **العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية**، ص ص. 65 - 66.

(22) روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج 2، ص. 267.

(23) Docum. Arab, N°. 145.

(24) سعيد عبد الفتاح عاشور، **أوربا العصور الوسطى**، القاهرة، 1966، ج 1، ص ص. 599 - 560.

(25) ماريانو آريباس بالاو، «بنو مرين في الاتفاقيات المبرمة بين أرغون وغرناطة»، مجلة **تطوان**، العدد الثامن، الرباط، 1963، ص. 192.

اتفاقية جديدة وقعت في آخر ربيع الآخر سنة 701 هـ/ 31 كانون الأول 1301 م، أي قبل وفاة السلطان الغرناطي محمد الفقيه ببضعة أشهر[26]، نصت في الجانب السياسي منها على التالي:

- أن يكون أصحاب غرناطة أصحاباً لأرغون، وأعداؤهم من أهل قشتالة أعداء لأرغون.
- أن يدفع الضرر والفساد بين البلدين ولا سبيل لأحد في ذلك لا في البر ولا في البحر. وإذا ما وقعٍ ذلك، فيحكم الطرف المعني بذلك.
- إذا استرجعت غرناطة بلداً من بلاد العدوة - إشارة إلى سبتة - أو أناساً من أهلها، فيكون الحكم في ذلك حكم سائر بلاد الأندلس.
- يتعهد سلطان غرناطة بمعاونة أرغون ضد ملك قشتالة، إذا ما شن الأخير غاراته على منطقة مرسية.
- أن لا يعقد أي طرف صلحاً أو هدنة مع قشتالة إلا بموافقة حليفه.
- يتعهد سلطان غرناطة بإعانة ملك أرغون بفرسان من عنده في أرض مرسية، شريطة أن يضمن لهم المأكل والعلف من يوم خروجهم؛ ويتم تعويض الفرسان بالمال في حالة موت دوابهم.
- أن لا يعترض سلطان غرناطة على كل موضع تحصل عليه أرغون من قشتالة بشرط أن لا يكون تابعاً لغرناطة. وتتكفل أرغون بمساعدة غرناطة في استرجاع أراضيها التي احتلتها قتشالة، إن كانت تحت حكم ألفونسو حاكم قشتالة أو أخيه الافانت الدون فراندة.

وقد أفردت للعلاقات الاقتصادية في الاتفاقية المذكورة بنود جاء فيها:

- أن يفتح كل بلد لتجار البلد الآخر حق مزاولة كل أنواع التجارات مؤمنين في أنفسهم وأموالهم.
- أن يعامل تجار غرناطة بالحقوق الواجبة على العادة من غير إحداث زيادة.

(26) توفي في 8 شعبان من عام 701 هـ/ 1301 م؛ ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، ص. 58.

- يمنع تجار أرغون من التجارة مع إشبيلية (Seville) أو غيرها من المدن الواقعة تحت سيطرة قشتالة. وإذا ما قام أحدهم بذلك ووقع في أسر غرناطة، فيكون حكمه حكم الأعداء[27].

ومما يلفت الانتباه وجود اتفاقية مماثلة تحمل نصوصاً شبيهة بنصوص الاتفاقية المذكورة قد وردت بلا تاريخ أرسلها السلطان محمد الفقيه إلى الملك جيمس الثاني، ولكنها قد تميزت بغلبة اللكنة الأعجمية على نصوصها. ولعلها نسخة كتبها أحد المترجمين العاملين في أرغون آنذاك[28].

ومما يلحظ في الرسائل الغرناطية أنها تنتقل إلى عهد السلطان إسماعيل الأول (713 - 725 هـ/ 1314 — 1325 م) خامس سلاطين غرناطة متجاوزة عهد السلطان محمد الثالث (701 - 708 هـ/ 1302 - 1308 م) ونصر بن محمد (708 — 717 هـ/ 1309 - 1314 م). ولعل الأسباب التي تكمن وراء ذلك هي ما أحاط غرناطة من ظروف داخلية بوجه خاص وعلاقاتها مع الممالك المجاورة بوجه عام. فعلى صعيد الظروف الداخلية التي عاشتها غرناطة بعد وفاة محمد الفقيه تعكس حالة الاضطراب الداخلي التي عاشتها تاركة الاهتمام بالشؤون الخارجية إن لم نقل إن الممالك الإسبانية لم تعد تنظر إليها نظرة القوي الذي يحسب له حساب. المهم أنه ما أن نصب السلطان محمد الثالث[29]، حتى بدأت الأحوال تتدهور شيئاً فشيئاً بسبب الأوضاع الداخلية التي اتسم بها حكمه كالفتن التي انتهت الأمور في واحدة منها إلى خلعه ونقل على أثرها إلى مدينة المنكب (Almunecar)، فنصب أخوه بدلاً عنه[30]. وتوقع الناس أن أحوال البلاد ستتحسن والفتنة ستهدأ. غير أن

---

(27) Docum. Arab, N°. 3.

(28) Docum. Arab, N°. 2.

(29) يكنى أبا عبد الله. نصب ليلة الأحد الثامن من شعبان سنة 701 هـ/ 1302 م. فتح مدينة المنظر عنوة، وكان فتحاً عظيماً. ثم خلع في عيد الفطر من عام 708 هـ/ 1308 م. وتوفي في الثامن من شوال سنة 713 هـ/ 1314 م. ترجم له ابن الخطيب في **الإحاطة**، ج 1، ص. 552 ـ 564؛ **اللمحة البدرية**، ص. 60 ـ 69.

(30) ابن الخطيب، **المصدر السابق**، ج 1، ص ص. 560 ـ 561؛ **اللمحة البدرية**، ص ص. 66 ـ 67.

الواقع أثبت عكس ذلك. فما أن تولى نصر السلطنة، حتى عصفت بالبلاد أوضاع جديدة هي أكثر سوءاً من التي قبلها جلبها إليهم بسبب فساد تدبيره، وسوء سيرته، ووصل به الحال إلى الخضوع لملك قشتالة فرناندو الرابع وتعهده له بدفع الجزية[31]، الأمر الذي أثار غضب الناس عليه. فقامت الثورة ضده بقيادة ابن عمه صاحب مالقة الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل الذي تحرك نحو غرناطة وهزم قوات السلطان النصري الذي تنازل عن الحكم ونصب بدلاً عنه السلطان إسماعيل ابن خرج الموصوف بالأول في شوال سنة 713 هـ/ 1314 م[32].

أما على صعيد الأوضاع الخارجية، فقد حدث العدوان القشتالي الأرغوني الجديد على غرناطة بعد أن تقرر في سنة 708 هـ/ 1309 م عقد تحالف بين فرناندو الرابع (Ferdenand IV) ملك قشتالة وجيمس الثاني ملك أرغون برعاية البابوية للقيام بحملة صليبية على غرناطة[33]، وشرع الملكان في تنفيذ اتفاقهما عملياً، وتقرر احتلال الجزيرة الخضراء (Algeciras) وجبل طارق (Gibraltar)، فضلاً عن الشروع كذلك في احتلال المرية (Almeria) من قبل أرغون التي تناسى ملكها العهود والمواثيق التي أبرمها مع سلاطين غرناطة قبل ذلك. وبدأت القوات في محاصرة المرية وجبل طارق، ولكن القوات الغرناطية استطاعت إلحاق الهزيمة بقوات الملك جيمس الثاني المحاصرة للمرية؛ بينما شددت القوات القشتالية الضغط على الجبل براً وبحراً، فسقط في أواخر سنة 709 هـ/ 1310 م[34].

---

(31) هناك من يذكر أن نصر بن محمد قد سعى لعقد معاهدة مع مملكتي قشتالة وأرغون، فرفضا سعيه في ذلك. (ضيا باشا، **الأندلس الذاهبة**، تعريب عبد الرحمن أرشيدات، نشر وزارة الثقافة والإعلام، عمان، 1989، ج 3، ص. 165).

(32) ابن الخطيب، **المصدر السابق**، ص ص. 75 - 76.

(33) مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، 1984، ج 1، ص. 396.

(34) ابن الخطيب، **المصدر السابق**، ص. 75؛ يوسف شكري فرحات، **غرناطة في ظل بني نصر**، المؤسسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، بيروت، 1982، ص. 40؛ شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريف محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، ج 2، ص. 227. ومن المفيد أن نذكر أن حصارهم للجزيرة الخضراء قد فشل بعد تراجع القشتاليين عنها في شعبان 709 هـ/ كانون الثاني 1301 م بعد أن عقد صلح بين ابن الأحمر وملك قشتالة. (ابن خلدون، **العبر**، ج 7، ص. 240؛ فرحات، **غرناطة في ظل بني نصر**، ص. 39).

وزيادة في تدهور أوضاع غرناطة الخارجية ما قامت به من تحريض لشيخ الغزاة القائد عثمان بن أبي العلاء[35] ودفعه للسيطرة على سبتة، بل ودعمه في معارك مباشرة خاضها ضد أبناء عمومته حكام المغرب في شمال العدوة المغربية، تلك القصة التي ابتدأت منذ سنة 705 هـ/ 1305 م و لم تنته إلا عندما تمكن المرينيون من إلحاق الهزيمة بعثمان بن أبي العلاء، وتحرير سبتة في 10 صفر 709 هـ/ 1309 م[36]، بعد محاولات قاموا بها لإقناع أرغون بتقديم العون لهم بطرد ابن الأحمر عنها. ففي سنة 708 هـ/ 1308 م، قدم إلى مملكة أرغون أبو العباس صحبة برناردوسيكي مرسلين من قبل السلطان عامر المريني، وأخيراً مساندة الأسطول الأرغوني تحت إمرة الفيسكوندوي كاستلنو للمرينيين في تحريرها[37].

ومهما يكن من أمر، فإن عهد السلطان إسماعيل الأول شهد جهداً كثيفاً ونشاطاً واضحاً في العلاقات السياسية والاقتصادية مع أرغون. فقد سجلت أول رسالة بعثها إلى ملكهم جيمس الثاني تاريخ الثالث والعشرين من صفر سنة 714 هـ/ 29 أيار 1314 م، وهي جواب على رسالة وصلت إليه وعكست الود الذي يكنه الطرفان لبعضهما، فضلاً عن المشاعر المطمئنة التي يقدمها سلطان غرناطة للملك أرغون بشأن رعاياه. إذ يقول: « ... وذكرتم أن كل من عندكم بجميع بلادكم من ناسنا وأهل بلادنا محمول على الأمن والحفظ على النفس والمال وجميع الأحوال... فقابلناه بمثله... وكل من عندنا من تجاركم محمول على سبيل الحفظ

---

(35) تولى منصب شيخ الغزاة في الأندلس منذ يوم استشهاد أخيه في سنة 693 هـ/ 1293 م بعد أن كان مرابطاً في مالقة، وأبلى في معارك كثيرة بلاء حسناً كالمعركة التي خاضها ضد قوات قشتالة سنة 709 هـ/ 1309 م والمتوجهة نحو مرشانة ثم في معركة أسطبونة التي قتل فيها قائد الجيش القشتالي بيرش وأعداد كبيرة من قواته. أما أبرز معركة خاضها، فهي في سنة 719 هـ/ 1319 م؛ ولولا قيادته لجنده وقيامه باختراقه صفوف قوات قشتالة التي قدرت أعدادها بأكثر من خمسة وثلاثين ألفاً وأعداد أخرى من المشاة، لسقطت غرناطة. توفي سنة 730 هـ/ 1329 م وخلفه ولده عامر. للمزيد عنه، ينظر: ابن خلدون، **العبر**، ج 7، ص. 249، 371 ـ 372؛ أحمد بن خالد الناصري، **أخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954، ج 3، ص ص. 109 - 110.

(36) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ص. 387 - 393.

(37) عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، مطبعة فضالة، المحمدية، 1986، ج 2، ص. 285.

والرعاية واللحظ والأمن في النفس والمال، وسلوا الوارد والصادر فسيخبركم بصدق هذا المقال...» [38].

ولقد سجلت الرسالة المؤرخة[39] في 17 ذي القعدة سنة 714 هـ/ 24 آذار 1315 م تطوراً مهماً في العلاقات بين البلدين. فقد جاءت في مضمونها استجابة السلطان إسماعيل الأول لرغبة الملك جيمس الثاني في تجديد الصلح معه: «.. إذا أردتم صحبتنا وتجديد العهود التي كانت بينكم وبين جدنا...، فنحن نريد من ذلك ما تريدون ونوافقكم على ما يكون فيه الخير والصلاح للفريقين فلا تمنعوا رسولكم من الوصول إلينا فلا موجب لمنعه... ». كما أشارت الرسالة إلى قرار غرناطة بإيقاف العمليات العسكرية من جهتها في جبهة أرغون:

> ... لما ظهر لنا من مقاصدكم الحسنة ولما تضمنته كتبكم من الأغراض المشكورة أن منعنا جيشنا الذي بحضرتنا أن يقف على شيء من أرضكم أو يتعرض لبلد من بلادكم فما وقف لكم علمنا على موضع مع كثرة المرغبين لنا في ذلك والظالمين له.

وزيادة على ذلك، فقد أشارت إلى قضية اقتصادية بين البلدين أجبرت أرغون على إرسال سفيرها إلى غرناطة وهي مشكلة الغنم التي استولى عليها "المغاورون"[40] في منطقة البيرة (Elvira). وتقدم الرسالة توضيحاً بشأن ذلك، مشيرة إلى طريقة أخذها وذاكرة أن السلطان إسماعيل الأول لا قدرة له على منعهم، «إلا إذا ارتبطت العهود وكملت الصحبة بيننا وبينكم».

وأكدت الرسالة المؤرخة في 18 ذي القعدة سنة 714 هـ/ 5 آذار 1315 م الصادرة عن السلطان إسماعيل الأول على الغرض نفسه الوارد بشأن الغنم

(38) Docum. Arab, N°. 10.

(39) Docum. Arab, N°. 8.

(40) المغاورون: شاع هذا المصطلح في مملكة أرغون على عهد ملكها جيمس الأول (ت 1276 م)، وهم فئة من الجنود النظاميين الذين يعيشون على المغانم وتأليف عصابات قطاعي طرق، تخطف المسلمين. وقد بلغ عددهم أكثر من ثمانية آلاف شخص في منطقة لقنت، مهمتهم الإغارة على المدن والقرى الإسلامية القريبة. فينهبون البيوت دون رادع لا من دين ولا من سلطة.

المسروق في لقنت (Alicante) ومخبرة إياه بأن سلطان غرناطة بعث جوابه مع سفيرهم الذي حضر إلى حاضرته[41].

ولقد كشفت الرسالة المؤرخة في 12 شوال 716 هـ/ 28 كانون الأول 1316 م المرسلة من السلطان إسماعيل الأول عن طبيعة المباحثات الدائرة بين البلدين بشأن الصلح المقرر إبرامه مع أرغون. فهي تخاطب الدون بطره لبس ديالـه (D. Pedro Lopez de Ayala) الذ لنطادة بلورقة (Lorca) ومرسيه (Murcie) من أعمال أرغون الوسيط بينهما على الرغم من أنها قد كشفت عن وجود مساع أخرى كانت حثيثة بشأن الصلح نفسه يقوم بها الا فانت الدون بطره؛ كما أكدت طبيعة العلاقات القائمة بين المملكتين وأفصحت عن أنه لا وجود لصلح بينهما منذ عهد السلطان محمد الفقيه ثاني سلاطين غرناطة فضلاً عن إبرازها لحقيقة اقتصادية تضر بغرناطة مفادها «أن كل ضرر لحق المسلمين هذا العام إنما كان ينسب لأريول»[42] (Orihuela).

وهنا لابد من أن نوضح أمراً مهماً يتعلق بالممالك الإسبانية التي عانت في تلك المدة من غموض في أوضاعها يرجع إلى المناورات والمطامع الشخصية والصراعات التي نجمت بينها. فحال ذلك دون قيام علاقات مع غرناطة، بينما سعت الأخيرة إلى الاهتمام بشؤونها الداخلية وعدم استغلال فرصة الفتن الناشبة في تلك الممالك[43]. وهذا الأسلوب في جوهره كان على النقيض مما تفعله تلك الممالك التي ما أن تلحظ اضطراباً أو تناحراً داخل غرناطة حتى تشن حملاتها إمعاناً في إيذائها واستحواذاً على أراضي جديدة.

ومع حلول سنة 721 هـ/ 1321 م، عقد السلطان إسماعيل الأول معاهدة مع الملك جيمس الثاني مدة خمسة أعوام من تاريخ الرسالة المؤرخة بـ 17 ربيع الثاني سنة 721 هـ/ 16 أيار 1321 م التي حملها سفير أرغون شمون دي طوبية (Simon de Tobiya) بصحبة سفير غرناطة الحسن علي حسن الغراف مؤكدة في نصوصها ما يأتي:

---

(41) Docum. Arab, N° . 9.

(42) Docum. Arab, N°. 12.

(43) جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج 2، ص. 320؛ ضيا باشا، **الأندلس الذاهبة**، ج 3، ص. 166.

- أن يعقد بين الطرفين «صلح ثابت محفوظ العهد مؤكد العقد» مدة خمسة أعوام.
- تؤمن به أراضي المملكتين أماناً تاماً براً وبحراً سراً وجهراً.
- أن يعادي كل طرف عدو الطرف الآخر ولا يقبله ولا يعينه كائناً من يكون.
- أن تكون سواحل الطرفين ومراسيها وأجفانها [44] بناسها آمنة لا ينالها ضرر؛ وإذا ما استولى طرف على جفن يعود للطرف الآخر في البحر أو طائفة من الناس فيطلق سراحهم في الحال.
- أن لا يمنع ملك أرغون من يريد الخروج من أرضه من المدجنين إلى أرض المسلمين بأهلهم وأموالهم آمنين، «مرفوعاً عنهم الاعتراض من غير شيء يلزمهم إلا المغرم المعتاد».

ونصت كذلك على التبادل التجاري بين البلدين بما يأتي:

- أن يباح لتجار البلدين حرية بيع البضائع وشراء الطعام والبغال وسائر الدواب، ولا يستثنى من ذلك إلا الخيل والسلاح.
- أن لا يزاد على تاجر في سعر شيء يشتريه، وأن لا يزاد عليه في أي ضريبة جمركية وحسب ما جرت عليه العادة[45].

هذا، وتجدر بنا الإشارة إلى أن الرسالة المذكورة آنفاً قد أشارت إلى ظاهرة المدجنين بصفتهم أقلية لها أهميتها في العلاقات الغرناطية الأرغونية حرصت مملكة أرغون على إبقائهم في مدنهم لأسباب اقتصادية[46]. فعلى الرغم مما فرضته البابوية على ملكها جيمس الأول وإجباره على إصدار منشور في 18 تموز 1276 م يحدد

---

(44) الأجفان: مفردها جفن، وهي سفينة حربية بطيئة الحركة لكبر حجمها، وكانت تستعمل في كثير من البلاد ومنها بلاد الهند. استخدمها ابن بطوطة في رحلته (محمد ياسين الحموي، **الأسطول العربي**، دمشق، 1945، ص. 44).

(45) Docum. Arab, N°. 15.

(46) محمد عبد الله عنان، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين**، القاهرة، 1966، ج 4، ص. 120.

لولده بيدرو الثالث صيغة التعامل مع العرب المسلمين في مملكتهم يقضي بطردهم، وخاصة من بلنسية التي ألزم المنشور الوصي بأن لا يبقى فيها من المسلمين أحداً لأي سبب كان حتى ولو أدوا ما عليهم من التزامات مالية. بيد أن الواقع دفعه إلى ترك وصية والده، مكتفياً بتجريد المسلمين من السلاح وتوزيعهم على مناطق المملكة لأعمارها[47].

وزيادة على ذلك، فقد حصرت الرسائل عدداً من حوادث الأسر التي مثلتها ظاهرة القرصنة في السواحل التابعة للملكتين وما تسببه من مشكلات إنسانية، وأضرار اقتصادية تعيق حركة التجارة، كما كشفت أيضاً عن العرف المعمول به بشأن أحكام الأسير وما يقع عليه في أراضي الصلح والحرب.

وقد ذكرت الرسالة التي بعثها إسماعيل الأول في 3 محرم سنة 723 هـ/ 12 كانون الثاني 1323 م بصدد موضوع أسر جفن خرج من متزايل (Motril) متجهاً إلى مرسى هذين. فأسر بجفن بلنسي يدعى صاحبه برنقير قلفاط، فسرح ثمانية أشخاص منهم وأبقى ثلاثة هم ابن البقيق الحجام من غرناطة وأحمد الأعرج الدلري من وادي آشي وأحمد البحري من المنكب وذكرت حادثة الاعتداء التي وقعت على الغليوط[48] (Galeota) الخارج من المرية متجهاً إلى لقنت بهدف التجارة. فهاجمته قرقورة[49] أسرت شخصاً منه، ثم هاجمه شيطي[50] بالقبطة فاستولى على بضاعته وأسر امرأتين وصبيتين وصبياً بيعوا بعدها في جزيرة اليابسة؛ بينما توجه الشيطي، فباع البضاعة المسروقة في لقنت والمدور والملاحة وقد وصلت كميات من البضاعة المسروقة إلى المرية[51].

---

(47) أسعد حومد، **محنة العرب في الأندلس**، ص. 208.

(48) الغليوط: يعرف بـ «غيلاطة»، ويتميز بسرعته، نظراً لضيق عرضه وكبر طوله. برز وعرف بعد ذلك في مراكب الأسطول المصري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ينظر: سعاد ماهر، **البحرية في مصر الإسلامية**، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص. 361.

(49) القرقورة: سفينة أصل اسمها بالإسبانية «كاراكا» بحجم كبير تحمل المؤن للأساطيل الحربية ولها ثلاثة أشرعة، ولها القدرة على السير في الرياح العاصفة. (محمد المنوني، **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1979، ص. 78).

(50) الشيطي: مركب يجذف بثمانين مجذافاً، ومهمته استطلاع الموانئ واستكشافها، وهو يتميز بسرعته. (المنوني، **المصدر السابق**، ص. 78؛ ماهر، **البحرية في مصر**، ص. 352).

(51) Docum. Arab, N°. 5.

ولقد تناولت الرسالة المؤرخة في 17 جمادى الثاني سنة 723 هـ/ 23 حزيران 1323 م من قبل السلطان إسماعيل الأول إلى الملك جيمس الثاني، الصلح الذي عقد مع أهالي لورقة ومرسية في ضوء المعاهدة التي أبرمت مع ملك أرغون. ومع ذلك، فقد أظهروا غدرهم وفسادهم بسبب عدوانهم على موفدي ملك غرناطة إلى أرغون وقتلهم ونهب أموالهم، وفيها يطالب السلطان إسماعيل باتخاذ الإجراءات بحقهم موضحاً لجيمس الثاني «أن أهل قشتالة ما أووهم ولا ضموهم فانتم أولى أن تغاروا على عهدكم وحرمة الإرسال الموجهين إليكم»[52]. بينما كشفت رسالته التي حملها رسوله أبو علي الغراف إلى الملك جيمس الثاني في 29 رجب سنة 723 هـ/ 25 نيسان 1323 م طلبه بإطلاق سراح أبي بكر بن حسن الأزرق من أهل المرية بلقنت؛ كما يشكره على إطلاق اثنين من المسلمين المأسورين في الصلح من بلاده[53].

واكتنفت سنة 724 هـ/ 1324 م خمس رسائل صادرة من السلطان إسماعيل الأول إلى أرغون كانت مضامينها تتعلق بتجاوزات وقعت مخالفة للصلح المبرم بينهما وطالبة بمعالجة تلك التجاوزات. فقد ألمحت الرسالة الموجهة إلى نائب ملك أرغون في أريولة بيدرو بيره ذي قرالط (Pedro de Garalt) في 14 ربيع الآخر سنة 724 هـ/ 11 آذار 1324 م إلى الغارة التي شنتها قوات المسلمين على أرض منول التابعة لقشتالة ومخبرة إياه بأن السلطان إسماعيل ما اتخذ إجراءه الوقائي إلا لدفع الضرر عن المسلمين بعد أن فشلت كل المراسلات الجارية بصدد ذلك منذ أكثر من عام. وكانت الأخيرة مبعوثة إلى ملك قشتالة كما يطمئنه فيها على دوام المودة بين المملكتين[54].

وكانت رسالة التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة 724 هـ/ 17 كانون الأول 1324 م إلى الملك جيمس الثاني تحتوي على ذكر عدد من الأحداث، منها

(52) Docum. Arab, N°. 16.

(53) Docum. Arab, N°. 18.

(54) Docum. Arab, N°. II.

إطلاق سراح النصراني برتلمين والصبي الذي أخذ في الأبركة[55] التي أقلعت من إشبيلية وسراح برنقيل ارنو المطلوب من ولده الافانت الرمون برنقيل وتبادل بعض المأسورين بين البلدين، وأخيراً نفي انتساب المدعو ابن جندي من أهل غرناطة وكان قد قام ببيع أشخاص من أرغون في بجاية[56].

وجاءت رسالته في 13 جمادى الثاني سنة 724 هـ/ 7 حزيران 1324 م الموجهة إلى نائب ملك أرغون بألش Jaime Andren متضمنة طلبه مساعدة رسله الذين عادوا من أرغون بعد أن أنجزوا مهمتهم ومنها شراء البغال، فطال مقامهم في الشن وإخباره بأنه قد وجه أجفانه لتأمين عودتهم؛ وإن لم يتحقق ذلك، فسيضطر إلى توجيه جيشه إلى تلك الأرض لمساعدتهم محذراً إياه من ذلك[57].

وفيما حملت رسالته الموجهة إلى الملك جيمس الثاني في 17 شعبان سنة 724 هـ/ 9 آب 1324 م شكره لإطلاق سراح المسلمين الستة المأسورين في زمن الصلح بصحبة رسول أرغون، أجابت الرسالة الموجهة إليه في جمادى الثاني سنة 724 هـ/ أيار 1324 م عن بعض الشكايات التي استفسر عنها رسول أرغون[58] الذي وصل إلى غرناطة غليم سحنويه (Guillem de Sayun Wiya)، ومنها طلب اثنين من رعايا أرغون أسراً في بلس. وقد أخبر السلطان ملك أرغون بأنه أرسل أصحابه الثلاثة مع شمون طوبيه، فتعرضوا في طريف العودة إلى اعتداء من قبل الجواسين الذي ألقي القبض عليهم وقتلوا في غرناطة؛ كما طلب منه إطلاق سراح شخصين أخذا في قرطاجنة. وهنا يذكره السلطان بالقواعد المعمول بها بينهم فيما يتعلق بأرض «الصلح» و«النفاق» ويطلب منه تسريح المأسورين في زمن الصلح ويخبره بقصة التاجر الجنوي منول دي نغروني الذي باع سلعاً تعود لأهل أرغون في مدينة المرية وقصة الغليوط الذي أسر بأجفان أرغون وفيه رعايا من أرض "النفاق" الذين ثقفوا لهذا السبب. ومع ذلك، فهو يعلمه بتسريحهم حال تسريح المسلمين المأخوذين في

---

(55) الأبركة: من السفن الخفيفة، وكانت مستعملة منذ القدم. (ماهر، **البحرية في مصر**، ص. 334).

(56) Docum. Arab, N°. 23.

(57) Docum. Arab, N°. 24.

(58) Docum. Arab,N°. 21.

الصلح. ويضيف إلى ذلك أنه قد كتب إلى سلطان تلمسان في شأن رعاياه المأخوذين في البحر مرات حتى تم إطلاق سراحهم وهم في طريقهم إليه. ويختم السلطان رسالته بجملة شكايات حملها نيابة عنه سفيره يحيى بن ذنون لغرض حلها عملاً بالمثل ويبدي في آخر الرسالة ارتياحه من السفير الأرغوني غليم على ما ظهر منه وامتعاضه الشديد من موفده المرافق لغليم بيرو روبرت (Pero Ropert)، لارتكابه أموراً منكرة وغير صحيحة[59].

و لم يشهد عام 725 هـ/ 1325 م غير رسالة واحدة بعثها السلطان إسماعيل الأول إلى الملك جيمس الثاني أكد فيها استجابته لكل حاجة يريدها، ويطلب بالمقابل تقديم العون لمبعوثه يحيى بن ذنون الذي وصل إلى أرغون لشراء حاجات من بينها الدواب والبغلة العائدة لبيرو مركو (Pedro Marco) وأشياء أخرى[60].

وبحلول السادس والعشرين من رجب سنة 725 هـ/ يونيو 1325 م، أعلن عن مقتل السلطان إسماعيل الأول على يد ابن عمه محمد بن إسماعيل ليخلفه ولده السلطان محمد الرابع[61] (725 - 733 هـ/ 1325 - 1333 م) الذي ما أن استلم مقاليد الحكم حتى راح يرتب أوضاع بلاده. فانصرف إلى أرغون راغباً في تجديد الصلح مع ملكها جيمس الثاني، وبعث له رسالة في 11 جمادى الآخرة سنة 726 هـ/ 17 أيار 1326 م ذكر فيها استلامه لكتابه من يد رسوله جوان أنريق (Juan Enric) ورفيقه جيمس من قلعة أيوب متضمناً رغبة الملك في تجديد الصلح الذي كان سارياً مع والده مدة خمسة أعوام. فأكد موافقته على ذلك[62]. وقد اشتملت المعاهدة البنود الآتية:

- تجديد الصلح الذي كان سارياً بين المملكتين مدة خمسة أعوام أولها نصف شهر أيار سنة 1326 م/ أواسط جمادى الآخر سنة 726 هـ.

---

(59) Docum. Arab, N°. 24.

(60) Docum. Arab, N°. 25.

(61) يكنى أبا عبد الله. بويع يوم وفاة والده. نازل مدينة قبره من أعمال قرطبة ودخلها وفتح على عهده جبل طارق في 12 ذي الحجة سنة 733 هـ/ 1332 م، واغتيل في 13 ذي الحجة سنة 733 هـ/ 1332 م. ترجم له ابن الخطيب. (**اللمحة**، ج 9، ص. 102).

(62) Docum. Arab, N° . 26.

- أن يتردد سكان المملكتين وأجفانهم إلى بعضهما آمنين براً وبحراً في نفوسهم وأموالهم وجميع أحوالهم سراً وجهراً.
- أن يباح لتجار المملكتين البيع والشراء في جميع البضائع بقيمها المعتادة هنالك، ولهم الحق في إخراج ما يشترونه من إحدى الجهتين إلى الأخرى وحسب ما جرت به العادة من الحقوق الجمركية المعروفة بين البلدين ما عدا البضائع التي جرت العادة على منعها.
- أن لا تتعرض أجفان المملكتين لبعضهما لا في بحر ولا مرسى، ولا لمن كان فيها من عدو أو صديق.
- إذا ما استولى أي طرف على جفن لا يرجع لأي من الطرفين وكان فيه أحد من أهل الجهتين فيسرح في الحين مع ماله.
- أن لا يتعرض أي طرف لمرسى من مراسي الطرف الآخر مهما كان فيها من كان من عدو أو صديق، ولا يتعرض بضرر لما في مراسي الطرف الثاني وسواحله وبحاره من الأجفان كائنة لمن كانت من المسلمين أو النصارى ومن أي جهة كانت مدة هذا الصلح.
- أن لا يعين أحد على الآخر عدواً، في البر ولا في البحر بأي وجه من وجوه الإعانة.
- إذا خرج أحد على طاعة بلده، فلا يضم إلى ذلك البلد ولا يقدم له العون في قوت أو أي شيء آخر.
- أن لا يمنع المسلمون المدجنون بمملكة أرغون من الخروج إلى أرض غرناطة بأموالهم وعيالهم من غير أن يتعسف عليهم في شيء، ولا أن يطلب منهم مغرماً إلا على وفق ما جرت به العادة[63].

وزيادة على ذلك، فقد أكدت الرسالة التي بعثها السلطان محمد الرابع في 11 جمادى الآخرة سنة 726 هـ/ 7 أيار 1326 م في موضوع العلاقات الاقتصادية

---

(63) Docum. Arab, N°. 21.

مع مملكة أرغون، موافقته على إجراء التبادل بين المسلمين الذين أسروا بـ «سلورة الدعدع»[64] والأرغونيين الأربعة المبيعين بجزيرة ميورقة المحتجزين في غرناطة؛ كما أبلغه عن قيام شخص من سكان أريولة يدعى بيدرو اغرو (Pedro Grau) بتعمير شيطي في المدور، وأخذ بطرفي القبطة اثني عشر شخصاً من أهل المرية ترجاه في إعادتهم إلى بلاده والإيعاز بكف الضرر عن أراضي مملكته[65].

وبقي أن نذكر أن العلاقات السياسية بين البلدين لم تقتصر في ضوء المراسلات على ملوك البلاد فحسب، بل حوت الوثائق رسائل تخص بعض وزراء غرناطة وقادتها، اشتملت موضوعاتها على مجموعة من القضايا التي تؤكد استعداد المرسل للعمل من أجل تعميق الصداقة والمودة مع مملكة أرغون.

ولقد برزت شخصية القائد عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة في الأندلس الذي تواصل في مراسلاته مع الملك جيمس الثاني. فقد بعث له في 18 جمادى الأولى سنة 417 هـ/ 13 أيار 1314 م رسالة أوضح فيها عن وصول كتاب بيربوييل (Pero Boil) على يدي أبي الربيع سليمان خديم دولتهم يذكر فيها ود الملك جيمس الثاني للقائد. وقد لقن عثمان سليمان حفظاً أموراً لا يقدر على كتابتها تخص مصلحة البلدين[66].

وفي 18 ربيع الثاني سنة 721 هـ/ 23 أيار 1321 م، بعث القائد برسالة إلى الملك جيمس الثاني أعلمه فيها عن وصول رسالته بصحبة سفيره شمون دي طوبية بخصوص الصلح المبرم بين المملكتين وقد جدد فيها وده وحفظ عهده لملكهم[67]. كما صدرت رسالة أخرى منه في 11 شوال سنة 723 هـ/ 13 تشرين الأول 1323 م طلب فيها الشفاعة لاثنين من رعايا الملك جيمس الثاني والعفو عنهما بعد أن دخلا عليه[68].

---

(64) السلورة: وجمعها سلالير، مركب متوسط الحجم يتكون من ثلاثة أشرعة وأربعين مجذافاً، يستعمل في الحرب والسلم على حد سواء، ويتميز بسرعته حتى أنه شبه بالطائر الذي يحلق عالياً. (ماهر، **البحرية في مصر الإسلامية**، ص. 347).

(65) Docum. Arab, N°. 26.

(66) Docum. Arab, N°. 6.

(67) Docum. Arab, N°. 13.

(68) Docum. Arab, N°. 17.

وفي 19 شعبان سنة 724 هـ/ 12 آب 1324 م، بعث له رسالة أخبره فيها بوصول كتابه بصحبة مبعوثه أحمد بن الحجاج؛ كما طلب فيها مساعدته بالعثور على الخريطة الموضوعة في كنانة من الخشب كان مبعوثه الحاج عبد السلام قد نسيها في دار أقام بها في أرغون يعرفها سيدون من رجالات الملك الأرغوني ويوجد معها كتاب من صاحب مصر جاء به مبعوثه القائد من الإسكندرية يخص السلطان النصري إسماعيل الأول[(69)] وجدد عثمان في السنة التي تليها رسالة أخرى أكد فيها أهمية البحث عن الكنانة المفقودة لما تحتويه من رسائل مهمة تخص بلاده[(70)]. وكانت الرسالة الأخيرة التي بعثها عثمان إلى الملك جيمس الثاني في آخر ذي الحجة سنة 724 هـ/ 17 كانون الأول 1324 م تؤكد المودة القائمة بينهما ويطمئنه على سلامة وصول سفيره وأنه سيرجع بأخبار تسره[(71)].

وأخيراً، فقد كان من حصة والي قصبة المرية[(72)] يوسف بن محمد بن كماشة[(73)] رسالة واحدة من بين تلك الرسائل خصبها الدون ارنوطراش (D. Arnau Torres) والي اريولة بعثها له في 18 جمادى الثاني سنة 716 هـ/ 8 أيلول 1316 م تضمنت الإجابة عن تساؤلات الأخير بشأن الصلح المقرر عقده بين المملكتين وأنه كتب إلى مولاه ولم يصل جوابه بعد كما يطلب منه إيقاف عمليات الإغارة مدة عشرين يوماً حتى يتوضح الأمر بشكل نهائي.

من كل ما تقدم يتبين أن العلاقات الغرناطية الأرغونية اتسمت بطابع السلم وحرص الطرفين على استمرارها بما يخدم مصالح المملكتين السياسية والاقتصادية على الرغم مما كان يشوبها من فتور ناجم أحياناً عن الاضطرابات

---

(69) Docum. Arab, N°. 19.

(70) Docum. Arab, N°. 20.

(71) Docum. Arab, N° 22.

(72) Docum. Arab, N°. 4 .

(73) لم نعثر له على ترجمة، ولم يذكره ابن الخطيب إلا في إشارة سريعة وردت عن ولده الذي استوزره فيما بعد السلطان محمد بن يوسف الغني با لله (755 - 760 هـ/ 1354 - 1359 م). وقد وجدناه غير راضٍ عنه يرى كون «المستفيض عن تصرفاته - كما قال - عدم التبجح أمراً مطروداً». وقد حفظت الرسائل الغرناطية الصادرة بين عامي 735 - 737 هـ نصيباً للولد المذكور بعثه إلى ملك أرغون وبعض ولاته (قارن: **اللمحة البدرية**، ص. 126).

الداخلية التي تحصل بأوقات متباينة فيها بسبب المشكلات الخارجية التي ينجر لها أحدهم فتنعكس سلباً على الآخر.

وزيادة على ذلك، فقد كشفت لنا تلك المراسلات عن جملة من الحقائق تأتي في مقدمتها ظاهرة المدجنين في مملكة أرغون الذين كانوا يشكلون أثراً اقتصادياً وسياسياً واضحاً، فضلاً عن إبرازها لظاهرة الاعتداءات البحرية المتكررة بين المملكتين وما تسببه من مشكلات إنسانية واقتصادية جسيمة، إضافة إلى المشكلات التي كانت تقع بين الحين والآخر على البر فتدفع بقوة لتبادل المراسلات وإيفاد المبعوثين بغية حلها.

ومن جانب آخر، فقد عكست تلك الرسائل الحالة السياسية التي تعيشها غرناطة داخلياً في تلك المدة ودرجة قوة سلاطينها والشخصيات الأخرى المتنفذة في البلاد كشيخ الغزاة منها.

وأخيراً، فإن المراسلات الغرناطية إلى مملكة أرغون قد أضاءت وأغنت المصادر التاريخية التي تناولت تلك المدة، من حيث أنها قدمت معلومات جديدة عن العلاقات بين المملكتين وضمن تفصيلات عما جرى بينهما تختلف عما ألمحت إليه تلك المصادر بصورة عاجلة ومتيسرة.

المصادر والمراجع

المصادر

الحميري، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، لبنان، 1984.

ابن الخطيب، لسان الدين، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الله عنان، القاهرة، دار المعارف، 1976.

ـ ـ ، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1978.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **العبر وديوان المبتدإ والخبر**، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1959.

ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، الرباط، دار المنصور، 1973.

ـ ـ ، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، الرباط، دار المنصور، 1972.

العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق مصطفى أبو ضيف، ط 1، الدار البيضاء، 1988.

المراكشي، عبد الواحد بن علي، **المعجب في تاريخ المغرب**، تحقيق محمد بن سعيد العريان، القاهرة، لجنة إحياء التراث، 1963.

المراجع والدوريات

باشا، ضيا، **الأندلس الذاهبة**، تعريب عبد الرحمن أرشيدات، عمان، وزراة الثقافة، 1989.

بالاو، ماريونوارياس، «بنو مرين في الاتفاقات المبرمة بين أرغون وغرناطة»، مجلة **تطوان**، العدد الثامن، الرباط، 1963.

برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م**، ترجمة حمادي الساحلي، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.

جوليان، شارل أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية، 1985.

الحجي، حياة ناصر، **العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية**، الكويت، 1989.

الحموي، محمد ياسين، **الأسطول العربي**، دمشق، 1945.

حومد، أسعد، **محنة العرب في الأندلس**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، **أوربا العصور الوسطى**، القاهرة، 1966.

عنان، محمد عبد الله، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين**، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1966.

فرحات، يوسف شكري، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، بيروت، المؤسسة الجامعية، 1982.

كربخال، مارمول، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط، مكتبة المعارف، 1984.

ماهر، سعاد، **البحرية في مصر الإسلامية**، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1967.

المنوني، محمد، **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، الرباط، كلية الآداب، 1979.

Amari, DL Michele, *I Diplomi Arabi R. Archivio Florention,* Firenze, 1863.

Santon, A. and De Linares, R. G., *Los documentos archivo de la Corona de Aragon*, Madrid, 1940.

ثورة غرناطة الكبرى (1568 - 1570 م)

الدكتور علي المنتصر الكتاني
رئيس جامعة ابن رشد
قرطبة ـ الأندلس (إسبانيا)

تمهيد

سلمت مدينة غرناطة آخر معقل للدولة الأندلسية المسلمة بعد حصار طويل من طرف النصارى القشتاليين بتاريخ 1492/1/2 م، وذلك بعد أن وقع طاغية قشتالة وكبار دولته وثيقة من 47 بنداً ضمن فيها حقوق المسلمين كاملة. غير أنه بعد مضيٍ بضع سنين فقط أظهر حكام قشتالة غدرهم وأخذوا يخونون مواثيقهم بنداً بنداً، إلى أن قرروا تنصير جميع الأندلسيين، أولاً بالضغوط المختلفة ثم قهراً؛ مما أدى إلى أول ثورة للمسلمين سنة 1502 م. ثم أسس هؤلاء محاكم التفتيش لملاحقة المسلمين والتجسس عليهم ومعاقبتهم أشد العقوبات إن بقي فيهم بقية إسلام تؤدي إلى الحرق بالنار.

ومات الطاغية فرناندو الكاثوليكي في 1516/1/23 م موصياً أولاده بالقضاء على ما تبقى من الإسلام. وكانت زوجته إيزابيلا قد هلكت قبله في 1504/11/16 م وخلف الطاغية على ملك إسبانيا حفيده كارلس الخامس. فتنفس الأندلسيون الصعداء، إذ واجههم الملك الجديد في أول أمره بشيء من اللين وخفف حدة محاكم التفتيش بعض التخفيف. لكن هذا الوضع لم يدم طويلاً، حيث تحولت أوضاع الأندلسيين من جديد إلى الأسوإ سنة 1524 م.

ففي 1524/3/22 م أصدر كارلس الخامس مرسوماً جديداً يحتم فيه تنصير كل مسلم بقي على دينه وإخراج من أبى التنصير من إسبانيا بعد مصادرة كل أملاكه، وأن يعاقب من أبى التنصير أو الهجرة في المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة، وأن تحول جميع المساجد المتبقية إلى كنائس مع إجراءات تعسفية منها منع المتكلم باللغة العربية ومنع الألبسة الأندلسية ومنع كل المظاهر الثقافية بعد الدينية للأمة الأندلسية. وبعد توسلات الموركسيّين المسلمين إلى الملك كارلس الخامس وطلب الرأفة منه ودفع ما لا يقل عن ثمانين ألف دوقة ذهبية له ولأعوانه، قبل تأجيل تطبيق القانون الجديد لمدة أربعين سنة مقابل دفع الموريسكيين غرامة مالية سنوية باهظة.

وعندما مات كارلس الخامس سنة 1555 م وخلفه ابنه فليبي الثاني، انتظر إلى سنة 1566 بعد مضي الأربعين السّنة فقرر تطبيقه بكل صرامة. ففي مايو من السنة المذكورة حدد قانون كارلس الخامس الذي جدّده ابنه للموريسكيين ثلاث سنين لهجر اللغة العربية تماماً والتكلم باللغة الإسبانية وتلغى فوراً كل العقود المكتوبة باللغة العربية ويُسلم كل ما تبقى من كتب بالحرف العربي لحرقها وذلك في ظرف شهر واحد. وتمنع خياطة أو لباس ألبسة عربية، إلخ. وأعلن هذا القانون الجديد بتاريخ 1567/1/1 م.

1 - تهييء الثورة[1]

لما أعلنت السلطات الإسبانية في 1567/1/1 م القانون الغاشم الذي استهدف ما تبقى من السمات الحضارية للأمة الأندلسية المسلمة، شرعت بملاحقة المسلمين لتنفيذه في كل أنحاء البلاد. فحاول الأندلسيون أولاً تخفيف ما أصابهم بالتفاوض. فرفعوا احتجاجاتهم إلى الرئيس ديسا، رئيس المجلس الملكي (كورتس) يطلبون منه إلغاء هذا القانون، أو على الأقل تأجيل تنفيذه. فتقدم باسمهم وفد يرأسه رئيّس جماعتهم مولاي فرانسيسكو نونيز. لكن ديسا قابل

(1) Diego Hurtado de Mendoza, *Guerra de Granada,* ed. B. Blanco Gonzalez, Madrid, 1970.

الوفد بكل غطرسة وإهانة وإهمال. فأرسل المسلمون آنذاك وفداً إلى الملك فليبي الثاني وإلى وزيره المفتش العام الكاردينال سبينوزا، العدو اللدود للمسلمين. ترأس الوفد خوان أنريكز، وهو رجل نصراني يعطف على المسلمين ويدافع عنهم. وتضمن الوفد مسلمَيْن من أعيان الأندلسيين هما خوان فرناندس من غرناطة وفراندو الحبقي من وادي آش. اجتمع الوفد بأعضاء الكرتس وبالكاردينال اسبينوزا، دون فائدة؛ إذ أجاب الكاردينال أن الملك مصمم على تنفيذ القانون وأن العرائض يجب تقديمها لديسا على أي حال. وطلب ديسا من جهته من الكاردينال تنفيذ القانون بصرامة وقسوة بصفته المفتش العام[2].

وتقدم الماركيز دي مندوجر، حاكم غرناطة، بعريضة إلى الملك أوضح فيها خطورة الموقف لاعتراض المورسكيين على القانون واحتمال ثورتهم بسبب اليأس وطلبهم مساعدة أتراك الجزائر. فلم تأت عريضته بنتيجة، وأخذت السلطات الكنسية تنفذ الأحكام الجديدة في المواعيد المخصصة لها بكل شدة.

وتقدم وفد من مسلمي مملكة بلنسية بالتماسات مماثلة إلى الملك، برئاسة زعيمهم كوزمي بن عامر الذي كان مقرباً للملك. فنجح بعض النجاح في التخفيف من تطبيق هذا القانون، إذ تقرر معاملة المتهمين بالردة (عن النصرانية) ببعض الرفق، بعدم نزع ممتلكاتهم بتهمة المروق عن الدين، مقابل غرامة سنوية قدرها 2,500 مثقال ذهباً يقدمها المورسكيون إلى ديوان التفتيش.

و لم يعد يفكر أهل غرناطة إلا في الثورة للحفاظ على دينهم الإسلام والدفاع عن بلدهم الأندلس بعد أن يئسوا من التعايش مع حكام قشتالة تحت هذه الأوضاع المأساوية. واعتصم عدد كبير من مسلمي مملكتي غرناطة وبلنسية وغيرهما بالجبال للإغارة على قوافل الحكومة وقواتها وضرب مصالحها، وكانوا يسمونهم بالمنفيين. فكانوا أول من ابتدع حرب العصابات ضد الدولة من طرف الشعوب المستضعفة.

---

(2) L. del Marmol Carvajal, « Historia de la Rebelion y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada», *Biblioteca de Autores Españoles*, T. XXI, p. 123 y ss.

وحدد قانون 1567/1/1 م نهاية عام 1567 م موعداً نهائياً لتخلي المسلمين، نساء ورجالاً، عن لباسهم الإسلامي ولغتهم العربية، إلخ. وألف ديسا قوة من الشرطة لمراقبة المسلمين وألزمهم بنفقاتها. لكن الماركيز مندوجر حل هذه القوة لكسب عطفهم. ثم أمر ديسا بإقصاء جميع الموريسكيين عن حي البيازين وأمر بعقوبات صارمة لكل من يتعاون مع المنفيين في الجبال. ثم أصدر أمراً بتاريخ 1568/1/1 م يقضي بأن يسلم المسلمون أولادهم الذين تتراوح أعمارهم بين 3 و15 سنة إلى السلطات الكنسية لتعليمهم الدين النصراني واللغة القشتالية. فأدى هذا القرار الأخير إلى دفع ما تبقى من المؤمنين بحل سلمي إلى التفكير في الثورة[3].

عمل زعماء المسلمين في غرناطة حينئذ على إشعال ثورة شاملة تعيد للأندلس دولتها وللمسلمين عقيدتهم. فاجتمعوا سراً أواخر سنة 1567 م في حي البيازين، وتوصلوا إلى شرطين أساسيين لإنجاح الثورة، وهما: أولاً، ضرورة مشاركة جميع مسلمي الدولة الإسبانية في الثورة إن أمكن، أو جميع مسلمي مملكة غرناطة على الأقل؛ ثانياً، ضرورة الحصول على العون المادي بالسلاح والرجال والمال من المغرب والجزائر. وكانت الجزائر آنذاك تابعة للدولة العثمانية، والمغرب تحت حكم الدولة السعدية.

ارتكز أمل الثوار الأندلسيين على الدولة العثمانية، خاصة بعد حصارها لمالطة سنة 973 هـ/ 1565 م. وكان سلطانها حينذاك سليم الثاني، بويع بعد وفاة والده السلطان سليمان القانوني يوم 20 صفر عام 974 هـ (1566/9/5 م). كان السلطان سليم في حرب مع الدول الكاثوليكية في البحر الأبيض المتوسط، وأصبح هدفه الأول تحرير قبرص من البندقيين لتأمين طريق الحج البحرية. وكان الإسبان يحتلون مناطق واسعة من الشواطئ المغربية والجزائرية والتونسية. وأمام الخطر الذي كان يهدد أهل شمال إفريقيا بالمصير نفسه الذي آل إليه الأندلسيون، استغاثوا بالدولة العثمانية. فحرر العثمانيون الجزائر سنة 1519 م وطرابلس سنة 1551 م،

---

(3) Gines Perez de Hita, *Guerras Civiles de Granada*, Primera Parte, Madrid, 1913.

وأصبحت الجزائر منذ ذلك الحين مركزاً قوياً للوجود الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط، وعاصمة لولاية عثمانية قوية. وأسند السلطان سليم الثاني في ذي الحجة عام 974 هـ (يونيو 1566 م)، منصب بيلرباي الجزائر للرئيس محمد بن صالح محل الرئيس حسن بن خير الدين؛ وعين هذا الأخير قائداً عاماً للأسطول العثماني. ثم خلف الرئيس محمد بن صالح في 14 صفر عام 976 هـ (1568/8/18 م)، الرئيس العلج علي، وهو مسلم من مواليد كاستل بجنوب إيطاليا[4].

كان المغرب يقاوم كذلك الاحتلالين الإسباني لشواطئه المتوسطية، والبرتغالي لشواطئه الأطلسية. وكانت تتنازعه الدولتان الوطاسية والسعدية، فانتهى الصراع بينهما بتوحيد المغرب تحت الدولة السعدية في 24 شوال عام 961 هـ (1554/9/22 م) [5].

اتصل منظمو الثورة بالسلطات العثمانية في الجزائر والسعدية في المغرب بسرية كاملة، وبالشخصيات الشعبية في البلدين لطلب العون والمساندة. وقد وصلتنا بعض هذه الرسائل، نأتي بمقتطفات من اثنتين منها: الرسالة الأولى، وهي على شكل قصيدة، قال فيها كاتبها محمد بن محمد بن داوود، أحد زعماء الثورة، بعد أن افتتحها بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله الكريم[6]:

> استمعوا إلى قصة الأندلس المحزنة، وهي تلك الأمة العظيمة التي غدت اليوم ضعيفة مهيضة، يحيط بها الكفرة من كل صوب، وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لا راعي لهم. وفي كل يوم نُسام سوء العذاب ولا حيلة لنا إلا المصانعة حتى ينقذنا الموت مما هو أشر وأدهى، وقد حكموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمة، وفي كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب وخدع وانتقامات جديدة. ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية وعبادة الصور، وهو مسخ لعبادة الواحد القهار، ولا يجرؤ أحد على التذمر أو الكلام. وإذا ما قرع الناقوس، ألقى القس عظته بصوت أجش، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير، ثم تنحني الجماعة أمام الأوثان دون حياء ولا خجل... ومَنْ

(4) نبيل عبد الحي رضوان، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واستزداده في مطلع العصر الحديث**، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1987.

(5) محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، الرباط، 1976.

(6) Ref. (3. 2), T. III, Cap. IX.

عَبَدَ الله بلغته قضي عليه بالهلاك، ومن ضبط ألقي في السجن وعذب ليل نهار حتى يرضخ لباطلهم.

ثم يصف جرائم محاكم التفتيش ضدهم من اعتقال وتعذيب وقتل بالحرق، ثم يقول:

وقد علقوا يوم العيد (ذكرى سقوط غرناطة) في ميدان باب البنود قانوناً جديداً وأخذوا يدهمون الناس في نومهم ويفتحون كل باب، يزمعون تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا، ويمزقون الثياب ويحطمون الحمامات. ونحن إذ نيأس من عدل البشر نستغيث بالنبي ﷺ معتمدين على ثواب الآخرة، وقد حثنا شيوخنا على الصلاة والصوم والاعتصام با لله فهو الذي يرحمنا في نهاية الأمر.

والرسالة الثانية موجهة من أحد زعماء الثورة في البيازين إلى أحد رؤساء المغرب، يناشد كاتبه إخوانه المغاربة، ويستغيث بهم بحق روابط الدين والعرق، ويصف ما قرره حكام قشتالة «من إرغامهم على ترك اللغة والشريعة، وكشف الوجوه الحيية المحتشمة، وفتح الأبواب، وما أنزل بهم من محن السجن والأسر ونهب الأملاك»، ويطلب إيصال استغاثته للسلطان العثماني. ثم يقول: «لقد غمرتنا الهموم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة. إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل، ولقد كتبنا لكم في ليال تفيض بالعذاب والدمع، وفي قلوبنا قبس من الأمل إذا كانت ثمة بقية من الأمل في أعماق الروح المعذبة»[7].

جاءت الأجوبة من الجزائر والمغرب تعد بالمساندة. فقد وعد سلطان المغرب بالنجدة عندما تعلن الثورة، ووعد بيلرباي الجزائر بإرسال قوات مساندة تنزل على شواطئ الأندلس إثر إعلان الثورة، وأرسل مع المبعوثين المال والسلاح، ولحق بهم من الجزائر والمغرب بعض المتطوعة للجهاد. فشجعت ردود الفعل هذه منظمي الثورة وقوت عزيمتهم على القتال[8].

---

(7) وترجمتها بالعربية من كتاب: محمد عبد الله، **نهاية الأندلس**، ط 3، ص ص. 362 ـ 363.

(8) عبد الجليل التميمي، «الدولة العثمانية وقضية المورسكيين»، **المجلة التاريخية المغربية**، تونس، العدد 23 ـ 24، نوفمبر 1981.

وفي الوقت نفسه قام منظمو الثورة بالاتصال بمدن وقرى مملكتي غرناطة وبلنسية بتكتم شديد. وكان المورسكيون قد أسسوا جمعية خيرية صرح لها بجمع المال لبناء مستشفى خارج غرناطة للفقراء المرضى. ولم يكتمل بناء المستشفى، فاقترح منظمو الثورة على رئيس الجمعية أن يبعثوا تحت ستار جمعيته وفوداً لجمع المال تعمل في الحقيقة على تنظيم الثورة في المناطق المختلفة، وحصلوا على ترخيص بذلك من الرئيس ديسا. فذهب ثلاثة من زعماء المسلمين لهذه المهمة في وفد عمل على تقصي مستوى مساندة الأندلسيين للثورة بتكتم شديد. وقدروا عند رجوعهم عدد من يمكن أن ينضم إلى الثورة بـ 45,000 رجل ممن تتراوح أعمارهم بين 20 و 45 سنة. وتبين أن جميع مناطق مملكة غرناطة القديمة تساند الثورة، لكن مسلمي مملكتي مرسية وبلنسية رفضوا المشاركة فيها لعدم ثقتهم بنجاحها ولدوام أملهم في تحرير العثمانيين لهم[9].

وبالرغم من تستر منظمي الثورة الشديد، فقد أخذت الإشاعات تنطلق بقرب ثورة المسلمين. لكن لا الرئيس ديسا، رئيس الإدارة في المدينة، ولا المركيز دي مندوجر، القائد العام للجيش، صدقا هذه الإشاعات. ولإبعاد الشك، أرسل منظمو الثورة ممثلاً عنهم إلى الرئيس ديسا يشتكي من هذه الإشاعات وادعى أنها كاذبة، واقترح باسم المورسكيين تقديم 300 رهينة عنواناً لحسن نيتهم[10].

ثم اجتمع زعماء الثورة للمرة الثانية في البيازين ودرسوا ردود الوفود إلى الأندلس وإلى المغرب والجزائر. فقرر المجتمعون إعلان الثورة يوم الخميس المقدس (1568/4/14 م)، ووزعوا بينهم مسؤوليات أخبار المناطق الأندلسية المختلفة والمغرب والجزائر. ولم تسر الخطة حسب ما قرر لها، إذ قام أحدثهم بتبليغ الرئيس ديسا في 1568/4/5 م، فاضطر المنظمون إلى تأجيل موعد إشعال الثورة. واعتقل ديسا عدداً من وجهاء المسلمين، وألغى تصاريح اقتناء الأسلحة، كما ذهب القائد

---

(9) محمد عبده حتامله، **التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فليب الثاني 1527 ـ 1598**، عمان، الأردن، 1982.

(10) Julio Caro Baroja, «*Los Moriscos del Reino de Granada*», Edicionnes Isfmo, Madrid, 1976.

العام إلى حي البيازين يأمر الناس بالهدوء والسكينة والحفاظ علـى الأمـن. فطمأن بعد ذلك زعماء المسلمين الرئيس ديسا والماركيز دي مندوجر، ثم حددوا موعداً آخر لإعلان الثورة الذي أجل مرة أخرى.

وفي 1568/9/27 م، عقد هرنـاندو بـن جهـور الصغير، أحـد قـواد الثـورة الذي كان «وزيراً» في بلدة قديار بالبشرات، جمعاً في حي البيازين لقادة الثـورة في بيت رجل شماع اسمه «عدلت»، حضره 26 ممثلاً عن المنـاطق الأندلسية المختلفـة. فشرح لهم ضرورة بيعة سلطان الأندلس قبل إعلان الثورة ليجتمـع النـاس حولـه، ورشح لهم ابن أخيه فراندو دي بالور وقرطبة. وكان هرناندوا وفراندو ينحـدران من الأمويـين، خلفـاء قرطبـة. كـان فرنـاندو في الثانيـة والعشـرين مـن عمـره، ذا شجاعة ورجاحة عقل، ولد في بلـدة بـالور بجبـال البشـرات وأصلـه مـن قرطبـة. وكان يعمل ممثلاً في بلدية غرناطة. وكان متزوجاً من مسلمة اسمها بريانـدة بريـز، وكانت هي ونساء المسلمين من أول وهلة يشاركن في تهييء الثورة بكل كتمـان وتشجيع. فبايعه الحاضرون، وحول اسمـه إلى محمـد بـن أميـة. ثـم نهـض وصلـى بالحاضرين وأقسم أمامهم على القيام بالجهاد حتـى النصر أو الاستشـهاد. وعـين السلطان محمد بن أمية عمه هرناندو بن جهور الصغير قـائداً عامـاً للثـورة. واتفـق الحاضرون على إعلان الثورة يوم 1569/1/1 م، على النحو التالي: ينتظـم الثـوار في حي البيازين إلى ثلاث فرق عند ظهور إشارة محـددة واضحـة فـوق مرتفـع جبـل قصر الحمراء: الأولى تحمـل العلـم الأحمـر، والثانيـة العلـم الأصفـر، والثالثـة العلـم الأزرق. ومن جهة أخرى، يجتمع ألفان مـن الثـوار لتسلق أسوار قصـر الحمـراء واحتلاله. يحتل حاملو العلم الأحمر باب فج اللوزة، ثم يتجهـون مـن بـاب سـري إلى المستشفى الملكي ويدخلون من باب البيرة لاحتـلال محكمـة التفتيـش لسـجن أعضائها وتحرير سـجنائها. ويحتـل حـاملو العلـم الأصفـر سـاحة بـاب البنـود ثـم يتجهون إلى السجن لتحرير السجناء. ويأخذ حـاملو العلـم الأزرق طريقهـم عـبر مدخل وادي آش ونهر هدره، ويتجهون إلى مركز الرئيـس ديسـا لقتلـه. وتلتقـي الفرق الثلاث في ساحة باب الرملة. وحينئذ يتجه 8000 متطـوع مـن أهـل مـرج

غرناطة ووادي الإقليم للدخول إلى المدينة واحتلالها مرتدين ملابس الجند العثماني والمغربي للتمويه على النصارى وجعلهم يعتقدون قدوم الجنود العثمانيين والمغاربة. ويحتل قصرَ الحمراء ألفان من المنفيين برئاسة القائدين البرطال والناقص عن طريق وادي شنيل بعد تسلق أسوار الحمراء من ناحية جنة العريف. وهكذا وقع تخطيط الثورة وتحديد مسؤولية كل من حضر.

من البداية، عمل زعماء الثورة على التغلب على الانقسامات الأندلسية بين العائلات وبين سكان المناطق المختلفة، التي كان معظمها ممثلاً في زعامة الثورة: فرج بن فرج ومحمد بن داوود وابن عبو من مدينة غرناطة، ومحمد بن أمية وابن جهور وميغال روخاس وهرناندو الحبقي والرامي والمليح وغيرهم من البشرات. كما حدد الثوار موعد الثورة في الشتاء ووقت انتشار الثلوج لمعرفتهم بالأرض الغرناطية أكثر من الجيوش القشتالية[11].

2 - إعلان الثورة وبيعة ابن أمية

ابتدأت الاصطدامات بين الأندلسيين والقشتاليين قبل إعلان الثورة. ففي 1568/12/23 م، خرجت كوكبة من حراس محكمة غرناطة وكتبتها لقرية بقيرة بالبشرات لقضاء أعياد رأس السنة يصحبهم خمسون جندياً مسلحين بالبنادق، فاتجهوا من مرسى مطريل إلى حصن هريرا لحمايته. كانت عادة الجنود الإسبان عند مرورهم بالقرى الأندلسية القيام باعتداءات لا حصر لها من سلب وقتل واغتصاب. فعندما نزلوا قرب بلدة قديار وأخذوا يعتدون على أهلها، هاجمتهم مجموعة من المنفيين برئاسة استبان البرطال، فأبادتهم واستولت على أسلحتهم، فكانت هذه المعركة هي الشرارة الأولى التي أعلنت الثورة.

وفي ليلة 23 ديسمبر غادر خفية السلطان محمد بن أمية غرناطة متجهاً إلى البشرات. وفي الليلة نفسها أخبر شخص أحد القسس بأنه يعمل بالحمراء وأنه

(11) أسعد حومد، **محنة العرب في الأندلس**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988، ص ص. 336 - 389.

أعطى بعض المسلمين معلومات عن مقاييس سلالمها. فأبلغ القسيس فوراً الرئيس ديسا والقائد العام دي مندوجر اللذين زادا في عدد الدوريات والحرس. و لم تستمر الثورة على مخططها الأول، إذ هطلت ثلوج غزيرة على جبال شلير فقطعت الطريق إلى غرناطة، فلم يتمكن الثوار من الوصول إلى غرناطة من البشرات في التاريخ المحدد، أي في 1568/12/24 م. لكن بيلرباي الجزائر، علج علي، أرسل ـ حسب الموعد ـ إمدادات نزلت للمجاهدين في جهتي ألمرية ومربلة، ووصلت إلى أماكنها في جبال البشرات(12).

و لم يحسب فرج بن فرج للثلج حساباً، فتحرك من البشرات على رأس 180 مجاهد، ونفذ إلى حي البيازين ليلاً، وحاول إقناع أهله بالثورة وتنفيذ الخطة التي اتفق عليها ووعد بوصول الرجال. غير أن أهل البيازين رفضوا نصرته عندما رأوا قلة أعداد المجاهدين الذين معه. واضطر فرج بن فرج، بعد محاولات يائسة طول الليل، إلى الرجوع إلى البشرات وانضمت إليه جموع المجاهدين. وكان خذلان أهل حاضرة غرناطة للثورة أول نكسة لها. لكنها لم تفت في عزيمة المجاهدين الذين ركزوا عملياتهم بعد ذلك على جبال البشرات(13).

وتوجه محمد بن أمية إلى وادي الإقليم حيث جددت بيعته يوم 1568/12/29 ملكاً للأندلس ورئيساً للثورة في بلدة بردنار. فأعاد تعيين عمه رئيساً للجيش، وفرج بن فرج رئيساً للوزراء. وأرسل الوفود لكل طاعات (محافظات) البشرات الاثنتي عشرة، فبايعته جميعها. ثم توجه محمد بن أمية إلى البشرات، واستقر في لوشر حيث اتخذ عاصمته الموقتة. و لم تدخل سنة 1569 م حتى احتل المجاهدون جميع جبال البشرات ووادي الإقليم بعد طرد الحاميات القشتالية.

وأخذ السلطان محمد بن أمية في تعيين قواد المناطق ومستشاريه العسكريين. فعين شعبان ميكيل دي غرناطة قائداً لوادي الإقليم، وماركوس الزمار قائداً لمنطقة فوجر، وماتيو الرامي قائداً لمنطقة ألمرية، وفراندو الغري قائداً

(12) Ref. (3. 2), T. IV, Cap. IV, p. 185.

(13) Luis Cabrera de Cordoba, *Felipe Segundo, Rey de España*, Madrid, 1876 -77, Vol. I, p. 554 (Lib. VII, Cap. XXI).

لوادي المنصورة، وفرانسسكو بورتوكريرو بن مكنون قائداً للمنطقة الشرقية، وجرنيمو بن المليح قائداً لمنطقة وادي آش، ومارتين قائداً لمنطقة عذرة، إلخ. واختار ثلاثة من المجاهدين مستشارين عسكريين له، هم الناقص والرنداتي والأرشذوني. ومنذ بداية الثورة، أخذ فرج بن فرج يقوم بعمليات انفرادية بين شواطئ بيرة شرق شمال ألمرية وجبل طارق دون تنسيق مع القيادة، فأزاحه محمد ابن أمية وعين مكانه عمه ابن جهور. وكان في انسحاب هذا القائد الفذ من الثورة في أولها نكسة ثانية لها، ولكنها مرت بسلام ودون انشقاق في صفوف المجاهدين. وتابع فرج بن فرج جهاده دون رئاسة، مما يدل على إخلاصه وحسن طويته.

أخذ ابن أمية يدعو المجاهدين والأهالي للرجوع إلى الأصالة الإسلامية، ونبذ الألقاب والأسماء النصرانية المفروضة، وإعادة الألقاب والأسماء الإسلامية، والاهتمام بالصلوات الخمس وبإحياء المساجد. ووقعت نقمة الثوار على موظفي الحكومة الذين أذاقوا المسلمين شر العذاب. فانقض عليهم الثوار ومزقوهم شر ممزَّق، وعمل محمد بن أمية على منع المجاهدين من الانتقام وقتل الأبرياء.

ثم أرسل ابن أمية البعثات إلى العالَم الإسلامي يطلب العون والمساندة. فأرسل أخاه عبد الله بن أمية إلى الجزائر، وفراندو الحبقي إلى المغرب.

جاء رد فعل الدولة الإسبانية في فوضى ناتجة عن نزاع قواد الجيش، وإطلاق العنان للجنود والأهالي للانتقام من المسلمين العزل الذين يقعون في أيديهم، من أطفال ونساء، لنهبهم وقتلهم وتشريدهم بكل شراسة. وكان بين الرئيس ديسا والماركيز دي مندوجر، القائد العام للجيش، عداوة ثابتة. كان ديسا وأعوانه يشتكون للملك بمندوجر، ويتهمونه بشتى التهم؛ فعمد، نكاية في مندوجر، إلى إجراءين: أولهما تأليف حرس وطني تحت رئاسة أحد ضباط البلدية الذين ينتمون إلى عائلة معادية لعائلة مندوجر؛ وثانيهما إرسال كتاب إلى الملك يطلب منه فيه تكليف ماركيز بلش، قائد منطقة مرسية، بمهاجمة البشرات من المنطقة الشرقية. وينتمي هذا الماركيز هو أيضاً إلى عائلة معادية لعائلة مندوجر. وهكذا تكون جيشان معاديان: أحدهما تحت قيادة دي مندوجر لينطلق من

غرناطة في اتجاه البشرات شرقاً؛ والثاني تحت قيادة ماركيز بلش لينطلق من مرسية في اتجاه البشرات غرباً. فانطلق الجيش الثاني في 1569/1/4 م ومر علـى ألمرية، ثـم وصل إلى سفح جبال البشرات، فقطع الصلة بين ثوار وادي المنصورة ومناطق ولاية ألمرية الأخرى وثوار البشرات. وفي 1569/1/11 م تلقى ماركيز بلش أمر الملك بتعيينه قائداً عاماً فوق العادة لمنطقة ألمرية. وخرج جيش مندوجر من غرناطة بتاريخ 1569/1/2 م يصحبه عدد من القواد كلويس دي قرطبة وألونسو دي غرناطة بنيغش. وطلب الملك مساعدات لإنهاء الثورة من الممالك النصرانية، خاصة لومبارديا ونابل وصقلية.

اتجه مندوجر بجيشه نحو وادي الإقليم وعسكر في البذول. فواجهه المسلمون برئاسة شعبان في وادي الإقليم. وفي 1569/1/4 م، وجه نحوه السلطان محمد بن أمية جيشاً برئاسة "شابا"، عسكر في بقيرة، ومنها أخذ يهاجم طلائع جيش الماركيز مندوجر في دورقال. وفي 1569/1/9 م، زحف جيش مندوجر إلى جسر طيلانة الذي دمره الثوار المسلمون احتياطاً. فوقعت أول معركة كبرى بين المسلمين وجيش مندوجر عند هذا الجسر، نجح بعدها القشتاليون في عبور الجسر ومتابعة تقدمهم نحو لانجرون، ثم أرجبة، ثم بقيرة حيث تمركز جيش الثوار برئاسة السلطان محمد بن أمية في بوبين. وهناك جرت المعركة الثانية بين الثوار وجيش مندوجر اضطر بعدها محمد بن أمية إلى الانسحاب، فقام الجيش الإسباني بجرائم لا تخطر على بال من قتل وسبي العزل من النساء والأطفال ونهب الممتلكات.

وفي 1569/1/17 م وصل جيش مندوجر إلى بلدة جبيلش، فاستسلمت قلعتها، وكان بها حوالي 300 مجاهد. وتقول الروايات إن صهر (والد زوجة) محمد ابن أمية أخذ يفاوض مندوجر على الاستسلام مقابل ضمانات كافية له ولأتباعه، كما تتهم الروايات ابن جهور بالضعف وبأنه عرض على مندوجر في جبيلش الاستسلام مقابل العفو عنه وعن أتباعه. و لم يستطع مندوجر البت في الأمر قبل مراجعة الملك.

وفي ليلة 1569/1/18 م سجن الماركيز دي مندوجر جميع الأهالي المسلمين الذين وجدهم في البلدة، وعددهم حوالي 2400 طفل وامرأة و300 رجل مسن. وفي الليل، انقض عليهم الجنود قتلاً حتى أتوا عليهم جميعاً. فكانت مذبحة مروعة دامت حتى الصباح، وفتحت سجلاً جديداً من المذابح التي سيتعرض لها المسلمون في هذه الحرب. وعند وصول هذه الأخبار إلى الملك، أرسل فرانسيسكو دي قرطبة إلى المرية بصفته قائداً عاماً، وأرسل ديكو دي مندوسة للاطلاع على الأوضاع في جبيلش.

وترك مندوجر جبيلش بجيشه يوم 1569/1/23 م مطارداً الثوار في بسيط أجيجر. وكان محمد بن أمية معسكراً بجيشه في أندرش. فطلب مندوجر من ألونسو دي غرناطة بنيغش، وهو من أصل إسلامي، التوسط لدى محمد بن أمية ليستسلم ويسلم أسلحته مقابل العفو العام عن جميع الثوار، وفي الوقت نفسه تابع مندوجر تحرشاته بالمجاهدين: إذ اشتبك معهم قرب بطرنة يوم 1569/1/27 م. ثم احتل الجيش القشتالي بطرنة واعتقل مئات المسلمات بمن فيهن والدة محمد بن أمية وشقيقتاه، وتابع الجيش سيره إلى أن احتل أندرش، ناشراً النهب والسرقة والخراب والموت في طريقه.

ثم رجع جيش مندوجر إلى أجيجر وبقي بها خمسة أيام يجهز حملته على مناطق شلوبانية والمنكب وجبل واجر للقضاء على قوة من المجاهدين أعلاه تحت قيادة الزمار. ففي يوم 1569/2/11 م قام جيش مندوجر بثلاث هجمات لاحتلال ذلك الجبل الوعر، فقاومه المجاهدون في قلعة واجرش إلى أن هزموا، وقبض الإسبان على القائد الزمار وابنته واقتادوهما إلى غرناطة وقتلوهما ومثلوا بهما شر تمثيل بعد أن عذبوهما شر عذاب. وقتل جنود مندوجر كل من وقع بأيديهم من أهل المجاهدين، نساء وأطفالاً وشيوخاً، وانتشروا في البلدة يسرقون وينهبون.

واعتقد مندوجر أن القضاء على الثورة أصبح وشيكاً وأراد القبض على محمد بن أمية. فلاحقه بجيشه على رؤوس الجبال، وقد علم من جواسيسه أن ابن أمية يقضي الليل في بيت محمد بن عبو في بلدة مشينة. فهجم الجيش على بيت ابن عبو، لكن ابن أمية تمكن من الإفلات.

وكان فراندو الغربي، قائد المجاهدين في الجبهة الشرقية، قد عسكر في بلدة جسيقة على وادي أندرش. فتوجه جيش الماركيز دي بلش على رأس جيش قوامه خمسة آلاف رجل وثلاثمائة فارس، وصفهم المؤرخون الإسبان بأنهم كانوا جميعاً لصوصاً وقتلة، لا يهمهم إلا السلب والنهب وإزهاق أرواح العزل. فوصل الجيش إلى جسيقة يوم 1569/1/12 م واشتبك في أكبر معركة له مع المجاهدين، اضطر فيها الثوار إلى الانسحاب إلى أندرش. فلحقهم الجيش، لكن فرقة من المجاهدين اتجهت نحو ألمرية بقيادة ابن مكنون، واستقرت بضواحيها في بلدة فليش. فتحول نحوها جيش دي بلش خوفاً من سقوط ألمرية في يد المسلمين. فاشتبك الجيش مع فرقة ابن مكنون في 1569/1/18 م وأرغمها على الانسحاب بعد أن استبسلت في الدفاع عن الحصن في معركة شارك فيها النساء والأطفال. وقد قتل جيش دي بلش في هذه المعركة عدة آلاف من المسلمين وأسر نحو 2,000 من النساء والأطفال وباعهم بصفتهم عبيداً، من بينهم ابن وأختان للقائد ابن مكنون. ثم اتجه الجيش نحو أندرش وأوهانش.

هكذا كان وضع الثورة الأندلسية في أواخر شهر فبراير عام 1569 م: حرب غير متكافئة، لا هوادة فيها، يدافع فيها المسلمون بأسلحة بالية دون تدريب عسكري مسبق ضد جيشين كبيرين لأقوى دولة في أوروبا آنذاك. وللتغلب على حرب العصابات التي مهر فيها المسلمون، عمل الجيش القشتالي إلى قتل عائلاتهم من نساء وأطفال وسبيهم وبيعهم رقيقاً في الأسواق. ولم ينج المسلمون الذين رفضوا الانضمام إلى الثورة، كأهل غرناطة، من هذه المعاملة، إذ تابعهم الجيش بمضايقات لا حدود لها كانت أفظعها مذبحة سجن غرناطة[14].

في مارس عام 1569 م انتشرت إشاعات مفادها أن ابن أمية سيحتل غرناطة على رأس قوة من المجاهدين. فهجم حرس السجن في 1569/3/17 م على السجناء يذبحونهم دون سابق إنذار، ثم فتحوا أبواب السجن لعامة الجيش،

---

(14) Comte de Circourt, *Histoire des Arabes d'Espagne* , Paris, 1846, Vol. 2, p p. 316-443.

وأمضوا الليل جميعاً قتلاً في المسلمين العزل حتى أتوا على ما لا يقل عن 150 سجيناً من أعيان غرناطة الذين احتفظ بهم الإسبان رهائن للضغط على المجاهدين. و لم ينج من هذه المذبحة الشنيعة سوى والد محمد بن أمية أنطونيو دي بالور وأخيه فرنسيسكو. ثم بعد هذه المذبحة، قامت محاكم التفتيش بالحكم على القتلى بمصادرة أموالهم.

ولما علم أهل مملكة غرناطة بهذه الجريمة، ثاروا في عدة مدن، كطرش وعذرة، ضد الجيش، وقتلوا عدداً من الجنود والضباط. بينما قضى جيشا دي مندوجر ودي بلش معظم شهر مارس في القتل والسلب والنهب. وكان مصير من استسلم من المجاهدين الاسترقاق. غير أن شراسة الجيش ضد المسلمين، المسالمين منهم والمحاربين، أدت بالمسلمين إلى تفضيل الموت في معركة الدفاع عن الدين والشرف على الموت دون سبب، مما أذكى روح الجهاد من جديد.

و لم يلتحق بالمجاهدين من الدول الإسلامية إلا بعض المتطوعة المغاربة والجزائريين والأتراك، وقليل من المال والعتاد من الجزائر. وهذا نص رسالة جوابية من السلطان سليم للمجاهدين الأندلسيين[15] في هذه الفترة:

مهمة دفتري رقم 14 حكم رقم 231 بتاريخ 24 شوال عام 977 موافق 1569/1/20 م، أعطى إلى خليل جاوخي في 10 ذي القعدة. حكم إلى أهالي الأندلس.

وصل إلى أستانة سعادتنا عرض حالكم الذي جاء فيه أن الكفار ـ دمرهم الله وأضلهم ـ قد سلبوكم أسلحتكم ومنعوكم من التحدث بالعربية، وأنهم يتعرضون لنسائكم ويمارسون كل أنواع الظلم والتعدي عليكم. وتعلمون أنه يوجد حالياً لديكم عشرون ألف رجل مسلم كما أن هناك مائة ألف رجل قادر على حمل السلاح. وعلمنا باستلامكم مقداراً من السلاح من الجزائر، وأن ذلك قد ربط على قلوبكم، وتمكنتم بذلك من تكبيد الكفار العديد من الخسائر. فالحمد لله على نصر أهل الإسلام، وليكتب لهم الفوز الدائم على الكفار، أضلهم الله. وقد عرض بالتفصيل كل ما جاء في عرض حالكم من تحريرات وتقريرات على سرير سعادتنا، وأحاط علمي الشريف الملوكي وشمل كل ما يتعلق بأحوالكم وأخباركم، وأن أنظاري منصرفة دائماً نحوكم.

(15) مرجع (2 ـ 4)، ملحق رقم 2.

ولكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالكي المحروسة، والتي كانت على العهد والأمان منذ زمان أجدادي العظام، أنار الله براهينهم، نقضوا تلك العهود وأخذوا بالتعدي على التجار وأهل الإسلام والمسافرين بحراً لطواف بيت الله الحرام وزيارة تربة حضرة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية. وبذلك، فإنهم مصرون على العصيان والطغيان. لذا بعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوسل والإسناد إلى المعجزات كثيرة البركات لفخر الموجودات صلوات الله عليه وسلامه. وكذلك، بالاستمداد بالأرواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام، عليهم رضوان الله تعالى أجمعين، فقد استقرت نيتنا الملوكية على فتح وتسخير الجزيرة المزمورة في الربيع الآخر القادم. ونضرع إلى عتبة حضرة الحق ـ جل وعلا ـ أن ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وأن يبسط أيدينا عليها حتى تؤهل بأهل الإسلام، كما كانت عليه، وكي تقام فيها شعائر الشرع الشريف، وحتى يأمن التجار من غدوهم ورواحهم، وينصرفوا للدعاء بثبات ومجد ورفعة الدولة.

وبما أن الوضع على هذا الحال، فإن إرسال الأسطول الهمايوني المظفر لحمايتكم سيتأخر ريثما يتم إيصال المراكب للعساكر المنصورة للجزيرة المزمورة. وسيتم ذلك إثر إنهاء الأسطول لمهمته بعناية الحق.

وقد أرسل أمري الهمايوني المؤكد إلى أمير أمراء الجزائر الذي تتجه أنظاره وأفئدته نحوكم لإرسال النجدة والمعونة لكم، إما بإرسال العساكر المظفرة أو بإرسال العدة والعتاد. وبموجب أمري الشريف، فإن أمير أمراء الجزائر سيكون خير معين وظهير لكم.

كما أننا نتوخى من خلال حميتكم الإسلامية المتأصلة في حلبتكم عدم التراخي عن إظهار غيرتكم على الدين المتين، فلتظهروا أنواع اخدامكم وأصناف اهتمامكم في الحرب والقتال والجدال ضد الكفار الأذلاء. والمأمول ألا يضن علماء وصلحاء وسائر أهل الإسلام في تلك الديار بالدعاء ليل نهار بتيسير الفتح والنصر للغزوة المظفرة. ولا تتوانوا عن إعلامنا باستمرار عن أحوال وأوضاع تلك الديار.

3 ـ انتشار الثورة واستشهاد ابن أمية

قرر الملك فليبي الثاني الاتجاه إلى البشرات لإخضاعها بنفسه، عندما رأى صعوبة القضاء على الثورة، أسوة بسلفه الملكين الكاثوليكيين. فاقترح عليه الكاردينال اسبينوزا بدل ذلك، إرسال أخيه «غير الشرعي»، دون خوان

النمساوي، على رأس جيش جديد. فعينه الملك في 1569/3/17 م ووضع تحت إمرته مجلساً حربياً. ثم أرسل إلى دي مندوجر يخيره بين البقاء تحت إمرة دون خوان أو الانتقال إلى المجلس العسكري في غرناطة بصفته أحد أعضائه. ففضل مندوجر الانتقال إلى غرناطة.

وفي 1569/4/6 م ودع دون خوان أخاه الملك وتوجه إلى غرناطة التي وصلها في 1569/4/13 م. وفي 1569/4/14 م، اجتمع بزعماء الأندلسيين الذين اشتكوا إليه من سوء المعاملة والاحتقار ونزع الممتلكات وإزهاق الأرواح بلا سبب، فوعدهم بحماية كل من يخلص منهم للنصرانية. وفي 1569/4/22 م عقد دون خوان مجلساً حربياً لتخطيط القضاء على الثورة، حضره الماركيز مندوجر والرئيس ديسا. واختلفت الآراء في المجلس؛ فصوت دي مندوجر إلى جانب الذين فضلوا الهدنة والمفاوضة مع المجاهدين، بينما صوت ديسا ومعظم أعضاء المجلس الآخرين على تهجير الأندلسيين من حي البيازين ومن مرج غرناطة ونقلهم إلى قشتالة. وبالرغم من أن دون خوان لم يدل بصوته، فقد أبدى ارتياحه للحل الثاني.

وأمام هذه المخاطر الجديدة التي تهدد الأندلسيين، والأعمال الهمجيّة التي قام بها العسكر القشتالي ضد المجاهدين وعائلاتهم، والتجاوزات المتناهية ضد كل أندلسي، خاصة المجزرة الرهيبة التي كان ضحيتها رهائن سجن غرناطة، فقد أخذت أفواج المتطوعين تنضم إلى المجاهدين مفضلة الموت والسلاح في يدها على العبودية أو الموت في الشوارع والبيوت. وانزرعت بذلك في الجهاد روح جديدة من الحماس والقوة.

وطلب ملك إسبانيا العون من الممالك الأوربية، فتقاطر عليه المتطوعون والمرتزقة من كل أطراف أوروبا: جاء دون لويس دي ريكسنس من إيطاليا على رأس قوة بحرية تتكون من 24 سفينة نزلت على شاطئ البشرات واشتبكت مع الثوار المسلمين في 1569/4/28 م. فهزمت القوة وخسرت كثيراً من قوادها قبل أن ترتد إلى فرجليانة. وفي 1569/5/13 م، سمح نائب الملك في مقاطعة قطلونية للمتطوعين بالالتحاق بالجيش الإسباني لمحاربة المجاهدين، كما سهل في 1569/5/18 م على

الجنود الفرنسيين الاتجاه إلى البشرات. وهكذا اشترك آلاف الجنود من كل أنحاء أوروبا في حرب صليبية حاقدة ضد الأندلسيين، وتقاطروا على مملكة غرناطة براً وبحراً[16].

كان ابن أمية يقيم في طاعة أجيجر بالبشرات وخطط مع قواته الهجوم على الجيش القشتالي وحلفائه محاولاً الحفاظ على المبادرة بالاستفادة من المعارك السريعة المباغتة وتجنب المعارك المكشوفة. ووزع المجاهدون فرقهم المقاتلة في ضواحي ألمرية ووادي المنصورة ووادي آش ووادي شنيل ومرج غرناطة ووادي الإقليم وجبال البشرات وجبال منتماس شرق مالقة ومنطقة رندة، أي كل نواحي مملكة غرناطة القديمة، حتى أنه قيل إن بعض فرق المجاهدين دخلت حاضرة غرناطة نفسها.

وأخذ المجاهدون المبادرة في كثير من الأحيان: فاجأ المجاهدون كتيبة من 400 جندي تحت إمرة حاكم وادي آش الذي تحرك بأمر من ماركيز دي بلش لاحتلال مضيق رياحة، فهزموها وقضوا عليها. ثم شتت المجاهدون قوة تحت إمرة حاكم بلش أرادت أن تحتل صخرة فرجليانة، فهزموها وتابعوها إلى بلش. وبقيت فرجليانة في يد المسلمين إلى أن احتلتها قوة دي ريكسنس المتطوعة في 1569/6/11 م. فأبادت حاميتها التي استبسلت في الدفاع عنها بمشاركة النساء والشيوخ. هكذا حرر المجاهدون في ظرف أسابيع المئات من الحصون والقرى والمدن في كل أنحاء مملكة غرناطة.

تقدم جيش الماركيز دي بلش إلى برجة، فزحف إليه ابن أمية في أوائل يونيو عام 1569 م على رأس عدة آلاف من المجاهدين منهم حوالي 400 متطوع مغربي. وكان قائد المعارك المجاهد مشكر. فاشتعلت في برجة أول معركة كبيرة في هذه المرحلة من الجهاد، اضطر ابن أمية على أثرها إلى الانسحاب إلى قديار بعد أن حمل جيش دي بلش خسائر فادحة. وقد ادعى كل من المجاهدين والقشتاليين النصر في معركة برجة التي استشهد فيها حوالي 1500 مجاهد.

---

(16) *DACB, Dietari de l'Antic Consell Barceloni*, V. 85, 86.

وفي 1569/5/23 م، انضمت منطقتا الحامة ورنـدة وجبـال منتمـاس شـرق مالقة إلى الثورة، فطرد مجاهدو تلك المناطق الحاميات القشتالية بقوات تحت قيـادة الشريران وفراندو الدره، وردوا هجوماً شـنه حـاكم ألمريـة عليهـم واضطـروه إلى الالتجاء إلى بلش مالقة و لم يعد يخرج منها.

وسيطر مجاهدو وادي المنصورة، شرق ألمرية، على سلسـلة مـن الحصـون والقرى. وحاصروا قلعة صيرون، أكبر تلك الحصون وأمنعهـا، منـذ 1569/2/10م، إلى أن حرروها في 1569/7/11 م بعد أن هزموا قـوة قشـتالية برئاسـة حـاكم بسـطة حاولت إنقاذها. كما حرر المجاهدون قصور أريـة، ثـم حـاصروا بـيرة في سـبتمبر وأرجبة في أكتوبر. وفي شهر يوليـوز تـوفي أحـد قـواد الجهـاد محمـد ابـن جهـور الصغير، عم محمد بن أمية.

بينما كان المجاهدون ينتشرون في كل أنحاء مملكة غرناطة تواجههم قوات دي بلش تحت قيادة حكام المناطق، كان دون خوان النمساوي مقيماً في حـاضرة غرناطة منشغلاً عن المعارك بحضور جلسات المجلس العسكري بأمر من أخيه الملك. فوصلته أوامر الملك بتهجير المورسكيين من حاضرة غرناطة في 1569/6/23 م. وأيد هذا القرار جميع أعضاء المجلس، بمن فيهم دي مندوجر. فانتشر الجيش القشتالي في حاضرة غرناطة ومرجها. وبعد فجـر ذلـك اليوم مباشـرة، خـرج المنـادون علـى أصوات الطبول يعلنون وجوب التحاق المورسكيين بالكنائس، ومنح الرئيس ديسا الأمـان لكـل مـن يطيـع الأمـر. فـأذعن أهـل غرناطـة دون مقاومـة، وتجمعـوا في الكنائس وقضوا يومهم وليلتهم تحت الحراسة. وفي الصباح فرق الجنود النساء عن الرجال، ثم فرقوا الرجل ما بين الذين تقل أعمارهم عن عشر سنين أو تزيد علـى الستين وبين الآخرين، وأخذوا هؤلاء بين صفين من الجنود إلى المستشـفى الملكـي خارج المدينة. ثم انتقوا منهم بعض الصناع والمهرة من العمال الذيـن سمحـوا لهـم بالمكوث في غرناطة. وأخذوا الجميع إلى قشـتالة، بمـا فيهـا منـاطق الأندلـس الـتي احتلت قديماً ومنطقة بطليوس. وعومل المهجَّرُون في الطريق أسوأ معاملة من نهب وقتل، بينما صودرت منازلهم وأملاكهم وأموالهم التي تركوها في غرناطة. ويقـدر

عدد المهاجرين بـ 7,000 امرأة و 3,500 رجل لم تصل منهم إلى المناطق المعينة لهم إلا أعداد قليلة، بينما قتل الباقون أو ماتوا جوعاً ومرضاً وتعباً، أو بيعوا عبيداً في أسواق النخاسة.

وزادت هذه الجريمة النكراء في حق أهل الأندلس من كره الأندلسيين للقشتاليين وانضمت للمجاهدين بسببها أعداد جديدة من المتطوعين الأندلسيين. وفي 1569/8/3 م تمكنت قوة من المجاهدين بقيادة الناقص من القضاء على قوة قشتالية في وادي الإقليم كانت متجهة إلى أرجبة بالمؤن، وأباد المجاهدون كتيبة قشتالية كانت تحرس جسر الطبلات. وضاعف الأرشذوني هجماته على الحصون التي ما زالت بيد الجيش الإسباني، وشدد ابن المليح قائد منطقة وادي المنصورة هجماته على مدينة أرية، وأصبح المجاهدون على أبواب مدينة ألمرية.

ثم تحرك جيش دي بلش بأمر من دون خوان غرناطة من ميناء عذرة الذي أخذه من يد المجاهدين، وتوجه إلى أشيجر. فأمر محمد بن أمية بيدرو مندوسة الحسين، أحد قواده، باعتراض الجيش المهاجم، فلم يستطع. وفي 1569/8/3 م، سار جيش دي بلش نحو بالور حيث تجمعت قوات المجاهدين تحت قيادة ابن أمية. فقامت بين الطرفين معركة ضارية أرغمت المجاهدين على الانسحاب، وأحرق الجيش بيت ابن أمية في بالور.

وفي غشت عام 1569 م، أرسل ابن أمية هرناندو الحبقي إلى أمير أمراء الجزائر، علي باشا، مستغيثاً وطالباً منه مد المجاهدين بالمال والرجال والسلاح. فأذاع علي باشا بياناً يطلب فيه التطوع، فاستجابت له أعداد كبيرة من الجزائريين، اختار منهم 400 رجل سلحهم بالبنادق وأرسلهم في ست سفن مع هرناندو الحبقي تحت قيادة ضابط تركي اسمه حسين، وأرسل معهم كمية مهمة من الذخائر والأسلحة. وطاف القائد حسين، عند وصوله إلى الأندلس، على تجمعات المجاهدين، وأخبرهم أنه يدرس حاجياتهم، فشد ذلك من عزائمهم. وفي الوقت نفسه، وصل للمجاهدين متطوعون بالأسلحة والمؤن من المغرب، خاصة من منطقة تطوان.

وفي حاضرة غرناطة انتشرت الخلافات في المجلس العسكري لدرجة أدت إلى إيقاف العمليات الحربية ضد المجاهدين. فدعا الملك فليبي الثاني الماركيز دي مندوجر لمقابلته، و لم يعد بعد ذلك إلى غرناطة. ثم اختار المجلس العسكري الحرب ضد المجاهدين حلاً وحيداً لإنهاء الثورة.

وبينما كانت المبادرة في يد المجاهدين، وقع قوادهم في مؤامرة خطيرة أدت إلى انكسارهم، وهي أن الإسبان عندما قاموا بمذبحة سجن غرناطة الرهيبة حقنوا دم والد وأخي ابن أمية للضغط على سلطان الأندلس وقائد ثورتها، فسلموهما لمحاكم التفتيش لتعذيبهما. فأرسل ابن أمية رسالة إلى خوان النمساوي يعرض فيها عليه تسليمهما له مقابل ثمانين أسيراً من الجيش القشتالي، وإلا انتقم من الجنود الأسرى الذين تحت سلطته. فاتفق المجلس الحربي في غرناطة على عدم الإجابة، وأرغموا والد ابن أمية بالكتابة لابنه ناهياً إياه عن متابعة الثورة ونافياً أيَّ إساءة أو تعذيب.

فاغتنم ذلك بعض المتعاملين مع العدو الناقمين على ابن أمية للعمل على قتله، على رأسهم دييكو الوزير، وهو أخو زوجة ابن أمية. فأخذوا يثون الشك بين ابن أمية والمتطوعين القادمين من الجزائر. فطلب ابن أمية من قريبه وقائده محمد بن عبو (واسمه الإسباني دييغو لوبيز) ضم الأتراك إلى قوته والسير بهم إلى البنيول ولينتظر هناك أوامره. وكانت غاية ابن أمية تحرير ميناء مطريل دون أن يتسرب خبر اتجاه قوة المجاهدين، للحفاظ على المبادرة. فمر حامل الرسالة على أجيجر، فعلم الوزير منه مضمونها، فتآمر مع كاتب ابن أمية في تزوير رسالة أخرى، وأمر بقتل حامل الرسالة الأولى. فوصلت الرسالة المزورة إلى ابن عبو تأمره بتجريد المتطوعين من السلاح وإعدامهم. فاستنكر ابن عبو هذا الأمر، وآمن بالشائعات التي نشرها العدو حول ابن أمية بأنه يريد مهادنة الإسبان لتحرير والده وأخيه. واعتقد المتطوعون أن ابن أمية قد خان، فقرروا عزله وإعدامه دفاعاً عن الثورة.

وسار ابن عبو والمتطوعة الأتراك إلى مقر ابن أمية في لوشر، فقبضوا عليه وواجهوه بالتهم التي يتهمونه بها، وأطلعوه على الرسالة التي بيدهم. فتبرأ ابن أمية من التهم الموجهة له، وأكد لهم أن الرسالة مزورة و لم يأمر بكتابتها قط، وأنه ما

خان أمته ولا دينه أبداً. فلم يفده دفاعه عن نفسه، فسجنوه في غرفة، وكلفوا بحراسته دييكو الوزير، كبير المتآمرين عليه، ودييكو أركش، كاتبه. وفي ليل 1569/10/20 م، قتله هذان الخائنان خنقاً.

وهكذا استشهد قائد ثورة الأندلس ضحية الدسائس والغدر، على يد أبناء أمته، تلك الأمة التي ضحى في سبيلها بالغالي والرخيص والتي بسببها شرد أهله وقتلت أمه وإخوته وزوجته وسجن أبوه وأخوه وما وهن ولا استكان، وأجره عند الله. وكان قتله، والمبادرة في يد المجاهدين، انتكاسة كبيرة للثورة.

واقترح قواد الثورة بعد اغتيال ابن أمية، بيعة أحد قائدي المتطوعين، حسين أو أخيه. فرفضا واقترحا مبايعة ابن عبو شرط أن يوافق أمير أمراء الجزائر على ذلك. فوصلت موافقة هذا الأخير مع بعض التعزيزات العسكرية بعد ثلاثة شهور. فنصب ابن عبو دييكو لوبيز سلطاناً للأندلس تحت اسم عبد الله محمد ابن عبو، وهو من عائلة ابن أمية. وقد استاء بعض قواد الثورة، كابن مكنون والأرشذوني، من اغتيال ابن أمية، فانسحبوا من الجهاد واختاروا الهجرة إلى أرض الإسلام. وقد انضم إلى الثورة في أوجها ما يقارب ثلاثين ألف مقاتل، منهم حوالي 5,000 من المتطوعين الأتراك والجزائريين والمغاربة(17).

4 - مراحل الثورة تحت قيادة ابن عبو

أعاد ابن عبو، فور مبايعته، تنظيم جيش المجاهدين. فعين ابن المليح قائداً على وادي المنصورة ومنطقة بسطة، والشعيبي على البشرات وجبال شلير، وبولود على منطقة ألمرية. واستقدم السلاح والذخيرة من موانئ المغرب والجزائر.

ثم نظم ابن عبو جيشاً، قوامه عشرة آلاف مجاهد، اتجه بهم لحصار مدينة أرجبة وقلعتها أواخر شهر أكتوبر سنة 1569 م، بعد محاولات فاشلة لاقتحام أسوارها. فطلب قائد حاميتها النجدة من خوان النمساوي في غرناطة، فأنجده

---

(17) Diego Hurtado, de Mendoza, *De la Guerra de Granada* , Edition Critica preparada por Manuel Gomez Moreno, *Memorial Historico Español*, XLIX, Madrid, 1948, p p. 158-204.

بقوة تحت قيادة دوق دي سياسة. فلم تفلح هذه القوة في فك حصار المجاهدين الذين قطعوا الطريق إليها في لانجرون. فنجح المسلمون في تحرير أرجبة، ثم حرروا غليرة، وهي قلعة ذات موقع استراتيجي رفيع، فأتت من أشكر قوات مساندة لجيش دوق دي ساسة فهزمهم المجاهدون في معركة عنيفة.

واستتبت وحدة المجاهدين حول ابن عبو الذي انتشر سلطانه إلى مناطق مالقة ورندة وكثرت هجماته على مرج غرناطة. وفي أوائل نونبر عام 1569 م، حررت قوة من المجاهدين بقيادة خريمينو ابن المليح حصن أرية بعد معركة عنيفة، إذ كانت حامية أرية تغير على قرى المسلمين المجاورة لها، خاصة منترية.

جمع ملك إسبانيا أقصى ما يمكن من قواته للقضاء على الثورة الأندلسية، وجهز ثلاثة جيوش: أكبرها تحت قيادة أخيه خوان النمساوي، وثانيها تحت قيادة دوق دي سياسة، وثالثها تحت قيادة أنطونيو دي لونا. ونجحت هذه الجيوش الثلاثة في أخذ المبادرة من يد المجاهدين. وقد تزعزعت وحدتهم بعد مقتل ابن أمية، وقلت الإمدادات التي كانت تصلهم. وقرر الملك القضاء على الثورة مهما كان الثمن خوفاً من أن ينضم مسلمو بلنسية ومرسية إلى المجاهدين.

فأمر الملك في أواخر ديسمبر عام 1569 م، جيش خوان النمساوي بالتحرك. فانطلق الجيش من غرناطة إلى حصن أبشر، ومنه إلى وادي آش، ووصل إلى بسطة في 1569/12/29 م حيث أقام بضعة أيام لتنظيم خطته. ثم اتجه خوان النمساوي بقوة تعدادها 12,000 جندي إلى حصن غليرة، واحتل في طريقه من يد المسلمين حصن غوجر. وكان يدافع عن غليرة حوالي 3,000 من المجاهدين، من بينهم فرقة من المتطوعين العثمانيين، وساهم في الدفاع عنها النساء الأندلسيات بأسلحتهن. وكان ماركيز دي بلش قد حاصر غليرة مدة طويلة، وعجز عن احتلالها، فأقاله خوان النمساوي في ديسمبر عام 1569 م.

قاوم المدافعون عن غليرة جيش خوان النمساوي مقاومة عنيفة، ومنعوه من اقتحام الحصن والبلدة. فحفر الجيش خندقاً حول البلدة، واستعمل المدفعية ضد حصنها، ثم حاصرها حصاراً طويلاً تكبد فيه مئات القتلى والجرحى. وفي

1570/2/10 م انهارت مقاومة المجاهدين ودخل الجيش البلدة في حمى جنونية من القتل والسلب. وأمر خوان النمساوي بقتل جميع الأسرى من رجال ونساء وأطفال، قتل منهم 1400 بحضوره، وخربت البلدة، وشتت الملح على أرضها.

وفي الشهر نفسه توجه جيش خوان النمساوي شرقاً، وزحف على بلدة صيرون، فتوجهت إليه قوة تعدادها حوالي ستة آلاف مجاهد بقيادة الحبقي وابن المليح. ووقعت معركة طاحنة حول البلدة، قتل فيها المجاهدون عدداً كبيراً من الجنود والضباط الإسبان على رأسهم دون لويس كيخادا، مربي خوان النمساوي قائد الجيش، وكان يعده في رتبة والده، كما كان كيخادا صديقاً مقرباً للملك شارل الخامس. فهزم المجاهدون جيش خوان النمساوي وشتتوه وكادوا أن يقتلوا قائده. ثم وصلت تعزيزات جديدة للجيش الإسباني فعاد إلى حصار صيرون، ونجح في 1570/3/5 م في اقتحام البلدة. فنجا الحبقي مع قلة من المجاهدين، بينما فشا القتل والسلب والنهب والاسترقاق في من وقع في يد الجيش.

ثم توجه جيش خوان النمساوي غرباً، فاحتل حصن نجولة واسترق فيه 400 طفل وامرأة، ودمره. ثم احتل على التوالي حصون برشانة وكنتورية وتهالي. وفي أواخر أبريل وصل الجيش إلى سهل البدول بالبشرات، وانتظر قدوم جيش دوق دي سياسة الذي خرج من غرناطة في شهر فبراير وعبر جبال البشرات من الغرب إلى الشرق ينشر القتل والرعب والدمار في طريقه إلى أن وصل في أواخر شهر أبريل إلى سهل البدول بالبشرات حيث التقى بالجيش الأول.

وخرج جيش أنطونيو دي لونا من أنتقيرة، فوصل في أوائل شهر مارس إلى جبال منتماس شرق مالقة لإخضاعها.

وفي 1570/3/14 م، أمر خوان النمساوي باقي المسلمين في حاضرة غرناطة ومرجها بالخروج منها إلى قشتالة. وفي 19 مارس جمعهم الجيش في قوافل ووزعهم على قرى قشتالة النائية. وقد مات أكثرهم في الطريق مرضاً أو قتلاً، وبيع عدد كبير منهم في أسواق النخاسة[18].

---

(18) Ref. (3. 2), Lib, VI-X.

وأمام هذا الوضع الحرج، أخذ السلطان ابن عبو يستغيث بالدولة العثمانية من جديد. فأرسل كتاباً إلى أمير أمراء الجزائر، علي باشا، وآخر إلى مفتي القسطنطينية مؤرخاً بـ 11 شعبان عام 977 هـ (1570/2/11 م) هذا نصه[19]:

بسم ا لله الرحمن الرحيم، العزة لله، من عبد ا لله المتوكل على ا لله، الحي بفضله وقدرته، المجاهد في سبيله، أمير المؤمنين، المستمسك بشريعة ا لله، مبيد الكفار وقاهر جيوش العاصين لله، مولاي عبد ا لله محمد بن عبو - بارك ا لله مسعاه، وسدد خطاه ليسترد عزة الأندلس، ويجدد نهضتها، نصرها ا لله القدير، وهو القادر على كل شيء - إلى صديقنا وحبيبنا الخاص، السيد العظيم، والشريف الكريم، السامي المتقدم، العامل المحسن، الخائف من ا لله، أنعم ا لله عليه بنعمة الغفران.

أما بعد؛ فسلام ا لله عامة على دولتنا العلية، ونعمته وبركاته الوفيرة. أيها الأخ العزيز! لقد بلغتنا أنباء دولتكم العلية، وشخص السلطان الكريم، وما صدر عنه العطف على التعساء البائسين، وأنه سأل عنا، مهتماً لمعرفة ما يجري لدينا، وأنه اهتم وتألم لما أصابنا من ضنك ونصب على أيدي أولائك النصارى، وأن صاحب الجلالة والعظمة السلطان قد أرسل إلينا كتاباً مختوماً بخاتمه يعدنا فيه بالنصرة بعدد وافر من الرجال المسلمين، وبما نحتاج إليه من العون والعدد التي تسمح لنا بالحفاظ على هذه الأرض.

وبما أننا نقاسي المتاعب الشديدة في هذه الأزمة المريرة، فإننا نلجأ من جديد إلى الباب العالي، نطلب النجدة والمعونة والنصر عن يدكم. فالنجدة النجدة، با لله القاهر فوق الناس جميعاً. ونرجو من سيادتكم إعلام السلطان القادر بأحوالنا وإخباره بأخبارنا، بالحرب الكبرى التي نخوضها، وقولوا لعظمته إنه إذا أراد أن يشملنا برعايته وعطفه، فليبادر إلى إنجادنا بسرعة قبل أن نهلك، فهناك جيشان قويان يتجهان إلينا لمهاجمتنا من جهتين. وإننا إذا ما اندحرنا في المعركة، فإن ا لله سبحانه سيحاسبه على ذلك حساباً عسيراً يوم القيامة، يوم لا تنفع القوة في الحجة. والسلام عليكم ورحمة ا لله وبركاته. حرر يوم الثلاثاء في الحادي عشر من شهر شعبان 977 هـ. مولاي عبد ا لله محمد بن عبو.

---

(19) Ref. (3. 2), Vol, 21, p. 317.
الترجمة العربية من المصدر (3 - 10)، ص. 331.

5 - الانهزام والاستسلام

بعد التقاء جيشي خوان النمساوي ودوق دي سياسة في سهل البدول، اتجها جنوباً إلى أندرش حيث وصلا في شهر مايو. وتوجهت من أندرش كتائب بقيادة دوق دي سياسة لإخضاع حصون كمبيتة ومارو ونرجة وبرجة وقمارش وكوثر وبني مرغوشة، فاحتلوها ونقلوا أهلها الذين سلموا من القتل والاسترقاق إلى قشتالة. وتتابعت المعارك في منطقة رندة غرباً، وحرر المجاهدون حصن الحصينة وقصر بنيرة، وحاصروا أربوطو في الجبل الأحمر. فتوجه إليهم جيش بقيادة دوق دي أركش دخل معهم في معارك أدت إلى انهزامهم واستسلامهم في 1570/9/20 م.

وأمام هذه الانهزامات المتواصلة، ويأس المجاهدين من أي عون فعال من العثمانيين والسعديين، افترق المجاهدون بين ثلاثة آراء: منهم من آثر متابعة الجهاد إلى الاستشهاد، مفضلاً ذلك على الاستسلام وما يتبعه من تنصير واسترقاق أو الموت ذلاًّ تحت سلطة الأعداء؛ وكان ابن عبو على رأس هذا الفريق. ومنهم من رأى عدم جدوى متابعة الجهاد ورجح التفاوض مع النصارى للاستسلام بأفضل الشروط الممكنة، وكان فراندو الحبقي على رأس هذا الفريق. ومنهم من آثر الهجرة بنفسه وأهله إلى السواحل الجزائرية والمغربية والخروج من الجحيم الذي هو فيه، فعبر البحر منهم عدد كبير منذ فبراير عام 1570 م.

وفي 1570/2/5 م اجتمع في مرتفعات جبل شلير هرناندو برادة، أحد وجوه وادي آش الأندلسيين، بالحبقي الذي أصبح قائداً عاماً لجيوش المجاهدين بعد استشهاد ابن المليح في غلبرة. دخل برادة وسيطاً بين الإسبان والمجاهدين بموافقة خوان النمساوي، وعرض على الحبقي إنهاء القتال مقابل العفو العام عن المجاهدين. وتتابعت المفاوضات، فاقترح الحبقي على خوان النمساوي إقناع ابن عبو وباقي زعماء الأندلسيين بالاحتفاظ بالبشرات والتخلي عن جميع ما بيدهم من مناطق خارجها، بما فيها وادي المنصورة، وإعلان الهدنة، مقابل إعطاء الأمان على أرواح جميع المجاهدين. وافق خوان النمساوي مبدئياً على ذلك، واستصدر

أمراً ملكياً بالعفو عمن يسلم سلاحه من الأندلسيين في ظرف عشرين يوماً من إعلانه، شرط أن يكون عمره بين الخامسة عشرة والخمسين عاماً، وأن ينضوي تحت قيادة وطاعة الملك فليبي الثاني. ويسمح القرار لكل من يستسلم بتقديم شكواه ويعد ببحثها بعناية. كما وعد القرار بإعطاء جائزة لكل من يستسلم، وإطلاق سراح شخصين من عائلته. وحكم القرار بالإعدام على من يرفض الاستسلام، عدا النساء والأطفال دون الخامسة عشرة. وعين القرار مراكز للاستسلام تابعة لخوان النمساوي والدوق دي سياسة. ووزعت بين الأندلسيين مناشير مزورة باسم أحد الفقهاء تدعو المجاهدين إلى الاستسلام «تخلصاً من المصائب التي جرها عليهم ابن عبو». وفي الوقت نفسه تابع خوان النمساوي القتل والسبي بين الأندلسيين، مسالمين كانوا أو محاربين.

وفي هذا الجو القاتم تتابعت المفاوضات. ورفض معظم المجاهدين الاستجابة لنداء خوان النمساوي، لعدم ثقتهم بوعود قشتالة. ومال ابن عبو إلى التفاوض للحصول على أحسن ظروف الاستسلام، عندما عجز عن الدفاع عن قومه وتخليصهم مما أصابهم.

أمر خوان النمساوي دون ألونسو دي غرناطة بنيغش، أحد زعماء الأندلسيين، بالكتابة إلى صديقه ابن عبو لحثه على الاستسلام. فكتب له رسالة بتاريخ 1570/4/18 م حاول فيها إقناعه بإنهاء «هذه الحرب المشؤومة»، وطلب منه إرسال وفد باسمه للتفاوض على شروط الاستسلام والمصالحة. فرد ابن عبو برسالة بتاريخ 1570/4/24 م يرمي فيها مسؤولية إشعال الثورة ومآسي الحرب على القشتاليين بسبب اضطهادهم للأندلسيين وإرغامهم على التنكر لدينهم، وأكد في رسالته عدالة الجهاد، ورفض الاستسلام دون شرط. ثم طلب ابن عبو من بنيغش الحصول على أمان من الملك للحبقي ليتفاوض مع القشتاليين باسم المجاهدين لإنهاء الحرب. وهكذا عين ابن عبو الحبقي مفاوضاً رسمياً باسم الثورة الأندلسية، وجعله ممثله المؤتمن[20].

(20) Ref. (3. 16), p. 215.

وتتابعت المفاوضات بين الإسبان والحبقي عن طريق هرناندو برادة وألونسو بنيغش. ثم اجتمع الحبقي مع مندوبي الملك عدة مرات. وفي 1570/5/13 م، اقترح الحبقي على بنيغش في فندون أندرش شروط الاستسلام. فنقلها بنيغش إلى خوان النمساوي الذي جمع المجلس العسكري. فطلب المجلس أن يأتي الحبقي بتفويض من قادة المجاهدين بتمثيلهم. فعاد الحبقي إلى فوندون أندرش يوم 1570/5/19 م بتفويض من ابن عبو، وتم الاتفاق مع ممثلي الإسبان على أن يذهب باسم ابن عبو وباقي قواد الجهاد إلى الأمير خوان النمساوي ويسلم إليه السلاح والعلم ويطلب الصفح والرحمة. وبعد ذلك يعفو عنه الأمير باسم الملك، ويصدر العفو العام عن الأندلسيين، ويضمن لهم حياتهم وأملاكهم، ويؤمنهم من الاعتداء عليهم، ويسمح لهم بإقامة العلاقات الاجتماعية فيما بينهم من زواج إلى آخره... ويرسل المحاربين المستسلمين مع نسائهم وأطفالهم إلى الأماكن التي تحدد لهم على أن تخلى جبال البشرات منهم. وقبل الحبقي الشروط جميعها.

وتنفيذاً للاتفاق، تقدم الحبقي في 1570/5/22 م على رأس 300 مجاهد إلى خيمة خوان النمساوي في أندرش، وسلمه سيفه وعلم الاستسلام باسم ابن عبو. فقبله الأمير، وأرجع له سيفه، ومنحه الأمان بألا يتعدى عليه ولا يزعج ولا يلاحق ولا ينهب، وسمح للمستسلمين بالإقامة أينما أرادوا في مملكة غرناطة خارج البشرات.

ثم عاد الحبقي إلى ابن عبو ليخبره بما تم، وأرسل معه خوان النمساوي مندوبين لقبول الاستسلام من ابن عبو. فلما اطلع ابن عبو على الشروط التي وافق عليها الحبقي، اتهمه بتجاوز التفويض الذي أعطاه إياه، واتهمه بالغدر والخيانة، إذ لم يحصل للأندلسيين على شيء، كإلغاء قرارات التنصير ومحو اللغة العربية. وفوق كل ذلك، وافق الحبقي على تهجير الأندلسيين من البشرات. فلم الجهاد؟ و لم التضحيات؟

وفي 1570/5/25 م عاد الحبقي إلى معسكر خوان النمساوي وأخبره بمعارضة ابن عبو للاتفاقية، ثم اقترح عليه تنفيذها دون ابن عبو، وأن يأتي به موثوقاً. فوافق خوان النمساوي، وأرسل في الوقت نفسه ممثلاً عنه إلى ابن عبو يوم 1570/5/28 م

يحاول إقناعه بالاستسلام، فلم يفلح. وساند المتطوعون موقف ابن عبو، فعمل الحبقي على إرجاعهم إلى بلدانهم، وأخذ يروج للاستسلام. فتوجه على رأس قوة للقبض على ابن عبو، لكن المجاهدين هزموه وقبضوا عليه وسلموه موثوقاً لابن عبو الذي اتهمه بالخيانة وأمر بإعدامه. فأعدم الحبقي وأخفى ابن عبو موته مدة ثلاثين يوماً. وتابع ابن عبو المفاوضات مع خوان النمساوي على شروط أفضل بواسطة هرناندو برادة. وتابع في الوقت نفسه جهوده في إعادة بعث الثورة، فأرسل رسله إلى المناطق المختلفة يحثون الأندلسيين على متابعة الجهاد. وقد احتفظ التاريخ برسالة جوابية مؤثرة من ابن عبو إلى برادة بتاريخ 1570/7/3 م، وهي بالدارجة الغرناطية، وهي آخر وثيقة عربية أتت من الأندلس[21].

وفي 1570/7/30 م أرسل خوان النمساوي مبعوثاً ليتفاوض مع ابن عبو وعرض الاستسلام عليه مقابل عروض مغرية لشخصه. فأجاب ابن عبو بأنه يشهد الله أنه لا يرغب في الملك، وحيث أن الأمة الأندلسية انتخبته سلطاناً عليها، فإنه لن يستسلم ولو ظل مجاهداً وحده في البشرات، وأن لديه ما يكفي من الغذاء والماء لمدة ست سنوات؛ وإذا انتهت مؤونته، فهو يفضل عبور البحر لأرض المسلمين على الاستسلام.

وعندما رأى خوان النمساوي هذا الموقف من ابن عبو، وعلم مقتل الحبقي، قرر إنهاء الثورة بالقوة. فحاول ابن عبو تنظيم المقاومة من جديد في البشرات، وأرسل أخاه غالباً إلى منطقة رندة لقيادة الجهاد فيها. بينما اتجه خوان النمساوي بقواته إلى وادي آش حيث التقى بقوات دوق دي سياسة. وخرج من غرناطة جيش ثالث بقيادة دون ركيصانص في اتجاه البشرات. وسار جيش رابع بقيادة دوق دي أركش إلى بسائط رندة وجبالها، فقضى على المجاهدين في تلك المنطقة في 1570/9/20 م. وفي الشهر نفسه شن دون ركيصانص هجومه الشامل على البشرات، فقتل وحرق وحطم وأباد الشيوخ والأطفال والنساء، ووزع على

(21) M. Alarcon, *Miscelaneo de Estudios y Textos Arabes*, Madrid, 1915, p. 691.

الجنود من نجا من الموت من نساء المسلمين وأطفالهم ليتخذوهم عبيداً. ومن أفعاله الشنيعة إشعال النيران على مدخل الكهوف لخنق المختبئين فيها.

وأمام هذه الهجمة الجديدة، لم يبق للجهاد قوة تذكر للدفاع عن الأندلس. فأخذت جيوش قشتالة تمزق كل السرايا المقاومة. فانهارت المقاومة، وامتلأت الشواطئ المغربية والجزائرية باللاجئين الفارين بدينهم وأرواحهم.

وتابع ابن عبو المقاومة في أعلى وأوعر منطقة في البشرات، ولم يبق معه سوى 400 مجاهد، من بينهم برناردينو بن عامر وكونسالفو الشنيش. وضاقت رقعة المجاهدين بين برشول وترفلش، فأوعز الإسبان إلى الشنيش بقتل ابن عبو مقابل عفوهم عنه. وكان الشنيش يحقد على بن عبو، لأنه منعه من عبور البحر إلى المغرب. وكان الإسبان قد قبضوا عليه وأطلقوا سراحه ومنحوه الأمان ووعدوا بتسليمه زوجته وابنتيه الأسيرات مقابل الإتيان بابن عبو حياً أو ميتاً.

وفي 1571/3/13 م، نجحت المؤامرة. إذ هجم الشنيش وستة من أتباعه على ابن عبو في الكهف الذي كان مختبئاً فيه، فقاوم حتى استشهد. فسلم الخونة جثمانه للإسبان الذين حملوه إلى غرناطة، وأدخلوه المدينة في حفل ضخم، ووضعوه في قفص حديدي بعد أن ألبسوه لباساً كاملاً وكأن صاحبه حي، ثم حملوه على فرس، وقطعوا به المدينة تتبعه أفواج من أسرى الأندلسيين. ثم حمل الجثمان إلى النطع، وأجري فيه حكم الإعدام، فقطعوا الرأس وسحلوا الجسم في الشوارع فمزق أطرافاً ثم أحرق في أكبر ساحات غرناطة بهمجية لا تضاهى. ووضعوا الرأس في قفص من حديد رفع فوق باب المدينة باتجاه البشرات حيث بقي معلقاً لمدة ثلاثين سنة.

ولم تنته الثورة تماماً إلا سنة 1573 م باستسلام مناطق غليرة وصيرون وبرشانة ومناطق وادي المنصورة في ولاية ألمرية.

وابتدأت بعد انهيار ثورة غرناطة الكبرى مأساة جديدة لم ير الشعب الأندلسي مثيلاً لها من قبل، إذ أعلن الملك فليبي الثاني في 1570/10/28 م، قبل استشهاد ابن عبو، قراراً بنفي الأندلسيين من مملكة غرناطة إلى مختلف مناطق قشتالة وليون.

والآن لِنَرَ خصائص هذه الثورة الفريدة في الاستماتة والتنظيم والشجاعة ضد أقوى جيش في أوروبا آنذاك، بأقل الإمكانات وأقل مساندة خارجيَّة. استعمل المجاهدون الأندلسيون تضاريس الجبال ومعرفتهم بالبلاد أحسن استعمال، فكانوا يضربون العدو ضربات سريعة ينتقلون بعدها بسرعة من جبل إلى آخر، ويتحاشون المعارك الطويلة، فكانوا مبدعين حتى في محنتهم، إذ اخترعوا حرب العصابات وأتقنوها. فخارت في أول الأمر معنويات الجيش الإسباني الذي كان يخوض حرباً كلاسيَّة، خاصة بعد أن عمل المجاهدون على تجويعه بحرق المحاصيل الزراعية. ثم تحول الجنود الإسبان إلى مجرمين بقتل أو استعباد جميع من يقع في أيديهم من أسرى المجاهدين، من أطفال وشيوخ ونساء، للقضاء على معنوياتهم.

ومن ناحية أخرى، لم يستطع زعماء الجهاد التغلب على نزاعاتهم الجانبية بين أهل حاضرة غرناطة مثلاً وأهل البشرات. وربما كانت تلك النزاعات هي سبب تقاعس قاعدة غرناطة ومرسية عن الانضمام إلى الثورة في أول أمرها. ولم يكن الجانب الإسباني موحداً كذلك، إذ كانت العداوة قوية بين ديسا ومندوجر، وبين سياسة وبليش.

وكانت القوات المتحاربة ضخمة بالنسبة لمجموع عدد السكان، إذ كان عدد المجاهدين في أول الثورة حوالي 4,000 مجاهد، ووصل إلى 30,000 مجاهد في قمتها. وتدل هذه الأرقام على المجهود الضخم الذي قام به الأندلسيون لتحرير بلدهم، كما يدل على إجماعهم على المقاومة. ولم يقل عدد القوات النظامية التي جابهتهم عن ثلاثين ألفاً، مسلحة بسلاح أفضل بكثير. ووقع ضحية هذه الثورة عشرات الآلاف من الأندلسيين، خاصة النساء والأطفال، كما قتل عدة آلاف من الإسبان.

ولقد انضمت إلى الثورة جميع أراضي مملكة غرناطة عدا المدن الكبيرة كحاضرة غرناطة وألمرية ووادي آش وبسطة وأشقر ومطريل.



البيان الختامي
لندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد؛ فتحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز، نظمت دارة الملك عبد العزيز ندوة في مدينة الرياض بعنوان "**الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية**" في الفترة من 24 إلى 27 رجب 1421 هـ الموافق 21 إلى 24 أكتوبر 2000 م حضرها نخبة من الباحثين المتخصصين في موضوع الندوة من داخل المملكة وخارجها، والتي أقيم على هامشها معرض الجزيرة العربية في الخرائط الأوربية القديمة.

وقد افتتح فعاليات الندوة والمعرض صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز مساء يوم السبت 24 رجب 1421 هـ الموافق 22 أكتوبر 2000 م، وتلا افتتاح الندوة والمعرض محاضرة لمعالي الأستاذ الدكتور خالد بن محمد العنقري وزير التعليم العالي في المملكة العربية السعودية بعنوان "**خريطة جزيرة العرب في أعمال الرحالة الأوروبيين**"، ثم عقدت جلسات الندوة يومي الأحد والاثنين 25 ـ 26 رجب 1421 هـ الموافق 22 ـ 23 أكتوبر 2000 م في قاعة الدرعية في فندق قصر الرياض على فترتين صباحية ومسائية كل فترة منهما تتكون من جلستين.

وقد اجتمعت اللجنة المنبثقة عن الندوة لتقييم أعمالها ودراسة التوصيات والمقترحات التي أمكن حصرها في التوصيات التالية:

أولاً: العمل على نشر بحوث الندوة بعد مراجعتها من قبل أصحابها في ضوء الملاحظات التي أبديت والمداخلات التي أعقبت كل جلسة.

ثانياً: قيام دارة الملك عبد العزيز بتنظيم ندوات دورية تتناول موضوعات مختلفة ذات علاقة بالرحلات العربية والأجنبية إلى شبه الجزيرة العربية.

ثالثاً: إعداد قاعدة معلومات عن أدب الرحلات، وعن أعمال الرحالة الذين زاروا الجزيرة العربية، ونشرها في كتاب توثيقي تحت إشراف دارة الملك عبد العزيز، والبدء في أعمال الرصد الببليوجرافي لكافة الرحلات باللغات المختلفة.

رابعاً: حث الجامعات على المشاركة بفاعلية من خلال توجيه الطلاب والطالبات في برامج الماجستير والدكتوراه لتسجيل موضوعات تتعلق بتاريخ شبه الجزيرة العربية ومؤلفات الرحالة ونقدها.

خامساً: قيام دارة الملك عبد العزيز بترجمة الرحلات التي دونت باللغات غير العربية ونشر المناسب منها في سلسلة متخصصة مع التعليقات اللازمة.

سادساً: إنشاء وحدة متخصصة لأدب الرحلات إلى الجزيرة العربية في دارة الملك عبد العزيز تشتمل على الإصدارات والبحوث والمقالات والدراسات والمراجعات المتعلقة بالرحلات إلى شبه الجزيرة العربية.

سابعاً: إعداد دراسات متخصصة لنقد الأخطاء والمغالطات التي وردت في مؤلفات بعض الرحالة الغربيين ومراجعتها وتصحيحها، ونشر هذه الدراسات بعدد من اللغات في إصدار خاص.

ثامناً: قيام الدارة بإعداد كشاف علمي يفهرس المواد الواردة في كتب الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية بحسب موضوعاتها بشكل أكبر تفهرس مواده على بعض الموضوعات ومنها: الأعلام، والقبائل، والكتب، والمصطلحات، والنباتات، والحيوانات، والعادات والتقاليد الاجتماعية، إلخ.

تاسعاً: تخصيص جائزة تشجيعية لمن يقدم وثائق ومخطوطات عن شبه الجزيرة العربية.

ويوصي المشاركون في الندوة في ختام ندوتهم برفع برقية شكر وامتنان لمقام خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، وسمو ولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وسمو النائب الثاني صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز على تأييدهم لعقد هذه الندوة بدارة الملك عبد العزيز، وصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز على رعايته حفل افتتاح الندوة، وافتتاح معرض الجزيرة العربية في الخرائط الأوروبية القديمة؛ كما يشكر المشاركون دارة الملك عبد العزيز على حسن اختيار موضوع الندوة، ودقة الإعداد والتنظيم، وما لقيه المشاركون من حسن الاستقبال وكرم الضيافة.

حرر في الرياض يوم الاثنين 26 رجب 1421 هـ الموافق 23 أكتوبر 2000 م.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



ومضة على جبال النور

الأستاذ الشاعر:علي حسن أبو العلا
مكة المكرمة

المدح من أسمى الفنون الشعرية عند العرب، وقد اتخذه بعض كبار الشعراء ديدن شعرهم.

وإذا كان المديح ـ بغية النوال ـ عند بعضهم غاية تبرر الوسيلة، فهو عند آخرين طابع ترشيد وتوجيه.

وأسمى المديح مدح سيدنا رسول الله ﷺ ممثلاً في رسالته الخالدة بكل ما تحمله من قيم مثلى تدعمها الآيات البينات وتحفها السيرة الزكية للمصطفى المرسل رحمة للعالمين:

يا مكة الْخَير بي شوقٌ يتيمني ... إلى حِمَاكِ وَيَسْتَهْوِي هَواكِ دَمي

فَمِنْ ثَرَاكِ نَمَا جسْمِي وَمَقدِرَتِي ... ورحمةُ الله جاءت بي مِنَ الْعَدَم

فكُنْتِ مَوطِن أحْلامِي وتَنْشِئَتِي ... بَيْنَ الْقَدَاسَةِ عَبْرَ الأشْهُر الحُرُم

وَحَوْل كَعْبَتِك الْغَرَّاء كم سَبحَتْ ... نَفْسِي وَنَاجَتْ لَدَى رُكْن ومُلْتَزَم

وكَمْ تَعَهَّدَنِي الإسلامُ في كَنَفٍ ... في مَنْزل الْوَحْي والأَخْلاَق والْقِيَم

إنْ كانَ كُلٌّ مُحِبٌّ شَاقَهُ وَطَنٌ ... مِثْلِي فَحَسْبيَ فَخْراً جيْرَةُ الحَرَم

لَئِنْ سَعُدتُ بأَنِّي إبْنُ تُرْبَتِهَا ... فَإنَّنِي مِنْ ذُنُوبِي حِيلَتِي نَدَمِي

تَطُوفُ بي ذكْرَيَاتٌ عَنْكِ مَبْعَثُهَا ... مُنْذُ الطُّفُولَةِ تَمْضِي بي بلاَ سَأم

فَلَيْسَ مثْلُكَ يَرْوي الذّكْرَيـاتِ عَلَى
مَـرِّ الْعُصُـور وَمَـنْ يَعْلَـقْ بهَـا يَهِـم

فَفِيـكِ أمّ القُـرَى أَمْـنٌ يُحَـسُّ بـهِ
كـالْبُرْء بَعْـدَ زَوال الـدَّاء والسَّـقَم

وَكَـمْ وُفُـودٍ لِبَيْـتِ ا للهِ يَجْمَعُهـا
رُكْنُ الْعِبَـادَةِ عِنْـدَ الْخَيْـفِ وَالْخِيَم

تَرْجُو النَّجَاةَ مِنَ الـزَّلاَّتِ آنْدَفَعَتْ
عِنْـدَ الحَطيـمِ تُنَـادِي بَـارئَ النَّسَـم

تَجَمَّعُـوا عَرَفَـاتُ ا للهِ.. مَطلبُهُـمْ
يَـوْمَ الوُقُـوفِ وَكُـلٌّ لِلْمَتَـابِ ظَمِـي

كُـلٌّ سَوَاسِـيَةٌ لِلَّـهِ.. يَجْمَعُهُـمْ
دِيـنٌ بَـل الْفَضْـلُ لِـلرُّجْعَى لِمُغْتَنِـم

قَـدْ وَحَّـدَ ا للهُ بالإسْـلاَم مَظْهَـرَهُـمْ
لاَ فَرْقَ فِي اللَّوْن بَيْنَ الـعُرْبِ والْعَجَـم

أم القرى ومولد الرسول

وَمِنْـكِ أَشْـرَقَ نُـورٌ عَـمَّ مَظْهَـرُهُ
وَفَاضَ مِنْهُ السَّـنَا يَعْلُو عَلَى الْقِمَـم

تَبَسَّـمَ الْكَـوْنُ مِـنْ إشْـرَاق مَوْلِـدِهِ
صُبْحاً يَطِيبُ كَفَيْض الْهَاطِل الْعَمِـم

يَـوْمٌ أَطَـلَّ عَلَـى الدُّنْيَـا ببَهْجَتِـهِ
فَالْبَـاطِلُ انْـزَاحَ والإشْـرَاكُ لَـمْ يـدُم

واسْتَرْسَلَ الْبِشْـرُ مُـذْ هَلَّـتْ بَـوَادِرُهُ
فِي صَفْحَةِ الْكَوْن بَيْنَ السَّهْل والأَكَـم

هَـلْ غَـيْرُ مَكَّـةَ تَـاهَتْ يَـوْم مَوْلِـدِهِ
وَهْيَ الَّتِي عُرِفَتْ فِي الأَرْض بـالْقِدَم

بهـا الْمَلاَئِـكُ طَـافَتْ وَهْـيَ حَائِمَـةٌ
فِي الأُفْق وَالطَّيْرُ يَشْدُو أَجْمَلَ النَّغَـم

تَزَيَّنَـتْ وَجبَـالُ النُّـور رَاقِصَـةٌ
لِفَرْحَةِ الْكَـوْن بَـلْ لِلْفَضْـل وَالْكَـرَم

حَيْثُ السَّـمَاءُ بهَـا الأَفْـلاَكُ سَـاهِرَةٌ
وَالْمَوْجُ فِي الْبَحْر سَطْرٌ رَائِعُ الْكَلِـم

لَمْ يَشْهَدِ الكَـوْنُ نُـوراً مِثْـلَ مَوْلِـدِهِ
أَكْـرمْ بمَشْـرق يَـوْم بَاسِـم الْقَسَـم

هَـادِي الْعِبَـادِ جَمِيعـاً فَهْـوَ خِـيرَتُهُمْ
بَـرَاهُ رَبُّ الْـوَرَى مِـنْ خِـيرَةِ الأُمَـم

وَقَـالَ إنَّـكَ يَـا طـهَ عَلَـى خُلُـق
مِنَ الصِّفَـاتِ عَظِيـمُ الْقَـدْر والشِّـيَم

كَفَـى بـرَبِّ الْـوَرَى آيَـاتُـهُ شَهِـدَتْ
لِسَـيِّدِ الْخَـلْق بالأَخْـلاَق وَالْـعِظَـم

وَقَـالَ صَلُّـوا عَلَيْـهِ وَهُـوَ آمِرُنَـا وَسَلِّمُوا تَسْلَمُوا في أَحْلَكِ الغُمَـم
وَمِـن بَشَـائِر طَـهَ يَـوْمَ مَوْلِـدِهِ خَـوَارِقُ جَمَّةُ الإِعْجَـاز وَالْحِكَـم
اِهْـتَزَّ إِيـوَانُ كِسْـرَى بَعْـدَ عِزَّتِـهِ وأَصْبَحَ الْقَـوْمُ فِـي هَـمٍّ وَفِـي غَمَـم
وَفَـارِسٌ بَعْـدَ أَلْـفِ نَارهُم خَـمَدَتْ ثُـمَّ الْبُحَيْرَةُ غَاضَتْ فَـهيَ كَالْعَـدَم

محمد في صباه

إِذَا ذَكَـرْتُ رَسُولَ اللهِ خُيِّـلَ لِـي أَنِّـي بـأَكْرَم وَصْفٍ صَاغَـهُ قَلَمِـي
قَدْ حَكَّمَتْـهُ قُرَيـشٌ حِينَمَـا اخْتَلَفَـتْ فِي وَضْعِهَا الْحَجَرَ الأَسْنَى لِمُسْتَلِم
فَكَـانَ أَوَّلَ آتٍ عِنْـدَ مَجْمَعِهِـمْ وَقَـالَ حِكْمَتَـهُ فِـي الْعَـدْل وَالْقَسَـم
كـل القبـائـل من حول الـرِّداء لـها ممـثّـل ورسـول الله كـالعـلـم

نزول الوحي

وَفِـي حِـرَاء تَوَالَـى الْوَحْـيُ سَلْسَـلَهُ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ يُحْيِي النَّفْسَ مِنَ عَدَم
اِقْـرَأْ وَمَـا بَعْدَهَـا مِـنْ آيَـةٍ نَزَلَـتْ أَنْ أَنْـذِر النَّـاسَ تُنْجيهـمْ مِـنَ النِّقَـم
كَمْ أَشْرَقَـتْ قِـمَـمٌ لِلنُّـور جَلَّلَـهَـا وَعَمَّ «أمَّ الْقُرَى» فِي الْحَلِّ وَالْحَـرَم

الدعوة والمناوئون لها

كَـمْ حَارَبَتْـهُ قُرَيْـشٌ وَهْـوَ بَيْنَهُمُـو مكَـافِحٌ بَيْـنَ أَعْمَـام وَذِي رَحِـم
يَدْعُـو إلى اللهِ وَالتَّوْحِيـدُ غَايَتُـهُ وَمَـنْ يَفُـزْ برِضَـاء الله يَغْتَنِـم
حَتَّـى أعـزَّ بـدِيـن اللهِ شِرْعَتَـهُ فَـا لله عَلَّمـه بـالْـوَحْي وَالْقَـلَـم

الإسراء والمعراج

آمَنْتُ بـا للهِ فَالإسْـراءُ مُعْجِـزَةٌ   فَالْبَدْرُ مِنْ حَرَم يَسْري إلى حَـرَم
مِنْ قَلْبِ مَكَّةَ سَارَ الرَّكْبُ مُتَّجهاً   لِلْقُدْس في رِحْلَـةٍ عُلْويَّـةِ الْحَشَـم
كُلُّ الْمَوَاكِبِ مَهْمَا كَانَ مَظْهَرُهَـا   لاَ وَصْفَ يَلْحقُهَا في الْفَخْرِ وَالْعِظَم

* * *

إلاَّ الْـبُرَاقُ وَجـبْريلٌ وَقَـدْ صَحِبَـا   فِي مَوْكِبِ الْمَجْدِ خَيْرَ الرُّسْل كُلِّهـم
هُناكَ فِي الْقُدْس كَانَ الرُّسْلُ أَجْمَعُهُـمْ   يَسْتَقْبلُونَ قِيَامـاً وَهْـوَ كَـالْعَلَم
صَلَّى إمَامـاً وَصَلَّى خَلْفَ حَضْرَتِـهِ   وَفْـدُ السَّـمَاء وَرُسْـلُ ا للهِ لِلأُمَـم
كَانُوا هُـمُ الْعِقْدَ وَالْمُخْتَـارُ دُرَّتُـهُ   أَكْرِمْ بجَوْهَر عِقْدٍ ضَاءَ فِي الظُّلَم
هذِي الْمَوَاكِبُ لِلإسْرَاء قَـدْ مَـلأَتْ   سَمْعَ الزَّمَان بهَا مِنْ صَادِق الْحِكَم
وَهَلَّـلَ الأُفْـقُ لِلْمِعْـرَاج حِينَ سَـمَا   «مُحَمَّدٌ» وَهْوَ دُونَ الْعَرْش مِنْ أَمَم
رَأَى الْمَشَاهِد والرُّسْلُ الكِـرَامُ عَلَـى   بَابِ السَّموَاتِ وَالْبُشْـرَى بكُـلِّ فَـم
هُمْ يَحْتَفُونَ بخَيْر الخَلْق إذْ فُرِضَـتْ   ثـمَّ الصَّـلاَةُ وَمَـا فِيهَـا مِـنَ النِّعَـم
وَنَـالَ مَـا نَـالَ مِـنْ فَضْـل وَمَكْرُمَـةٍ   مِنْهَا الشَّفَاعَةُ يَـوْمَ الْحَشْـر وَالزَّحـم
فَهْـوَ الشَّـفِيعُ وَإنَّـا في شَـفَاعَتِهِ   يَـوْمَ القِيَامَـةِ يَـوْمَ الْحَسْـر وَالنَّـدَم
«مُحَـمَّدٌ» وَهْوَ يَـوْمَ الْحَشْر مَوْئِـلُنَا   مِنْ سَيِّءِ الذَّنْبِ أَوْ مِنْ هَجْمَةِ النِّقَم

* * *

الهجرة النبوية

يا رَبِّ صَلِّ وَسَلِّمْ في عُلاكَ عَلَى خَيْرِ الخَلاَئِقِ والأَكْوَان وَالنَّسَم
مَنْ سَارَ لِلغَار وَالصِّدِّيقُ يَنْصُرُهُ مِنْ غَدْرِ مُقْتَرِفٍ لِلْبَغْي والأَلَم
سَارَ الْحَمَامُ يُغَطِّي إِثْرَ خُطْوَتِهِ وَفُوهَةُ الْغَار تَحْكِي دَارِسَ الرَّسْم
وَالْعَنْكَبُوتُ يُوَارِي الْبَابَ يَسْتُرُهُ وَالْغَارُ مِنْ مَلَكُوتِ الأَمْن فِي حُلُم
وَمِنْهُ هَاجَرَ حَتَّى اسْتَقْبَلَتْهُ قَبَا فِي مَوْكِبٍ عَزَّ عَنْ وَصْفٍ وَعَنْ كَلِم
تَهَلَّلَتْ طِيبَةُ فِي يَوْمِ هِجْرَتِهِ وَكَانَ يَوْماً عَظِيماً بَالِغَ الْعِظَم
وَدَّدَتْ بنَشِيدٍ كَانَ فِيهِ صَدىً عَمَّ الثَّنِيَّاتِ بَلْ أَضْفَى عَلَى الْقِمَم
نُوراً لمطلَع بَدْر كَانَ مَطْلَعُهُ فَيْضاً مِنَ الْخَيْر يحكي هاطل الدِّيم
في أَرْض طِيبَةَ والأَنْصَارُ فِي فَرَح وكُلُّ شِبْر مِنْ الأَسْعَادِ فِي كَرَم
مِنْ طِيبَة طَابَ مَسْرَى الْفَاتِحِينَ وَقَدْ كَانَ النَّدَاءُ أَمَانِي النَّفْس كَالْحُلم
تَدْعُو إِلَى ا للهِ.. لاَ بَغْيٌ وَلاَصَلَفٌ والْحَقُّ مِنَ طَبْعِهِ يَنْقَادُ بِالْهِمَم
كَمْ لِلْفُتُوحَاتِ مِنْ جَيْش وَأَلْوِيَةٍ تُبَدِّدُ الْغَدْرَ تُغْرِي الْقَوْمَ بِالْكَرَم
فَحَقَّقَ ا للهُ نَصْراً كَانَ.. مُعْجِزَةً وَالظُّلْمُ مَا بَيْنَ مَدْحُور وَمُنْهَزِم
مِنْهَا الْجُيُوشُ إِلَى الآفَاق قَدْ خَرَجَتْ يَقُودُهَا مِنْ سُيُوفِ ا للهِ كُلُّ كَمِي
بَدْرٌ وأُحدٌ وَحَوْلَ الْخَنْدَق اجْتَمَعَتْ لِنُصْرَةِ ا للهِ أَجْنَادٌ مِن الْحَشَم
مَنْ يَفْتَدُونَ رَسُولَ ا للهِ يَدْفَعُهُمْ فَيْضٌ مِنَ الدِّين وَالإِخْلاَص وَالشِّيَم
أَسْتَغْفِرُ ا للهَ مِنْ ذَنْبي وَمَا عَمِلَتْ مِنِّي الْجَوَارحُ مِنْ فِعْل وَمِنْ كَلِم
والنَّفْسُ كَيْفَ خَلاَصِي مِنْ غِوَايَتِهَا فِي سَيِّءِ الذَّنْبِ والأَحْوَال وَالْوَخم
سَئِمَتْ مِنْ نَهْيِهَا عَنْ كُلِّ مَا صَنَعَتْ وَضِقْتُ ذَرْعاً وَحَبْلُ ا للهِ مُعْتَصَمِي

فَهيَ الَّتي أَلْبَسَتْني كُلَّ مَعْصِيَةٍ　　أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذَنْبِي وَمِنْ تهمِي
يا رَبِّ أَحسِنْ خِتَامِي أَنْتَ مُعْتَمَدِي　　أَكْرِمْ بِفَضْلِكَ يَا ذَا الْجُودِ وَالكَرَم

• • •

وَهَبْ لِعَبْدِكَ عَفْواً ثُمَّ مَغْفِرَةً　　واجْعَلْ ثَوَابي بالرضوان مُخْتَتَم

فرحتان من الخليج إلى المحيط

بمجرد ما سمع المغرب ملكاً وحكومة وشعباً بإجراء العملية لحضرة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حفظه ا لله، ونجاحها كما كان منتظراً بإذن ا لله ورعايته، عمت البشريات والمسرات بيوتنا نشارك شعب دولة الإمارات العربية المتحدة فرحته وابتهالاته داعين لسموه موفور الصحة والعافية ويحفظه سنداً وملاذاً للعروبة والإسلام.

الأستاذ الشاعر: محمد البوعناني
الرباط

مــن المغْربيْــن، إلى المشــرقَيْن ... وقطــبِ اللّوامــع والفَرْقديْــن
وجدنــا الرّواحــةَ في خــبريْن ... أســرَّا الجوانــحَ والأذُنَيْــن:
نجاحُ الجراحــة ــ وهــي نجــاحٌ ... لأدعيــةِ الــدَّار والوَالدَيْــن
بــأقصَى الخليــج لأقصــى المُحيــطِ ... تمَــدَّدُ فرحتُنــا فرحتَيْــن
وكــان غيــابُك هاجســنَا ... وموْجلَنــا في كــلاَ البلديــن
نعلّــلُ أشــواقَنا بدعــاء ... إلى ا لله، نشْــفعُ بــالحرمَيْن
فلمــا اسْــتجاب لنــا ا لله ألْقَــى ... علــى عاتِقِنَــا أمانــةَ ديْــن
بــأنْ نكتَفــي بوفــائك ذُخــراً ... وطِيفُــكَ يلمــعُ في المُقْلتــين
يُبَجِّلُــك المســلمون جميعــاً ... مــن الضّفّتيْــن إلى الضِّفّتَيْــن
وأنــتَ أبٌ وأخٌ وصديــقٌ ... نقــيُّ الحَمــائل والجــانبين
يشــدُّون فيــك رهــان الســلام ... وفــوزَ الــوئام علــى كــل بَيْــن

تُعـــانقهم في حـــدود جاكارطـــا إلى حضْرمـــوت، إلى الرَّافديـــن
فصحَّتُــك الآن صحـــةُ شـــعبٍ بمليـــارَ قلـــبٍ، وملْيـــارَ عيْـــن
وضعـــتَ علـــى القِسْـــط مِـــيزَانَهم وكفُّـــك رافعـــةُ الكفَّتيْـــن
وســـرَّحْتَ أحداقَهـــم كمرايـــا مُحيَّـــاكَ يصقُلهـــا كـــاللُّجَيْن
ويسْـمَعُها الدَّهْـرُ قبـل انفِـراج الْــ فُـــؤادِ عَلَيْهَـــا مـــع الشَّـــفتين

* * *

أبـــا العـــارفين تعـــافيتَ نُعمـــى ولطفـــاً مـــن ا لله بالأســـرتين
وعاهلُنـــا المســـتجابُ يُضيـــف إلى خُطْـــوةِ المُلْتقـــى خُطْوَتَيْـــن
فمرحَـــى بشـــعبَيْن يلتحمـــان ببيْعَـــةِ صِـــدْق مـــع القـــائدين
هُمـــا في عُروبتنـــا واحـــدٌ وقـــد ركَّـــزًا بُنْدَهـــا أخوَيْـــن
وزايـــدُ مثـــلُ محمـــد في سَمَانـــا يُضيـــآن كـــالأزْهَرَيْن
فَلِلْحَـــقِّ كـــالقَبْضَتَيْن دفاعـــاً ولِلدِّيـــن والنُّصْـــح كـــالتَّوْأَمَيْن
رعَـــا ا لله أمْـــرَكُمـــا، تَـتَـــوالَـــى فضـائِلُـهُ مِـلْءَ كُـلِّ الْيـدَيْـــن

أنوال

الأستاذ الشاعر: عبد الواحد أخريف
تطوان

الْمَجْدُ فِي جَنَبَاتِ "الرِّيـفِ" يَعْتَصِـمُ وَيَسْـحَبُ الذَّيْـلَ مَزْهُـوّاً وَيَبْتَسِـمُ!
رُبُوعُـهُ حَدَّثَتْنِـي عَــنْ مَلاَحِمِهَـا كَمَـا تُحَـدِّثُ عَـنْ أَمْجَادِهَـا الأُمَـمُ!
وَأَسْـمَعَتْنِي نَشِـيداً مِــنْ بُطُولَتِهَـا فَمَـا حَـلاَ بَعْـدَهُ لَحْـنٌ وَلاَ نَغَـمُ!
تَرَدَّدَ اللَّحْنُ فِي سَـمْعِ الْوُجُـودِ كَمَا سَـرَى لَهِيبـاً لَـهُ بَيْـنَ الضُّلُـوعِ دَمُ!
يُؤَجِّجُ الثَّـوْرَةَ الْكُـبْرَى وَيَنْفُـخُ مِـنْ نُـورِ الْبُطُولَـةِ نَـاراً شَـأْوُهَا نِـقَمُ!
وَمَا عَنَتْ مِنْ جِبَاهِ "الْغَرْبِ" وَاحِـدَةٌ إِلاَّ إِذَا ذُكِـرَتْ "أَنْـوَالُ" بَيْنَهُـمُ!
ذِكْـرَى تُكَلِّـلُ بِالأَمْجَـادِ مَفْرِقَنَـا وَشَمْسُهَا لَيْسَ تَغْشَى ضَوْءَهَا الظُّلَـمُ!
"عَبْدُ الْكَرِيـمِ" عَلَـى آفَاقِهَـا عَلَـمٌ كَمَـارِدٍ حَوْلَـهُ الآسَـادُ تَزْدَحِـمُ!
يَمْضِي بِهِـمْ قُدُمـاً وَالنَّصْـرُ يَكْلَـؤُهُ بِطَرْفِـهِ كُلَّمَـا نَـادَاهُ مُصْطَـدَمُ
يَغْشَـى الْكَرِيهَـةَ بِالإِيمَـانِ مُتَّشِـحاً وَلَنْ يُصَـابَ بِسُـوءٍ مَنْ بِهِ اعْتَصَمُوا!
عَلَى الشَّـهَادَةِ قَـدْ شُـدَّتْ خَنَـاصِرُهُ يَرْجُـو تُصَافِحُـهُ مِـنْ كَفِّهَـا نِعَـمُ!
إِذَا الْمَنَايَـا عَلَى أُفْقِ الْوَغَـى بَرَقَـتْ يُحِيبُهَـا مِنْـهُ شَـوْقٌ بَـاتَ يَضْطَـرِمُ!
بَـأْسٌ مُحَـالٌ تَـرَى مِـنْ مِثْلِـهِ شَـبَهاً وَشِـدَّةٌ شَـأْنُهَا بِـالْحَقِّ مُنْتَظِـمُ!
سَيْفٌ عَلَى الظُّـلْمِ مَسْلُولٌ بِعَزْمَتِـهِ وَهِـمَّـةٌ قَصُـرَتْ عَـنْ شَأْوِهَـا الْهِمَـمُ!

فِكْـرٌ يُخَـطِّطُ لِلأَعْـدَاء مَصْرَعَهُـمْ مُـوَفَّـقٌ لَيْـسَ فِـي آرَائِـهِ ثُلَـمُ!

يُطِيعُـهُ قَوْمُـهُ إنْ جَـاءَ آمِرَهُـمْ جَوَابُهُـمْ كُلَّمَـا نَـادَاهُمُ نَعَـمُ!

مَا انْفَكَّ يَزْرَعُ فِي حَقْلِ الْجهَادِ يَـداً حَتَّى تَفَجَّرَ مِـنْ تَحْـتِ الْعِـدَا لَغَـمُ

لَـو "الدَّخِيـلُ" أَظَلَّتْـهُ سَـلاَمَتُهُ مَـا جَـاءَ يَحْمِلُـهُ طَيْشٌ وَلاَ حُلُـمُ

أَو كَانَ يَعْلَمُ مَنْ "عَبْدُ الكَرِيـم" لَمَا تَجَاسَـرَ النَّزَقُ الْمَحْمُـومُ والنَّهَـمُ!

وَكُـلُّ مَنْ هَـمُّهُ يَسْعَى إلَى طَمَع يُصِيبُـهُ مَا أَصَابَ الْقَـوْمَ حِينَ عَمُوا!

• • •

"أَنْـوَالُ" يَـا مَرْبَعـاً سَـادَ الْجهَـادُ بِـهِ قَدِ ارْتَوَى مِنْ سَنَاهُ الْعُـرْبُ وَالْعَجَـمُ!

كَمْ بَاتَ يَرْقُبُـكِ التَّـاريخُ فِـي لَهَـفٍ حَتَّـى يُضَـافَ إلَـى آيَاتِـهِ شَـمَمُ!

حَسْبي أُمَجِّـدُ فِـي ذِكْـرَاكَ صَانِعَهَـا وَمَنْ عَلَى الْغَارَةِ الْكُبْرَى قَدِ الْتَحَمُـوا!

جُنْدُ الْفِدَاء وَجَيْشُ الْحَقِّ إنْ عَبَسَـتْ لَـهُ الْمَكَـارِهُ لاَ يَلْـوِي بِـهِ قَـدَمُ

سَـارُوا وَرَاءَكَ سُحْباً أَنْـتَ قَائِدُهَـا قَدْ حُمِّلَـتْ غَضَبـاً كَالنَّـار تَضْطَـرِمُ!

عَلَى مُحَارَبَـةِ "الإسْبَان" قَـدْ عَقَـدُوا يَمِـينَ صِـدْق وَبَـرُّوا، إنَّـهُ الْقَسَـمُ!

يُزَغْـرِدُونَ إذَا دَوَّى الرَّصَـاصُ كَمَـا يُهَلِّلُـونَ كَـأَنَّ الْعِيـدَ فَوْقَهُـمُ!

أَرَى جَحَـافِلَهُمْ تَنْـدَاحُ سَـائِلَةً بَيْـنَ الْوِهَـادِ كَمَـا تُكْسَى بِهَـا الْقِمَـمُ

نَمَاذِجٌ قَدْ حَكَتْ فِي صِـدْق وَثْبَتِهَـا صَحَابَـةَ الْمُصْطَفَـى وَالدِّيـنُ يَلْتَئِـمُ!

مَـا ذَاقَ قَـطُّ بَنُـو "الإسْبَان" كَارِثَـةً إلاَّ عَلَـى يَـدِ أَبْطَـال لَنَـا عَظُمُـوا

سِيَّان ـــ فِي الْعُـدْوَةِ الْقُصْوَى بِـأَنْدَلُس أَوْ هَـذِهِ الْعُـدْوَةِ الدُّنْيَـا الَّتِي اقْتَحَمُـوا

عَلَـى الْعُرُوبَـةِ وَالإسْـلاَم مَبْعَثُنَـا وَبالْعُرُوبَـةِ والإسْـلاَم نَعْتَصِـمُ

كَمْ جَنَّدُوا مِنْ ضَحَايَـا سَـاءَ طَالِعُهَـا وَسَـاقَهَا كَقَطِيـعِ الْبَهْـم مُتَّهَـمُ

فَمَا احْتَمَتْ بِسِـلاَح كَـانَ يَحْرُسُـهَا وَلَـمْ يَضِـلَّ طَرِيقـاً نَحْوَهَـا الْعَـدَمُ

لاَ شَيْءَ غَيْرُ حِيَاضِ الْمَـوْتِ طَافِحَـةً وَالنَّاهِلُونَ شَرَابَ الْمَوْتِ مَـا سَلِمُوا!
لَوْلاَ الْخِيَانَـةُ ـ وَا لُـؤْمَ الْخِيَـانَـةِ ـ مَا كَانَ الْعِـدَا مَكَـثُـوا يَـوْماً وَلاَ حَكَـمُـوا

• • •

إِنِّـي لأَعْجَـبُ مِـنْ أَمْـرِ الْعَـدُوِّ فَمَـا نَهَـاهُ عَـنْ غَيِّــهِ كَـرْبٌ وَلاَ نِقَــمُ!
مَا زَالَ يَحْلُمُ فِي "الأَجْزَاء" مِنْ شَـرَهٍ عَلَـى جَنَاهَـا كَـأَنَّ الْقَـوْمَ مَـا عَزَمُــوا!
وَمَــا يَـزَالُ مُقِيمــاً فِــي مَوَاقِعِنَــا "بِسَــبْتَةٍ" وَ"مَلِيلْيَــا" بَيْنَنَــا أَمَــمُ
وَفِـي قِــلاَعٍ لَنَــا بِــالْبَحْرِ نَابِتَــةٍ نَعِيـشُ فِـي قَلَـقٍ مَــا مَسَّــهَا أَلَــمُ
هَـلاَّ أَعَـدْنَــا لَـهَـا أَنْـوَالَ فَـتْـرَتِـنَـا حَتَّـى نُـخَلِّصَـهَا مِنْ شَـرِّ مَنْ ظَـلَـمُوا؟

• • •

"أَنْـوَالُ" مَلْحَمَـةٌ قَـدْ صَاغَهَــا بَطَـلٌ السَّـيْفُ يَخْدُمُـهُ وَالرُّمْــحُ وَالْقَلَــمُ!
إِنْ كَـانَ يَسْـمُرُ عُشَّـاقٌ بِنَشْـوَتِهَا فَنَحْنُ أَوْلَـى بِهَـذَا السُّـكْرِ لَـوْ عَلِمُـوا!
أَعَـدْتِ لِلْمُسْـلِمِينَ الْمَجْـدَ مُؤْتَلِقـاً فَصَـارَ يَسْـطَعُ فِـي عَهْـدٍ بِـهِ ظُلَـمُ!
وَلَـنْ تَــزَالَ نَشِـيدَ الثَّـائِرِينَ وَلَــوْ طَـالَ الزَّمَـانُ وَمَـرَّتْ فَوْقَـهُ الأُمَـمُ!






مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء